المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر

لضياء الدين بن الأثير

قدم له وحققه وعلق عليه

دكتور أحمد الحوفي و دكتور بدوي طبانه

القسم الأول

دار نهضة مصر
للطبع والنشر

المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر

لضياء الدين بن الأثير

قدم له وحققه وعلق عليه

دكتور أحمد الحوفي و دكتور بدوي طبانة

القسم الأول

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

مطبعة نهضة مصر
الفجالة ــ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــدير

هذا كتاب « المثل السائر » الذى ألفه ضياء الدين بن الأثير فى أدب الكاتب والشاعر ، نقدمه اليوم إلى الباحثين عن الفكرة العربية فى مظانها التى يعد «المثل السائر» فى طليعة تلك المظان الأصيلة ، بما حوى من الآراء والفكر التى تدور حول فن الأدب ، والتى تتعمق إلى أصوله فى عصر ابن الأثير، وفى العصور التى سبقته، وهى التى زخرت بكثير من أصول تلك الصناعة التى اهتدى إليها العلماء وكبار الأدباء والنقاد الذين يعرفهم تاريخ الأدب والنقد عند هذه الأمة العربية التى تعمل اليوم فى جد ودأب لبناء قوميتها ، وتبحث فى إصرار عن المقومات الأصيلة لهذه القومية فى السياسة والعلم والتفكير والأخلاق والفنون، لتبعثها من جديد مجارية ركب التقدم، ولتعيد إليها سالف مجدها فى بناء الحضارة الإنسانية .

وعلى الرغم مما يمتاز به هذا الكتاب من الآراء المستنيرة التى أثرت عن أعلام التفكير الفنى ، والتى يعد هذا الكتاب سجلا حافلا لها، فإن فيه من معالم الأصالة وآثار الشخصية التى تميز صاحبها من غيره من الباحثين شيئاً كثيراً .

وقد كان لنا من إخراج هذا الأثر وإعادة نشره غايات ثلاث :

أولاها : تقديم نسخة صحيحة من هذا الكتاب يستطيع الباحثون والدارسون الاعتماد عليها ، بعد أن عز على كثير من الطالبين اقتناء نسخة منه ؛ بسبب تقادم العهد بينهم وبين عهود نشره ، ونفاد هذا السفر الجليل من المكتبات العربية ، مع الإحساس بالحاجة إليها ، ليقوم بدوره بجانب ما بعث من آثار التراث العربى فى الناحية التى يتصدى لها هذا الكتاب .

والثانية : إحياء ناحية لها أهميتها من نواحى التفكير الفنى عند العرب فى هذا العهد الذى يمتاز ببعث نفائس التراث العربى ، وإحياء مصادر الثقافة العربية ونشرها ، تمهيداً لدرسها ، واستخراج كل صالح مفيد من الأفكار التى اشتملت عليها .

والثالثة : وصل تلك الآراء التى اشتمل عليها المثل السائر بغيرها من الآراء التى توافقها أو تخالفها . والغاية من ذلك الوقوف على أصالة مباحث هذا الكتاب ومداها فيما عرضت له من الدراسات ، وكذلك معرفة حظ ابن الأثير من تلك الأصالة .

وهذه الغاية الأخيرة وحدها جديرة بأن يفرد لها بحث ، بل بحوث مستقلة ، ولذلك اكتفينا بالإشارة فى هامش هذه الطبعة إلى الآراء التى توارد عليها ابن الأثير وغيره من الذين بحثوا فى مثل ما بحث ، والآراء التى نقلها عن غيره ناسباً إياها إلى صاحبها الأصلى ، أو التى ادعاها لنفسه ، مما وجدنا ثمرة الإفادة منه واضحة ، وأثر الاقتفاء بارزاً . ولم يخرج ذلك عن طبيعة ما وضع الهامش من أجله بما لا يخرج عن حد الإشارة أو اللمحة الدالة .

أما ضروب الأصالة ، ومنابع العقلية التى استقى منها هذا الكتاب ، فإنا ذاكروها فى هذه المقدمة ، بما لا يخرج أيضاً عن طبيعة المقدمات .

* * *

وإذا كان لكل مؤلف فى فن من فنون التأليف لون خاص من ألوان المعرفة يمتاز به عما سواه ، وناحية يظهر تفوقه فيها ، ويظهر تقصيره فى غيرها ، فإن ابن الأثير قد حلق فى آفاق كثيرة من آفاق المعرفة ، تجد صداها واضحاً فى هذا السفر النفيس .

فأنت ترى فيه الكثير من الإشارات التاريخية التى لا يعرفها إلا الواقفون على أحداث الزمان ، والعارفون بتقلباته وسير أبطاله وأعلامه .

وتقرأ فيه آثار معرفة واسعة بعلوم العربية التى لا يعرفها إلا المختصون بدراسة أصولها ، والمتبحرون فى فقه لغتها ، والعاكفون على معرفة نحوها وصرفها ، وأساليب التعبير بها .

وتطالع فى المثل السائر آثار معرفة بكتاب الله، وحفظ لآياته، وقدرة عجيبة على استحضارها، والتمثل بها فى كل موضع يريد أن يتمثل فيه بما يوافق آراءه فى وسائل الإجادة ، وأسباب الإتقان . وتجد فيه كثيراً من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وفقه سنته، والوقوف على سيرته وأخبار صحابته.

كل ذلك إلى جانب ما وشيت به صفحات المثل السائر من حكم العرب وأمثالها ، ومن مأثور منظومها ، وجيد منثورها ، مما يروقك الاطلاع عليه ويأخذ بلبك ما ترى من القدرة على استحضاره ، وإجادة التمثل به .

بهذه الألوان الكثيرة من المعرفة ، وبهذه الثقافات المتنوعة كمل ابن الأثير نفسه ، حتى يحسن إعداد نفسه لما عرض له من علاج الأدب الذى كانوا يعرفون أنه الأخذ من كل فن بطرف .

*

ولقد كان ابن الأثير أديباً من كبار أدباء العرب ، وكاتبا من كتابهم المعدودين ، والكاتب — كما يرى ابن الأثير — ينبغى أن يتعلق بكل علم، وفى رأيه أن كل ذى علم يسوغ له أن ينسب نفسه إليه ، فيقال فلان النحوى وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم . ولا يسوغ له أن ينسب إلى الكتابة ، فيقال . فلان الكاتب ، وذلك لما يفتقر إليه الكاتب من الخوض فى كل فن . .

وبمثل هذه النظرة إلى الأديب الكاتب وما ينبغى له ، نظر ابن الأثير إلى البلاغى أو صاحب البيان ، وذهب إلى أنه لا ينبغى له أن يقدم على هذا العلم إلا إذا اكتملت لديه ألوان ثمانية من المعارف ، وهى :

(١) معرفة علم العربية من النحو والتصريف .

(٢) معرفة ما يحتاج إليه من اللغة ، وهو المتداول المألوف استعماله فى فصيح الكلام غير الوحشى الغريب ، ولا المستكره المعيب .

(٣) معرفة أمثال العرب وأيامهم، ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوادث خاصة بأقوام ، فإن ذلك جرى مجرى الأمثال أيضاً .

(٤) الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور . فإن في ذلك فوائد جمة ، لأنه يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم . ويعرف به مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنعته في ذلك ، فإن هذه الأشياء مما تشحذ القريحة ، وتذكي الفطنة . وإذا كان صاحب الصناعة عارفاً بها تصير المعاني التي ذكرت ، وتعب في استخراجها ، كالشيء الملقى بين يديه » يأخذ منه ما أراد ، ويترك ما أراد . وإذا كان مطلعاً على المعاني المسبوق إليها فإنه قد يتهيأ له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه .

(٥) معرفة الأحكام السلطانية من الأمامة والإمارة والقضاء والحسبة وغير ذلك ، لما يحتاج إليه الكاتب في تقليدات الملوك والأمراء ، وغيرهم ممن يجري مجراهم ، وإذا لم يكن الكاتب عارفاً بالحكم في الحوادث واختلاف أقوال العلماء فيها ، وما هو رخصة في ذلك ، وما ليس برخصة ، فإنه لا يستطيع أن يكتب كتاباً ينتفع به .

(٦) حفظ القرآن الكريم ، فإن صاحب هذه الصناعة ينبغي له أن يكون عارفاً به ، لأن فيه فوائد كثيرة ، منها أن يضمن كلامه بالآيات في أماكنها اللائقة بها ، واستعمالها في مواضعها المناسبة لها ، ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق . وإذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة في تأليف القرآن اتخذه بحراً يستخرج منه الدرر والجواهر ، ويودعها مطاوي كلامه .

(٧) حفظ الأخبار النبوية ، مما يحتاج إلى استعماله ، فإن الأمر في ذلك يجري مجرى القرآن الكريم .

(٨) ما يختص بالناظم دون الناثر، وذلك معرفة العروض، وما يجوز فيه من الزحاف، وما لا يجوز، فإن الشاعر محتاج إليه، وإن كان النظم مبنياً على الذوق، ولكن الذوق قد ينبو عن بعض الزحافات. ويكون ذلك جائزاً في العروض، وقد ورد للعرب مثله، فإذا كان الشاعر غير عالم به، لم يفرق بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز.

وكذلك يحتاج الشاعر أيضاً إلى معرفة علم القوافي، ليعلم الروى والردف، وما يصح من ذلك وما لا يصح.

وقد اشترط ابن الأثير قبل تحصيل تلك المعارف جميعها أن يكون الله تعالى قد ركب في الأديب طبعاً قابلا لهذا الفن، ورأى أن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى التشبث بكل فن من الفنون، حتى أنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء، والماشطة عند جلوة العروس. وإلى ما يقوله المنادى على السلعة في السوق. والسبب في ذلك أنه مؤهل لأن يهيم في كل واد، فيحتاج أن يتعلق بكل فن؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن، وقد يستفيدها أهلها من غير أهلها.

وهكذا يغالى ابن الأثير في ثقافة الأديب، ويرى أنها لا حصر لمواردها، ويذهب إلى أن البيان كالجمال، لا نهاية لكل منهما.

* *

ولقد كان ضياء الدين على حظ عظيم من تلك الثقافات، كما يشهد لذلك هذا الكتاب، وما أودع فيه من فنونها الكثيرة التي حصلها بجده، والطبع الأصيل الذي منحه الله إياه. وكل ركن من الأركان التي ذكرها، وكل آلة من الآلات التي أوجب أن تكون طوع يمين الكاتب، فقد عنى نفسه في البحث عنها في مظانها.

والواقع أن أكثر ما ذكر ضياء الدين من أصول فن الأدب، وما يسمو به وما ينحط، لم يكن من أثر النظر وضروب التخيل لمثل الفن الأدبي، كما كان ذلك شأن أكثر الآراء التي أثرت عن الذين قننوا لهذا الفن، ووضعوا قواعده، وقد كان جهد أكثرهم أهمية، وأجـدرهم بالاعتبار، الموازنة بين الأعمال الأدبية، واستخلاص مظاهر القوة والجمال التي تمتاز بها بعض تلك الأعمال على بعض. وكان أكثر تلك الأعمال من صنع غيرهم، على حين أن ابن الأثير كانت صفته الأساسية البارزة اشتغاله بالأدب، واحترافه فن الكتابة الذي عدّ علماً من أعلامه، وارتقى به هذا الفن حتى وصل به إلى مرتبة الوزارة، وتصريف شئون المملكة، بصرف النظر عن مدى توفيقه في ذلك المنصب الخطير، وسوء تدبيره للأمور، مما كانت عاقبتـه نكالا عليه وعلى من ولاه.

لذلك كانت آراؤه في الأدب والنقد صادرة عن الفن الذي أعد نفسه له، وعن التجربة التي عاش فيها حياته. ولذلك قرأ ضياء الدين آثار الكتاب الذين ذاع صيتهم، وحلق نجمهم، في سماء صناعة الكتابة، ليقف على مناهجهم فيها، وينقـد منها ما لا يراه جارياً وفق مقاييسه التي يرتضيها وهي المقاييس التي رأى أنها أكثر دلالة على إتقان الصنعة، ولم يقف في سبيل ذلك عند آثار القدماء من فحول هذه الصناعة، بل إنه نقد معاصريه منهم، وهم الذين كان يشار إليهم في عصره في هذه الصناعة بالبنان.

وكان ابن الأثير لا يقنع بما يوجهه إلى أولئك الأعلام من النقد لآثارهم، ولكنه كان يتبع هذا النقد بنماذج من آثاره، ويوقف على الفرق بين أسلوبه وأسلوب غيره، حتى يستدرج قارئه إلى الإذعان لنبوغه، والتسليم بتفوقه، ثم يثني على نفسه وفنه بما استطاع. والأدلة على ذلك كثيرة منها:

(ا) نقده للقاضي الفاضل في قوله [1]: «وعرض على كتاب كتبه

---

(١) انظر صفحة ٦٥ وما بعدها من هذه الطبعة.

عبد الرحيم بن على البيسانى — رحمه الله — عن الملك صلاح الدين يوسف ابن أيوب — رحمه الله — إلى ديوان الخلافة ببغداد فى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، وضمنه ما أبلاه فى خدمة الدولة من فتح الديار المصرية ، ومحو الدولة العلوية ، وإقامة الدعوة العباسية ، وشرح فيه ما قاساه فى الفتح من الأهوال » .

قال : ولما تأملته وجدته كتاباً حسناً قد وفى فيه الخطابة حقها ، إلا أنه أخلَّ بشىء واحد ، وهو أن مصر لم تفتح إلا بعد أن قصدت من الشام ثلاث مرات ، وكان الفتح فى المرة الثالثة ، وهـذا له نظير فى فتح النبى صلى الله عليه وسلم ، مكة فإنه قصدها عام الحديبيـة ، ثم سار إليها فى عمرة القضاء ، ثم سار إليها عام الفتح ، ففتحها .

ثم يقول : وقد سألنى بعض الإخوان أن أنشىء فى ذلك كتابا إلى ديوان الخلافة معارضاً للكتاب الذى أنشأه عبد الرحيم بن على — رحمه الله — فأجبته إلى سؤاله ، وعددت مساعى صلاح الدين يوسف بن أيوب — رحمه الله — فقلت ... إلخ

إلى أن يقول : وعجبت من عبد الرحيم بن على البيسانى ، مع تقدمه فى فن الكتابة ، كيف فاته أن يأتى به فى الكتاب الذى كتبه ! ؟

(٢) قوله فى ابن زياد الكاتب البغدادى : « وجدت لابن زياد البغدادى كتاباً كتبه إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف المقدم ذكره فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وضمنه فصولا تشتمل على أمور انكرت عليه من ديوان الخلافة ، فمن تلك الأمور التى أنكرت عليـه أنه تلقب بالملك الناصر ، وذلك اللقب هو لأمير المؤمنين خاصة ، فإنه الإمام الناصر لدين الله . فلما وقفت على ذلك الكتاب وجدته كتاباً حسناً ، قد إجاد فيه كل الإجادة ، ولم أجد فيه مغمزاً إلا فى هذا الفصل الذى يتضمن حديث

اللقب ، فإنه لم يأت بكلام يناسب باقى الفصول المذكورة ، بل أتى بكلام فيه غثاثة ، كقوله « ما يستصلحه المولى فهو على عبده حرام » وشيئاً من هذا النسق . وكان الأليق والأحسن أن يحتج بحجة فيها روح، ويذكر كلاما فيه ذلاقة ورشاقة » .

قال : وحضر عندى فى بعض الأيام بعض إخوانى ، وجرى حديث ذلك ، فسألنى عما كان ينبغى أن يكتب فى هذا الفصل ، فذكرت ماعندى، وهو : ... الخ

إلى أن يقول منبهاً القارىء إلى ما وفق إليه ، وموازنا بين نفسه وابن زيات : «فانظر أيها المتأمل كيف جئت بالخبر النبوى، وجعلته شاهداً على هذا الموضع ،ولا يمكن أن يحتج فى مثل ذلك إلا بمثل هذا الاحتجاج، وما أعلم كيف شذ عن ابن زياد أن يأتى به،مع أنه كان كاتباً مفاقاً أرتضى كتابته ، ولم أجد فى متأخرى العراقيين من يماثله فى هذا الفن » (1) .

(٣) وقد نقد أبا إسحاق الصابى فى كثير من المواضع، وأورد له الرسائل الطويلة ، والنتف اليسيرة ، وأتبعها بكتابته ، ليرى الفرق بين الكتابتين ؛ فمن ذلك ما أورده من قول الصابى فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم « لم ير للكفر أثراً إلا طمسه ومحاه . ولا رسما إلا أزاله وعفاه »، وقد عابه ابن الأثير بأنه لافرق بين مرور العصور وكرور الدهور،وكذلك لافرق بين محو الأثر وعفاء الرسم .

وأورد للصابى أيضاً قوله فى بعض كتبه« وقد علمت أن الدولة العباسية لم تزل على سالف الأيام ،ومتعاقب الأعوام ، تعتل تارة،وتصح أطواراً، وتلتاث مرة ،وتستقل مراراً ،من حيث أصلها راسخ لا يتزعزع،وبنيانها ثابت لا يتضعضع »وعابه ابن الاثير بأن هذه الأسجاع كلها متساوية المعانى

(1) انظر صفحة ٦٧ وما بعدها من هذه الطبعة .

فإن الاعتلال والالتياث ، والطور والمرة ، والرسوخ والثبات ، كل ذلك سواء . وساق على هذا النحو من النثر الصابى أمثلة أخرى .

(٤) وعاب على الصاحب بن عباد ما كتبه فى وصف مهزومين «طاروا واقين بظهورهم صدورهم، وبأصلابهم نحورهم» بقوله: إن كلا المعنيين سواء..

وكذلك نقد قول الصاحب فى وصف ضيق مجال الحرب «مكان ضنك على الفارس والراجل ، ضيق على الرامح والنابل» وقوله فى كتاب «لا تتوجه همته إلى أعظم مرقوب إلا طاع ودان ، ولا تمتد عزيمته إلى أفخم مطلوب إلا كان واستكان » ، فإن كل هذا الذى ذكره الصاحب فى نظر ابن الأثير شىء واحد ؛ لأنها ألفاظ متعددة ، تؤدى معانى واحدة .

وقول الصاحب من كتاب «وصل كتابه جامعاً من الفوائد أشدها للشكر استحقاقاً ، وأتمها للحمد استغراقاً ، وتعرفت من إحسان الله فيما وفر» من سلامته ، وهنأه من كرامته ، أنفس موهوب ومطلوب ، وأحمد مرقوب ومخطوب » نقده ابن الأثير بأن هذا كله متماثل المعانى متشابه الألفاظ[١] .

وقد أراد ابن الأثير أن ينفى عن نفسه مظنة التحامل على هذين الكاتبين الكبيرين والتعصب عليهما ، فيما قدمه من الأمثلة المسجوعة للصابى والصاحب ابن عباد ، فقد يذهب بعض الناس إلى أن المآخذ فيها يسيرة ، لأنها جمل قصيرة ، قد يقال إنه التقطها التقاطاً من جملة رسائلهما الطويلة .

وقد حاول أن يخرج نفسه من هذه التهمة ، بأنه وجد للصابى تقليداً بنقابة الأشراف العلويين ببغداد ، وكان ابن الأثير قد أنشأ تقليداً بنقابة الأشراف العلويين بالموصل ، وقد أورد التقليدين فى كتابه[٢] ، ليتأملهما الناظر ، ويحكم بينهما إن كان عارفاً ، أو يسأل عنهما العارف إن كان مقلداً .

---

(١) انظر صفحة ٢٨٢ وما بعدها من هذه الطبعة .

(٢) تقليد الصابى فى صفحة ٢٨٧ — ٢٩٥ وتقليد ابن الأثير فى صفحة ٢٩٥ — ٣٠١

وعلى الرغم من أن كلام ابن الأثير هنا غاية الوضوح ، إذ أنه يحاول أن يقود القارىء إلى الحكم الذى يريد، وهو الحكم بتفوقه، أو تفوق كتابته على الصابى أو كتابته ، فإنه يحاول أن يستر ما أظهر من انتقاصه، ولا يجد سبيلا إلى ذلك إلا أن يورد تقليد الصابى أولا ، لأنه كما يقول « المقدم زمانا وفضلا ! »

ومعنى ذلك أنه يريد أن يقول إنه إذا كان قد بذ المقدم زماناً وفضلا فى نظر الناس فهو أحق بالفضل والتقدمة ، وإن تأخر به زمانه !

وحين يرى وضوح الغاية من كلامه، يحاول أن يسترها بأنه لم يقصد بما أورد من كتابة الصابى وكتابته الوضع من منزلة الرجل؛ أو التهوين من خطر فنه.

وقد يكون ذلك حقاً ، وقد يكون الوضع من شأن الصابى فى حد ذاته لم يكن هدف ابن الأثير من هذه الكلمات و تلك الموازنات . وإنما كان القصد الحقيقى هو إثبات تفوقه عليه، وتمكنه من صناعة الكتابة على درجة لم يستطع أن يصل إليها الصابى، أو غيره من أعلام الكتاب، الذين اعترف لهم الناس بالإجادة والسبق .

ولذلك تراه يعترف بمنزلة الصابى، وبأن علم الكتابة قد رفعه ، وأنه إمام هذا الفن، والواحد فيه ، وأنه أجاد فى السلطانيات كل الإجادة ، وأحسن كل الإحسان ، ولكنه فى الإخوانيات مقصر . وكذلك فى كتب التعازى ؛ مع أن التقليدين الذين سجلهما ابن الأثير، ووازنهما بتقليديه، إنما يدخلان فى باب السلطانيات ، ولا علاقة لهما بالرسائل الإخوانية أو بكتب التعازى !

وهذا من أهم مظاهر اضطراب ابن الأثير، فى تقدير الصابى بين الغاية والوسيلة ، ففى هذا الكلام مدح جارى به المشهور الذى لا ينكره أحد، وذم أشبع به ما فى نفسه من الزهو والغرور . فوصف الرجل بأن عقله فى كتابته زائد على فصاحته وبلاغته ، وزيادة العلم على المنطق هجنة ، وزيادة المنطق على العلم خدعة !

وقد يكون ابن الأثير على حق فى كل ما قال ، أو فى أكثر ما قال مما نقد به

أولئك الكتاب من الناحية الفنية ، وقد لا يكون كذلك ، وإنما الغاية من سوق هذه الشواهد أن ابن الأثير قد عاش فى جو الكتابة والكتاب كاتباً يقرأ كثيراً ، ويتعمق فيما يقرأ ، ويبحث عن أسباب القوة وأسباب الضعف ، ثم يعرض ذلك على ذهنه وبصيرته الفنية الواعية ، ثم يكتب ماشاء أن يكتب مجرداً كتابته من أسباب الضعف ، ومضيفاً إليها من أسباب القوة مارآه يزيد فى قدره ، ويرفع من شأن كتابته ، ومحققاً المثل التى تصورها لفن الكتابة .

وكذلك كان ابن الأثير شاعراً ، وإن غلبت صناعة الكتابة على فنه الأدبى ، ولذلك كان ماروى له من الشعر قليلا ؛ وإنما ذكرنا ذلك لندل على أن ابن الأثير كان يعبر عن تجربته شعراً ، كما عبر عنها نثراً ، وأنه فيما كتب فى المثل السائر كان يستوحى طبيعته الفنية ، قبل أن يتخيل الرسوم والقواعد التى تخيلها من قبله علماء البلاغة والنقد .

* * *

وقد أقدم ابن الأثير على صناعة الأدب بعامة ، وصناعة الكتابة بخاصة ، بعد أن زود نفسه بآلاتها ، وثقفها بألوان الثقافات التى عددها ، وقد أحس بالحاجة إليها كلما أوغل فيها ، وأحس أن خطورة هذا الفن ، وبعد أثره لا تقل عن خطورة المناصب الرفيعة التى يتولاها صاحبه فى قربه من الحكام ، وفى تصريفه لأمور الدولة .

وما رأيك فى رجل كان يحفظ القرآن ، والحديث النبوى ، ودواوين الشعراء ، ويعرف من اللغة شاردها وواردها . ومن النحو أصوله وفروعه ، ومن الصرف دقائقه ، ومن الأخبار والأمثال ما يعيا بوعيه المختصون فى كل لون من تلك الألوان ، وهذه صورة من تلك الجهود المضنية التى بذلها فى تكميل نفسه : يقول عن نفسه : وكنت جردت من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر ، كلها تدخل فى الاستعمال ، ومازلت أواظب على مطالعته مدة تزيد على عشر سنين ، فكنت أنهى مطالعته فى كل أسبوع مرة ، حتى

دار على ناظرى وخاطرى ما يزيد على خمسمائه مرة، وصار محفوظاً لا يشذ عنى منه شيء .. (ص ١٩١) .

ويقول فى موضع آخر : واعلم أن المتصدى لحل معانى القرآن يحتاج إلى كثرة الدرس، فإنه كلما ديم على درسه ظهر من معانيه مالم يظهر من قبل. وهذا شيء جربته وخبرته ، فإنى كنت آخذ سورة من السور ، وأتلوها، وكلما مر بى معنى أثبته فى ورقة مفردة ، حتى أنتهى إلى آخرها ، ثم آخذ فى حل تلك المعانى التى أثبتها واحداً بعد واحد ، ولا أقنع بذلك حتى أعاود تلاوة تلك السورة ، وأفعل ما فعلته أولا ، وكلما صقلتها التلاوة مرة بعد مرة ظهر فى كل مرة من المعانى ما لم يظهر فى التى قبلها .. (ص ١٧١) .

وأما معرفة ابن الأثير بالشعراء وحفظه الشعر فحدث عنهما ما شئت، ولقد برزت آثار تلك المعرفة وذلك الحفظ واضحة فى المثل السائر وغيره من آثار ضياء الدين، يقول فى المثل « إنى وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها، حتى لم أترك ديوانا لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك إلا وعرضته على نظرى » ويقول : « ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطراً من العمر فى المحفوظ منه والمسموع، فألفيته بحراً لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهى إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله » . ثم يقول: « ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير. ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تنقيب وتنقير ، فمن حفظ شعر الرجل ، وكشف عن غامضه ، وراض فكره برائضه ، أطاعته أعنة الكلام ، وكان قوله فى البلاغة ما قالت حذام ».

وبعد أن حصل ضياء الدين هذه الثروة الضخمة من فن المنظوم، اقتصر منها على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده ، ويقول عن نفسه: « لم أجد أجمع من ديوان أبى تمام وأبى الطيب للمعانى الدقيقة، ولا أكثر استخراجاً منهما للطيف الأغراض والمقاصد ، ولم أجد أحسن تهذيباً للألفاظ من أبى عبادة ، ولا أنقش ديباجة ، ولا أبهج سبكا، فاخترت حينئذ دواوينهم،

لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعانى والألفاظ ، ولما حفظتها ألغيت ما سواها ، مع ما بقى على خاطرى من غيرها .

ثم يؤكد هذا القول ، ويفصل أسـباب إيثاره لشعر أولئك الثلاثة الفحول ، فيقول : « ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم فى اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ؛ إذ المراد من الشعر إنما هو إيداع المعنى الشريف فى اللفظ الجزل واللطيف ، فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل . وقد اكتفيت فى هذا بشعر أبى تمام حبيب بن أوس ، وأبى عبادة الوليد ، وأبى الطيب المتنبى . وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزاه ومناته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته ، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء .

أما أبو تمام فإن رب معان ، وصيقل ألباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مدافع عن مقام الإغراب ، الذى برز فيه على الأضراب .

وأما أبو عبادة البحترى فإنه أحسن فى سبك الألفاظ على المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى ، ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الإطلاق ، فبينا هو فى شظف نجد ، إذ تشبث بريف العراق . وسئل أبو الطيب المتنبى عنه وعن أبى تمام وعن نفسه ، فقال : « أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى » ولعمرى إنه أنصف فى حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فإن أبا عبادة أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، فى اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الأفهام . وما أقول إلا أنه أتى فى معانيه بأخلاطه الغالية ، ورقى فى ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية .

وأما أبو الطيب المتنبى فإنه أراد أن يسلك مسلك أبى تمام ، فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، لكنه حظى فى شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالإبداع فى وصف مواقف القتال . وأنا أقول قولا لست فيه متأثماً ، ولا منه متلثماً ، وذلك أنه إذا خاض فى وصف معركة

كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا . والسلاحين قد تواصلا ، فطريقه فى ذلك تضل بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه . ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان ، فيصف لسانه ما أدى إليه عيانه » .

ولا شك فى أن ضياء الدين كان صادقاً فى كل وصف من تلك الأوصاف ، التى آثر بها كل شاعر من أولئك الفحول ، ولا يكاد يشك ناقد من النقاد فى صحة ما ذكر من نعوت الشعر عند كل واحد منهم ، ولكن مجال القول إنما هو فى سعة اطلاع ابن الأثير على الشعر العربى قديمه ومحدثه ، وإيثاره دواوين أولئك الثلاثة بالحفظ والاستظهار .

* * *

ولقد كان اطلاع ابن الأثير على هذا الشعر الكثير ، وحفظه ما استطاع من نصوصه سبباً من أهم الأسباب فى توسيع مجال دراسته البيانية ، وكثرة ما اهتدى إليه من أحكام ، أكثرها سديد مصيب . تظهر فيه شخصية الواثق بعلمه ، المطمئن إلى حسن رأيه .

وتطالعنا فى ثنايا المثل السائر أسماء كثير من الكتب التى قرأها ابن الأثير ، وفقه ما فيها ، فأعانته على ما تعرض له من دراسة الأدب فى فنونه المشهورة وفى كل جزئية من جزئيات العمل الأدبى .

فأنت تقرأ فى هذا الكتاب كلاماً فى النحو العربى ، وفى علم التصريف وفى فقه اللغة ، فلا يسعك إلا أن تستجيد ما تقرأ ، وإلا أن تعترف بأنك أمام عالم من صفوة العلماء الثقات المختصين فى كل فن من تلك الفنون .

وتقرأ كلاماً فى التأويل وفى التفسير وفى الحديث النبوى ، فيأخذك ما ترى من كثرة الاطلاع وسعة الباع فى وسعهم والتحصيل ، وكأنك أمام علم من أعلام المفسرين والمحدثين .

وتقرأ أمثالا وأخباراً وشعراً ونثراً ، فتعجب من هذا المحصول الذى عنى ابن الأثير نفسه فى تحصيله ، وتعترف أنك أمام ثقافة لا تكاد تقف عند حد ، أو تتوقف عند غاية من الغايات

وقد اعتمد ابن الأثير نفسه على كثير من أمهات الكتب فى كل فن من الفنون التى تعرض لها ، وقد أشار إلى هذه المراجع فى أثناء دراسته.

(١) فقد ذكر أن مما قرأ فى التفسير تفسير البلاذرى، وتفسير النقاش المسمى « شفاء الصدور ».

(٢) وقرأ فى الحديث النبوى كتاب « الشهاب » ، وصحيح البخارى، وصحيح مسلم ، والموطأ ، والترمذى ؛ وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وغيرها من كتب الحديث .

(٣) وقرأ فى الدين وأصوله « إحياء علوم الدين» وكتاب «الأربعين» للإمام أبى حامد الغزالى .

(٤) وقرأ فى اللغة والتصريف كتاب «الخصائص» لأبى الفتح بن جنى، وكتاب «التصريف» لأبى عثمان المازنى ، وكتاب «الفصيح» للإمام ثعلب ، وكتاب « إصلاح ما تغلط فيه العامة » لأبى منصور الجواليقى ، و « مجمع الأمثال » للميدانى .

(٥) وكان مما قرأ من كتب الأدب وموسوعاته ودواوين الشعراء وشروحها : كتاب «الأغانى» لأبى الفرج الأصفهانى ، وكتاب «الروضة» لمحمد بن يزيد المبرد ، الذى وصفه بأنه كتاب جمعه ، واختار فيه أشعار شعراء ، بدأ فيه بأبى نواس ؛ ثم بمن كان فى زمانه ، وانسحب على ذيله .

كما قرأ كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، و « ديوان الحماسة » لأبى تمام، و«البيان والتبيين» لأبى عثمان الجاحظ، وقرأ «مقامات الحريرى» ورسائل أبى إسحاق الصابى ، ورسائل الصاحب بن عباد ، وشرح ديوان المتنبى لأبى الفتح بن جنى، و«لزوم ما لا يلزم» لأبى العلاء المعرى، ومعجز

أحمد » له ؛ وكما قرأ كتاب « النقائض » ، وديوان الفرزدق ، وأبى تمام ، والمتنبى ، وأبى نواس ، والبحترى ، وابن الرومى ، وكشاجم ، وديك الجن ، وأبى العتاهية ، والعباس بن الأحنف ... الخ

(٦) أما كتب البلاغة والبيان فقد قرأ أمهاتها ، وأفاد منها ، ونقدها ، قال فى خطبة المثل السائر : وقد ألف الناس فيه — علم البيان — كتباً ، وجابوا ذهباً ، وحطبوا حطباً ، ومامن تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه وعلمت غثه وسمينه ، فلم أجد ما ينتفع به فى ذلك إلا كتاب « الموازانة » لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وكتاب « سر الفصاحة » لأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجى (١) .

وقال فى خطبة « الجامع الكبير » بعد كلامه فى أهميته علم البيان ، وصعوبة مرامه : « فشرعت عند ذلك فى تطلبه ، والبحث عن تصانيفه وكتبه ، فلم أترك فى تحصيله سبيلا إلا نهجته ، ولا غادرت فى إدراكه باباً إلا ولجته ، حتى اتضح عندى باديه وخافيه ، وانكشفت لى أقوال الأئمة المشهورين فيه ، كأبى الحسن على بن عيسى الرمانى ، وأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى وأبى عثمان الجاحظ ، وقدامة بن جعفر الكاتب ، وأبى هلال العسكرى ، وأبى العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمى ، وأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجى ، وغيرهم ممن له كتاب يشار إليه ، وقول تعقد الخناصر عليه (٢) .

وأشهر كتب هؤلاء الأعلام التى تتصل بهذا الفن هى النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ، والموازنة بين أبى تمام البحترى للآمدى والبيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب نقد الشعر ، وكتاب الخراج وصناعة الكتابة ، وكتاب جواهر الألفاظ ، ثلاثتها لقدامة بن جعفر ، وكتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ، وكتاب صناعة الشعر للغانمى ، وكتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى .

---

(٣) انظر صفحة (٣٦) من هذه الطبعة

(٢) الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور تحقيق الدكتور مصطفى جواد والدكتور جميل سعيد : ص ٢ - مطبعة المجمع العلمى العراقى : بغداد ١٣٧٥ ه

كما قرأ وأفاد من كتاب البديع الذى ألفه عبد الله بن المعتز، وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى، وكتاب حلية المحاضرة للحاتمى، وكتابى دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى، ومقدمة ابن أفلح البغدادى التى ذكر ابن الأثير أنه قصرها على تفصيل أقسام علم الفصاحة والبلاغة.

بهذه الثقافة بل بتلك الثقافات التى حصلها، والعقول التى سبر أغوارها، اقتحم ابن الأثير ميدان البحث البلاغى، فكان كتابه مجموعة من الأفكار المأثورة عن أولئك العلماء الأعلام مزجها بأفكاره، وبدت شخصيته واضحة مستقلة بين سمات تلك الشخصيات، ولم يكتف بأن يكون جامعاً أو ناقلا، بل أراد أن يكون مؤلفاً فى البلاغة، ورائداً من رواد علم البيان، بما أضاف وصحح، وعاب ونقد.

ومن هنا كان المثل السائر لوناً متميزاً من ألوان التأليف فى البيان العربى، واستطاع على الرغم من كثرة الآثار فيه، ووفرة الدراسات المتباينة فى هذا الكتاب أن يكون مرجعاً من مراجع البلاغة العربية، لا يستغنى عنه باحث من الباحثين فيها.

* * *

وقد تأثر ابن الأثير فى تلك الدراسة الخصبة التى نجدها فى المثل السائر بعاملين مهمين هما العصر الذى عاش فيه، والفن الذى اشتغل به، ووصل به ما كان يشتهى من المنصب والجاه.

(١) فقد وصل ابن الأثير إلى قمة مجده وذروة نضجه أخريات القرن السادس الهجرى شطراً كبيراً من القرن السابع، فجاء بعد ازدهار البحوث البيانية ونضجها، واختلاف مناهج البحث، وتعدد الآراء فى البيان، من رأى ينادى بتحكيم الذوق، إلى آخر يدعو إلى التقليد فى النظر إلى الأدب والحكم عليه، إلى رأى ينادى بالموضوعية والمنهج العلمى، ويعنى بالتعريف والتنظيم وحصر الأقسام، إلى ذلك الأسلوب النقدى التحليلى النفسى الذى نراه

فى كتابى عبد القاهر: دلائل الإعجاز: وأسرار البلاغة، وما تميزا به من فكرة النظم التى تبناها عبد القاهر ، وأرسى قواعدها فى النقد والنظر إلى البيان وما نادى به من النظرة السكاكية للأدب والانتصار للمعنى .

بل رأينا ما هو أكثر من ذلك : رأينا الصورة النهائية للبلاغة العربية قد تم وضعها على يد السكاكى فى كتابه المشهور ، مفتاح العلوم، الذى نظم دراسة البلاغة ، وقنن لها ، وقسمها إلى علومها، وحدد مباحث كل فن منها.

(٢) وكذلك كان ابن الأثير كاتباً من كتاب الدواوين. كتب للقاضى الفاضل فى دولة صلاح الدين ، كما كتب لأولاد صلاح الدين من بعده ، والذى يعرف أساليب الكتابة فى ذلك العصر الذى عمل فيه ابن الأثير يعرف أنها كانت تمتاز امتيازا ظاهرا بلزوم السجع واستعمال الجناس وبعض أنواع البديع واستخدام معانى الشعر وألفاظه فى كتابة الرسائل ، بحل الأبيات السائرة والحكم المأثورة ، حتى كادت الرسائل تكون شعراً منثوراً ، والاقتباس من كلام البلغاء، وتضمين الأفذاذ من أبيات الشعراء. ولما نبه شأن القاضى الفاضل أراد أن يحاكى كتاب المشارقة فى البديع ، فزاد عليهم وأربى، وجاراهم فى التزام السجع والجناس والطباق، وزاد عليهم أن استعمل فى رسائله كل أنواع البديع التى كانت فاشية وقتئذ فى الشعر ، كالتورية والاستخدام والتلميح وغيرها ، وأكثر من حل المنظوم، والاقتباس من الآيات ، وتضمين الأمثال ومشهور الأقوال ، وأمعن فى التشبيه والاستعارة حتى جاءت معانى رسائله منقادة لألفاظها وأساليبها .

وقد كانت هاتان الناحيتان عظيمتى الأثر فى ابن الأثير ، وفى إدراكه لمعنى البيان ، كما تصوره فى المثل السائر .

* * *

تكلم ابن الأثير فى خطبة كتابه عن أهمية علم البيان ، وذكر أن منزلته فى تأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام .

ويبدو من أول كلامه أنه رجل كثير الاعتداد بنفسه، والتباهى بعلمه، وكثيراً ما جره هذا الاعتداد إلى انتقاص غيره من الباحثين فيما بحث فيه،

فقد ذكر أن الذين ألفوا فى البيان من قبله ألفوا كتباً ، وجلبوا ذهباً ، وحطبوا حطباً ، وما من تأليف إلا وقد تصفحه ، وعلم غثه وسمينه ، ثم لم يجد ما ينتفع به فى ذلك إلى كتاب «الموازنة» للآمدى وكتاب «سر الفصاحة» للخفاجى ، والكتاب الأول هو الذى حظى بإعجابه ، لأنه - كما يقول - أجمع أصولا وأجدى محصولا ، مع أن المناسبة بين الكتابين بعيدة ، لأن كتاب الآمدى يعرض للشاعرين أبى تمام والبحترى ، ويعرض شعرهما ، ويوزاى بينهما ، ويعرض أقوال الأنصار والخصوم فيهما .

أما كتاب الخفاجى فإنه يبحث بحثاً عاماً فى أصول الفصاحة والبلاغة والنيان بما بحث عن أسرارها ودرس من فنونها .

وقد عاب ابن الأثير كتاب سر الفصاحة بأن صاحبه أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها ، ومن الكلام على اللفظة المقررة وصفاتها مما لا حاجة إلى ذكره .

ولا يقنع من ذلك إلا بأن يعود فيعيب الكتابين معاً ، فيصفهما بأنهما قد أهملا من علم البيان أبواباً ، وربما ذكرا فى بعض المواضع قشوراً وتركا لباباً !.

وشبيه بهذا الانتقاص وصفه لمقدمة ابن أفلح البغدادى فى قوله : ووقعت على كتاب يقال له «مقدمة ابن أفلح البغدادى» قد قصرها على تفصيل أقسام علم الفصاحة والبلاغة ، وللعراقيين بها عناية ، وهم واصفون لها ، ومكبون عليها ، ولما تأملتها وجدتها قشوراً لا لب تحتها ، لأن غاية ما عند الرجل أن يقول : وأما الفصاحة فإنها كقول النابغة مثلا ، أو كقول الأعشى ، أو غيرهما ثم يذكر بيتاً من الشعر أو أبياتاً ، وما بهذا نعرف حقيقة الفصاحة ، حتى إذا وردت فى كلام عرفنا أنه فصيح ، بما عرفنا من حقيقتها الموجودة فيه ، وكذلك يقول فى غير الفصاحة .

ويذكر فى موضع آخر أنه عثر على ضروب كثيرة من البيان فى القرآن الكريم ، وأنه لم يجد أحداً تقدمه تعرض لذكر شىء منها ، وهى إن عدت

كانت فى علم البيان بمقدار شطره ، وإذا نظر إلى فوائدها وجدت محتوية عليه بأسره، وأن الله هداه لابتداع أشياء لم تكن من قبله مبتدعة، ومنحه درجة الاجتهاد التى لا تكون أقوالها تابعة ، وإنما هى متبعة .

وأمثال هذا كثير فى ثنايا المثل السائر الذى زيف فيه كثيراً من آراء العلماء والبلاغيين والنقاد ، وقد سبقت إشارات إلى حملاته على الأدباء والكتاب ليبنى على هذا الانتقاص إعجابه بنفسه، وزهوه بفنه ، وإن كان فى هذا الزهو شيء من الصدق ، إلا أن أخلاق العلماء وما اختصوا به من فضيلة التواضع يأبى إقراره على كل ما ذهب إليه فى هذا الموضع وغيره .

* * *

ولقد عرف كتاب «المثل السائر» فى بيئات الثقافة العربية على أنه كتاب أدب، وعرف كذلك على أنه كتاب فى أصول البلاغة العربية أحياناً، وعلى أنه كتاب فى النقد الأدبى أيضاً .

وكان الذين عدوا المثل السائر كتاب أدب على حق ، لأنهم وجدوا أنفسهم أمام دراسة خصبة فى صناعة الأدب، وفى أشهر فنونه، وهى فن الشعر وفن الكتابة، ووجدوا فيه أصولا للأدب تجمع صفاته ، وتعرف بأركانه، وإشارات إلى عدد كبير من الأدباء الذين عرفهم تاريخ الأمة العربية ، ونصوصاً من المنظوم والمنثور تمثل عصوره المختلفة ، واتجاهاته المتباينة .

وكان الذين عدوا هذا الكتاب من كتب النقد على حق أيضاً ، لأنهم رأوه يفيض بكثير من الفكر والآراء الحرة فى الأدب والأدباء ، ولم يسلم من نقد ابن الأثير كثير من فحول الشعراء الذين يعرفهم تاريخ الأدب العربى بالإجلال والإكبار، كامرىء القيس، وتأبط شرا، والفرزدق، وأبى نواس وأبى تمام ، وأبى الطيب المتنبى ، وغيرهم من كبار شعراء العربية .

وفى كثير من الأحيان نجد نقداً موضوعياً ، وفى كثير من الأحيان أيضاً ترى ابن الأثير لا يكتفى فى النقد الأدبى بحكم المعرفة المستنيرة ، بل يكبر من حكم الذوق السليم الذى يرى أنه أكبر من حكم القاعدة

الموضوعية والمعرفه المحدودة؛ ويشجع على تربية هذا الذوق بكثرة القراءة ومداومة الاطلاع ، فتراه يقول بالرغم من اعتداده بنفسه، والزهو بتأليفه: أعلم أيها الناظر فى كتابى أن مدار علم البيان على حكم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب إن كان فيما يلقيه إليك أستاذا، وإذا سألت عما ينتفع به فى فنه قيل لك هذا ! فإن الدربة والإدمان أجدى عليك نفعاً ، وأهدى بصراً وسمعاً ، وهما يريانك الخبر عياناً ، ويجعلان عسرك من القول إمكاناً ، وكل جارحة منك قلباً ولساناً ، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بإدمانك ما أخطاك ، وما مثلى فيما مهدته لك من هذا الطريق إلا كمن طبع سيفاً ، ووضعه فى يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلباً ، فإن حمل النصال غير مباشرة القتال !

ثم إن هذا الكتاب معدود من أمهات الكتب فى البلاغة العربية ، ومرجعاً من أهم مراجعها ، بما حوى من فنونها الكثيرة المنثورة فى بطون الكتب المختلفة فى موضوعاتها ، المتباينة فى مناهجها .

ويمتاز كتاب ابن الأثير من بين أكثر كتب البلاغة بأنه درس تلك الفنون دراستين :

إحداهما : دراسة قاعدية ، عنى فيها بالحدود والتعاريف وحصر الأقسام، وجمع فيها كل ما استطاع جمعه من معالمها التى اهتدى إليها الذين سبقوه إلى البحث البلاغى، وهو فى كثير من المواضع يصحح أخطاءهم، ويضيف إلى تحديداتهم ما جعلها جامعة مانعة على الوجه الذى يهتدى إليه ؛ وبالنظر الذى يهتدى به .

والأخرى : دراسة نقدية ، وفيها ألم بكثير من العيوب التى يقع فيها مستعملوا تلك الفنون فى أشعارهم أو خطبهم أو كتاباتهم .

ولذلك كان من الممكن أن يقال إن ابن الأثير قد جمع فى المثل السائر كثيراً من أصوله البلاغة العربية والنقد الأدبى ، وأنه وحد هذين الفنين

الجماليين، ومزجهما ،وأعادهما إلى طبيعتهما التى تنفر من الأسلوب القاعدى الجاف،وخلطهما بنصوص من الأدب وآراء فيه أكثرها جيد مصيب .

٭ ٭ ٭

ومن جيد ما وفق إليه من النظرات الصائبة فى هذا الكتاب محاولته التفريق بين مهمة البيانى ، ومهمة كل من النحوى واللغوى،ويقول فى ذلك إن موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة، ويسأل صاحب هذا العلم عن أحوالهما اللفظية والمعنوية، ويشترك هو والنحوى أو اللغوى فى أن الثانى ينظر فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى،وتلك دلالة عامة.

أما صاحب البيان فإن له نظرة فوق هذه النظرة ، لأنه ينظر فى فضيلة تلك الدلالة ، التى هى دلالة خاصة ، والمراد بها أن يكون الكلام على هيئة مخصوصة من الحسن ، وذلك أمر وراء اللغة والنحو والإعراب،ألا ترى أن النحوى يفهم معنى الكلام المنظور والمنثور ، ويعلم مواقع إعرابه ، ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من أسرار الفصاحة والبلاغة؟وهذا هو السر فى خطأ مفسرى الأشعار ، لأنهم اقتصروا على شرح معناها، ومافيها من الكلمات اللغوية ، وتبيين مواضع الإعراب منها ، دون العناية بشرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة .

وهذا كلام جيد ، لأن ابن الأثير يفرق فيه بين أمرين هامين، ينبغى أن يكون التفريق بينهما أساساً لفهم مهمة اللغوى أو النحوى، ومهمة الناقد أو صاحب البيان .

ذلك أن هناك علوماً تتخصص فى البحث عن صحة العبارة ، من حيث صحة مفرداتها،وصحة دلالتها على معانيها، وصحة التركيب الذى توضع فيه وضعاً صحيحاً على حسب مايقتضى المعنى وفقاً لقواعد النحو والإعراب، وتلك مهمة علماء اللغة الذين يبحثون فى بنية الكلمة، وفى دلالتها على معناها، طبقا للوضع اللغوى،وفهم أصحاب اللغه لتلك الدلالة ، وهى مهمة علماء النحو

والإعراب الذين يبحثون فى صحة ضبط كل لفظ فى الجملة على حسب موقعه من العبارة ضبطا يوافق ما جرى عليه العرب فى ذلك الضبط ، ومابنيت عليه قواعد النحو والاعراب التى استنبطها أولئك العلماء بالقياس على نهج العرب فى كلامهم .

ثم إن هنالك علوماً أخرى لا تقف عند تلك المسائل التقليدية المعروفة ولكنها تعالج النواحى الجمالية فى الأعمال الأدبية على حسب التقاليد الفنية المعروفة التى استنها كبار الأدباء، والقواعد المستقاة من مظاهر الحسن التى توافرت للفن الأدبى المأثور عن أولئك الأدباء ، نتيجة لطول المدارسة والموازنة بين نص ونص ، وبين أديب وأديب . وتلك مهمة النقاد ، أو البلاغيين ، أو علماء البيان .

والنظرة الأولى من هاتين النظرتين عامة ، تتناول العبارة المقولة ، والعبارة المكتوبة بكل أنواعها، سواءأ كانت تلك العبارة عبارة علمية تخاطب العقل ، أم كانت عبارة أدبية تخاطب المشاعر ، وتثير العاطفة والوجدان. وسواء أكانت فى أعلى درجات السمو ، أم كانت هابطة إلى مستوى لغة التفاهم التى تجرى بين الناس ، ولا تسمو عن العامية إلا بصحة كلماتها ، وسلامة تركيبها .

أما النظرة الأولى فإنها تختص بالعبارة الأدبية ، أو الأسلوب الفنى ، الذى يعتمد عليه الشعر والخطابة ، وسائر أساليب الكتابة الفنية .

* * *

ومن تلك المسائل أيضا ، مما انفرد به ابن الأثير برأى، أنه فى سبيل بحثه عن فصاحة اللفظة المفردة عرض للحوشى من الألفاظ الذى أنكره النقاد ، وأجمعوا على إخلاله بالفصاحة ، ولكن ضياء الدين يرى أن هذا الوحشى خفى على جماعة من المنتمين إلى صناعة النظم والنثر، وظنوه المستقبح من الألفاظ ، وليس كذلك، وذلك أن الوحشى منسوب إلى اسم الوحش

الذى يسكن القفار، وليس بأنيس. وكذلك الألفاظ التى لم تكن مأنوسة الاستعمال؛ وليس من شرط الوحش أن يكون مستقبحا، بل أن يكون نافراً، فتارة يكون حسناً، وتارة يكون قبيحا.

ويبنى على هذا أن الوحشى ينقسم إلى قسمين:

أحدهما الوحشى الذى جاءت إليه هذه الصفة من غرابته، وهو يختلف باختلاف النسب والإضافات.

وأما القسم الآخر من الوحشى فقبيح، والناس فى استقباحه سواء، ولا يختلف فيه عربى باد، ولا قروى متحضر.

وعلى هذا يكون اللفظ عند ابن الأثير أنواعا:

(١) ما تداول استعماله الأول والآخر من الزمن القديم إلى زماننا هذا، ولا ينعت بالوحشية أو الحوشية، وهذا هو الحسن من الألفاظ.

(٢) وماتداول استعماله الأول دون الآخر، ويختلف فى استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله، وهذا هو الذى لا يعاب استعماله عند العرب، لأنه لم يكن عندهم وحشياً، وهو عندنا وحشى.

(٣) الوحشى الغليظ، ويسمى أيضاً المتوعر، وليس وراءه فى القبح درجة أخرى، ولا يستعمله إلا أجهل الناس، ممن لم يخطر بباله شىء من معرفة هذا الفن. وإذا ورد كرهه السمع، وثقل على اللسان النطق به.

وإذا كان معنى الحوشى عند ابن الأثير هو الغريب، فإن العرب لا تلام على استعمال الغريب الحسن، وإنما تلام على استعمال الغريب القبيح.

وأما الحضرى فإنه يلام على استعمال القسمين معاً، وهو فى أحدهما أحق بالملاءمة من الآخر.

* * *

وفى هذا الكتاب أدلى ابن الأثير بكثير من الآراء النقدية التى لها اعتبارها فى موازين النقد الأدبى، وتراه فى كثير من الأحيان لا يرضى بآراء الغير،

بل يبسط الرأى الذى يراه، والذى يتمشى مع ذوقه ، والذى يساير - فى أكثر الأحيان - الفكرة النقدية السليمة ، التى لا يسع القارىء إلا الإقرار بها والإذعان لها، والشهادة لابن الأثير بالذوق السليم، ومن ذلك هذا العيب الذى سماه أبو هلال العسكرى (التضمين) وسماه قدامة بن جعفر (المبتور) وهو أن يطول المعنى عن أن يحتمل العروض تمامه فى بيت واحد ، فيقطعه بالقافية ، ويتممه فى البيت الثانى .

وعند أبى هلال العسكرى أن التضمين هو أن يكون الفصل الأول مفتقراً إلى الفصل الثانى ، والبيت الأول محتاجا إلى الأخير .

ومرجع هذا العيب فى نظرهم أن نقاد الشعر العربى قد درجوا على أن وحدة الشعر هى البيت لا القصيدة ، ولهذا عدوا احتياج البيت إلى ما بعده ليتمم معناه عيبا من العيوب التى يجب على الشاعر المجيد أن يتجنبها . وهم لا يقصرون هذا العيب على الشعر ، بل يحملونه على النثر أيضاً ، إذا كانت الفقرة التى تليها .

وهذا الاعتبار لا يخفى فساده ، لأن القصيدة ينبغى أن تكون وحدة متماسكة ، والحكم على الشعر أو الشاعر ببيت واحد لا يخلو من ظلم وتعسف ، واحتجاجهم بأن خير الشعر ما كان البيت فيه قائما بنفسه . مستقلا عما قبله وعما بعده، حتى يكون كالمثل يصلح للاقتباس ، ويصلح للاستشهاد ، فيه خروج عن طبيعة الشعر الذى لا يتحرى الحكمة وإن جاءت فيه، وإنما القصيدة من الشعر أو الفصل من النثر يحدث تأثيره بمجموعه الكلى، حين يحس القارىء أو السامع بالنشوة أو الطرب أو الانفعال، حين يتم قراءة القصيدة من الشعر، أو الفصل من النثر، وإلا فقد جوزنا للشاعر - حين نقصر النظر على البيت الواحد - أن يرضينا فى بيت ، وأن يسخطنا فى تاليه ، ويكون الأول فى غاية الجودة ، ويكون الثانى كذلك، من غير نظر إلى تتابع الأفكار وتناسق الصور ، ولا بأس حينئذ بالتعارض أو التناقض على رأيهم .

نعم ! قد يكون ذلك عيباً إذا لم تتم الكلمة فى البيت. وأتمها الشاعر فى

البيت الثانى ، كتلك الأبيات التى نقلها الخفاجى فى سر الفصاحة، ووصفها بأنها قبيحة ظاهرة التكلف ، أما احتياج بعض الكلام الى بعض فلا عيب فيه، بل هو دليل التماسك والترابط بين أجزاء النص الأدبى ، وهذا هو المحمود الذى يكون به بعض أجزاء الكلام آخذاً برقاب بعض .

ولا يقر ابن الأثير أولئك النقاد فيما ذهبوا إليه ، فيقول إن المعيب عند قوم (تضمين الإسناد) وذلك يقع فى بيتين من الشعر أو فصلين من الكلام المنثور ، على أن يكون الأول منهما مسنداً إلى الثانى ، فلا يقوم الأول ولا يتم معناه إلا بالثانى،وهذا هو المعدود من عيوب الشعر،وهو عندى غير معيب ، لأنه إن كان سبب عيبه أن يعلق البيت الأول على الثانى فليس ذلك بسبب يوجب عيباً ، إذ لا فرق بين البيتين من الشعر فى تعلق أحدهما بالآخر ، وبين الفقرتين من الكلام المنثور فى تعلق إحداهما بالأخرى ، لأن الشعر هو كل لفظ موزون مقفى دل على معنى .

والكلام المسجوع هو كل لفظ مقفى دل على معنى ، فالفرق بينهما يقع فى الوزن لا غير ، والفقر المسجوعة التى يرتبط بعضها ببعض قد وردت القرآن الكريم فى مواضع منه. فمن ذلك قوله عز وجل فى سورة الصافات: « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قال قائل منهم إنى كان لى قرين. يقول أإنك لمن المصدقين ، أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون » . فهذه الفقر الثلاث الأخيرة مرتبط بعضها ببعض ، فلا تفهم كل واحد منهن إلا بالتى تليها،وهذا كالأبيات الشعرية فى ارتباط بعضها ببعض، ولو كان ذلك عيباً لما ورد فى كتاب الله عز وجل . وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة الصافات أيضا: فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين . إلا من هو صال الجحيم ، فالآيتان الأوليان لا تفهم إحداهما إلا بالأخرى . وهكذا ورد قوله عز وجل فى سورة الشعراء : « أفرأيت إن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ماكانو يمتعون » .

فهذه ثلاث آيات لا تفهم الأولى ولا الثانية إلا بالثالثة . ألا ترى أن الأولى والثانية فى معرض استفهام يفتقر إلى جواب،والجواب هو فى الثالثة

وقد استعملته العرب كثيراً ، وورد فى شعر فحول شعرائهم، فمن ذلك قول الشاعر :

وِمَن البلوَى التى ليــــس لها فى الناس كُنْهُ
أن من يعرف شيئا يدَّعى أكثر منْهُ

ألا ترى أن البيت الأول لم يقم بنفسه، ولا تم معناه إلا بالبيت الثانى؟ ومنه أيضاً قول امرىء القيس :

فقلت له لما تمطَّى صلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أَيها الليلُ الطويلُ ألا أنْجَلِ بصبح وما الاصباحُ منك بأمثلِ

وكذلك ورد قول الفرزدق :

وما أحَدٌ من الأقوام عدّوا عروف الأكرمينَ إلى التراب
بمحتفظين إن فضلتمونا عليهم فى القديم ولا غضاب

وكذلك قول الشاعر :

لعمرى لرهط المرء خيرُ نقيَّة عليه وإن عالوْا به كل مرْكبِ
من الجانب الأقصى وإن كان ذا غنى جزيل ولم يخبرْكَ مثل مجرّب

وبهذه الحافظة الواعية يؤيد ابن الأثير قوله ، جاعلا إمامه الكتاب الكريم ، وهو المثل الأعلى للبيان والبلاغة ، وشعر الفحول من السابقين «وكلامه يوافق الرأى الذى يجب أن يحتذى ، وإن لم يذكر له من أسباب التأييد والتعليل سوى ورود أمثاله فى غرر الكلام ، وأما العلة الأدبية فتلتمس فى مثل ما قدمناه .

ويعد ابن الأثير من أعظم نقاد العرب الذين درسوا السرقات الشعرية وفصلوا القول فى ضروبها، ويعد المثل السائر من أعظم الكتب التى درس فيها هذا الموضوع دراسة خصبة مجدية ، يرجع إليها الباحثون فى هذا الموضوع الذى يشتمل فى كثير من أصول النقد عند العرب .

تلك بعض لمحات مما اشتمل عليه هذا الأثر النفيس الذى احتل منزلته بحق بين أصول البلاغة والنقد الفنى عند العرب ،

ترجمة ابن الأثير*

هو أبو الفتح نصر الله بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيبانى ، المعروف بابن الأثير الجرزى ، الملقب ضياء الدين .

كان مولده بجزيرة ابن عمر ونشأ بها، وانتقل مع والده إلى الموصل ، وبها اشتغل ، وحصل العلوم ، وحفظ كتاب الله الكريم ، وكثيراً من الأحاديث النبوية ، وطرفا صالحاً من النحو واللغة وعلم البيان ، وشيئاً كثيراً من الأشعار .

ولما كملت لضياء الدين المذكور الأدوات قصد جناب الملك الناصر صلاح الدين ، تغمده الله برحمته ، فى شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، فوصله القاضى الفاضل بخدمة صلاح الدين فى جمادى الآخرة من تلك السنة ، وأقام عنده إلى شوال من السنة .

ثم طلبه والده الملك الأفضل نور الدين من والده، فخيره صلاح الدين بين الإقامة فى خدمته ، والانتقال إلى ولده ، ويبقى المعلوم الذى قرره له باقياً عليه، فاختار ولده، فمضى إليه،وكان يومئذ شاباً ، فاستوزره ولده الملك الأفضل نور الدين على المقدم ذكره، رحمه الله تعالى، وحسنت حاله عنده.

ولما توفى السلطان صلاح الدين، واستقل ولده الملك الأفضل بمملكة دمشق ، استقل ضياء الدين المذكور بالوزارة ، وردت أمور الناس إليه، وصار الاعتماد فى جميع الأحوال عليه .

ولما أخذت دمشق من الملك الأفضل ، وانتقل إلى صرخد ، وكان ضياء الدين قد أساء العشرة من أهلها، فهموا بقتله، فأخرجه الحاجب محاسن بن

(*) مختصرة من وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٢٠٨

عجم مستخفيا فى صندوق مقفل عليه ، ثم سار إليه ، وصحبه إلى مصر لما استدعى لنيابة ابن أخيه الملك المنصور .

ولما قصد الملك العادل الديار المصرية، وأخذها من ابن أخيه. وتعوض الملك الأفضل البلاد الشرقية، وخرج من مصر، لم يخرج ضياء الدين فى خدمته، لأنه خاف على نفسه من جماعة كانوا يقصدونه ، فخرج منها مستتراً .

وغاب عن مخدومه الملك الأفضل مدة مديدة ولما استقر الأفضل فى سميساط عاد إلى خدمته ، وأقام عنده مدة ، ثم فارقه فى ذى القعدة سنة ٦٠٧ ﻫ واتصل بخدمة أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب فلم يطل مقامه عنده ولا انتظم أمره ، وخرج مغاضباً ، وعاد إلى الموصل ، فلم يستقم حاله ، فورد إربل ، فلم يستقم حاله فسافر إلى سنجار، ثم عاد إلى الموصل، واتخذها دار إقامته ، واستقر وكتب الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود بن الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه ، وأتابك يومئذ بدر الدين أبو الفضائل النورى ، وذلك فى سنة ٦١٨ ﻫ .

قال ابن خلكان : ولقد ترددت إلى الموصل من إربل أكثر من عشر مرات وهو مقيم بها ، وكنت أود الاجتماع به لآخذ عنه شيئاً ، ولما كان بينه وبين الوالد رحمه الله تعالى من المودة الأكيدة، فلم يتفق ذلك، ثم فارقت بلاد المشرق، وانتقلت إلى الشام، وأقمت به مقدار عشر سنين ، ثم انتقلت إلى الديار المصرية، وهو فى قيد الحياة، ثم بلغنى بعد ذلك خبر وفاته وأنا بالقاهرة.

ولضياء الدين من التصانيف ، الدالة على غزارة فضله ، وتحقيق نبله كتابه الذى سماه « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » وهو فى مجلدين جمع فيه فأوعى ، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره ، ولما فرغ من تصنيفه كتبه الناس عنه ، فوصل إلى بغداد منه نسخة .

وله كتاب « الوشى المرقوم فى حل المنظوم » وهو مع وجازته فى غاية الحسن والإفادة .

وله كتاب «المعانى المخترعة فى صناعة الإنشاء»، وهو أيضاً نهاية فى بابه .

وله مجموع اختار فيه شعر أبى تمام، والبحترى وديك الجن والمتنبى، وهو فى مجلد واحد كبير، وحفظه مفيد .

وله أيضاً ديوان ترسل فى عدة مجلدات ، والمختار منه فى مجلد واحد.

وذكر أبو البركات بن المستوفى فى تاريخ إربل ، وبالغ فى الثناء عليه وقال ورد إربل فى شهر ربيع الأول سنة ٦١١ ﻫ وكانت ولادته بجزيرة ابن عمر فى يوم الخميس العشرين من شعبان سنة ٥٥٨ ﻫ وتوفى فى إحدى الجماديين سنة ٦٣٧ ﻫ ، ببغداد وقد توجه إليها رسولا من جهة صاحب الموصل ، وصلى الله عليه من الغد بجامع القصر ، ودفن بمقابر قريش فى الجانب الغربى بمشهد موسى بن جعفر رضى الله عنهما .

قال أبو عبد الله محمد بن النجار البغدادى فى تاريخ بغداد توفى يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة ، وهو أخبر ، لأنه صاحب هذا الفن ، وقد مات عندهم .

ولضياء الدين أخوان نابهان مجد الدين أبو السعادات المبارك، وأبو الحسن على الملقب عز الدين. وكان الإخوة الثلاثة فضلاء نجباء رؤساء، لكل واحد منهم تصانيف نافعة ، رحمهم الله تعالى .

وكان لضياء الدين المذكور ولد نبيه له النظم والنثر الحسن، وصنف عدة تصانيف نافعة ، من مجاميع وغيرها ، ورأيت له مجموعا جمعه الملك الأشرف ابن الملك العادل بن أيوب ، وأحسن فيه ، وذكر فيه جملة من نظمه ونثره ورسائل أبيه ، ومولده بالموصل فى شهر رمضان سنة ٥٨٥ ﻫ، وتوفى بكرة نهار الاثنين ثانى جمادى سنة ٦٢٢ واسمه محمد، ولقبه الشرف، رحمه الله تعالى .

المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر

لضياء الدين بن الأثير

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله ربنا أن يَبْلُغَ بنا من الحمد ما هو أهْلُهُ ، وأن يُعلمنا من البيان ما تَقْصُرُ عنه مَزِيَّةُ الفضل وأصْلُه ، وحِكمةُ الخطابِ وفَصْلُهُ ، ونرغب إليه أن يُوَفِّقَنَا للصلاة على نبينا ومولانا محمد رسوله الذى هو أفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بالضاد ، ونسخ هَدْيُهُ شريعةَ كلِّ هادٍ ، وعلى آله وصحبه الذين منهم من سَبَقَ وَبَدَرَ ، ومنهم من صابر وصَبَرَ ، ومنهم من آوى ونصَرَ .

وبَعْدُ ، فإن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه [1] للأحكام وأدِلةِ الأحكام . وقد ألَّفَ الناس فيه كتبا ، وجلبوا ذَهَباً وحَطَبا ، وما من تأليف إلا وقد تَصَفَّحْتُ شِينَهُ وسِينَهُ [2] ، وعَلِمْتُ غَثَّهُ [3] وسَمِينَهُ ، فلم أجد ما يُنْتَفَعُ به فى ذلك إلا كتابَ « الموازنةِ » لأبى القاسم الحسن بن بِشْرِ الآمِدِىِّ [4] ،

(١) أصول الفقه هى القواعد التى يتوصل بها المجتهد إلى استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من الأدلة التفصيلية .

(٢) يريد أنه تصفحه كله حاليه وعاطله ومعجمه ومهمله .

(٣) الغث : المهزول .

(٤) أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، صاحب كتاب الموازنة بين الطائيين ، كان حسن الفهم جيد الدراية والرواية ، سريع الإدراك ، وهو معدود من أئمة البيان والنقد الأدبى . وصفه صاحب الفهرست بأنه مليح التصنيف جيد التأليف يتعاطى مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب ، وله من الكتب : كتاب المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء ، وكتاب معانى شعر البحترى ، وكتاب نثر المنظوم ، وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام ، وكتاب فى أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما ، وكتاب ما فى عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ ، وكتاب فرق ما بين الخاص والمشترك من معانى الشعر ، وكتاب تفضيل شعر امرىء القيس على الجاهليين ، وكتاب فى شدة حاجة الإنسان أن يعرف نفسه ، وكتاب تبيين غلط قدامة بن جعفر فى كتاب نقد الشعر ، وكتاب فعلت وأفعلت ، وكتاب الحروف ، وديوان شعره .

ونقل ياقوت عن القاضى أبى القاسم التنوخى أن مولد أبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى =

وكتابَ « سِرّ الفصاحة » لأبي محمد عبد الله بن سِنَان الخَفَاجِى[1]. غير أن كتابَ « الموازنةِ » أَجْمَعُ أصولا ، وأجدى محصولا ، وكتابَ « سر الفصاحة » وإن نَبَّهَ فيه على نُكَتٍ منيرة ، فإنه قد أكثر مما قَلَّ به مقدارُ كتابه من ذِكْرِ الأصوات والحروفِ والكلامِ عليها ، ومن الكلام على اللفظة المفردة ، وصفاتها ، مما لا حاجةَ إلى أكثره[2] ، ومن الكلامِ فى مواضعَ شذَّ عنه الصوابُ فيها ، وسَيَرِدُ بيانُ ذلك كلِّه فى مواضعَ من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . على أن كلا الكتابين قد أهملا من هذا العلم أبوابا ، ولربما ذَكَرَا فى بعض المواضع قُشوراً ، وتركا لُبابا .

= بالبصرة ، وأنه قدم بغداد يحمل عن الأخفش والحامض والزجاج وابن دريد وابن السراج وغيرهم اللغة والنحو . وروى الأخبار فى آخر عمره بالبصرة . وكان يكتب بمدينة السلام لأبى جعفر هارون بن محمد الضبى ولغيره ، وكتب بالبصرة لآل عبد الواحد وغيرهم ... وكان كثير الشعر حسن الطبع ، جيد الصنعة ، مشتهراً بالتشبيهات . قال : ولأبى القاسم تصانيف كثيرة جيدة مرغوب فيها ، منها كتاب الموازنة بين البحترى وأبى تمام ، وهو كتاب حسن ، وإن كان قد عيب عليه فى مواضع منه ، ونسب إلى الميل مع البحترى فيما أورده . والتعصب على أبى تمام فيما ذكره . توفى الآمدى سنة ٣٧٠ هـ . وقد طبع كتاب الموازنة عدة طبعات كلها ناقصة ، وبين أيدينا نسخه كاملة من هذا الكتاب نسأل الله أن يعين على نشرها وتحقيقها إن لم يقم بهذا الواجب غيرنا .

(١) أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى ؛ من بنى خفاجة الذين كانوا ينزلون بأعمال حلب ، وكان أبوه من أشرافها ، وقد أخذ العلم والأدب عن علماء عصره ، ثم اتصل بأبى العلاء أحمد بن سليمان المعرى فأخذ عنه العلم والأدب ، وكان يرى رأى الشيعة ، وتولى بعض أعمال الدولة ، حتى ثار على ولاته ، ومات مسموماً سنة ٤٦٦ هـ ، وكتابه « سر الفصاحة » من أنفس كتب البلاغة ، سار فيه بالبلاغة والنقد سيراً مزدوجاً فيه التعريف والتحديد ، وإلى جانبه النص والمثال ، وإلى جانبهما الرأى فى الإصابة أو سوء الاستعمال ، مما يدل على تمرسه بفن الأدب ، وتمتعه بالذوق المستنير ، وقد طبع فى مصر طبعتين جيدتين .

(٢) لا نعرف بهذا النقد لأن الخفاجى فى كلامه على الأصوات وعلى الحروف ذكر منها مايؤلف ومالا يؤلف ، ولذلك من بعد الأثر فى وقع الكلام على السمع والذوق وتقديره عند أهل صناعة البيان مالا يخفى . وكلام الخفاجى على اللفظة المفردة من أمتع الدراسات النقدية وهو أصل لما كتب البلاغيون فى فصاحة الكلمة وفصاحة الكلام فى مقدمات كتب البلاغة بل إن ابن الأثير نفسه قد درس الكلمة المفردة وصفاتها فى هذا الكتاب ، وأفاد كما أفاد غيره من تلك الدراسة المنظمة التى مهد سبيلها الخفاجى .

وكنت عثرتُ على ضروب كثيرة منه[1] فى غضون القرآن الكريم ، ولم أجد أحداً ممن تقدمنى تعرض لذكر شىء منها ، وهى إذا عُدَّتْ كانت فى هذا العلم بمقدار شَطْرِه ، وإذا نُظِرَ إلى فوائدها وُجِدَتْ محتويةً عليه بأَسْره ، وقد أوردتُها هاهنا ، وشَفَعْتُها بضروب أُخَرَ مدونةٍ فى الكتب المتقدمة ، بعد أن حذفتُ منها ما حذفته ، وأضفت إليها ما أضفته . وهدانى الله لابتداع أشياءَ لم تكن من قَبْلِى مُبْتَدَعَةً ، ومنحنى درجةَ الاجتهاد التى لا تكون أقوالها تابعة ، وإنما هى مُتَّبَعَةٌ . وكلٌّ ذلك يظهر عند الوقوف على كتابى هذا ، وعلى غيره من الكتب ، وقد بَنَيْتُه على مقدمة ومقالتين :

فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان ، والمقالتان تشتملان على فروعه ، فالأولى : فى الصناعة اللفظية ، والثانية : فى الصناعة المعنوية .

ولا أدَّعى فيما ألفته من ذلك فضيلةَ الإحسانِ ، ولا السلامةَ من سَبْق[2] اللسان ، فإن الفاضل من تُعَدُّ سَقطاتُه ، وتُحْصَى غَلَطاتُه ، ويسىء بالإحسان ظنا ، لا كمن هو بابْنِهِ وشِعْرِه مَفْتونٌ . وإذا تركتُ الهوى قلت إن هذا الكتاب بديعٌ فى إغْرَابه ، وليس له صاحبٌ فى الكتب فيقالُ : إنه متفرِّدٌ بين أصحابه ، من أَخْدانه ، أو من أترابه[3] .

ومع هذا فإنى أتيتُ بظاهر هذا العلم دُونَ خافيه ، وحُمْتُ حول حِماه ولم أقع فيه ، إذ الغرضُ إنما هو الحصولُ على تعليم الكلِم التى بها تَنْتَظِمُ

---

(١) الضمير فى « منه » عائد إلى « علم البيان » الذى ذكر من قبل .

(٢) فى الأصل «سابق» باللام ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل «فيقال إنه من أخدانه أو من أترابه مفرد بين أصحابه» وهى عبارة مضطربة ولذلك قدمنا العبارة الأخيرة ؛ ليستقيم المعنى .

العقودُ وترَصَّعُ . وتُخْلَبُ العقول فتُخْدَعُ . وذلك شيء تُحيلُ عليه الخواطرُ ، لا تنطق به الدفاتر .

واعلم أيها الناظر فى كتابى أن مَدَار علم البيان على حَاكِمِ الذَّوق السليم ، الذى هو أنفَعُ من ذَوْق التعليم ، وهذا الكتابُ وإن كان فيما يُلقيه إليك أستاذاً ، وإذا سألتَ عما ينتفعُ به فى فنه قيل لك هذا ! فإن الدُّرْبَةَ والإدمانَ أجدى عليك نفعا ، وأهْدَى بصراً وسمعا ، وهما يريانك الخبر عِيانا ، ويجعلان عُسْرَكَ من القول إمكانا ، وكلَّ جارحة منك قلبا ولسانا . فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بإدمانك ما أخطاك . وما مَثَلِى فيما مَهَّدْتُهُ لك من هذا الطريق إلا كمن طبع[1] سَيْفا ، ووضعه فى يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يَخْلُقَ لك قلبا ، فإن حَمْلَ النِّصال غيرُ مباشرة القتال .

وإنما يَبْلُغُ الإنسانُ غايَتَهُ ما كلُّ ماشية بالرَّحل شِمْلالُ[2]

(١) يقال : طبع السيف والدرهم والجرة عملها .

(٢) البيت لأبي الطيب المتنبي : الديوان ٢٨٧/٣ وروايته هكذا :

وإنما يبلغ الإنسان طاقته ما كل ماشية بالرجل شملال

والشملال : الناقة القوية السريعة . يقول : كل أحد يجرى فى السيادة على قدر طاقته وليس كل من يمشى على رجله شملا لا ، يقدر على السرعة ، والمعنى : ليس كل كريم يبلغ غاية الكرم ، ولا كل شريف يبلغ غاية الشرف ، وليس كل من سعى من الرؤساء يبلغ مبلغ ممدوحه الذى لا يعادل فى فضله ، ولا يماثل فى جلالة قدره .

مقدمة الكتاب

ولنرجِعْ إلى ما نحن بصَدَدِه فنقول : أما مقدمة الكتاب فإنها تشتمل على عشرة فصول :

الفصل الأول

فى موضوع علم البيان

موضوع كل علم هو الشئ الذى يُسْأل فيه عن أحواله التى تعَرِضُ لذاته .

فموضوع الفقه هو أفعالُ المكلفين ، والفقيه يُسأل عن أحوالها التى تَعْرِضُ لها من القَرْض والنَّفل ، والحلال والحرام ، والنَّدب والمباح ، وغير ذلك .

وموضوعُ الطِّبِّ هو بَدَنُ الإنسان ، والطبيب يُسْأَلُ عن أحواله التى تَعْرِضُ له من صحته وسقمه .

وموضوع الحساب هو الأعداد ، والمحاسب يُسْأَلُ عن أحوالها التى تعرض لها من الضَّرْب والقِسْمة والنِّسْبة وغير ذلك .

وموضوعُ النحو هو الألفاظ والمعانى ، والنحوىُّ يُسْأَلُ عن أحوالهما فى الدلالة من جهة الأوضاع اللغوية .

وكذلك يجرى الحكم فى كل علم من العلوم . وبهذا الضابط انفرد كل علم برأسِه ولم يَخْتَلِطْ بغيره .

وعلى هذا فموضوعُ علمِ البيانِ هو الفصاحةُ والبلاغةُ . وصاحبُهُ يُسْأَلُ عن أحوالهما اللفظية والمعنوية . وهو والنحوىُّ يشتركان فى أن النحوىَّ ينظرُ فى دِلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللّغوىّ ، وتلك دلالةٌ عامةٌ . وصاحبُ علم

البيانِ يَنظُرُ فى فضيلةِ تلك الدّلالةِ ، وهى دلالةٌ خاصة . والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن ، وذلك أمرٌ وراء النحو والإعراب . ألا ترى أن النحوى يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ، ويعلم مواقع إعرابه ، ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة .

ومن هنا غلطَ مُفسِّرو الأشعار فى اقتصارهم على شرح المعنى ، وما فيها[1] من الكلمات اللغوية ، وتبيين مواضعِ الإعراب منها ، دون شرحِ ما تضمّنَتْهُ من أسرار الفصاحة والبلاغة .

الفصل الثانى

فى آلات علم البيان وأدواته

اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تَفتَقِرُ إلى آلات كثيرة . وقد قيل : ينبغى للكاتب أن يَتَعلّقَ بكلِّ علمٍ ، حتى قيل : كلُّ ذى علمٍ يَسوغ له أن يَنْسُبَ نفسه إليه ، فيقالَ[2] : فلانٌ النحوىُّ ، وفلانٌ الفقيهُ ، وفلانٌ المتكلمُ ، ولا يَسُوغُ له أن يَنْسُبَ نفسه إلى الكتابة ، فيقالَ[2] : فلانٌ الكاتب . وذلك لما يَفتَقِرُ إليه من الخَوْضِ فى كل فن . ومِلاكُ هذا كلّه الطبعُ ، فإنه إذا لم يكن ثَمَّ طبعٌ فإنه لا تُغنِى تلك الآلات شيئا . ومثالُ ذلك كمثل النار الكامنة فى الزِّناد ، والحديدة التى يُقدحُ بها ، ألا ترى أنه إذا لم يكن فى الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئا ؟ وكثيراً ما رأينا وسمعنا من غرائب الطباع فى تعلّم العلوم ، حتى إن بعض الناس يكون له نَفاذٌ فى تعلّم علمٍ مُشْكِلِ المَسْلَك ، صعب

---

(١) الضمير عائد على الأشعار .

(٢) فى الأصل « فيقول » والصواب عن الفلك الدائر ٧ .

المأخذ . فإذا كُلفَ تعَلُّمَ ما هو دونه من سَهْل العلوم نَكَصَ على عَقِبَيْهِ[1] ولم يكن له فيه نَفاذٌ . وأغربُ من ذلك أن صاحب الطبع فى المنظوم يجيد فى المديح دُونَ الهجاء ، أو فى الهجاء دون المديح . أو يجيد فى المراثى دون التهانى ، أو فى التهانى دون المراثى . وكذلك صاحبُ الطبع فى المنثور . هذا ابن الحريرى[2] صاحبُ المقامات قد كان على ما ظهر عنه من تنميق المقامات واحداً فى فنه ، فلما حضر ببغداد ووُقِفَ على مقاماته ، قيل : هذا يُسْتَصْلَحُ لكتابة الإنشاء فى ديوان الخلافة ، ويَحْسُنُ أثره فيه . فأُحْضِرَ وكُلِّفَ كتابةَ كتاب فأُفْحِمَ ، ولم يَجْرِ لسانه فى طويلة ولا قصيرة . فقال فيه بعضهم[3] :

شيخٌ لنا من ربيعةِ الفَرَسِ[4] ... يَنْتِفُ عُثْنونَهُ[5] من الهَوَسِ
أنطقــــه الله بالْمَشَانِ[6] وقد ... ألجمه فى بَغــــدادَ بالخَرَسِ

---

(١) يقال : نكص عن الأمر نكصا ونكوصا أحجم عنه ، ونكص على عقبيه رجع عما كان عليه ، والعقبان مثنى العقب ككتف مؤخر القدم .

(٢) هو أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى البصرى ، كان أحد أئمة عصره رزق الحظوة التامة فى عمله المقامات ، وقد اشتملت على كثير من بلاغات العرب فى لغاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها ، ومن عرفها حق معرفتها استدل بها على فضل هذا الرجل وكثرة اطلاعه وغزارة مادته . وللحريرى تآليف حسان منها درة الغواص فى أوهام الخواص ، ومنها ملحة الإعراب المنظومة فى النحو ، وله أيضاً شرحها ، وله ديوان رسائل وشعر كثير غير شعره الذى فى المقامات ، وكانت ولادة الحريرى سنة ٤٤٦ هـ وتوفى سنة عشر وقيل خمس أوست عشرة وخمسمائة بالبصرة .

(٣) قيل إن الذى عمل هذين البيتين هو أبو القاسم على بن أفلح الشاعر .

(٤) ربيعة الفرس : هو ابن نزار بن معد بن عدنان ، أبو قبيلة ، سمى بذلك لأنه أعطى الخيل من ميراث أبيه ، على حين أن أخاه مضر أعطى الذهب ، فقيل مضر الحمراء ، وأعطى أخوه أنمار الشاء ، فقيل أنمار الشاة ، وكان الحريرى يزعم أنه من ربيعة الفرس .

(٥) العثنون : اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين ، أو ما نبت على الذقن وتحته سفلا . وكان الحريرى مولعاً بنتف لحيته عند الفكرة .

(٦) المشان بفتح الميم والشين وبعد الألف نون : بليدة بعد البصرة كثيرة النخل موصوفة بشدة الوخم ، وكان أهل الحريرى منها ، ويقال إنه كان له بها ثمانية عشر ألف نخلة وأنه كان من ذوى اليسار ، ويروى البيت الثانى هكذا :

أنطقه الله بالمشــان كما ... رماه وسط الديوان بالخرس .

وهذا مما يُعْجَبُ منه . وسُئِلتُ عن ذلك فقلت : لا عَجَبَ ، لأن المقامات مدارُها بجميعِها على حِكاية تُخْرِجُ إلى مخلَصٍ .

وأما المكاتبات فإنها بحر لا ساحل له ، لأن المعانى تتجدد فيها بتجدد حوادث الأيام ، وهى متجددة على عَدَدِ الأنفاس . ألاترى أنه إذا خَطَبَ الكاتبُ المُفْلِقُ(١) عن دولة من الدول الواسعة التى يكون لسلطانها سيف مشهور ، وسعى مذكور ، ومكث على ذلك بُرْهَةً يسيرة لا تبلغ عَشْرَ سنين فإنه يُدَوِّنُ عنه من المكاتبات ما يزيد على عشرة أجزاء ، كلُّ جزء منها أكبرُ من مقامات الحريرى ؟ ، لأنه إذا كَتَبَ فى كل يوم كتابا واحداً اجتمع من كتبه أكثرُ من هذه العِدَّةِ المشار إليها ، وإذا نُخِلَتْ وغُرْبِلتْ واختِيرَ الأجودُ منها ، إذ تكون كلها جيدة — فيَخْلُصُ منها النصفُ ، وهو خمسة أجزاء . والله يعلم ما اشتملت عليه من الغرائب والعجائب ، وما حَصَلَ فى ضِمْنها من المعانى المبتدعة .

على أن الحريرى قد كتب فى أثناء مقاماته رقاعا فى مواضعَ عِدَّةٍ ، فجاء بها منحطةً عن كلامه فى حكاية المقامات ، لا بل جاء بالغثِّ البارد الذى لا نسبةَ له إلى باقى كلامه فيها . وله أيضا كتابةُ أشياءَ خارجةٍ عن المقامات ، وإذا وُقِفَ عليها أُقْسِمَ أن قائل هذه ليس قائل هذه ، لما بينهما من التفاوت البعيد .

---

(١) يقال : أفلق الشاعر إذا أتى بالعجيب .

وبلغنى عن الشيخ أبى محمد [عبد الله بن[1]] أحمد بن الخشاب النحوى[2] — رحمه الله — أنه كان يقول : ابن الحريرى رجلُ مقامات ، أى أنه لم يُحْسِن من الكلام المنثور سواها ، وإن أَتَى بغيرها لا يقول شيئا .

فانظر أيها المتأمل إلى هذا التفاوت فى الصناعة الواحدة من الكلام المنثور .

ومن أَجْلِ ذلك قيل : شيئان لا نهاية لهما : البيان والجمال . وعلى هذا فإذا رَكَّبَ الله تعالى فى الإنسان طبعا قابلا لهذا الفن فإنه يفتقر حينئذ إلى ثمانية أنواع من الآلات :

النوع الأول : معرفة علم العربية من النحو والتصريف .

النوع الثانى : معرفة ما يَحْتَاجُ إليه من اللغه ، وهو المتداولُ المألوفُ استعمالُه فى فصيح الكلام غير الوَحْشِىِّ الغريب ، ولا المستَكْرَهِ المعيب .

النوع الثالث : معرفة أمثال العرب وأيامهم ، ومعرفة الوقائع التى جاءت فى حوادث خاصة بأقوام ، فإن ذلك جرى مَجْرى الأمثال أيضا .

النوع الرابع : الاطلاع على تأليفات من تقدّمه من أرباب هذه الصناعات المنظومة منه والمنثورة ، والتحفّظ للكثير منه .

---

(١) زيادة ليست فى الأصل صححنا بها الاسم .

(٢) هو الشيخ الإمام أبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن الخشاب كان أعلم أهل زمانه بالنحو ، حتى يقال إنه كان فى درجة الفارسى ، وكانت له معرفة بالتفسير والحديث واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والهندسة ، وما من علم من العلوم إلا كانت له فيه يد حسنة ، وله كتب كثيرة منها رسالة كتبها فى الرد على الحريرى فى مقاماته ، توفى سنة ٥٦٧ هـ ووقف كتبه على أهل العلم .

النوع الخامس : معرفةُ الأحكام السلطانية فى الإمامة والإمارة والقضاء والحِسْبة [1] وغير ذلك .

النوع السادس : حِفظُ القرآن الكريم ، والتدرُّبُ باستعماله وإدراجه فى مطاوى كلامه

النوع السابع : حِفْظ ما يَحْتَاجُ إليه من الأخبار الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والسلوكُ بها مَسْلَكَ القرآن الكريم فى الاستعمال .

النوع الثامن : وهو مختص بالناظم دون الناثر ، وذلك عِلْمُ العروض والقوافى الذى يُقامُ به ميزان الشعر

ولنذكر بعد ذلك فائدة كلِّ نوع من هذه الأنواع ليُعْلَمَ أن معرفته مما تمس الحاجة إليه فنقول :

[النوع الأول : معرفة علم العربية من النحو والتصريف]

أما علمُ النحو فإنه فى علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد فى تعليم الخط ، وهو أول ما ينبغى إتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربى ، ليأمن مَعَرَّةَ اللحن ، ومع هذا فإنه وإن احتيج إليه فى بعض الكلام دون بعض لضرورة الإفهام ، فإن الواضع لم يخصّ منه شيئاً بالوضع ، بل جعل الوضع عامًّا ، وإلا فإذا نظرنا إلى ضرورته وأقسامه المدونة وجدنا أكثرها غَيْرَ محتاج إليه فى إفهام المعانى . ألا ترى أنك لو أمرت رجلا بالقيام فقلت له : « قُوْمْ » بإثبات الواو ولم تجزم لما اختلَّ من فَهْمِ ذلك شىء ؟ وكذلك الشرط لو قلت : « إنْ تَقُوْمْ أَقُوْمْ » ولم تجزم لكان المعنى مفهوما . والفضلات كلها تجرى هذا المجرى ، كالحال

(1) الحسبة بالكسر الأجر ، واسم من الاحتساب ، وهو حسن الحسبة حسن التدبير .

والتميز والاستثناء ، فإذا قلت : « جاء زيدْ راكبْ » ، و« ما فى السماء قدرْ راحةِ سحابْ » ، و« قام القوم إلا زيدْ » ، فلزمت السكون فى ذلك كله ، ولم تبيّن إعراباً لما توقف الفهم على نصب الراكب والسحاب ولا على نصب زيد ، وهكذا يقال فى المجرورات وفى المفعول فيه والمفعول له والمفعول معه وفى المبتدأ والخبر ، وغير ذلك من أقسام أخر لا حاجة إلى ذكرها

لكن قد خرج عن هذه الأمثلة مالا يُفْهَمُ إلا بقيود تُقَيِّدُه ، وإنما يقع ذلك فى الذى تدل صيغته الواحدة على معان مختلفة ، ولنضربْ لذلك مثالًا يوضحه فنقول : اعلم أن من أقسام الفاعل والمفعول مالا يُفْهَمْ إلا بعلامة ، كتقديم المفعول على الفاعل ، فإنه إذا لم يكن ثَمَّ علامة تُبَيِّن أحدهما من الآخر ، وإلا أشكل الأمر[1] ، كقولك « ضرب زيد عمرو » [بالوقف عليها[2]] ، ويكون زيد هو المضروب ، فإنك إذا لم تنصب زيدا وترفع عمرا وإلا لا يفهم ما أردت[1] . وعلى هذا ورد قوله تعالى : « إنما يخشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ[3] » وكذلك لو قال قائل : ما أَحْسَنْ زيدْ ، ولم يبين الإعراب فى ذلك لما علمنا منه ، إذ يحتمل أن يريد به التعجب من حسنه ، أو يريد به الاستفهام عن أي شيء منه أحسن ، ويحتمل أن يريد به الإخبار بنفى الإحسان عنه ، ولو بَيَّنَ الإعرابَ فى ذلك ، فقال : ما أَحْسَنَ زيداً ، وما أَحْسَنُ زَيْدٍ ؟ وما أَحْسَنَ زَيْدٌ[4] ، علمنا غرضه ، وفهمنا مغزى كلامه ، لانفراد كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة بما يُعْرَفُ به من الإعراب . فوجب

(١) هكذا فى الأصل ؛ والظاهر يقتضى حذف «إلا» أو تقدير جواب للشرط .

(٢) زيادة عن الفلك الدائر ٨

(٣) سورة فاطر ، آية ٢٨

(٤) ما فى المثال الأول للتعجب ، وفى الثانى للاستفهام ، وفى الثالث للنفى .

حينئذٍ بذلك معرفة النحو ، إذ كان ضابطاً لمعاني الكلام ، حافظاً لها من الاختلاف .

وأول من تكلم في النحو أبو الأسْوَد الدؤلي[1] ، وسبب ذلك أنه دخل على ابنة له بالبَصْرَة فقالت له : « يا أَبَت ، ما أَشَدُّ الحر » متعجبة ، ورفعت « أشدُّ » ، فظنّها مستفهمة ، فقال : شَهْرُ نَاجِرٍ[2] فقالت : يا أبت إنما أخبرتك ، ولم أسألك ، فأتى عليَّ بنَ أبي طالب — رضي الله عنه — فقال : « يا أمير المؤمنين ، ذهبت لغة العرب ، ويُوشِكُ إن تطاول عليها زمان أن تَضْمَحِلَّ » فقال له : وما ذاك ؟ فأخبره خبر ابنته ، فقال : هَلُمَّ صحيفة ، ثم أَمْلَى عليه : « الكلامُ لا يَخْرُجُ عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى » ، ثم رَسَمَ له رسوما ، فنقلها النحويون في كتبهم . وقيل : إن أبا الأسود الدؤلي دخل على زياد ابن

---

(١) قال ابن سلام الجمحي : أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي ، وهو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل ... وكان رجل أهل البصرة ، وكان علوي الرأي .

وقيل لأبي الأسود : من أين لك هذا العلم ؟ — يعنون النحو — قال : لقنت حدوده من علي بن أبي طالب — عليه السلام — وكان أبو الأسود أحد سادات التابعين والمحدثين والفقهاء والشعراء والفرسان والأمراء والأشراف والدهاة والحاضري الجواب والصلع الأشراف والبخر الأشراف ومن مشاهير البخلاء ، وهو من القراء ، قرأ على أمير المؤمنين علي عليه السلام وشهد معه صفين ، وقدم على معاوية فأكرمه وأعظم جائزته ، وولي قضاء البصرة وهو أول من نقط المصحف ، وله شعر كثير . مات أبو الأسود بالبصرة سنة ٦٩ ؛ وهو ابن خمس وثمانين سنة .

(٢) ناجر : قال في القاموس « ناجر رجب أو صفر وكل شهر من شهور الصيف » قلنا إن شهري رجب وصفر وكل الشهور القمرية يتغير موقعها سنة بعد سنة ، ولا بد ان يكون شهراً بعينه من شهور الصيف . وفي وضع أبي الأسود النحو أقوال كثيرة غير ما رواه ابن الأثير . انظر إنباه الرواة على أنباه النحاة ١/١٥

أبيه[1] بالبصرة فقال : إنى أرى العرب قد خالطت العجم ، وتغيرت ألسنتها ، أفتأذن لى أن أصنع ما يقيمون به كلامهم ؟ فقال : لا ، فقام من عنده ، ودخل عليه رجل فقال : « أيها الأمير مات أبانا وخلف بنون » . فقال زياد : مات أبانا وخلَّف بنون ! ؟ مَهْ ، رُدُّوا علىَّ أبا الأسود ، فرَدُّوه ، فقال له : اصنع ما كنتُ نهيتك عنه ، فوضع شيئا[2] ، ثم جاء بعده مَيْمُونٌ الأقْرَنُ[3] فزاد عليه ، ثم جاء بعده عَنْبَسَةُ بن مَعْدَانَ المُهرى[4] فزاد عليه ، ثم جاء بعده عبدُ الله ابن أبى إسحاقَ الحضرمىّ[5] وأبو عمرو بن العلاء[6] فزادا عليه ، ثم جاء بعدهما

---

(١) هو زياد بن أبي سفيان ؛ استلحقه معاوية بأبيه ، وأمه سمية جارية الحارث بن كلدة ولد عام الهجرة وقيل يوم بدر ، واستعمله عمر بن الخطاب على بعض أعمال البصرة ، واستعمله على على بعض بلاد فارس ولم يزل معه حتى قتل وسلم الحسن الأمر إلى معاوية ، فاستلحقه بأبيه ، وجعله أخا له ، واستعمله على البصرة ، ثم أضاف إليه الكوفة ، وبقى عليهما إلى أن مات سنة ٥٣ هـ .

(٢) قال أبو حرب بن أبى الأسود : أول باب رسم أبى من النحو باب التعجب . وقيل : أول باب رسم باب الفاعل والمفعول ، والمضاف ، وحروف الرفع والنصب والجر والجزم .

(٣) هو الإمام المقدم فى العربية بعد أبي الأسود وعنه أخذ ، وأخذ عنه عنبسة بن معدان الفيل فى أصح الروايتين ، وزاد على أبي الأسود فى حدود العربية .

(٤) هو عنبسة بن معدان الفيل الميساني أخذ النحو عن أبي الأسود ، قالوا : ولم يكن فيمن أخذ عنه النحو أبرع منه ، وروى الأشعار وظرف وفصح ، وروى شعر جرير والفرزدق .

(٥) هو أبو بحر عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمى ، كان قيا بالعربية والقراءة إماماً فيهما ، وكان شديد التجريد للقياس ، وكان عبد الله بن أبي إسحاق يطعن على العرب ، وكان يرد كثيراً على الفرزدق ويلحنه فى شعره فقال فيه الفرزدق :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

وتوفى بالبصرة سنة سبع عشرة ومائة فى أيام هشام بن عبد الملك .

(٦) هو العلم المشهور فى علم القراءة واللغة العربية ، واسمه كنيته ، وقيل إن اسمه زبان ، أخذ النحو عن نصر بن عاصم الليثى ، وأخذ عنه يونس بن حبيب البصرى والخليل بن أحمد وعلى بن المبارك ، وكان يونس بن حبيب يقول : لو كان أحد ينبغى أن يؤخذ بقوله فى كل شىء كان ينبغى أن يؤخذ بقول أبي عمرو بن العلاء كله فى العربية ، ولكن ليس من أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك إلا النبى صلى الله عليه وسلم . وتوفى أبو عمرو بن العلاء فى سنة ١٥٤ هـ فى خلافة المنصور .

الخليل بن أحمد الأزدي[1] وتتابع الناس . واختلف البصريون ، والكوفيون في بعض ذلك . فهذا ما بلغني من أمر النحو في أول وضعه ، وكذلك العلوم كلها يُوضع منها في مبادئ أمرها شيء يسيرٌ ، ثم يزداد بالتدريج إلى أن يستكمل آخرا .

فإن قيل : أما علمُ النحو فمُسَلَّمٌ إليك أنه تجبُ معرفته ، لكنَّ التصريفَ لا حاجةَ إليه ، لأنَّ التصريفَ إنما هو معرفةُ أصلِ الكلمةِ ، وزيادتها ، وحَذْفها ، وإبدالها ، وهذا لا يَضُرُّ جَهْلُه ، ولا تَنْفَعُ معرفتُه . ولْنَضْرِبْ لذلك مثالا كيف اتفق ، فنقول : إذا قال القائل : « رأيتُ سِرْدَاحًا[2] » لا يلزمه أن يعرف الألف في هذه الكلمة زائدةٌ هي أم أصليةٌ ، لأن العرب لم تنطق بها إلاّ كذلك ، ولو قالَتْ « سِرْدَحا » بغير الألف لما جاز لأحد أن يزيد الألف فيها من عنده ، فيقول : « سِرْداحا » ، فعُلِمَ بهذا أنه إنما يُنطَقُ بالألفاظ كما سُمِعَتْ عن العرب من غير زيادة فيها ولا نقص . وليس يلزم بعد ذلك أن يَعْلَمَ أصلها ولا زيادتها ، لأنّ ذلك أمر خارج [لا[3]] تقتضيه صناعة تأليف الكلام .

فالجواب عن ذلك أنا نقول : اعلم أنا لم نجعل معرفة التَّصريف كمعرفة النحو ، لأنَّ الكاتب أو الشاعر إذا كان عارفًا بالمعاني ، مختاراً لها ، قادراً على

---

(١) هو أبو عبد الرحمن بن أحمد اليحمدي الفرهودي الأزدي ، سيد أهل الأدب قاطبة في علمه وزهده ، والغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله ، وأخذ عنه سيبويه ، وعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل ، وكل ماقال سيبويه «سألته» أو قال «قال» من غير أن يذكر قائله فهو الخليل ، وأخذ عنه أيضاً النضر بن شميل ، ومؤرج السدوسي ، وعلي بن نصر الجهضمي وغيرهم . وهو أول من استخرج علم العروض وضبط اللغة ، وأملى كتاب العين على الليث بن المظفر ، وكان أول من حصر أشعار العرب . توفي سنة ستين ومائة .

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٣) السرداح : الناقة الطويلة أو الكريمة أو العظيمة أو السمينة أو القوية الشديدة التامة .

الألفاظ ، مجيداً فيها ، ولم يكن عارفا بعلم النحو ، فإنه يُفْسِدُ ما يصوغه من الـكلام . ويَخْتَلُّ عليه ما يقصده من المعاني ، كما أريناك في ذلك المثال المتقدم .

وأما التصريف فإنه إذا لم يكن عارفا به لم تَفْسُدْ عليه معانى كلامه ، وإنما تَفْسُدُ عليه الأوضاع ، وإن كانت المعانى صحيحة ، وسيأتى بيان ذلك فى تحرير الجواب ، فنقول : أما قولك إن التصريف لا حاجة إليه ، واستدلالك بما ذكرته من المثال المضروب ، فإن ذلك لا يستمرُّ لك الـكلام فيه . ألا ترى أنك مثلت كلامك فى لفظة « سِرْداح » ، وقلت إنه لا يُحْتَاجُ إلى معرفة الألف زائدة هى أم أصلية ، لأنها إنما نُقِلَتْ عن العرب على ما هى عليه من غير زيادة ولا نقص ، وهذا لا يَطَّرِدُ إلا فيما هذا سبيلُه من نقل الألفاظ على هيئتها من غير تصرف فيها بحال ، فأما إذا أريد تصغيرها أو جمعها والنسبة إليها فإنه إذا لم يَعْرِفِ الأصل فى حروف الـكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها يَضِلُّ حينئذ عن السبيل ، وينشأ من ذلك مجالٌ للعائب والطاعن . ألا ترى أنه إذا قيل للنحوى — وكان جاهلا بعلم التصريف — كيف تُصَغِّرُ لفظة « اضطراب » ؟ فإنه يقول : « ضُطَيْرِب » ولا يلام على جهله بذلك ، لأن الذى تقتضيه صناعة النحو قد أتى به ، وذلك أن النحاة يقولون إذا كانت الـكلمة على خمسة أحرف وفيها حرف زائد أو لم يكن حذفته ، نحو قولهم فى « منطلق » « مُطَيْلِق » وفى « جَحْمَرِش »[1] « جُحَيْمِر » . فلفظة « منطلق » على خمسة أحرف ، وفيها حرفان زائدان ، هما الميم والنون ، إلا أن الميم زيدت فيها لمعنى ، فلذلك لم تُحْذَفْ ، وحذفت النون . وأما لفظة « جَحْمَرِش » فخماسية لا زيادة فيها ، وحذف منها

(١) الجحمرش : العجوز الـكبيرة والمرأة السمجة والأرنب المرضع والخشناء من الأفاعى

حرف أيضا . ولم يعلم النحوى أن علماء النحو إنما قالوا ذلك مُهْمَلاً اتكالا منهم على تحقيقه من علم الصرف ، لأنه لا يلزمهم أن يقولوا فى كتب النحو أكثر مما قالوا ، وليس عليهم أن يذكروا فى باب من أبواب النحو شيئاً من التصريف ، لأن كلا من النحو والتصريف عِلْمٌ منفرد برأسه ، غير أن أحدهما مرتبط بالآخر ومحتاج إليه ، وإنما قلت : إن النحوى إذا سئل عن تصغير لفظة « اضطراب » يقول : « ضُطَيْرِب » لأنه لا يخلو إما أن يَحْذِف من لفظة « اضطراب » الألف أوالضاد أو الطاء أو الراء أوالباء . وهذه الحروف ـ المذكورة غير الألف ـ ليست من حروف الزيادة فلا تحذف ، بل الأَوْلَى أن يُحْذَفَ الحرف الزائد ، ويترك الحرف الذى ليس بزائد . فلذلك قلنا : إن النحوى يصغِّر لفظة «اضطراب» على « ضُطَيْرِب» ليحذف الألف التى هى حرف زائد دون غيرها مما ليس من حروف الزيادة . وإما أن يَعْلَمَ أن الطاء فى « اضطراب » مبدلة من تاء ، وأنه إذا أريد تصغيرها تعاد إلى الأصل الذى كانت عليه وهو التاء فيقال : « ضُتَيْرِب » فإن هذا لا يعلمه إلا التصريفىّ ، وتكليفُ النحوىِّ الجاهلِ بعلمِ التصريف معرفةَ ذلك كتكليفه علمَ مالم يَعْلَمْه ، فثبت بما ذكرناه أنه يَحْتَاجُ إلى علم التصريف ، لئلا يَغْلَط فى مثل هذا .

ومن العجب أن يقال إنه لا يحتاج إلى معرفة التصريف . ألم تعلم أن نافع بن أبى نُعَيْم[1] — وهو من أكبر القُرَّاء السبعة قدراً ، وأفخمهم شأنا — قال فى « معايش[2] » « معائش » بالهمز ؟ ولم يعلم الأصل فى ذلك فأُوخِذَ عليه ،

(١) نافع بن أبي نعيم أحد القراء السبعة ، وهو نافع بن عبد الرحمن ، وهو مولى جعونة بن شعوب الشجعى ، كان أسود شديد السواد ، وأصله من أصبهان ، توفى سنة ١٦٩ ﻫ بالمدينة .
(٢) فى سورة الأعراف «ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ماتشكرون» آية ١٠ و فى سورة الحجر « وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » آية ٢٠

وعِيب من أجله . ومِنْ جملة مَنْ عابه أبو عثمان المازني[١] فقال فى كتابه فى التصريف: إن نافعاً لم يَدْرِ ما العربيةُ . وكثيراً ما يقع أولو العلم فى مثل هذه المواضع ، فكيف الجُهَّالُ الذين لا معرفة لهم بها ، ولا اطّلاعَ لهم عليها ؟ وإذا عَلِمَ حَقيقة الأمر فى ذلك لم يَغلَطْ فيما يوجب قَدْحًا ولا طَعْنا . وهذه لفظة « معايش » لا يجوز همزها بإجماعٍ من علماء العربية ، لأن الياء فيها ليست مُبْدَلَةً من همزة ، وإنما الياء التى تُبْدَلُ من الهمزة فى هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف ، ويكون بعدها حرف واحد ، ولا تكون عينا نحو « مقائن » وفى هذا الموضع غَلِطَ نافعٌ ، رحمة الله عليه ، لأنه لا شَكَّ اعتقد أن « معيشة » بوزن فعيلة ، وجمع فعيلة هو على فعائل . ولم ينظر إلى أن الأصل فى « معيشة » « مَعْيِشَة » على وزن مَفْعِلَة ، وذلك لأن أصل هذه الكلمة مِنْ « عاش » التى أصلها « عَيَشَ » على وزن فَعَلَ ، ويَلْزَمُ مضارعُ فِعْلِ المعتلّ العَيْنِ « يَفْعِلُ » لتصح الياء نحو « يَعْيِشُ » ، ثم تُنْقَلُ حركةُ العين إلى الفاء فتصير « يَعِيشُ » ثم يبنى من « يعيش » مفعول فيقال « مَعْيُوشٌ به » كما يقال « مَسْيُورٌ به » ثم يُخَفَّفُ ذلك بحذف الواو ، فيقال « مَعِيشٌ به » كما يقال « مَسِيرٌ به » ثم تُؤَنثُ هذه اللفظة ، فتصيرُ « مَعِيشَة » .

ومع هذا فلا ينبغى لصاحب هذه الصناعة من النظم والنثر أن يُهْمِلَ من

---

(١) أبو عثمان المازني هو بكر بن محمد بن بقية ، وقيل ابن عدى بن حبيب ، نزل فى بنى مازن فنسب إليهم . وهو بصرى . روى عن أبى عبيدة والأصمعى وأبى زيد . وعنه المبرد والفضل بن محمد اليزيدى وغيرهم . وكان إماماً فى العربية متسعاً فى الرواية . وكان لا يناظره أحد إلا قطعه لقدرته على الكلام . وقال المبرد : لم يكن بعد سيبويه أعلم بالنحو من أبى عثمان وله تصانيف كثيرة فى النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافى . توفى سنة ٢٤٧ هـ .

علم العربية ما يَخْفَى عليه بإهماله اللَّحْنُ الخَفِيُّ ، فإنَّ اللحنَ الظاهرَ قد كثرت مُفاوضاتُ الناس فيه ، حتى صار يعلمه غيرُ النحويِّ . ولا شك أن قِلَّةَ المبالاة بالأمر ، و استشعارَ القدرة عليه ، تُوقِعُ صاحِبَهُ فيما لا يَشْعُرُ أنه وَقَعَ فيه ، فَيُجَهَّلُ بما يكونُ عالمًا به . ألا ترى أن أبا نواس[1] كان معدوداً فى طبقات العلماء مع تقدمه فى طبقات الشعراء ، وقد غَلِطَ فيما لا يَغْلَطُ مثلُهُ فيه ، فقال فى صفة الخمر :

كأن صُغْرَى وكُبْرَى من فواقعها حَصْبَاءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذّهب[2]

وهذا لا يَخْفَى على مثل أبى نواس ، فإنه من ظواهرِ عِلْمِ العربية ، وليس من غوامضه فى شىء ، لأنه أمر نقلى يَحْمِلُ ناقله فيه على النقل من غير تصرُّفٍ . وقولُ أبى نواس « صُغْرَى » « وكُبْرَى » غيرُ جائز ، فإن فُعْلَى أَفْعَل لا يجوز حذف الألف واللام منها ، وإنما يجوز حذفها من فُعْلَى التى لا أَفْعَلَ لها ، نحو « حبْلَى » إلا أن تكون فُعْلَى أفعلَ مضافةً ، وهاهنا قد عَرِيَتْ عن الإضافة وعن الألف واللام ، فانظر كيف وقع أبو نواسٍ فى مثل هذا الموضع ، مع قربه وسهولته .

---

(١) أبو نواس هو الحسن بن هانى بن عبد الأول بن الصباح الحكمى ، ولد سنة ١٤١ هـ فى كورة خوزستان ، واشتغل فى صباه عند عطار حتى تعرف إلى والبة بن الحباب فأعجب به وصحبه إلى الكوفة ثم بغداد ، وهناك صحب الشعراء ، ودرس على العلماء حتى أصبح من أشهر أهل عصره وأغزرهم علما ، وطار ذكره فى الآفاق ، واتصل بالرشيد والأمين ومدحهما ونال منهما الجوائز السنية ، وتوفى أبو نواس فى الثامنة والخمسين من عمره سنة ١٩٩ هـ .

(٢) ديوان أبى نواس : ص ٢٤٣ (فواقعها) بالواو كما هنا ، وأكثر الرواة على أنها (فقاقعها) بالقاف ، وهى النفاخات التى تعلو الماء أو الخمر . ومحل الخطأ قوله «صغرى وكبرى» حيث جاء بأفعل التفضيل مؤنثاً ، مع كونه مجرداً من أل ومن الإضافة ، وكان حقه أن يأتى به مفرداً مذكراً . فيقول « أصغر وأكبر » . وقد اعتذر بعض العلماء عنه بأنه لم يرد التفضيل ، وإنما أراد معنى الوصف المجرد عن الزيادة .

وقد غلط أبو تمام[١] فى قوله :

بالقائمِ الثَّامنِ المستَخْلَفِ اطْأَدَتْ[٢] قواعِدُ المُلْكِ مُمْتَدًّا لهـا الطّولُ

ألا ترى أنه قال « اطْأَدَتْ » والصواب « اتَّطَدَتْ » لأن التاء تبدل من الواو فى موضعين : أحدهما مَقِيسٌ عليه كهذا الموضع ، لأنك إذا بَنَيْتَ افتعل من الوعْدِ قلت « اتَّعَدَ » ، ومثله ما ورد فى هذا البيت ، فإنه من وَطَدَ يَطِدُ كما يقال وَعدَ يَعِدُ ، فإذا بُنى افتعل قيل « اتَّطَدَ » ، ولا يقال « اطَّأَدَ » . وأما غيرُ المقيس فقولهم فى وجاه « تُجَاه » وقالوا « تُكْلان »[٣] وأصله الواو لأنه من وكَلَ يَكِلُ ، فأبدلت الواو تاء للاستحسان . فهذه الأمثلة قد أشَرْتُ إليها ، ليُعْلَمَ مكانَ الفائدة فى أمثالها ، و تُتَوَقَّى . على أنى لم أجد أحدا من الشُّعراء المُفْلِقِين سلِمَ من مثل ذلك ، فإما أن يكون لَحَنَ لَحناً يدل على جهله مواقع الإعراب ، وإما أن يكون أخطأ فى تصريف الكلمة . ولا أعْنِى بالشعراء

---

(١) أبو تمام هو حبيب بن أوس الطائي ؛ قال الآمدى فى الموازنة : والذى عند أكثر الناس فى نسب أبى تمام أن أباه كان نصرانياً من أهل جاسم — قرية من قرى دمشق — يقال له تدوس العطار فجعلوه أوساً ؛ ولفقت له نسبة إلى طيء . وكان واحد عصره فى ديباجة لفظه ونصاعة شعره وحسن أسلوبه ؛ وله كتاب الحماسة الذى دل على غزارة فضله وإتقان معرفته بحسن الاختيار ، وله مجموع آخر سماه « فحول الشعراء » جمع فيه بين طائفة كثيرة من شعراء الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين ، وله كتاب «الاختيارات من شعر الشعراء» وكان له من المحفوظات مالا يلحقه فيه غيره . وقيل إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع . ومدح الخلفاء وأخذ جوائزهم ، وجاب البلاد . وتوفى بالموصل سنة ٢٣١ هـ

(٢) فعله المجرد وطد يقال وطد الشيء يطده بالتخفيف كوعد يعد ، فهو وطيد وموطود أثبته وثقله كوطده فتوطد بالتشديد ورواية الديوان «اعتدلت» موضع «اطأدت» ص ٢٢٧ .

(٣) تجاه ووجاه مثلثتين تلقاء الوجه . أراد أن كلمة تجاه فيها تاء ليست فى الأصل والتكلان : الاسم من التوكل .

من هو قريب عهد بزماننا، بل أعنى بالشعراء من تقدّم زمانه، كالمتنبى[١] ومن كان قبله، كالبحترى[٢]، ومن تقدمه كأبى تمام، ومن سبقه كأبى نواس والمعصوم من عصمه الله تعالى.

على أن المخطىء فى التصريف أندَرُ وقوعًا من المخطىء فى النحو، لأنه قلَّما يقع له كلمة يحتاج فى استعمالها إلى الإبدال والنقل فى حروفها، وأما النحو فإنه يقع الخطأ فيه كثيرا، حتى إنه ليَشِذُّ فى ظاهره فى بعض الأحوال، فكيف خافيه، كقول أبى نواس فى الأمين محمد رحمه الله:

يا خيرَ مَنْ كان ومَنْ يكونُ   إلا النبىُّ الطاهرُ الميمونُ[٣]

فرفع فى الاستثناء من للموجَبِ، وهذا من ظواهر النحو، وليس من خافيه فى شىء.

---

(١) المتنبي هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الشاعر المشهور، من أهل الكوفة، وقدم الشام فى صباه وجال فى أقطاره واشتغل بفنون الأدب ومهر فيها، وكان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيها، ولا يسأل عن شىء إلا استشهد فيه بكلام العرب، وإنما قيل له المتنبي لأنه ادعى النبوة فى بادية السماوة وتبعه خلق كثير من بنى كلب وغيرهم، فخرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيدية فأسره وتفرق أصحابه، وحبسه طويلا ثم استتابه وأطلقه ثم التحق بسيف الدولة بن حمدان فى سنة ٣٣٧ هـ، ثم فارقه إلى مصر سنة ٣٤٦ هـ ومدح كافورا الإخشيدى، ولما لم يرضه هجاه، وفارقه ليلة النحر سنة ٣٥٠ هـ ومات مقتولا سنة ٣٥٤ هـ.

(٢) البحترى هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي ولد بناحية منبج سنة ٢٠٦ هـ وتنقل فى قبائل طيء وغيرها من البدو الضاربين فى شواطىء الفرات فغلبت عليه فصاحة العرب، واتصل بالمتوكل والفتح بن خاقان حتى قتلا، ويمتاز شعره برقة الأسلوب وحسن الخيال وإجادة الوصف والرثاء والعتاب والغزل والمديح، توفي البحترى سنة ٢٨٤ هـ.

(٣) ديوان أبى نواس ص ١١٧، وقد أبقينا لفظ «النبي» مرفوعاً لأن مبنى النقد على ذلك. ويمكن أن يكون منصوبا ولا خطأ فيه. ويرفع مابعده على أنه نعت مقطوع.

وكذلك قال أبو الطيب المتنبي[١] .

أرأيتَ هِمَّـــةَ ناقتى فى ناقةٍ ... نَقَلتْ يدًا سُرُحًا وخُفًّا مُجْمَرًا[٢]
ترَكتْ دُخانَ الرِّمْثِ فى أوطانِها ... طَلَبًا لقومٍ يُوقدُونَ العَنْبَرَا[٣]
وتكرَّمَتْ رُكَبَاتُها عَنْ مَبْرَكٍ ... تقعَانِ فيه وَلَيْسَ مِسْكًا أذْفَرَا[٤]

فجمع فى حال التثنية ، لأن الناقة ليس لها إلّا ركبتان ، فقال « رُكَبَات » . وهذا من أظهر ظواهر النحو ، وقد خَفِيَ على مثل المتنبي .

ومع هذا فينبغى لك أن تعلم أن الجهل بالنحو لا يَقْدَحُ فى فصاحة ولا بلاغة ، ولكنه يقدح في الجاهل به نَفْسِه ، لأنه رُسومُ قومٍ تواضعوا عليه ، وهم الناطقون باللغة ، فوجب اتباعُهم .

والدليل على ذلك أن الشاعر لم يَنْظِمْ شعره وغرضه منه رفعُ الفاعل ونصبُ المفعولِ أو ما جرى مجراهما ، وإنما غرضه إيرادُ المعنى الحَسَنِ فى اللفظ الحسن المتَّصِفَيْنِ بصفة البلاغة والفصاحة ، ولهذا لم يكن اللحن قادحاً فى حسن الكلام ، لأنه إذا قيل « جاء زيد راكبْ » إن لم يكن حسناً إلا بأن يقال « جاء راكباً »

---

(١) من قصيدة يمدح بها أبا الفضل محمد بن العميد ؛ ومطلعها :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا ... وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

(٢) الديوان : ٢/١٦٨ والسرح : السهلة السير ، والخف المجمر : الشديد الصلب ، أو هو الخفيف السريع من قولهم « أجمرت الناقة » إذا أسرعت . يخبر عن علو همته ؛ لأنه يحمل ناقته على السير .

(٣) الرمث : نبت يوقد به ، وهو من مراعى الإبل . يقول تركت الأعراب ووقودهم هذا الرمث ، وأتيت قوما وقودهم من العنبر .

(٤) ركباتها : جمع ركبة ، وإنما عنى اثنين ، وهو كقوله جل وعلا « فقد صغت قلوبكما » وذلك أن أقل الجمع اثنان ، فجاز أن يعبر عنهما بالجمع ، ودل على أنه أراد التثنية أنه أخبر عنهما بالتثنية فقال « تقعان » ، والأذفر : الشديد الرائحة . يقول : تكرمت ناقتى عن البروك إلا على المسك الأذفر ، لأن العنبر يوقد بحضرة الممدوح ، والمسك ممتهن عنده ، بحيث تبرك عليه ناقتى .

بالنصب لكان النحو شرطا فى حسن الكلام ، وليس كذلك ، فتبيَّن بهذا أنه ليس الغرضُ من نظم الشعر إقامةَ إعراب كلماته ، وإنما الغرض أمرٌ وراء ذلك ، وهكذا يجرى الحكم فى الخطب والرسائل من الكلام المنثور .

وأما الإدغام فلا حاجة إليه للكاتب ، لكنَّ الشاعر ربما احتاج إليه ، لأنه قد يُضطَرُّ فى بعض الأحوال إلى إدغام حرف ، وإلى فكِّ إدغام ، من أجل إقامة الميزان الشعرى .

[النوع الثانى : معرفة ما يحتاج إليه من اللغة]

النوع الثانى[١] وهو قولنا إنه يحتاج إلى معرفة اللغة مما تداول استعماله ، فسيردُ بيانه عند ذكر اللفظة الواحدة ، والكلامِ على جيدها ورديئها فى المقالة المختصة بالصناعة اللفظية .

ويفتقر أيضاً مؤلف الكلام إلى معرفة عدة أسماء لما يقع استعماله فى النظم والنثر ، ليجد — إذا ضاق به موضعٌ فى كلامه بإيراد بعض الألفاظ فيه — العدول عنه إلى غيره ومما هو فى معناه ، وهذه الأسماء تسمى « المترادفة » وهى اتحاد المسَمَّى واختلافُ أسمائه ، كقولنا الخمر ، والرّاح ، والمُدام ، فإن المسمى بهذه الأسماء شيءٌ واحد ، وأسماؤه كثيرة .

وكذلك يحتاج إلى معرفة الأسماء « المشتركة » ليستعين بها على استعمال « التجنيس » فى كلامه ، وهى اتحاد الاسم واختلاف المسميات ، كالسين فإنها

(١) ذكر من قبل فى صفحة ٤٣ . أن البليغ يحتاج إلى معرفة ثمانية أنواع ، الاول معرفة علم العربية من النحو والتصريف . وهذا هو النوع الثانى .

نطلق على العين الناظرة ، وعلى ينبوع الماء ، وعلى المطر ، وغيره ، إلا أن المشتركة تفتقر فى الاستعمال إلى قرينة تخصصها ، كى لا تكون مبهمة ، إذا قلنا « عين » ثم سكتنا وقع ذلك على محتملات كثيرة من العين الناظرة ، والعين النابعة ، والمطر ، وغيره ، مما هو موضوع بإزاء هذا الاسم ، وإذا قَرَنَّا إليه قرينة تخصه زال ذلك الإبهام بأن تقول : عين حَسْنَاء أو عينٌ نَضَّاخَة[1] أو مُلِثَّة[2] أو غير ذلك .

وهذا موضع للعلماء فيه مجاذباتٌ جَدَلِيَّة ، فمنهم من ينكر أن يكون اللفظ المشترك حقيقة فى المعنَيَيْنِ جميعا ، ويقول إن ذلك يُخِلُّ بفائدة وَضْعِ اللغة ، لأن اللغة إنما هى وضعُ الألفاظ فى دلالتها على المعانى ، أى وَضْعُ الأسماء على المسَمَّيات ، لتكون مُنْبِئَةً عنها عند إطلاق اللفظ ، والاشتراكُ لا بيانَ فيه ، وإنما هو ضدُّ البيان ، لكن طِريقَ البيان أن يُجْعَلَ أحدُ المعنيين فى اللفظ المشترك حقيقةً ، والآخَرُ مجازاً .

فإذا قلنا « هذه كلمةٌ » وأطلقنا القول فُهِمَ منه اللفظة الواحدة ، وإذا قيدنا اللفظة فقلنا : هذه كلمةٌ شاعرة ، فهم القصيدة المقَصَّدَةُ من الشعر ، وهى مجموع كلمات كثيرة ، ولو أطلقنا من غير تقييد وأردنا القصيدة من الشعر لما فُهِم مرادنا البَتَّةَ

هذا خلاصة ما ذهب إليه من ينكر وقوعَ اللفظ المشترك فى المعْنَيَيْنِ

---

(١) عين نضاخة : ينبثق منها الماء فى قوة . (٢) ملثة : دائمة المطر .

حقيقةٌ ، وفى ذلك ما فيه ، وسأُبيّن ما يدخله من الخَلَل ، فأقولُ فى الجوابِ عن ذلك ما استخرجتُه بفكرِى ، ولم يكنْ لأحدٍ فيه قولٌ من قبلى ، وهوَ :
أما قولك : إن فائدة وَضْعِ اللغة إنما هو البيانُ عند إطلاقِ اللفظ ، واللفظُ المُشْتَرَك يُخِلُّ بهذه الفائدة ، فهذا غير مُسَلَّمٍ ، بل فائدة وَضْعِ اللغة هو البيانُ والتَحْسِين .

أَمَّا البيانُ فقد وَرَدَ فى الأسماءِ المتباينة التى هى كلُّ اسمٍ واحدٍ دلَّ على مُسَمّى واحد ، فإذا أُطلِقَ اللفظُ فى هذه الأسماء كان بَيِّناً مفهوما ، لا يَحْتَاجُ إلى قَرِينَة . ولو لم يَضَع الواضعُ من الأسماء شيئاً غَيْرَها ، لـكان كافياً فى البيان .

وأما التَّحْسِينُ فإنَّ الواضعَ لهذه اللُّغةِ العربية ، التى هى أَحْسَنُ اللغاتِ ، نَظَرَ إلى ما يَحْتَاجُ إليه أرباب الفَصَاحةِ والبلاغةِ فيما يَصُوغُونَه من نظمٍ ونثرٍ ، ورأى أنَّ من مُهِمَّاتِ ذلك (التجنيس) ، ولا يقوم به إلا الأسماء المشتركة ، التى هى كل اسم واحد دل على مُسَمَّيَيْن فصاعدا ، فوضَعَها من أجل ذلك . وهذا الموضع يتجاذبهُ جانبان ، يترجَّحُ أحدُهما على الآخر .

وبيانه أنَّ التحسينَ يَقْضِى بوضْع الأسماءِ المشتركة ، وَوَضْعُها يذهب بفائدة البيان عند إطلاق اللفظ ، وعلى هذا فإنْ وَضَعَها الواضع ذهب بفائدة البيان ، وإن لم يضَعْ ذهب بفائدة التحسين ، لـكنَّه إنْ وَضَعَ اسْتَدْرَكَ ما ذهبَ من فائدة البيان بالقَرِينَة ، وإن لم يضعْ لم يَسْتَدْرِكْ ما ذهب من فائدة التحسين ، فترجح حينئذ جانب الوَضْع فوَضَع .

فإن قيل : فلم لا تنسَبُ الأسماء المشتركة إلى اختلاف القبائل ، لا إلى واضع واحد ؟

قلت فى الجواب : هذا تَعَسُّفٌ لا حاجة إليه ، وهو مدفوع من وجهين : أحدهما : ما قَدَّمْتُ القولَ فيه من الترجيح الذى سَوَّغَ للواضع أن يضعَ . الآخر : أنا نرى أنه قدورد من الجموع ما يقع على مُسَمَّيَيْنِ اثنين كقولهم : « كِعَاب » جمع « كَعْب » الذى هو كعب الرِّجْل ، وجمع « كَعْبَة » وهى البِنِيَّة[1] المعروفة . وإذا أطلقنا اللفظ فقلنا « كِعاب » من غير قرينة لا يُدْرَى ما المرادُ بذلك : أكعبُ الرِّجْل أم البَنِيَّة المعروفة ؟ وكذلك ورد واحد وجمع على وزن واحد كقولهم « راح » اسم للخمر ، و« راح » جمع راحة ، وهى الكفُّ ، وقولهم « عِقاب » وهو الجزاء على الذنب ، وجمع « عَقَبة » أيضا .

وفى اللغة من هذا شىء كثير ، وهو بالإجماع من علماء العربية أنه لم يَجْرِ فيه خلاف بين القبائل ، فاتَّضَح بهذا أن الأسماءَ المشتركة من وضع واحد .

فإن قُلْتَ : إنَّ الواضع إنما وَضَعَ المفرد من الألفاظ ، والجمعَ وضَعَه غيرُه .

قلت فى الجواب : إن الذى وضع المفرد هو الذى وَضَعَ الجمع ، لأنَّ من قواعد وضع اللغة أن يوضَعَ المفردُ والجمعُ والمذكرُ والمؤنَّثُ والمصغَّر والمكبَّر والمصادر وأسماء الفاعلين ، وما جَرَى هذا المجرى ، وإذا أَخَلَّ بشىء من ذلك كان قد أخل بقاعدةٍ من قواعد وضع اللغة .

---

(١) قال صاحب القاموس : والبنية كغنية الكعبة لشرفها .

ثم لو سلَّمْتُ لك أنَّ واضعَ الجمع غيرُ واضعِ المفرد لكان ذلك قدْحًا في الواضع الثاني، إذ جاء بالإبهام عند إطلاق اللفظ، لأنه جمع كعبة — التي هي البَنِيَّةُ، وكعب الرجل — على «كِعَاب»، وهذا اللفظُ مُشْتركٌ مُبْهَمٌ عند الإطلاق، ولا فرقَ بين أن يضعَه الواضعُ الأولُ أو واضعٌ ثانٍ، فإن الإبهام حاصل منه.

وكان فاوضني بعض الفقهاء في قوله تعالى في سورة البقرة: «صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ [1]». وقال إن لون البقرة كان أسود، والأصفر هو الأسود، فأنكرت عليه هذا القول، فأخذ يجادلُ مجادلةَ غير عارفٍ، ويعزو ذلك إلى تفسير النقاش [2] وتفسير البلاذُرِي [3].

فقلت له: اعلم أن هذا الاسم الذي هو «الأصفر» لا يخلو في دلالته على الأسود من وجهين: إمَّا أنه من الأسماء المتباينة، التي يدلُّ كلُّ اسم منها على مُسَمًّى واحد، كالإنسان والأسد والفرس وغير ذلك، وإما أنّه من الأسماء المشتركة، التي يدلُّ الاسمُ منها على مُسَمَّيين فصاعدا.

---

(١) سورة البقرة: آية ٦٩

(٢) النقاش: هو أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون المقرئ النقاش الموصلي بغدادي المولد والمنشأ، كان عالما بحروف القرآن حافظا للتفسير، صنف فيه كتابا سماه «شفاء الصدور» وله تصانيف في القراءة وغيرها من العلوم. ذكره طلحة بن محمد بن جعفر فقال: كان يكذب في الحديث والغالب عليه القصص. وسئل أبو بكر البرقاني عنه فقال: كان حديثه منكراً، وقال البرقاني — وذكر تفسير النقاش — فقال: ليس فيه حديث صحيح، ولد النقاش سنة ٢٦٦ هـ وكانت وفاته سنة ٣٤١ هـ

(٣) البلاذري: أبو الحسن وقيل أبو بكر أحمد بن يحيي بن جابر ولد في أواخر القرن الثاني للهجرة، ونشأ ببغداد، وتقرب من المتوكل والمستعين والمعتز. وقد عهد إليه المعتز بتثقيف ابنه عبدالله. ومن تآليفه فتوح البلدان، والقرابة وتاريخ الأشراف، وكان يجيد الفارسية وقد ترجم عنها عهد أردشير، وقد جن في آخر أيامه، وتوفي سنة ٢٧٩ هـ

ولا يجوز أن يكونَ من الأسماء المتباينة ، لأنَّا نراه متجاذَبًا بين لونين : أحدهما : هذا اللونُ الزعفرانيُّ الشكل ، والآخرُ : اللونُ المظلمُ الشكل . وعلى هذا فإنّه يكونُ من الأسماء المشتركة ، وإذا كانَ من الأسماءِ المشتركه فلا بُدّ له من قَرِينَة تُخَصِّصُه باللَّونِ الزَّعْفَرانىّ دُونَ اللونِ المظلم ، لأن اللهَ تعالى قال : « صَفْرَاء فاقِعٌ لَوْنُها » والفاقع من صفات اللون الزعفرانى خاصة ، لأنه قد ورد للألوان صفاتٌ متعددة ، لكل لون منها صفة ، فقيل أبيضُ يَقَقٌ[1] وأسْوَدُ حالك ، وأحْمَرُ قانٍ ، وأصفرُ فاقِع ، ولم يُقَلْ : أسودَ فاقع ، ولا أصفرُ حالك ، فعُلِمَ حينئذٍ أن لون البقرة لم يكن أسودَ ، وإنما كان أصفر .

فلما تحقق عند ذلك الفقيه ما أشرت إليه أذعن بالتسليم .

[النوع الثالث : معرفة أمثال العرب وأيامهم]

وأما النوع الثالث فهو معرفةُ أمثالِ العَرَب وأيَّامِهم ، ومعرفة الوقائع التى وردتْ فى حوادثَ خاصَّة بأقوام .

وقولى هذا لا يقتضى كل الأمثال الواردة عنهم ، فإنَّ منها مالا يَحْسُنُ استعماله ، كما أنَّ من ألفاظهم أيضاً مالا يَحْسُنُ استعماله .

وكنت جرَّدتُ من كتاب الأمثال للميدانى[2] أوراقاً خفيفةً تشتمل على

---

(١) أبيض يقق بفتحتين وككتف شديد البياض .

(٢) الميدانى : هو أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميدانى النيسابورى ، كان أديبا فاضلا ، عارفا باللغة ، اختص بصحبة أبي الحسن الواحدى صاحب التفسير ، ثم قرأ على غيره وأتقن فن العربية خصوصا اللغة وأمثال العرب ، وله فيها التصانيف المفيدة ، منها كتاب مجمع الأمثال ، ولم يعمل مثله فى بابه ، وكتاب السامى فى الأسامى ، توفى سنة ٥١٨ هـ بنيسابور ، والميدانى نسبة إلى « ميدان » وهى محلة فى نيسابور .

الحسن من الأمثال الذى يدخُلُ فى باب الاستعمال . وسبيلُ للتصدّى لهذا الفنّ أن يَسْلُكَ ما سلكته ، وليعلمْ أنَّ الحاجةَ إليها شديدة ، وذلك أنَّ العربَ لم تضع الأمثالَ إلا لأسبابٍ أوْجَبَتْهَا ، وحوادثَ اقتضتها ، فصار المثل المضروب لأمرٍ من الأمور عندهم كالعلامة التى يُعْرَفُ بها الشئ ، وليس فى كلامهم أوْجَزُ منها ، ولا أشَدُّ اختصاراً .

وسببُ ذلك ما أذكره لك ، لتكونَ من معرفته على يقين ، فأقول : قد جاء عن العرب من جملة أمثالهم « إن يَبْغِ عليكَ قومُكَ لا يَبْغِ عَلَيْكَ القمرُ[1] » وهو مثل يضرب للأمر الظاهر المشهور ، والأصل فيه — كما قال المفضَّلُ بن محمد — أنه بلغنا أنَّ بنى ثَعْلَبة بن سعد بن ضَبَّةَ فى الجاهلية تراهنوا على الشمس والقمر ليلة أرْبعَ عَشْرَةَ من الشهر ، فقالت طائفة : تَطْلُعُ الشمسُ والقمرُ يُرَى ، وقالت طائفة يَغيبُ القمرُ قبل أن تَطْلُعَ الشمسُ . فتراضَوْا برجل جعلوه حَكَماً[2] ، فقال واحدٌ[3] منهم : إن قومى يَبْغُون علىَّ . فقال الحَكَمُ[4] : « إن يَبْغِ عَلَيْكَ قومُكَ لا يَبْغِ عَلَيْكَ القمر » فذهبتْ مثلا .

ومن المعلوم أن قولَ القائل « إن يَبْغِ عليك قومُك لا يَبْغِ عَلَيْكَ القمر » إذا أُخِذَ على حقيقته ، من غير نظرٍ إلى القرائن المَنُوطة به والأسباب التى قيل من أجلها ، لا يُعْطِى من المعنى ما قد أعطاه المثل ، وذلك أن المثلَ له

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ١ / ٣٠

(٢) رواية مجمع الأمثال « فتراضوا برجل جعلوه بينهم »

(٣) رواية مجمع الأمثال « فقال رجل منهم »

(٤) رواية مجمع الأمثال « فقال العدل »

مقدمات وأسبابٌ قد عُرِفَتْ ، وصَارتْ مشهورة بين الناس ، معلومةً عندهم ، وحيثُ كان الأمرُ كذلك جازَ إيرادِ هذه اللفظات في التعبير عن المعنى المراد .

ولولا تلك المقدّمات المعلومة والأسباب المعروفة لما فُهِمَ من قول القائل « إن يَبْغِ عَلَيْكَ قومُكَ لا يَبْغِ عليك القمر » ما ذكرناه من المعنى المقصود ، بل ما كان يفهم من هذا القول معنًى مفيد ، لأن البَغْيَ هو الظلم ، والقمر ليس من شأنه أن يَظْلِمَ أحداً ، فكانَ يصيرُ معنى المثل : إن كانَ يظلمكَ قومُكَ لا يظلمْك القمر ، وهذا الكلام مختل المعنى ، ليس بمستقيم .

فلما كانت الأمثالُ كالرُّمُوز والإشارات التي يُلوَّحُ بها على المعانى تلويحاً صارت من أوْجَز الكلام وأكثر حصناً .

ومن أجل ذلك قيل فى حدِّ المثل : إنه القول الوجيز المرسَلُ ليُعْمَلَ عليه ، وحيث هى بهذه المَثَابة فلا ينبغى الإخلالُ بمعرفتها .

وأما أيامُ العربِ فإنها تتنوَّع وتتشعَّبَ ، فمنها أيامُ فَخَارٍ ، ومنها أيامُ مُحاربةٍ ، ومنها أيام مُنافرَة ، وغيرُ ذلك .

ولا يخلو الناظم والناثر من الانتصاب لوصف يوم يَمُرُّ به فى بعض الأحوال شبيهاً بيومٍ من تلك الأيام ، ومماثلا له ، فإذا جاء بذكر بعض تلكَ الأيامِ المناسبةِ لمرُادِه ، الموافقةِ له ، وقاسَ عليه يَوْمَه ، فإنَّه يكونُ فى غايةِ الحسن والرَّوْنقِ . هذا لاخَفاء به .

وأما الوقائع التى وَرَدَتْ فى حوادثَ خاصَّة بأقوامٍ ، فإنها كالأمثالِ فى الاستشهاد بها ، وسأبيّن لك نُبذَةً منها حتَّى تعلمَ مقدارَ الفائدة بها . فمن ذلك

أنه ورد عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم حديثُ بَيْعَةِ الحُدَيْبِيَةِ [١] تحت الشجرة وكان أرسل عثمان — رضى الله عنه — إلى مكة فى حاجةٍ عرَضَتْ له ولم يَحْضر البَيْعَة ، فضربَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم بيده الشِّمالِ على اليمين ، وقال: هذه عن عثمان ، وشِمَالِي خيرٌ من يمينه .

وقد استعملتُ أنا هذا فى جُمْلة كتابٍ ، فقلت : ولا يُعَدُّ البرّ برًّا حتى يُلحِقَ الغَيْثَ بالحَصُور [٢] ، وَيَصِلَ مَنْ لَمْ يَصِلْهُ بجزاء ولا شُكُور ، فَزِنَة الغائب بالشاهدِ من كَرَمِ الإحسانِ ، ولهذا نابتْ شِمالُ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلم عن يمينِ عُثْمَان . ومن ذلك أنه ورد عن عُمَرَ بن الخطابَ — رضى الله عنه — أنه اسْتَدْعَى أبا موسى الأشْعَرىّ وَمَنْ يليه من العمال ، وكان منهم الربيعُ بنُ زيادٍ الحارثىّ ، فمضى إلى يَرْفأ مولى عمر ، وسأله عما يَرُوجُ عنده ويَنْفُقُ عليه ، فأشارَ إلى خُشُونَةِ العيش ، فمضى ولبس جُبَّةَ صوف وعمامةً دَسْمَاءَ [٣] وخُفًّا مُطابقا ، وحضر بين يديه فى جُمْلَةِ العمال ، فصَوَّبَ عُمَرُ نظره وصَعَّدَه ،

---

(١) خرج النبي صلى الله عليه وسلم فى آخر سنة ست معتمراً لايريد حربا واستنفر العرب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت ، وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن القرشيون حربه ، لكن قريشا لما علمت بمقدمه خرجت للقائه وبعثت مندوبين عنها فأخبرهم الرسول بأنه قدم زائرا للبيت ، وعاد المندوبون إلى قريش فاتهمتهم وسفهتهم ، فأراد النبي أن يبعث عمر بن الخطاب موفدا عنه إلى قريش ليؤكد لهم أن المهاجرين والأنصار إنما قدموا زواراً لا محاربين ، فاعتذر عمر ؛ لأنه خشى على نفسه من عدوان قريش عليه ، إذ ليس بمكة من بنى عدى أحد يحميه ، وأشار على النبى أن يرسل عثمان بن عفان ، فأرسله النبي ، فاحتبسته قريش عندها ، وعلم النبي بذلك فقال : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة على الموت ، وعلى ألا يفروا ، ثم جاء الخبر إلى النبى أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل .

(٢) الحصور من معانيه الهيوب المحجم عن الشيء ، والمراد أن هذا الممدوح يشمل بعطاياه من لم يطلبوا منه شيئا .

(٣) ملونة بالدسم

فلم يَقعْ إلا عليه ، فأدناه وسألَهُ عن حاله ، ثم أوصَى أبا موسى الأشعريَّ به .

وقد استعملت أنا هذا فى جملة تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافة فقلت :

« وإذا استعَنْتَ بأحَدٍ على عملك ، فاضربْ عليه بالأرْصَاد ، ولا ترضَ بما عرَفتَهُ عن مَبْدَأ حاله ، فإن الأحْوَال تَنْتَقِل بنَقْلِ الأجساد ، وإيَّاكَ أن تُخْدَعَ بصلاحِ الظّاهر ، كما خَدعَ عُمَرُ بنُ الخطّاب بالربيعِ بنِ زياد » .

فانظر كيفَ فعلتُ فى هاتين القصَّتين ؟ وكيف أوْرَدْتُهما فى الغرض الذى قصدتَه ؟ وامْضِ أنت على هذا النّهج ، فإنه من محاسن هذه الصنعة

وعُرِضَ علىَّ كتابٌ كتبه عبدُ الرَّحيم بنُ علىّ البيسانى — رحمه الله — عن المَلكِ صلاحِ الدِّين يُوسُف بن أُيوب — رحمه الله — إلى ديوان الخلافة ببغداد فى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، وضمَّنه ما أبلاه فى خدمة الدَّولة ، من فَتْح الدِّيار المصريَّة ، ومَحْو الدولة العلوية[1] ، وإقامة الدعوة العباسية ، وشَرَحَ فيه ما قاساه فى الفتح من الأهوال .

ولما تأملته وجدته كتاباً حَسَناً قد وَفى فيه الخطابة حقها ، إلا أنه أخَلَّ بشىء واحد ، وهو أنَّ مصرَ لم تُفْتَحْ إلاَّ بعدَ أن قَصِدتْ من الشام ثلاثَ مرات ، وكان الفتحُ فى المرة الثالثة ، وهذا له نظيرٌ فى فتح النبىّ صلى الله عليه وسلم مكة — فإنه قصدها عام الحديبية ، ثم سارَ إليها فى عُمْرة القَضَاء ، ثم سَارَ إليها عامَ الفَتْح ، ففتحها .

---

(١) الدولة العلوية هى الفاطمية ، النسبة الأولى إلى الإمام على بن أبى طالب ، والنسبة الثانية إلى السيدة فاطمة ابنته .

وقد سألني بعض الإخوان أن أنشىء في ذلك كتاباً إلى ديوانِ الخلافة مُعارضاً للكتابِ الذي أنشأهُ عبدُ الرَّحيم بنُ عليٍّ رحمه الله ، فأجبته إلى سؤاله وعَدَدْتُ مَسَاعِيَ صلاح الدين يُوسُفَ بنِ أيُّوب رحمه الله . فقلت : « ومن جُملتِها ما فعَلَهُ الخادمُ في الدولة المصريَّة ، وقد قامَ بها مِنْبَرٌ وسَرِيرٌ ، وقالت : منَّا أميرٌ ومنكُمْ أمير ، فردَّ الدعوةَ العباسيَّة إلى مَعادها ، وأذكَرَ المنابرَ ما نَسِيَتْهُ بها من زَهْوِ أعوادِها ، وكانت أُخرِجَتْ مِنها إخراجَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم من قَرْيته ، وقذَفَ الشَّيطانُ على حَقِّها بباطِلِه ، وعلى صِدْقِها بغَوايته . ثم طوَتْها اللّيالي طَيَّ السِّجِلِّ[1] للكتاب ، وكَثُرَ عليها مرورُ الدَّهر ، حتَّى نُسِيَ لها عَدَدُ السنين والحساب ، ولم يُبِدْها إلى وطنها ، حتى تغرَّبَتْ لها الأرْوَاحُ عَنْ أوطانها ، وسَهِرَتْ لها أجفانُ[2] السُّيُوف سَهَرَ العيون عن أجْفَانِها[3] ، وتطارَدَت الآراء في تسهيل أمرها قبل مُطارَدَةِ أقرانها ، وحتَّى تقدمتها غَرَبَات[4] ثلاث كلُّها ذوات غُروب[5] ، وكلُّ خَطْبٍ من خُطوبها ذُو خُطُوب ، إلى أنْ تمخَّضَ ليلُها عن صبْحِه ، وأصبحتْ في الإسلامِ كعام حُدَيبِيَتِه ، وعُمْرة قضائه ، وعامِ فَتْحِه ، وفي ذكرِ أخبارها ما يَطْبَعُ الأسنَّةَ في رُءوس الأقلام[6] ، ويُرْهِبُ سامِعَها ، ولم ينله شيء من مكروهها

---

(١) السجل : الكاتب .

(٣) أجفان السيوف : أغمادها . والأجفان : أغطية العيون من أعلى وأسفل .

(٤) غربات ثلاث : ثلاث سفرات ورحلات .

(٥) غروب : جمع غرب والمراد هنا حد السيف ، أي أن المرات الثلاث ، فيها قتال .

(٦) المراد من طبع الأسنة في رءوس الأقلام أن الأقلام التي تذكر أخبار هذا الفتح تصور معارك رهيبة فكأن في رءوس الأقلام أسنة رماح .

مثوى الكلام ، ويومها للدولة هو اليومُ الذى أرِّخ فيه معادُ نصرها ، وميعادُ بشرِها ، فإذا عُدّت لياليها السالفة كانت كسائر الليالى ، وهذه ليلة قدرها »

فهذا فصل من فصول الكتاب ، فانظر كيف ماثلتُ بين الفتح المصريّ وفتح مكّة ، وذكرتُ أيضا حديث الحبابِ بن المُنْذِر الأنصاريّ حيثُ قال بعد وفاة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : مِنّا أميرٌ ومنكم أمير ، وذلك لما حصر أبو بكر وعُمَرُ وأبو عُبَيْدَة بن الجرّاح — رضى الله عنهم — فى سقيفة بني ساعِدَة ، والقصّة مشهورة ، فقال الحَباب بن المنذر : منّا أميرٌ ومنكمْ أمير ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : « بل نَحْنُ الأمراء ، وأنتم الوزراء » . وهذا الذى ذكرته هو نكتةُ هذا الفتح التى عليها المُعَوّلُ ، ومَرْكَزُه الذى عليه يدُور .

وعجبتُ من عبد الرَّحيم بن علىّ البيسانىّ مع تقدّمِه فى فنّ الكتابة ، كيف فاته أنْ يأتىَ به فى الكتابِ الذى كتبه ؟

وكذلك وجدتُ لابنِ زيادٍ البَغْدادِىّ كتاباً كتبهُ إلى الملك الناصر صلاحِ الدّين يُوسُفَ المقدّمِ ذِكره فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وضمّنه فُصُولاً تشتملُ على أمورٍ أُنكِرتْ عليه من ديوان الخلافة ، فمن تلكَ الأُمُور التى أُنكِرَتْ عليه أنه تَلَقّبَ بالملك الناصر ، وذلك اللقبُ هو لأمير المؤمنين خاصّة ، فإنّه الإمامُ الناصرُ لدين الله . فلما وقفْتُ على ذلك الكتاب وجدتَه كتاباً حسناً قد أجاد فيه كلَّ الإجادة ، ولم أجد فيه مَغمَزاً إلا فى هذا الفصلِ

الذى يتضمن حديث اللقب، فإنه لم يأت بكلام يناسب باقى الفصول المذكورة ، بل أتى فيه بكلام فيه غثاثة ، كقوله : « ما يستصلحه المولى فهو على عبده حرام » وشيئاً من هذا النمق ، وكان الأليق والأحسن أن يحتج بحجة فيها رُوح ، ويذكر كلاماً فيه ذلاقة ورشاقة .

وحضر عندى فى بعض الأيام بعض إخوانى ، وجرى حديث ذلك ، فسألني عما كان ينبغى أن يكتب فى هذا الفصل ، فذكرت ما عندى ، وهو : « قد عُلِمَ أن للأنبياء والخلفاء خصائص يختصون بها على حكم الانفراد ، وليس لأحد من الناس أن يشاركهم فيها مشاركة الأنداد ، وقد أجرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فى أشياء نص عليها بحكمه ، ومن جملتها أنه نهى غيره أن يجمع بين كنيته وبين اسمه ، وهذا مسوغ لأمير المؤمنين أن يختص بأمر يكون به مشهورا ، وعلى غيره محظوراً . وقد وسم نفسه بسمة نزلت عليه من السماء ، وتميزت به من بين المسميات والأسماء ، ثم استمرت عليها الأيام حتى خوطب بها من الحاضر والباد ، ورفعها الخطباء على المنابر فى أيام الجمع ومواسم الأعياد ، وقد شاركته أنت فيها غير مراقب لمزية التعظيم ، ولا فارق بين فسحة التحليل وحرج التحريم ، والشرع والأدب يحكمان عليك بأن تلقى ما فرط منك بالمتاب ، ولا تحوج فيه إلى التقريع الذى هو أشد العتاب ، ومثلك من عرف الحق فأمسكه بيده ، ونسخ إغفال أمسه باستئناف التيقظ فى غده ، والله قد رفع المؤاخذة عمن أتى الشىء خطأ لا عمداً ، وقبل التوبة ممن أخذ على نفسه بالإخلاص عهدا » .

فانظُرْ أيُّها المتأمِّلُ كيفَ جئتُ بالخبر النَّبوىِّ ، وجعلتُه شاهداً على هذا الموضع ، ولا يمكنُ أن يُحتَجَّ فى مثل ذلك إلا بمثلِ هَذَا الاحتجاج . وما أعلم كيفَ شَذَّ عن ابن زيادٍ أنْ يأتىَ به ، مع أنَّه كانَ كاتباً مُفلِقاً أُرتضِى كتابتُهُ ، ولم أَجِدْ فى متأخرى العراقيين مَنْ يُماثِلُهُ فى هذا الفَنّ ؟ .

[النوع الرابع : الاطلاع على المنظوم والمنثور]

وأما النوع الرابع ، وهو الاطلاعُ على كلام المتقدِّمين من المنظوم والمنثور ، فإنَّ فى ذلك فوائدَ جَمَّةً ، لأنَّهُ يُعْلَمُ منه أغراضُ الناس ونتائجُ أفكارهم ويُعرَفُ به مقاصدُ كلِّ فريقٍ منهم ، وإلى أينَ ترامَتْ به صَنْعَتُهُ فى ذلك ، فإنَّ هذه الأشياء مما تَشْحَذُ القَرِيحة ، وتُذْكِى الفِطْنَة . وإذا كانَ صاحبُ الصِّناعةِ عارفاً بها تَصِيرُ المعانِى التى ذَكَرْتُ ، وتَعِبَ فى استخراجها ، كالشىء الملقَى بين يديه ، يأخذُ منه ما أراد ، وَيترُك ما أراد .

وأيضا ، فإنه إذا كان مُطَّلِعاً على المعانِى المَسْبُوقِ إليها قد يَنقَدِحُ له من بينها معنى غريبٌ لم يُسْبَقْ إليه .

ومن المعلوم أن خواطر الناس وإن كانت متفاوتة فى الجودة والرداءة ، فإنَّ بعضَها لا يكونُ عالياً على بعضٍ ، أو منحَطًّا عنه إلا بشىءٍ يَسِير ، وكثيراً ما تتساوَى القرائحُ والأفكارُ فى الإتيانِ بالمعانى ، حتى إنَّ بعضَ الناس قَدْ يأتِى بمعنى موضُوعٍ بلفظٍ ، ثم يأتى الآخَرُ بعده بذلك المعْنَى واللفظِ بَعَيْنِهِما من غيرِ عِلْمٍ منه بما جاء به الأول . وهذا الذى يسميه أرباب هذه الصناعة « وقوع الحافر على الحافر » وسيأتى لذلكَ بابٌ مفْرَدٌ فى آخرِ كتابنا هذا إن شاءَ الله تعالى

[النوع الخامس : معرفة الأحكام السلطانية]

وأما النوع الخامس : وهو معرفة الأحكام السُّلطانية من الإِمَامَ و الإِمَارَة والقَضَاء والحِسْبة وغير ذلك . فإنما أَوْجَبْنَا معرفتها والإِحَاطَةَ بها ، لما يحتاجُ إليه الكَاتبُ في تقليداتِ الملوكِ والأمراءِ والقُضَاة والمحاسِبين ، ومن يَجْرى مجراهم . وأيضاً فإنه قد يَحْدُثُ في الإمامةِ حادثٌ في بعضِ الأوقاتِ بأنْ يموت الإمامُ القائمُ بأمرِ المسلمين ، ثم يتولى مِنْ بعْدِه مَنْ لم تَكْمُلْ فيه شرائطُ الإمامة ، أو يكونُ كاملَ الشرائطِ غير أنّ الإمام الذى كان قبْلَه عَهِدَ بها إلى آخَرَ غيْره ، وهو ناقِصُ الشَّرائط . أو يكون قد تنازعَ الإمامةَ اثنان أو يكونَ أربابُ الحلِّ والعقْدِ قد اختاروا إماماً وهم غيرُ كامِلي الشرائط التى تجبُ أَنْ تُوجَدَ فيهم . أو يكونُ أمرٌ غير ما ذكرناه ، فتختلف الأَطْرَافُ في ذلك ، ويَنْتَصِب ملِكٌ من الملوك له عنايةٌ بالإمام الذى قد قام للمسلمين ، فيأمرُ كاتبَه أن يكْتُبَ كتاباً في أمره إلى الأطْرَاف المُخالفة له .

وإذا لم يكن الكاتبُ عندَ ذلك عارفاً بالحُكم في هذِه الحوادثِ واختلافِ أقوالِ العلماءِ فيها ، وما هو رُخْصَةٌ في ذلك ، وما ليس برُخْصَةٍ ، لا يكتب كتاباً يُنْتَفَعُ به .

ولسنا نعنى بهذا القول أن يكونَ الكتابُ مقصوراً على فِقْهٍ مَحْضٍ فقط ، لأنّا لو أردنا ذلك لما كنا نحتاج فيه إلى كُتْب كتاب بَلَاغِيّ ، بل كنا نَقتَصِرُ على إرسال مُصَنَّفٍ من مصنّفاتِ الفِقْهِ عِوَضًا عن الكتابِ

وإنما قَصَدْنا أن يكونَ الكتابُ الذى يُكتَبُ فى هذا المعنى مشتملا على التَّرغيبِ والتَّرهِيب ، والمُسَامَحةِ فى موضع ، والمحاقَقَةِ فى مَوْضع ، مَشْحُوناً ذلك بالنُّكَتِ الشرعية ، المبْرَزَةِ فى قوَالِب البلاغة والفصَاحة ، كما فعل الكاتِبُ الصَّابى[1] ، فى الكتاب الذى كتبه عن عزِّ الدّولة بَخْتِيَار بن مُعزِّ الدولة بن بُوَيْه ، إلى الإمام الطّائع لما خَلَعَ المطيع ، فإنه من محاسن الكتب التى تكتب فى هذا الفن .

[النوع السادس : حفظ القرآن الكريم]

وأما النوع السادس : وهو حفظ القرآن الكريم ، فإنّ صاحبَ هذه الصناعة يَنْبَغِى له أنْ يكونَ عارفاً بذلك ، لأنّ فيه فوائدَ كثيرةً ، منها أنه يُضَمِّنُ كلامَهُ بالآيات فى أماكنها اللّائقةِ بها ومَوَاضِعِها المناسبة لها . ولا شُبْهَةَ فيما يَصيرُ لِلكلام بذلك من الفَخَامة والجزَالة والرَّونق .

ومنها أنه إذا عَرَفَ مواقعَ البلاَغَةِ وأَسْرَارَ الفَصَاحَة المُودَعةِ فى تأليف القرْآن اتخذه بحراً يَسْتَخرِجُ منه الدُّرَرَ والجواهرَ ، ويُودِعُها مَطَاوِىَ كلامه ، كما فعلتُه أنا فيما أنشأتُه من المكاتبات ، وكفَى بالقرآن الكريمِ وَحْدَه آلةً وأداةً فى استعمال أفانِينِ الكلام .

---

(١) هو أبو اسحق إبراهيم بن هلال الصابي صاحب الرسائل المشهورة والنظم البديع كان كاتب الإنشاء عن الخليفة ببغداد وعن عز الدولة بختيار الديلمى ، وتقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ هـ ، وكان متشدداً فى دينه ، وجهد عليه عز الدولة أن يسلم فلم يفعل ، وكان يصوم شهر رمضان مع المسلمين ، ويحفظ القرآن الكريم أحسن حفظ وكان يستعمله فى رسائله توفى الصابى سنة ٣٨٤ هـ ببغداد ، ورثاه الشريف الرضى بقصيدة مشهورة ؛ وعاتبه الناس فى ذلك لكونه شريفاً يرثى صابئاً ؛ فقال : إنما رثيت فضله .

فعليك أيها المترشح لهذه الصناعة بحفظه ، والفحص عن سره وغامض رموزه وإشاراته ، فإنه تجارة لن تبُور ، ومَنْبَعٌ لا يَغُور ، وَكَنز يُرْجَع إليه ، وذُخر يُعوَّلُ عليه .

[النوع السابع : حفظ الأخبار النبوية]

وأما النوع السابع : وهو حفظُ الأخبار النبويَّة ، مما يحتاجُ إلى استعماله فإنّ الأمرَ فى ذلك يَجرى مجرى القرآنِ الكريم ، وقد تقدَّمَ القولُ عليه فاعْرفه .

[النوع الثامن : معرفة علمى العروض والقوافى]

وأما النوع الثامن : وهو ما يختصُّ بالناظم دونَ الناثر ، وذلكَ معرفة العَرُوض ، وما يَجوزُ فيه من الزِّحافِ[1] وما لا يَجوزُ ، فإنْ الشاعرَ محتاجٌ إليه .

ولَسْنا نُوجبَ عليه المعرفةَ بذلك لِيَنْظِمَ بِعِلْمِه ، فإنّ النظم مبْنِيٌّ على الذوْق ، ولو نَظَمَ بتقطيع الأفاعِيل[2] لجاءَ شِعْرُهُ متكلّفاً غيرَ مَرْضِيٌّ ، وإنما أُريد للشَاعِرِ معْرِفةُ العَرُوض ، لأنّ الذّوْقَ قد ينْبُو عن بعض الزِّحافات ويكونُ ذلك جائزاً فى العَرُوض ، وقدْ وردَ للعربِ مثله .

---

(١) الزحاف على وزن كتاب فى الشعر أن يسقط بين الحرفين حرف فيزحف أحدهما إلى الآخر ؛ وهو تغيير مختص بثوانى الأسباب ، جمع سبب ، وهو عند العروضيين متحرك بعده ساكن ، ويسمونه السبب الخفيف نحو قد ؛ ومتحركان نحو بك ، ويسمونه السبب الثقيل .

(٢) المعروف أنها « تفاعيل » بالتاء جمع تفعيلة ، وهى الألفاظ التى يوزن بها أى بحر من بحور الشعر .

فإذا كانَ الشاعرُ غيرَ عالمٍ بَه ، لم يُفرِّق بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوزُ .

وكذلكَ أيضاً يحتاجُ الشاعرُ إلى العِلْمِ بالقوافِي والحركات ، ليعلمَ الرَّوِيَّ(١) والرِّدْفَ(٢) ، وما يصحُّ منْ ذلك ، وما لا يَصحُّ .

* * *

فإذا أكْمَلَ صاحبُ هذه الصِّناعةِ مَعْرِفةَ هذه الآلات ، وكان ذا طبعٍ مجيبٍ وقريحةٍ مُواتية ، فعَليْهِ بالنَّظر في كتابنا هذا ، والتَّصفُّح لما أوْدَعْناهُ مِن حقائق علمِ البَيان ، ونبّهْنا عليه من أصول ذلكَ وفروعِهِ . على أن الذى ذكرناهُ من هذه الآلاتِ الثمانِ هو كالأصلِ لما يحتاجُ إليه الخطيبُ والشاعر ومعرفتُه ضَروريَّة لا بُدَّ منها .

وهاهنا أشياءُ أُخَرُ هى كالتَّوابع والرَّوَادِف . وبالجملة فإنّ صاحبَ هذه الصِّناعة يحتاجُ إلى التَّشَبُّثِ بكل فنٍّ من الفُنون ، حتّى إنه يحتاج إلى معرفةِ ما تقولُه النَّادبةُ بين النِّساء ، والماشِطَةُ عند جَلْوَةِ العَرُوس ، وإلى ما يقوله المنادِي فى السُّوق على السِّلْعَة ، فما ظَنُّكَ بما فوْقَ هذا ؟

والسّببُ فى ذلكَ أنه مؤَهّلٌ لأنْ يهيمَ فى كلِّ وادٍ ، فيحتاج أن يتعلّقَ بكل فنٍّ

---

(١) الروى من حروف القافية ؛ وهو الحرف الذى تبنى عليه القصيدة

(٢) الردف من حروف القافية ؛ وهو حرف مد قبل حرف الروى .

الفصل الثالث

في الحكم على المعاني

وفائدة هذا الفصل الإحاطة بأساليب المعاني على اختلافها وتباينها.

وصاحبُ هذه الصناعة مفتقرٌ إلى هذا الفصل والذي يليه بخلاف غيرهما من هذه الفصول المذكورة، لا سيَّما مفسِّري الأشعار، فإنهم به أغنى.

واعلمْ أنَّ الأصلَ في المعنى أن يُحمَلَ على ظاهرِ لفظه، ومَنْ يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل كقوله تعالى: «وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ[1]» فالظاهر من لفظ «الثياب» هو ما يُلْبَس، ومَنْ تأوَّل ذهَب إلى أنَّ المرادَ هو القلبُ لا الملبوسُ، وهذا لا بُدَّ له من دليلٍ؛ لأنه عُدُولٌ عن ظاهر اللفظ.

وكذلك وَرَدَ عنْ عيسَى بن مَرْيَمَ عليْه السلام أنه قال: «إذا أردْتَ أن تصلى فادخُلْ بيتَك وأَغلِقْ بابَك» فالظاهرُ من هذا هو البيتَ والبابُ، ومَنْ تأوَّل ذهبَ إلى أنه أراد أنك تجمَعُ عليك همَّ قلبِكَ، وتمنَع أن يخطرَ به سوى أمر الصَّــــلاة، فعبَّر عن القلبِ بالبيتِ، وعن منع الخواطر التى تخطِرُ له بإغلاقِ الباب. وهــذا يحتاجُ إلى دليلٍ، لأنه عُدُولٌ عن ظاهِرِ اللفظ.

فالمعنَى المحمولُ على ظاهره لا يقعُ فى تفسيره خِلافٌ. والمعنى المعْدُولُ

---

(١) سورة المدثر؛ آية ٤

عن ظاهره إلى التأويل يقع فيه الخلاف؛ إذ بابُ التأويل غير محصور، والعلماء متفاوتون فى هذا، فإنه قد يأخُذ بعضهم وَجهاً ضعيفاً من التأويل، فيكونُ بعبارته قوَّةً تميِّزُه على غَيْره من الوُجوه القوية، فإن السّيْف بضَاربه:

إنَّ السُّيوفَ معَ الّذِينَ قلوبُهُمْ كقُلوبهنَّ إذا التَقى الجمْعَانِ
تلْقَى الُحسامَ على جَرَاءَةِ حَدِّه مِثْلَ الجبَانِ بِكفِّ كلِّ جبَانِ[1]

وذهب بعضهم فى الفرق بين « التفسير » و « التأويل » إلى شىء غير مرضىٍّ، فقال: التفسيرُ بيانُ وَضْع اللفظِ حقيقةً، كتفسير الصِّراطِ بالطَّريق. والتأويلُ إظهارُ باطنِ اللفظِ كقوله تعالى: « إنّ رَبَّكَ لبالمِرْصادِ[2] » فتفسيرُه من الرَّصْدِ، يقال: رَصَدْته، إذا رَقبْتُه، وتأويله تحذير العبادِ من تعَدِّى حدُودِ الله ومخالفةِ أوامره.

والذى عندى فى ذلك أنه أصابَ فى الآخَر، ولم يُصِبْ فى الأوَّل، لأنَّ قوله: « التفسير بيان وضع اللفظ حقيقة » لا مُسْتَنَدَ لجوازه، بل (التفسيرُ) يطلقُ على بيان وَضعِ اللفظِ حقيقةً ومجازاً، لأنّه من « الفَسْر » وهو الكَشْف، كتفسير الرَّصدِ فى الآية المشار إليها بالرِّقْبَة، وتَفْسيرُه بالتَّحذِير من تَعَدِّى حُدودِ اللهِ ومخالفةِ أوامره.

وأما (التَّأْوِيلُ) فإنَّه أحُد قِسْمَى التفسير، وذلكَ أنه رُجُوعٌ عن ظَاهِرِ

---

(١) البيتان للمتنبى؛ الديوان ٤/٨٤؛ والمعنى: إنما يغنى السيف إذا كان مع الشجاع.
(٢) سورة الفجر؛ آية ١٤

اللفظ ، وهو مُشْتَقٌّ من الأوْل ، وهو الرُّجوعُ ، يقال : آل ، يئول إذا رَجَعَ .

وعلى هذا فإنَّ التأويلَ خاصٌّ ، والتفسير عامٌّ ، فكلُّ تأويل تفسيرٌ ، وليسَ كلُّ تفسير تأويلا . ولهذا يقالُ : تَفْسِيرُ القرآن ، ومِنْ تفسيره ظاهرٌ وباطنٌ .

وهذا الفصلُ الذي نحنُ بِصَدَدِ ذِكْرِه هاهُنا يَرجِعُ أكثرُهُ إلى التأويل ؛ لأنَّه أدَقُّ .

ولا يخلو تأويلَ المعنى من ثلاثة أقسام : إما أن يُفْهَمَ منه شيء واحدٌ لا يُحتمل غيرُهُ ، وإمَّا أن يُفْهَمَ منه الشيءُ وغيرُه ، وتلكَ الغيرِيَّةُ إمَّا أنْ تكونَ ضِدًّا ، أو لا تكون ضِدًّا . وليسَ لنا قِسْمٌ رَابِعٌ .

فالأول : يقَعُ عليه أكثرُ الأشعار ، ويَجْرِى فى الدِّقَّةِ واللطافةِ مَجْرَى القسمَيْنِ الآخَرَيْن .

وأما القِسْمُ الثانى : فإنَّه قليلُ الوقوعِ جِدًّا ، وهو من أظرَفِ التأويلات المعنويَّة ؛ لأنَّ دلالةِ اللفظِ على المعْنَى وضِدِّه أغْرَبُ من دلالَتِهِ على المعنى وغيرِه مما ليسَ بضده . فمَّا جاءَ منهُ قولُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم « صَلاةٌ فى مَسْجِدِى هَذَا خيرٌ من ألفِ صَلاةٍ فى غيره مِنَ المساجد إلا المسْجِدَ الحرامَ » فهذا الحديث يُسْتَخْرَجُ منه مَعْنَيَانِ ضِدَّان : أحدُهما أنَّ المسجدَ الحرامَ أفضلُ من مسجدِ رسولِ الله صَلَّى الله عليه وسلم ، والآخَرُ أنَّ مسجد رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم أفضلُ من المسجِدِ الحرام ، أىْ أنَّ صلاةَ واحدة فيه لا تَفْضُلُ

ألف صَلاةٍ فى المَسْجدِ الحرام ، بل تَفضُل ماَدُونَها بخلافِ المَساجد الباقية ، فإنَّ ألفَ صلاةٍ فيها تقصُر عن صلاةٍ واحدةٍ فيه .

وكذلك جاء قول النبي صلّى الله عليه وسلم أيضاً من كلام النُّبوَّة « إذا لم لم تَسْتَحِ فاصنَعْ ما شِئتَ » وهذا يشتمل على مَعْنَيين ضِدَّين ، أَحَدُهما : أنَّ المرَادَ بِهِ إذا لم تفعَلْ فِعْلاً تَستَحيي منه فافعلْ ما شِئتَ . والآخرُ : أنَّ المراد به إذا لم يكنْ لكَ حياءٌ يَزَعُكَ عن فعل ما يُستَحَى منه فافعلْ ما شِئتَ . وهذان مَعْنَيَان ضِدّان ، أحُدُهما مدحٌ ، والآخَرُ ذَمٌّ .

ومثلُهُ وَرَدَ فى الحديث النبوىّ أيضاً ، وذلك أنّهُ ذُكِرَ شريحٌ الحَضْرَمِيُّ عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال : « لا يَتَوسَّدُ القرآن » وهذا يحتَملُ مدْحًا وذَمًّا . أما المدحُ فالمرادُ به أنه لا يَنامُ الليلَ عن القرآن ، فيكونُ القرآنُ متوسَّداً معه ، لم يتهجَّدْ به ، وأما الذمُّ فالمراد به أنَّه لا يحفَظُ من القرآنِ شَيْئاً ، فإذا نامَ لمْ يتوسَّدْ معَهُ القرآن . وهذانِ التأْويلانِ من الأضداد . وكثيراً ما يَرِدُ أمثال ذلك فى الأحاديث النبوية .

ويجرى على هذا النَّهْج من الشِّعرِ قولُ أبي الطيِّب فى قصيدة يمدح بها كافورا :

وأظلمُ أهلِ الظُّلمِ منْ باتَ حاسِداً ... لِمَنْ باتَ فى نَعْمائِه يتقلَّبُ[(1)]

وهذا البيتُ يُستَخرَجُ منه معنيان ضِدّان ، أحُدهما : أن المُنْعَمَ عليه

---

(١) ديوان المتنبى ١/١٨٥

يَحْسُدُ المنعِم . والآخر : أنَّ المنْعِمَ يَحْسُدُ المنْعَمَ عليْه . وكذلك وَرَدَ قولُه أيضاً من قصيدةٍ يمدحه :

فإن نلتُ ما أمَّلتُ منكَ فرُبَّما ... شرِبتُ بماء يُعجِزُ الطَّيْرَ وِرْدُهُ (١)

فإنَّ هذا البيتَ يحتملُ مدحاً وذماً . وإذَا أُخِذَ بمُفْرَدِهِ منْ غيْرِ نظرٍ إلى ما قبله فإنَّهُ يكونُ بالذَّمِّ أوْلَى منْهُ بالمدح ؛ لأنَّهُ يتضمَّنُ وَصْفَ نواله بِالْبُعْدِ والشذوذ . وصَدْرُ البيت مفْتَتَحٌ بإنْ الشَّرْطِيَّةِ ، وقدْ أُجِيبَ بلفظة « رُبَّ » التي معْناها التَّقْليل ، أىْ لَسْتُ من نوالك على يَقِينٍ ، فإنْ نلتُه فربَّما وصَلْتُ إلى مَوْرِدٍ لا يَصِلُ إليه الطَّيْرُ لِبُعْدِه . وإذا نُظِرَ إلى ما قبلَ هذا البيت دلَّ على المدح خاصَّة ، لارتباطه بالمعْنَى الَّذِى قبله . وكثيراً ما كان يَقْصِدُ المتنَبِّى هذا القسمَ فى شعره ، كقوله من قصيدةٍ أولها :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لسانِ ... ولوْ كانَ من أعْدائِكَ القَمَرَانِ

ولِلّهِ سِرٌّ فى عُلاَكَ وإنَّمَا ... كلامُ العِدَا ضَرْبٌ منَ الهَذَيَانِ (٢)

ثم قالَ :

فَمَالَكَ تُعْنَى بالأَسِنَّةِ والْقَنَا ... وَجَدُّكَ طَعَّانٌ بِغَيْرِ سِنَانِ (٣)

فإنَّ هذا بالذمِّ أشبهُ منه بالمدح ؛ لأنَّه يقولُ لم تبلغْ ما بلغتَه بِسَعْيِكَ واهتمامِكَ بل بِجَدٍّ وسَعادة ، وهذا لا فضلَ فيه ؛ لأنَّ السعادةَ تنالُ الخاملَ والجاهدَ ومَنْ لا يَستحقُّها . وأكثرُ ما كانَ المتنبى يستعملُ هذا القسمَ فى قصائده « الكافوريَّات » .

---

(١) ديوان المتنبى ٢/٢٨ (٢) ديوان المتنبى ٤/٢٤٢

(٣) ديوان المتنبى ٤/٢٤٧ والرواية فيه « ومالك تعنى ... البيت » وقبل هذا البيت :

فما لك تختار القسى وإنما ... عن السعد يرمى دونك الثقلان

وحكى أبو الفتح ابن جِنّى ، قال : قرأتُ على أبى الطيِّبِ ديوانَه إلى أَنْ وصلتُ إلى قصيدته التى أولها :

* أُغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ والشَّوْقُ أَغْلَبُ[1] *

فأتيتُ منها على هذا البَيْتِ وَهُوَ :

وَمَا طَرَبِى لمَّا رأيتُكَ بِدْعَة لقدْ كُنْتُ أرْجُو أنْ أرَاكَ فأَطْرَبُ[2]

فقلت له : يا أبا الطَّيِّب لم تَزِدْ عَلى أَنْ جعلتَه أبَا زَنَّة[3] ، فضحك لقولى !

وهذا القِسْمُ من الكلام يُسَمَّى (المُوَجَّه) أى له وَجْهان[4] ، وهو ممّا يدلُّ على براعةِ الشَّاعِرِ وحُسْنِ تَأَتِّيه .

وأمَّا القِسْمُ الثالثُ : فإنَّه يكونُ أكثرُ وقوعًا من القِسْمِ الثانى ، وهو واسطةٌ بين طرَفَيْن ، لأنَّ القسمَ الأوَّلَ كثيرُ الوُقوع ، والقسمُ الثَّانى قليلُ الوُقوع ، وهذا القسمُ الثالثُ وَسَطٌ بينهما .

فمَّا جاء منه قوله تعالى : « ولا تَقتُلُوا أَنْفُسَكُم[5] » فإنَّ هذا له وجهان من التَّأويل ، أحدهما : القتلُ الحقيقىُّ الذى هو معْرُوف ، والآخر :

---

(١) ديوان المتنبى ١٧٦/١ وشطره الآخر * وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب *

(٢) ديوان المتنبى ١٨٦/١

(٣) الأصل «أبا رنة» بالراء ، وهو تصحيف ، وأبو زنة كنية القرد .

(٤) التوجيه عند البلاغيين أن يحتمل الكلام وجهين من المعنى احتمالا مطلقاً من غير تقييد بمدح أو غيره ، واستشهدوا على التوجيه بقول الشاعر فى الحسن بن سهل عندما زوج ابنته بوران بالخليفة :

بارك الله للحسن ولبوران فى الختن
يا إمام الهدى ظفر ت ولكن ببنت من ؟

فلم يعلم ما أراد بقوله «ببنت من» فى الرفعة أو فى الحقارة .

(٥) سورة النساء : آية ٢٩

هو القتلُ المجازىّ ، وهو الإكبابُ على المعاصى ؛ فإنّ الإنسانَ إذا أكبّ على المعاصى قتلَ نفسه فى الآخرة .

ومِنْ ذلكَ ما وَرَدَ فى قصّة إبراهيم وذَبْحِ وَلَدِه — عليهما السّلام ، فقال الله تعالى حكايةً عنه : « وقال إنى ذاهبٌ إلى ربِّى سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالحينَ * فبشَّرْناهُ بغلامٍ حليمٍ * فلمَّا بلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قالَ يا بُنَىَّ إنِّى أرَى فى المنامِ أنِّى أذبحُكَ فانظُرْ ماذا ترَى قالَ يا أبَتِ افعَلْ ما تؤمَرُ ستجدُنِى إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابرينَ * فلمَّا أسْلمَا وَتلَّهُ لِلْجَبِينِ * وناديْناهُ أنْ يا إبْراهيمُ * قد صَدَّقتَ الرُّؤْيا إنَّا كَذلِكَ نَجْزِى المُحْسنين * إن هذَا لَهُوَ البَلاءُ المُبينُ * وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظيمٍ * وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِى الآخِرِينَ * سَلامٌ على إبْراهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِى المُحْسِنينَ * إنَّهُ مِنْ عِبادِنَا المُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْناهُ بِإسْحَاقَ نَبيًّا مِنَ الصَّالحِينَ »[1] فقوله تعالى : « وَبَشَّرْناهُ بِإسحاقَ نَبيًّا مِنَ الصَّالحين » قد يكون بِشارَةً بنبوَّته بعد البشارة بميلادِهِ ، وقد يكونَ استئنافاً بِذِكْرِه بعد ذِكْر إسماعيلَ — عليه السلامُ — وَذَبْحِه ، والتأويلُ متجاذبٌ بين هذَيْن الأمرين ، ولا دليلَ على الاختصاص بأحدهما ، ولمْ يَرِدْ فى القرآنِ ما يدلُّ على أنَّ الذَّبيحَ إسماعيلُ ولا إسْحَاقُ عليهما السَّلام ، وكذلك لم يَرِدْ فى الأخبار التى صَحَّتْ عن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : وأمَّا ما يُرْوَى عَنْهُ أنَّه قال . « أنا ابنُ الذَّبيحَين » فخارجٌ عن الأخبارِ الصحيحة . وفى التَّوْرَاةِ أنَّ إسحاقَ — عليه السَّلامُ — هو الذَّبيح .

---

(١) سورة الصافات : الآيات من ٩٩ إلى ١١٢

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لأزواجه : « أطوَلُكُنَّ يداً ، أسرَعُكُنَّ لُحوقًا بي » فلما مات صلوات الله عليه جعَلْنَ يُطاولْنَ بين أيديهنَّ ، حتى ينظُرْنَ أيتهنَّ أطولُ يداً ، ثمَّ كانت زينَبُ أسرعَهنَّ لحوقاً به ، وكانتْ كثيرةَ الصَّدقة ، فعلمْنَ حينئذٍ أنه لمْ يُرِد الجارحة ، وإنما أراد الصَّدَقة ، فهذا القولُ يدلُّ على المعنيين المشَارِ إليهما .

ومن ذلك ما رُوِىَ عن أنَسِ بن مالكٍ — رضى الله عنهما — أنه قال : خدمْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سنينَ ، فلمْ يقُلْ لشَيْءٍ فعَلْتُه : لِمَ فعلته ؟ ولا لشيْءٍ لمْ أفعَلْه : لِمَ لا فعَلْتَه ؟ وهذا القولُ يحتملُ وجهين من التأويلِ : أحدهما وَصْفُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالصَّبْر على خُلُق مَنْ يَصْحَبُه ، والآخر أنه وَصفَ نفسَه بالفِطْنة والذَّكاءِ فيما يقْصِدُه من الأعمال كأنه مُتَفطِّنٌ لما فى نفسِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيفعَلُه من غير حاجةٍ إلى استِئْذانه .

ومن ذلك ما وَرَدَ فى الأدْعيةِ النبويَّة ، فإنه صلى الله عليه وسلم دَعَا على رَجلٍ من المشركين ، فقال : « اللهمَّ اقطعْ أثره » وهذا يحتملُ ثلاثةَ أوْجُهٍ من التأويل : الأوَّلُ أنه دعَا عليه بالزَّمانة[1] ، لأنه إذا زَمِنَ لا يَسْتَطيع أن يمشِىَ على الأرض ، فينقطِـع حينئذٍ أثره . الوجهُ الثانى : أنه دعَا عليه بألَّا يكونَ له نَسْلٌ من بعده ولا عَقِب . الوجه الثالثُ : أنه دعَا عليه بألَّا يكونَ له أثرٌ من

---

(١) من معانى الزمانة : العاهة ؛ والمرض يدوم طويلا .

الآثار مطلقًا، وهو ألّا يفعلَ فِعلًا يبقى أثرُه من بعدِه كائنًا ما كانَ مِنْ عَقِب أو بناء، أوْ غِراسٍ، أو غيرِ ذلك.

وظفِرَت الحَرُورِيَّةُ[1] برجلٍ، فقالُوا له: ابرَأْ مِنْ عليٍّ وعُثمانَ، فقال: أنا مِنْ عليٍّ ومن عثمانَ أبرَأُ! فهذا يدلُّ على معنيَين: أحدُهما أنه برىءٌ من عثمانَ وحده، والآخرُ أنه برىءٌ منهما جميعًا. والرّجلُ لم يُرِدْ إلّا الوجهَ الأوّلَ.

ومِنْ ذلك ما يُحكى عن عبدِ المسيح بنِ بُقَيْلَة لمّا نزلَ بهمْ خالدُ ابنُ الوليد على الحِيرة. وذاكَ أنه خرجَ إليه عبد المسيح بنُ بُقَيْلَة[2]، فلمّا مثَلَ بين يديه قال: أَنعِمْ صباحًا أيُّها الملِك. فقال له خالد: قد أغنانا اللهُ عنْ تحيّتِك هذه بـ «سلامٌ عليكم» ثم قال له: من أينَ أقصى أثرِك، قال: منْ ظهرِ أبي! قال: فمِنْ أينَ خرجْتَ؟ قال: من بطن أمّي! قال: فعلامَ أنتَ؟ قال: على الأرض! قال: ففيم أنت؟ قال: في ثيابي! قال: ابنُ كم أنتَ؟ قال: ابن رَجلٍ واحدٍ! قال خالد: ما رأيتُ كاليوم قط، أنا أسألُه عن الشيء، وهو ينحُو في غيره. وهذا من توجيهِ الكلامِ على نمطٍ حَسَنٍ، وهو يصلحُ أن يكونَ جوابًا لخالدٍ عما سألَ، ويصلحُ أن يكون جوابًا لغيره مما ذكرَه عبدُ المسيح بن بُقيلة.

---

(١) الحرورية؛ وقد يسمون «الوعيدية» وأصله أنهم تسلقوا حيال حروراء لقتال علي؛ ولذلك يوصمون ضمن الخوارج في بعض التقاسيم؛ يتغالون في إثبات [illegible] واخوف على المؤمنين لإمكان الخلود في النار مع الإيمان؛ فمقترفو الكبائر مشركون، وهم يكفرون الخوارج.

(٢) هو عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن بقيلة الغساني؛ وهو من المعمرين، وقد أورد الجاحظ الحديث كله في البيان والتبيين ٢/١٤٧

وقدْ وَرَدَ فى التوراةِ ألا يُؤْكَلَ الجَدْىُ بلبنِ أُمِّه، وهذا يَحتملُ التحريم فى وجهين : أحدُهما : مادلَّ عليه ظاهرُ لفظه، وهو تحريمُ لحم الجدْىِ بلبن أُمِّه خاصَّة، وإذا أُكِلَ بلبن غير لبن أُمِّه جازَ ذلك، ولم يكن حراماً، وهذا لا يأخَذ به أحدٌ منَ اليهود. والوجهُ الآخر، وهو الّذى يُؤْخَذ به عِندَ اليهودِ جميعهم، أنَّ أكلَ اللحْم باللّبن حرام، كائناً ما كان من اللُّحوم، إلا طائفةً منهم يسَمُّوْن « القرَّائين » فإنهمْ تأوَّلُوا، فأكلوا لحمَ الطيْر باللّبن، وقالوا : إنما حُرِّمَ اللحمُ باللّبن من اللُّحوم ذواتِ الألبان، والطيْرِ من ذوَاتِ البيْض، لامنْ ذواتِ الألْبانِ.

وممَّا يجرِى على هذا النَّهج ما يُحكى عن « أفلاطون » أنه قال : تركُ الدّواءِ دواء. فذهب بعضُ الأطباءِ أنه أراد أنّ لُطْفَ المِزَاج انتهى[1] إلى غاية لا يحتمِل الدّواءَ، فتركُه حينئذ والإضرابُ عنه دواء. وذهب آخرون إلى أنه أرادَ بالتَّرْكِ الوَضع، أىْ وَضْعَ الدّواءِ على الدّاءِ دَواء، يشير بذلك إلى حِذْقِ الطبيب فى أوقاتِ علاجه.

ومثله فى الشعرِ قولُ الفرَزْدَق :

إذا جَعفَرٌ مَرَّتْ على هَضْبَةِ الحِمَى
فقَدْ أُخْزِيَتِ الأحْياءَ منها قبورُها[2]

---

(١) فى الأصل « وانتهى ».

(٢) فى الأصل «أخذت» وهو تحريف، ورواية الديوان (ص ٤٦١) :

إذا جعفر مرت على هضبة الحمى . تقنع إذ صاحت إليها قبورها

والبيت من قصيدة للفرزدق يهجو بها بنى جعفر بن كلاب بن ربيعه بن صعصعة.

وهذا يدلُّ على مَعنَيَيْن : أحدُهما ذمُّ الأحياء ، والآخر : ذمُّ الأموات .
أما ذمُّ الأحياء فهو أنهم خَذَلوا الأموات ، يريد أنهم تلاقوا قتالهم وقوما آخرين فَفَرّ الأحياء عنهم وأسلموهم ، أو أنهم استَنْجَدوهم فلم يُنجِدوهم . وأما ذمُّ الأموات فهو أن لهم مَخازِىَ وفضائحَ ، توجبُ عاراً وشناراً ، فهم يغُدون بها الأحياء ، ويُلصِقونها بهم

وعلى هذا وَرَد قولُ أبى تمّام :

بالشِّعْرِ طَولٌ إذا اصْطَكّتْ قصائدُه
في مَعْشَرٍ وَبه عن مَعْشَرٍ قِصَرُ[1]

: فهذا البيت يحتملُ تأويلين : أحدهما أنّ الشعرَ يتّسعُ مجاله بمدحك ، ويضيقُ بمدح غيرك ، يريد بذلك أنّ مآثرَه كثيرةٌ ، ومآثرَ غيره قليلةٌ .
والآخر : أنّ الشعرَ يكونُ ذا فخرٍ ونباهٍ بمدحك ، وذا خُمولٍ بمدح غيرك .
فلفظة « الطول » يُفهَم منها ضِد القِصَر ، ويفهم منها الفَخر ، من قولنا : طال فلان على فلان ، أى فخرَ عليه .

ومما ينتظمُ بهذا السِّلكِ قولُ أبى كَبير الهُذَلِىّ :

عَجِبتُ لِسَعْى الدّهرِ بيْنِي وبَينَها فلمّا انقضَى ما بيننَا سكَنَ الدّهرُ

وهذا يحتملُ وجهين منَ التأويل : أحدُهما : أنه أرادَ بسَعْى الدهر سرعةَ تقضّى الأوقات مدّةَ الوِصال ، فلمّا انقضَى الوصْـــــلُ عاد الدّهرُ إلى حالتِه في السُّـكُون والبُطْء . الآخرُ : أنه أراد بسعْى الدهر سَعْىَ أهْلَ الدّهر بالنّمائم

(٢) ديوان أبى تمام ١٥١

والوشايات . فلمّا انقضى ما كان بينهما من الوَصْل سَكَنُوا وتركوا السِّعَاية ، وهذا من باب وَضْع المُضافِ إليه مكان المضاف ، كقوله تعالى : « واسْأَل القَرْيَةَ[1] » أى أهلَ القرية .

ومن الدّقيق المعنى فى هذا الباب قولُ أبى الطِّيب المتنبِّى فى عَضُدِ الدَّولة من جُملة قصيدتِه التى أولها :

* أَوْه بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِى وَاهَا[2] *

فقال :

لَوْ فطِنَتْ خَيْـلُهُ لنائلِهِ ... لَمْ يُرْضِها أَنْ تَرَاه يَرْضَاهَا[3]

وهذا يُسْتَنْبَطُ منه مَعْنيان غيران : أحدُهما أنَّ خيلَه لو علمتْ مقدارَ عطاياه النَّفيسَة لما رضيَتْ له بأَن تكونَ من جُملة عطاياهَ ، لأنَّ عطاياهُ أنفسُ منها ، الآخَرُ : أنّ خيلَه لو علمتْ أنه يهبُها من جُملة عطاياه لما رَضيَت ذلك ، إذْ تكرهُ خروجَها عن مُلْكِه . وهذان الوجهان أنا ذكرتهما ، وإنما المذكورُ منهما أحدهما .

وهذا الذى أشرْتُ إليه من الكلام على المعانى وتأويلاتها كافٍ لمن عنده ذوقٌ ، وله قُوَّةٌ على حَمْلِها على أشباهها ونظائرها .

---

(١) سورة يوسف : آية ٨٢

(٢) ديوان المتنبى ٢٦٩/٤ وعجز البيت * لمن نأت والبديل ذكراها *

(٣) ديوان المتنبى ٢٧٦/٤

الفصل الرابع

في الترجيح بين المعاني

وهذا الفصلُ هو ميزانُ الخواطرِ الذي يوزَنُ به نَقدُ دِرْهمها ودِينارها، بل المَحكُّ الذي يُعْلَمُ منه مقدارُ عِيارِهَا، ولا يَزِنُ بهِ إلا ذو فكرةٍ مُتَّقِدَة ولَمحةٍ مُنتَقِدَة. فليسَ كلُّ من حَملَ ميزاناً سُمّيَ صرّافاً، ولا كلُّ من وَزَنَ به سُمّيَ عرّافاً.

والفرقُ بين هذا التَرجيحِ والترجيح الفِقْهِيّ أنَّ هُنَاكَ يُرَجَّحُ بين دليلي الخَصمَيْن في حُكمٍ شَرعِيّ. وهاهنا يُرَجَّحُ بين جانِبَيْ فَصاحةٍ وبلاغةٍ في ألفاظٍ ومعانٍ خطابيّة.

وبيانُ ذلكَ أنَّ صاحب الترجيح الفقهيّ يرجحُ بين خبر التَّواتُرِ مثلاً وبين خَبَرِ الآحادِ، أو بين المُسْنَدِ (١) والمُرْسَلِ (٢). أو ما جرَى هذا المجرى، وهذا لا يعرِضُ إليه صاحبُ علمِ البيان. لأنَّه ليسَ من شأنِه، ولكنَّ الذي هُوَ مِنْ شأنِه أن يرجّح بينْ حقيقةٍ ومَجاز، أو بين حَقيقتين، أو بَيْن مَجازَيْن. ويكونُ ناظراً في ذلكَ كلِّهِ إلى الصِّناعة الخَطَابيَّة، ولرُبَّما اتَّفَق هو

---

(١) الحديث المسند ماذكر سنده، وهو سلسلة الرجال الذين رووا الحديث، غير أن بعضهم يخص هذا الاسم بالحديث المتصل المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا هو المشهور، فإذا سقط واحد من الرواة، أو لم يرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا يقال له مسند.

(٢) الحديث المرسل ماحذف من سنده من يكون فوق التابعي؛ وهو الصحابي؛ وذلك كأن يقول أحد التابعين: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا؛ أو فعل كذا؛ أو فعل بحضرته كذا.

وصاحبُ الترجيحِ الفقهى فى بعضِ المواضع ، كالتّرجيح بين عامٍّ وخاصٍّ ، أو ما شابه ذلك .

وكنّا قَدْ قَدَّمنا القولَ فى الحُكمِ على المَعانى وانقسامها ، ولْنُبيِّنْ فى هذا الفصل مواضع الترجيح بين وُجوهِ تأويلاتها . فنقولُ :

أما القسمُ الأولُ من المعانى فلا تَعَلُّقَ للترجيحِ بهِ إذا ما دلَّ عليه ظاهرُ لفظِهِ ، ولا يحتمل إلا وجهاً واحداً ، فليس من هذا البابِ فى شئ .

والترجيحُ إنما يقعُ بين معنيين ، يدلُّ عليهما لفظٌ واحدٌ ، ولا يخلو الترجيح بينهما من ثلاثة أقسامٍ : إما أنْ يكونَ اللفظُ حقيقةً فى أحدهما مجازاً فى الآخر ، أو حقيقةً فيهما جميعاً ، أو مجازاً فيهما جميعاً ، وليس لنا قسم رابع .

والترجيح بين الحقيقتين أوْ بين المجازَين يحتاجُ إلى نظرٍ ، وأمّا الترجيحُ بين الحقيقةِ والمجازِ فإنّهُ يُعلمَ ببديهيَّة النظرِ ، لمكان الاختلافِ بينهما . والشيئانِ المختلفانِ يظهرُ الفرقُ بينهما ، بخلافِ ما يظهرُ بين الشيئين المشْتَبِهَيْن . فمثالُ الحقيقةِ والمجاز قولُه تعالى : « ويومَ يُحشَرُ أعداءُ اللهِ إلى النَّارِ فهُمْ يُوزَعُونَ * حتى إذا ما جاءوهَا شَهِدَ عليهمْ سَمْعُهُمْ وأبصارُهُمْ وجُلُودُهُمْ بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ[1] » فالجلُودُ هَاهُنَا تُفَسَّرُ حقيقةً ومجازاً . أمّا الحقيقةُ فيُرادُ بها الجلودُ مطلقاً . وأمّا المجازُ فيُرادَ بها الفروجُ خاصَّةً . وهذا هو المانع البلاغىُّ الذى يُرجّح جانبَ المجاز على الحقيقة ، لما فيه من لُطفِ الكناية عن المُكَنَّى عنه . وقَدْ يُسْأَلُ هاهنا فى التّرجيح بين الحقيقةِ والمجازِ عنْ غيرِ الجانب البلاغىِّ ، ويقال : ما بيان

(١) سورة فصلت : الآيتان ١٩ و ٢٠

هذا الترجيح ؟ فيُقالُ : طريقةَ لفظِ الجلود عامٌ ، فلا يخلو إمَّا أنْ يُرادَ به الجلودُ مطلقاً ، أو يرادَ به الجوارحُ التى هى أدواتُ الأعمالِ خاصَّة ، ولا يجوزُ أن يُرادَ به الجلودُ على الإطلاقِ ، لأنَّ شهادَ غيرِ الجوارح التى هيَ الفاعلةُ شهادةٌ باطلةٌ ، إذْ هى شهادةُ غيرِ شاهدٍ ، والشهادةُ هنا يُرادُ بها الإقرارُ ، فتقولُ اليدَ : أنا فعلتُ كذا وكذا ، وتقولُ الرِّجْلُ : أنا مَشَيْتُ إلى كذا وكذا وكذلكَ الجوارحُ الباقيةُ تَنْطِقُ مُقِرَّةً بأعمالها ، فترجَّحَ بهذا أن يكونَ المرادُ به شهادةَ الجوارح ، وإذا أُريد به الجوارحُ ، فلا يخلُو إمَّا أن يُرادَ بهِ الكلُّ أو البعضُ ، فإنْ أُريدَ به الكلُّ دخَلَ تحته السمعُ والبصرُ ولم يكنْ لتخصيصهما بالذِّكرِ فائدة ، وإنْ أُريدَ بهِ البَعْضُ فهو بالفَرْجِ أخصُّ منه بِغَيْرِهِ من الجوارحِ لأمرَيْن : أحدُهما أنَّ الجوارحَ كلَّها قد ذُكِرَتْ فى القرآنِ الكريم ، شاهدةً على صاحبِها بالمعْصيَة ، ماعدا الفرجَ ، فكانَ حَمْلُ الجِلْدِ عليه أوْلَى ، ليُسْتَكْمَل ذكرُ الجميع . الآخرُ : أنه لَيْسَ فى الجوارحِ ما يُكرَهُ التَّصْرِيحُ بذكرِه إلا الفَرْج ، فكَنّى عنه بالجلد ، لأنَّه موضعٌ يُكرَهُ التَّصريحُ فيه بالمُسَمَّى على حقيقته

فإنْ قيلَ : إن تخصيصَ السَّمع والبصرِ بالذكْرِ من باب التفصيل كقوله تعالى : « فاكِهَةٌ ونَخْلٌ وَرُمَّانٌ » (١) والنخلُ والرُّمَّانَ من الفاكهة . .

قلتُ فى الجواب : هذا القولُ عليكَ لا لكَ ، لأنَّ النخلَ والرُّمَّانَ إنما ذُكِرَا لتَفْضِيل لهما فى الشَّكلِ أو فى الطَّعمِ ، والفضيلةَ هاهنا فى ذكر الشَّهادة

---

(١) سورة الرحمن : آية ٦٨

إنّما هي تعظيمٌ لأمرِ المَعْصِيَةِ، وغيرُ السّمعِ والبَصَرِ أعظمُ في المَعْصِيَةِ؛ لأنّ معصيةَ السمعِ إنّما تكونُ في سماعِ غِيبَةٍ، أو في سماعِ صَوْتِ مِزْمارٍ أو وَتَرٍ، أو ما جرَى هذا المجرى. ومعصيةُ البَصَرِ إنّما تكونُ في النظرِ إلى مُحَرَّمٍ، وكِلْتا المعصيتين لا حدَّ فيها. وأما المعاصِي التي توجَدُ من غيرِ السَّمعِ والبصرِ فأعظمُ؛ لأنّ معصيةَ اليَدِ توجبُ القطعَ، ومعصيةَ الفَرْجِ توجبُ جَلْدَ مائة أو الرَّجم، وهذا أعظمُ، فكانَ ينبغِي أن تَخُصَّ بالذِّكْرِ دونَ السَّمعِ والبصرِ وإذا ثبتَ فسادُ ماذهبتَ إليه فلمْ يَكنِ المرادُ بالجلودِ إلا الفروجَ خاصّة

وأمَّا مثالُ المعنيين إذا كانا حقيقيَّيْن فقولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «الْتَمِسُوا الرِّزْقَ في خَبَايَا الأرْضِ» والخبايا جمعُ خَبِيَّةٍ. وهو كلُّ ما يُخبَأُ كائناً ما كانَ. وهذا يدلُّ على معنيين حقيقيَّين: أحدُهما الكنوز المخبوءة في بطونِ الأرضِ، والآخرُ: الحرْثُ والغِراسُ، وجانب الحرث والغِراسِ أرجحُ، لأنَّ مواضعَ الكنوزِ لا تُعْلَمُ حتى تُلْتَمسَ. والنبيُّ صلَّى الله عليه وسلمَّ لا يأمرُ بذلك، لأنّه شيء مجهولٌ غيرُ معلومٍ، فبقيَ المرادُ بخبايا الأرض ما يُحْرَثُ ويُغْرَسُ.

وكذلك وَرَدَ قولُه صلّى الله عليه وسلم: «إذا ابتَلَّتْ النِّعالُ فالصّلاةَ في الرِّحالِ» وهذا الحديثُ مُرَخِّصٌ في تَرْكِ صلاةِ الجماعةِ بسببِ المطر، وله تأويلان: أحدُهما أنه أرادَ نِعالَ الأرْضِ، وهو ما غَلُظَ منها، والآخرُ: أنَّه أرادَ الأحْذِيَة. والوجهُ هو الثّاني؛ لظُهوره في الدّلالة على المعنى، وأكثرُ العلماء عليه. ولوْ كانَ المرادُ به ما غَلُظَ من الأرض لَخَرج عن هذا الحُكْمِ كلُّ بلدٍ تكونُ أرضهُ سَهْلةً لا غِلَظَ فيها.

وأما مثال المعنيين المجازيَّيْن فقولُ أبي تمّامٍ[1] :

قَدْ بَلَوْنَا أبَا سَعِيدٍ حَدِيثاً وَبَلَوْنَا أبَا سَعِيدٍ قَدِيمَا

وَوَرَدْنَا سَاحِلًا وقَلِيباً وَرَعَيْنَاهُ بَارِضاً وجَمِيمَا[2]

فَعَلِمْنَا أنْ لَيْسَ إلا بِشِقِّ النفسِ صارَ الكريمُ يُدْعَى كَرِيما[3]

فالساحلُ والقليبُ يُستخرجُ منهما تأويلان مجازيَّان : أحدُهما أنَّه أراد بهما الكثير والقليلَ بالنسبة إلى السَّاحلِ والقَليب . والآخرُ : أنه أرادَ بهما السَّبَب وغيرَ السَّبَب ، فإنَّ الساحلَ لا يحتاجُ فى وِرْدِه إلى سبب ، والقليب يحتاجُ فى وِرْدِه إلى سببٍ ، وكلا هذين المعنيين مجاز ، فإنَّ حقيقة السّاحلِ والقليب غيرُهما . والوَجْهُ هو الثانى ، لأنَّه أدلُّ على بلاغةِ القائلِ ومَدْحِ المَقُولِ فيه .

أما بلاغةُ القائِلِ فالسَّلامة من هُجْنةِ التكرير بالمخالفةِ بينَ صَدْرِ البيتِ وعَجُزِه ، فإنَّ عَجُزَه يدلُّ على القليلِ والكثير ، لأن البارضَ هو أوّلُ النَّبْتِ حين يَبْدو ، فإذا كثُرَ وتكاثفَ سُمِّى جميما[4] ، فكأنَّه قالَ : أخذْنا منه تبرُّعا ، ومَسْألةً ، وقليلاً ، وكثيراً .

وأما مدحُ المَقُولِ فيه ، فلتعْدَادِ حالاته الأربع فى تبرُّعه وسُؤالِه وإكثاره وإقلاله ، وما فى مُعاناةِ هذه الأحوالِ من المشاقّ . فهذا ما يتعلَّقُ بالترجيح البلاغىّ بين الحقيقة والحقيقة ، وبَيْن المجاز والمجازِ ، وبين الحقيقة والمجازِ .

---

(١) ديوان أبي تمام ٢٩٢ من قصيدته التى مطلعها :

إن عهداً لو تعلمان ذميما أن تناما عن ليلتى أو تنيما

(٢) رواية الديوان « ووردناه سائحاً وقليباً » والسائح الماء الجارى ؛ والقليب البئر ؛ والبارض أول النبات ؛ والجميم النبات الطويل المنتشر ؛ وهو فى الأصل « حميا » بالحاء المهملة وهو تصحيف .

(٣) فى الأصل « إلا بشق الأنفس » وفيه اختلال فى الوزن . والصواب عن الديوان ٢٩٢ .

(٤) فى الأصل « حميا » بالحاء المهملة ، وهو تصحيف .

وهاهنا ترجيحٌ آخرُ لا يتعلق بما أشَرْنا إليه ، إذ هو خارجٌ عما تقتضيه المعاني الخَطَابيَّة من جهةِ الفصاحة أو البَلاغة . وذلك أنْ يُرجَّحَ بين مَعْنيين ، أحدُهما تامٌّ ، والآخرُ مقدَّرٌ . أو يكون أحدُهما مناسباً لمعنى تقدَّمه أو تأخَّر عنه ، والآخَرُ غيرَ مناسبٍ . أو بأنْ يُنْظَر فى التَّرجيحِ بينهما إلى شىءٍ خارجٍ عن اللفظ .

فمثال المعنيين المشارِ إليهما أنَّ المعنى التامَّ هو الّذى يدلُّ عليه لفظُه ولا يَتَعدَّاه . وأمَّا المقدَّرُ فهو الذى لا يَدُلُّ عليه لفظُه ، بل يُسْتَدَلُّ عليه بقرينةٍ أُخرَى ، وتلك القرينةُ قد تكونُ من توابعه ، وقد لا تكون . فمَّا جاءَ من ذلكَ قولُ النبيِّ صلّى الله عليه وسلم « فى سَائمةِ الغَنَمِ زَكَاةٌ » فهذا اللفظَ يستخرجُ منه مَعْنَيَان : أحدَهما تامٌّ ، والآخَرُ مقدَّر . فالتامُّ دلالتُه على وُجُوبِ الزكاةِ فى السَّائمةِ لا غيرُ ، والمقدَّرَ دلالتُه على سُقُوطِ الزَّكاةِ عن المعلوفةِ ، إلا أنَّه ليسَ مفهوماً من نفسِ اللفظِ ، بل من قرينةٍ أُخْرَى هى كالتَّابعة له ، وهى أنَّه لما خُصَّتْ السَّائمةُ بالذِّكرِ دون المعلوفةِ عُلِمَ من مَفْهُوم ذلكَ أن المعلوفةَ لا زَكاةَ فيها . وللفقهاءِ فى ذلكَ مُجاذَباتٌ جدَليَّة ، يطُولُ الكلامُ فيها ، وليس هذا موضعَها . والَّذى يترجَّح عندى هو القولُ بفَحْوَى المعنَى المقدَّر ، وهو الذى يُسَمِّيه الفقهاء « مَفْهوم الخطاب » ولهُ فى الشِّعر أشباه ونظائرُ ، فمَّا وردَ من ذلك شعراً قول جزْءِ بن كلَيبِ الفقْعَسِيّ[1] ، من شعراء الحماسة ، وقد خطب إليه ابنُ كُوز ابنته فرَدَّه :

---

(١) فى الأصل «جرى بن كلب» والتصويب عن ديوان الحماسة ١/٨٨ ؛ وقال التبريزى : قال ابن الأعرابي : هو جرير لاجزء ، ولم أقف لهما على ترجمة .

تَبَغَّى ابنُ كُوزٍ والسَّفَاهةُ كاسْمِها ... لِيَسْتَادَ مِنّا أَنْ سَنَوْنا لَيَالِيا[1]

فلا تَطْلُبَنْهَا يا بْنَ كُوزٍ فإنَّهُ ... غَذَا النَّاسَ مُذْ قَامَ النَّبِيُّ الْجَوَارِيا[2]

وهذا البيتَ الثانى يَشْتمِلُ على المعنيين التامِّ والمقدَّرِ .

أمَّا التامُّ فإنَّ ابنَ كُوزٍ سأل أبا هذه الجارية أن يُزوِّجه إيّاها فى سَنة ، والسَّنَةَ : الجدْب ، فردَّه ، وقال : قد غَذَا الناسَ البناتِ مُذ قام النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وأنا أيضاً أغذُو هذه ، ولولا ذلكَ لوأَدْتُها ، كما كانت الجاهلية تفعل وفيه وجهٌ آخر : وهو أنهم كانوا يئِدون البنات قبْلَ الإسلام ، فلما جاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم نَهَى عن ذلك ؛ فقوله : « غذَا الناس مُذ قام النبيُّ الجواريا » أى فى النساءِ كثرة ، فتزوَّجْ بعضَهُنَّ وخَلِّ ابنتى . وهذان المعنيان هما اللذان دلّ عليهما ظاهرُ اللفظ .

وأمّا المعنَى المقدَّرُ الذى يُعلَمَ من مفهوم الكلام فإنه يقول : إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أَمَرَ بإحياء البنات ، ونَهَى عن الوَأْد ، ولو أنكَحْتُكَها لكنتُ قد وَأَدْتُها ، إذ لا فرقَ بين إنكاحك إيَّاها وبين وَأْدِها . وهذا ذمٌّ للمخاطَب . وهوَ مَعْنًى دقيق .

ومجىء المعانى المستخرجة من المفهومة قليلٌ فى الشِّعر .

---

(١) رواية الحماسة « شتونا » بالشين والتاء ، ومعنى « يستاد منا » أى يتزوج فى ساداتنا ؛ وقوله « أن شتونا » أى دخلنا فى الشتاء والجدب . والمعنى طلب منا الزواج فى هذا الوقت ؛ ولو كنا فى غيره لما أمكنه أن يجترىء علينا بذلك .

(٢) غذاه قام بغذائه ؛ وهذا كناية عن إبطال وأد البنات من الفقر أو خشيته ؛ والجوارى جمع جارية وهى البنت . والمعنى : لا تطلب التزوج بالمرأة التى خطبتها فلك فى سائر النساء مندوحة عنها ؛ فإن النساء كثرن مذ منع الإسلام وأد البنات .

وأمّا ما يُستَدَلُّ عليه بقرينةٍ ليستَ من توابعه ، فإنَّ ذلكَ أدقُّ من الأوّل ، وألطَف مأخَذاً .

فمَّا وَرَدَ منه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : « من جُعِلَ قاضياً بين الناس فقد ذُبِحَ بغَيْر سِكّين » فهذا يُستَخْرَجُ منه المعنيان المشارُ إليهما ، فالتامُّ منهما يدل على أنّه من جُعِل قاضياً فقد عَرَّضَ نفسَه لخطر عظيمٍ كالذّبح بغير سِكّين . وأمّا المقدَّر فإنه يدلُّ على أنّه من جعِل قاضياً فقد أُمِرَ بمفارقةِ هَوَاه . وهذا لا يدلُّ عليه اللفظُ بنفسِه ، بل يُستَدَلُّ عليه بقرينةٍ أُخرى ، ولـكنها ليست من توابِعه . ووجهُ ذلكَ أن لفظَ الحديث عامٌّ ، يشمل القُضاةَ على الإطلاق ، ولا يخلو إمّا أن يُرادَ به عذابُ الآخرة ، أو عذابُ الدّنيا ولا يجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بِهِ عذابَ الآخرةِ . لأنه ليس كلُّ قاضٍ معذبًا فى الآخرة ، بل المعذَّبُ منهم قضاةُ السُّوء . فوضَح بهذا أن المرادَ بالحديث عذابُ الدُّنيا . وعلى هذا فلا يَخلو إمّا أنْ يكونَ العذابُ صورةً أومعنًى، ولا يجُوزُ أن يكون صورةً لأنا نرى الإنسانَ إذا جُعِل قاضيًا لا يُذْبح ، ولا يناله شيء من ذلك . فبقيَ أن يكون المراد به عذابًا معنويًا ، وهو الذّبح المجازيُّ غيرُ الحقيقي . وفَحْوَى ذلك أن نفسَ الإنسان مُركَّبة على حُبِّ هواها ، فإذا جُعِل قاضيًا فقد أُمِرَ بترك ما جُبِلَ على حُبِّه من الامتناع عن الرِّشوة ، والحُكم لصديقه على عدوِّه ، ورفع الحِجابِ بينه وبين الناس ، والجلوس للحُـكم فى أوقاتِ راحته ، وغير ذلك من الأشياءِ المـكروهةِ التى تَشقُّ على النفس ، وتجدّد لها ألمًا مبرِّحًا ، والذّبح هو قطع الحُلْقوم ، والألم حاصلٌ به ، وهو كالذبح الحَقيقيّ ، بل أشدُّ منه .

لأن ألمَ الذبح الحقيقيّ يكون لحظةً واحدة ، ثم ينقضي ويزول وألمُ قطع النفسِ عن هواها يدومُ ولا ينقضي ، وهو أشدُّ العذابِ . قال الله تعالى في عذابِ أهلِ النار « وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ[1] » وقال في نعيم أهلِ الجنة « وفيها ما تَشْتَهِيهِ الأنفسُ وتلذُّ الأعينُ[2] » وكثيراً ما رأينا وسمعنا مَنْ حمَلَه حُبُّ الشيء على إتلافِ نفسِه في طلبِه ، وركوبِ الأهوالِ من أجلِه ، فإذا امتنعَ عنه مع حبِّه إياهُ فقد ذَبح نفسَه ، أي قطعها عنه ، كما يَقْطعُ الذابحُ حلْقَ الذَّبيحة ، ولهذا قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « انتقلْنا عن الجهاد الأصغرِ إلى الجهاد الأكبَرِ » فسمَّى جهادَ الكفّار « الجهادَ الأصغر » ، وجهادَ النفسِ « الجهاد الأكبر » .

فكما أنَّ مجاهدةَ النَّفس عن هَوَاها قتالٌ بغير سَيْف ، فكذلك قطعُها عن هواها ذَبْح بغير سكين . وهذا موضِعٌ غامضٌ . والترجيحُ فيه مختَصٌّ بالوجهِ الآخر ، لاشتماله على المعْنَى المقصـــود ، وهو المرادُ من القُضاةِ على الإطلاق .

وأما مثالُ المعْنَيَيْن إذا كانَ أحدُهما مناسبًا لمعنًى تقدَّمه ، أو لمعنى تأخَّر عنه ، والآخرُ غيرُ مناسب :

فالأول : وهوَ ما كان مناسبًا لمعنى تقدّمه كقوله تعالى : « لا تجعَلُوا دُعاءَ الرَّسولِ بَيْنَكُمْ كدُعَاءِ بعْضِكم بعْضًا[3] » فالدُّعاء هاهنا يدلُّ على معنيين : أحدُهما : النَّهيُ أن يُدْعَى الرسولُ باسْمِه ، فيقال : يامحمَّد : كما يدْعو بعضهم بعضًا

---

(1) سورة سبأ : آية ٥٤ (٢) سورة الزخرف : آية ٧١

(٣) سورة النور : آية ٦٣

بأسمائهم ، وإنما يقالُ له : يارسول الله ، أو يا نبيَّ الله . الآخرُ : النهىُ أن يجعلوا حضورَهم عنده إذا دعاهم لأمرٍ من الأمور كحُضور بعضهم عند بعْضٍ ، بل يتأدبونَ معه ، بألاَّ يُفارِقوا مجلسَه إلّا بإذنه . وهذا الوجه هو المراد ، لمناسبةِ معْنى الآية التى قبله ، وهو قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانُوا مَعَه على أمْرٍ جامِعٍ لمْ يَذهَبُوا حتَّى يَسْتَأذِنوهُ[1] »

وأمَّا الثانى : وهو ما كانَ مناسباً لمعًنى تأخرٌ عنه كقوله تعالى : « والتِّينِ والزَّيتون * وطُور سِينِين[2] » فالتينُ والزيتُون هما هذا الشجرُ المعروفُ ، وهما اسْمَا جبلين أيضاً . وتأويلُهما بالجبَلين أوْلَى ، للمناسبةِ بيْنَهما وبَيْنَ ما أتَى بَعْدَهُما من ذكر الجبلِ الذى هو الطُّور .

وعلى هذا وَرَدَ قولُ الشاعر[3] فى أبيات الحماسة :

وَلَوْ كُنتُ مَوْلَى قَيْسِ عَيْلاَنَ لمْ تَجِدْ ... عَلَيَّ لإنْسَانٍ مِنَ النَّاسِ دِرْهَما
ولكنَّنِي مَوْلَى قُضَاعَةَ كُلِّها ... فلَسْتُ أُبَالِي أَنْ أَدِينَ وتَغْرَمَا[4]

فإذا نظرْنا إلى البيتِ الأوَّل وجدناهُ يحتملُ مدحاً وذمًّا ، أى أنَّهم كانوا يُغنُونَهُ بعطائهمْ أنْ يَدِينَ ، أوْ أنَّه كانَ يخافُ الدَّيْنَ حَذَرَ ألَّا يَقومُوا

---

(١) سورة النور : آية ٦٢

(٢) سورة التين : الآيتان ١ و ٢

(٣) هو شقران مولى بنى سلامان بن سعد هذيم ؛ وهو شاعر إسلامى من شعراء الدولتين أمية وبنى العباس .

(٤) البيتان فى ديوان الحماسة ٢/٢٦٠ ؛ ومعنى البيتين لو كان ولائى فى قيس عيلان لم أقترض درهما من أحد لأنفقه فى سبيل الخير مخافة ألا يئودوه عنى ؛ ولكن ولائى فى قضاعة فلا أبالى أن أقترض ما أنفقه فى وجوه البر ؛ لأنهم يؤدونه عنى . والمراد من هذا الكلام تفضيل قضاعة لجودهم وكرمهم على قيس عيلان لبخلهم وإمساكهم .

عَنْهُ بوَفائه ، لكنَّ البيتَ الثانىَ حقَّقَ أنَّ الأولَ ذمٌّ وليسَ بمدحٍ ، فهذا المعنى لا يتحقَّقُ فهمُهُ إلَّا بآخره .

وأمَّا الذى يكونُ الترجيحُ فيه بسبب شىء خارجٍ عن مفهوم اللفظِ فقولُه تعالى : « وهوَ اللهُ فى السَّمَوَاتِ وفى والأرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وجَهْرَكُمْ [١] »

فهذا مُسْتَنْبَطٌ منه معنيان : أحدُهما أنَّ الله يَعلمُ السِّرَّ والجهرَ فى السموات والأرْض ، وفى ذلكَ تقديمٌ وتأخيرٌ . أىْ يعلمُ سِرَّكمْ وجَهْرَكم فى السمواتِ وفى الأرض . الآخرُ : أنه فى السموات وأنهُ يعلَمُ السِّرَّ والجهرَ فى الأرض من بنى آدمَ ، لأنَّ الوقفَ يكونُ على السموات ، ثم يَسْتأنفُ الكلام . فيقول : يعلَمُ سِرَّكمْ وجَهْرَكُمْ فى الأرض . إلا أنَّ هذا يمنعُ منه اعتقادُ التَّجسيم . وذلك شىء خارجٌ عن مفهومِ اللَّفظِ .

الفصل الخامس

فى جوامع الكلم

قال النبىُّ صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ : « أُوتيتُ جَوامِعَ الْكَلِم » فالكلم جمعُ كلمة ، والجوامعُ جمع جامعة ، والجامعة اسم فاعِلَة ، من جَمَعَتْ ، فهى جامعة ، كما يُقالُ فى المذكَّر « جَمَعَ » فهو « جامع » . والمراد بذلكَ أنَّه صلَّى الله عليه وسلم أُوتِىَ الكَلِمَ الجوامعَ للمعانى .

---

(١) سورة الأنعام : آية ٣

وهو عندِي ينقسمُ قسمين :

القسمُ الأول منهما : هُوَ ما استخرجْتُه ، ونبَّهتُ عليه ، ولم يكنْ لأحدٍ فيه قولٌ سابقٌ ، وهو أنَّ لنا ألفاظاً تتضمَّن من المعنى مالا تتضمَّنه أخواتُها ، مما يجوزَ أن يُسْتَعملُ في مكانِها . فمنْ ذلِكَ ما يأتِي على حُكمْ المجاز ، ومنه ما يأتى على حُكمِ الحقيقة .

أمَّا ما يأتى على حُكم المجاز فقوله صلى الله عليه وسلم يومَ حُنَيْن : « الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ » وهذا لم يُسْمَعْ من أحدٍ قبلَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ولو أتيْنَا بمجازٍ غير ذلك في معناه ، فقلنا « استَعَرت الحربَ » لمَا كان مؤدِّيا من المعنى ما يؤدِّيه « حَمِيَ الوَطيسُ » والفرقَ بينهما أن الوَطِيس هو التنُّور ، وهو مَوْطِنُ الوَقود ومُجتَمعُ النار ، وذلكَ يخيِّلُ إلى السَّامع أن هناكَ صورةً شبيهةً بصورته في حَمْيها وتوقُّدها ، وهذا لا يوجد في قولنا « استَعَرَتِ الحربُ » أو ما جرى مجراه . وكذلك قال صلى الله عليه وسلم « بُعِثْتُ في نفسِ السَّاعةِ » فقوله : « نفَس الساعة » من العبارة العجيبة ، التي لا يقومُ غيرُها مقامها ، لأنَّ المرادَ بذلك أنهُ بُعِثَ والساعة قريبةٌ منه ، لكنَّ قربَها منه لا يدلُّ على مادلَّ عليه النَّفَس ، وذاك أنَّ النفسَ يدلُّ على أن السَّاعة منه بحيثُ يُحسُّ بها ، كما يُحسُّ الإنسان بنفس مَنْ هو إلى جانبه . وقد قالَ صلَّى الله عليه وسلم في موضع آخر « بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتَيْنِ » وجمع بين أُصْبُعَيْه السَّبَّابةِ والوُسْطَى ، ولو قال بُعِثتُ على قُرْبٍ من السَّاعة ، أو والسَّاعة قريبةٌ مني ، لمَا دلَّ ذلكَ على مادلَّ عليه نفسَ الساعة . وهذا لا يحتاجُ إلى الإطالةِ في بيانه ، لأنه بيِّنٌ واضحٌ

وقد ورد شيء من ذلك في أقوال الشعراء المُفْلِقين . وقد تصفّحتُ الأشعارَ قديمها وحديثها ، وحفظتُ ما حفظتُ منها ، وكنتُ إذا مررتُ بنظري في ديوانٍ من الدواوين ، ويلوحُ لي فيه مِثْلُ هذه الألفاظِ أجدُ لها نَشوةً كنشوةِ الخمر ، وطرباً كطربِ الألحان ، وكثير من الناظمين والناثرين يمرّ على ذلك ، ولا يتفطّنُ له سوى أنه يستحسِنُه ، من غير نظرٍ فيما نظرتُ أنا فيه ، ويظنّه كغيرهِ من الألفاظ المستحسنة .

فما جاء من ذلك قول أبي تمّام [١] :

كَمْ صارمٍ عَضْبٍ أنافَ على قفا ... منهمْ لِأَعْباءِ الوَغَى حَمّالِ

سَبَقَ المشيبَ إليه حتى ابتَزَّهُ ... وطنُ النُّهى من مَفْرِقٍ وقَذالِ [٢]

فقوله : « وطنُ النهى » من الكلمات الجامعة ، وهي عبارة عن الرأس ، ولا يُجاء بمثلها في معناها مما يسدُّ مَسَدّها . وكذلك وَرَدَ قولُ البُحتريّ :

قلبٌ يُطِلُّ على أفكارهِ ويَدٌ ... تُمضي الأمورَ ونفسٌ لَهْوُها التعبُ [٣]

فقوله : « قلبٌ يطلُّ على أفكاره » من الكلمات الجوامع ، ومرادُه بذلك أنّ قلبَه لا تملؤهُ الأفكارُ ، ولا تحيطُ به ، وإنما هو عالٍ عليها . يصفُ بذلك عدمَ احتفالهِ بالفوادح ، وقلّةَ مبالاتهِ بالخطوبِ ، التي تحدثُ أفكاراً تستغرقُ القلوبَ . وهذه عبارةٌ عجيبةٌ ، لا يُؤتى بمثلها مما يسدُّ مَسَدّها .

---

(١) ديوان أبي تمام ٢٦٣

(٢) ابتزه : سلبه ، وطن النهى : الرأس ، المفرق : وسط الرأس ، القذال : مؤخره .

(٣) ديوان البحتري ٢٠٤ ، ورواية الديوان « يطل على أقطاره » .

وأمّا ما يأتي على حُكم الحقيقة فكقول ابن الرومي (١) :

سَقَى اللهُ أوطاراً لنا ومآرباً تَقطَّعَ مِنْ أقرانِها ما تقطّعا
ليالِ تُنَسِّينى الليالى حِسابَها بُلَهْنِيَةٌ أقضى بها الحَوْلَ أجمعا
سِوى عِزَّةٍ لا أعرِفُ اليومَ باسْمِهِ وأعمل فيه اللهوَ مَرْأى ومَسْمَعا

فقوله : « لا أعرِفُ اليوم باسمه » من الكلمات الجامعة ، أى أنّى قد شُغِلتُ باللَّذاتِ عن معرفةِ الليالى و الأيام . ولو وصفَ اشتغاله باللّذاتِ مهما وَصَفَ لم يأت بمثلِ قوله : « لا أعرفُ اليومَ باسمه » .

وأمَّا القسمُ الثانى من جوامع الكلم ، فالمراد به الإيجاز ، الّذى يُدَلُّ به بالألفاظِ القليلة على المعانى الكثيرةِ ، أىْ أنَّ ألفاظَه — صلواتُ الله عليه — جامعةٌ للمعانِى المقصودَة على إيجازِها واختصارِها . وجُلُّ كلامه جارٍ هذا المجرَى فلا يحتاجُ إلى ضَرْبِ الأمثلة بِه ، وسيأتى فى باب الإيجازِ منه ما فيه كفايةٌ ومُقْنِعٌ .

فإنْ قِيل : فما الفرقُ بين هذينِ القِسمَيْن اللّذَين ذكرتَهما ، فإنَّهما فى النظرِ سَواء ؟

قلتُ فى الجواب : إنَّ الإيجاز هو أنْ يُؤْتَى بألفاظٍ دالّةٍ على معنًى ، مِن غير أن تَزِيدَ على ذلك المعنَى ، ولا يُشترَطُ فى تلكَ الألفاظِ أنها لا نظيرَ لها . فإنها تكونُ قد اتَّصفتْ بوصفٍ آخرِ خارجٍ عن وَصْفِ الإيجاز ، وحينئذٍ

---

(١) ديوان ابن الرومى ٢٩٩ وروى صدر البيت الثالث فى الديوان هكذا « سوى غرة لا أعرف اليوم بإسمه » .

يكونُ إيجازاً وزيادة ، وأمّا هذا القسمُ الآخرُ ، فإنهّ ألفاظٌ أفرادٌ فى حُسنِها لا نظيرَ لها ، فتارة تكونُ موجَزةً ، وتارةً لاتكونُ موجزة ، وليسَ الغرضُ منها الإيجاز ، وإنما الغرضُ مكانُها من الحُسْن الذى لا نظيرَ لها فيه . ألا ترى إلى قوْلِ أبى تمّامٍ : « وطنُ النُّهى » ؟ فإن ذلكَ عبارةٌ عن الرّأْس ، ولا شكّ أنّ الرأسَ أوْجَزُ ، لأنّ الرأسَ لفظةٌ واحدةٌ . و« وطن النُّهى » لفظتان ، إلا أنّ « وطن النُّهى » أحسنُ فى التعبير عنِ الرّأْس من الرّأْس . فبان بهذا أنّ أحد هذين القسمين غيرُ الآخر .

الفصل السادس

فى الحكمة التى هى ضالة المؤمن

قال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : « الحكمة ضالّة المؤمن ، فهو أحقُّ بها إذا وجَدَها » والمرادُ بذلك أنّ الحكمَةَ قد يستفيدُها أهلُها من غير أهلها ، كما يُقال : « رُبَّ رَمْيَةٍ مِنْ غيرِ رَامٍ » وهذا لا يخصُّ علماً واحداً من العلوم ، بلْ يقعُ فى كلِّ علمٍ ، والمطلوبُ منه هاهُنا هو ما يخصُّ علمَ البيانِ من الفصاحةِ والبلاغةِ دونَ غيره .

ومذ سمعتُ هذا الخبرَ النبوىَ جعلتُ كَدِّى فى تتبّع أقوالِ الناس فى مُفاوضاتِهم ومحاوراتهم ، فإنه قدْ تَصْدُرُ الأقوالَ البليغة والحِكَمُ والأمثالُ ممّنْ لا يعلم مقدار ما يقوله ، فاستفدْت بذلك فوائدَ كثيرةً ، لا أحصُرُها عدداً . وأنا أذكرُ منها طرفاً ، يُستَدَلّ به على أشباهه ونظائره .

فمنْ ذلك أنى سِرتُ فى بعض الطرُق ، وفى صُحبتى رجلٌ بدوىٌّ من الأنباطِ[١] لا يُعتَدُّ بقوله ، فكان يقولُ : « غداً ندخل البلد ، وتشتغلُ عنى » . وكان الأمرُ كما قالَ ، فدخلتُ مدينةَ حَلَب ، وشُغِلت عنه أياماً ، ثم لَقِيَنى ، فقال لى : « مَ · تَرَوَّى فتَرتْ عِظامُه » ، وهذا القولُ من الأقوال البالغة . وهى من الحِكمةِ التى هى الضالةُ المطلوبة عندَ مُؤمِنِى الفصاحةِ والبلاغةِ .

ثم إنى سمعت منه بعد ذلك شيئًا يناسبُ قوله الأوّل ، فإنى سَفَرتُ له إلى صاحب فى حلَب فى شىءٍ أخذتُه منه فاستقلّه . وقال : « الماء أرْوَى لشُدوق النِّيب » . وهذا أيضًا من الحِكمةِ فى بابها .

وسافرتُ مرّةً أخرى على طريق المناظِر وكان فى صُحْبتى رجلٌ بدوىٌّ ، فسألتُه عن مسافةِ ما بين تدمُر[٢] وأرَاك[٣] ، فقال : إذا «خرج سَرحَاهما تلاقيَا» فعبَّر عن قُرْب المسافةِ بينهما بأوجَزِ عبارة وأبلغها .

ثم سألتُه ليلةً من اللَّيالى عن الصُّبح لنرتحلَ عن موضعنا ، فقال : « قد ظهر الصبحُ إلا أنه لم يملِك الإنسانُ بصَرَه » ، وهذا القولُ من الحكمة أيضًا .

وكانَ تزوَّجَ غلامٌ من غِلمانى بدمَشْق ، فوقعَت المرأةُ منه بموقعٍ ، وشُغِفُ بها ثمَّ سافرتُ عن دِمَشْق لمهمٍّ عَرَضَ لى ، وسافَرَ ذلك الغلامُ فى صُحْبتى .

---

(١) النبط والنبيط والأنباط جيل ينزلون بالبطائح بين العراقين (القاموس ٢/٣٨٧) .
(٢) تدمر مدينة مشهورة فى برية الشام ، بينها وبين حلب خمسة أيام ؛ وهى قريبة من حمص .
(٣) أراك ، وادى الأراك قرب مكة .

فلمّا عُدْنا من السَّفر شُغِل بامرأته ، والمقام عندها ، فسألتُه عن حاله ، فقال : إنها قَدْ طَالَت وَحَسُنَت ، وهي كذا وكذا ، وأخَذَ يصفُها ، فقالَ أخٌ له كان حاضرًا : ياموْلاىَ هىَ تلكَ لم تزدْ شيئًا ، وإنما هىَ فى عيْنِه جبّارٌ من الجبابرة !

وكذا القول قد وَرَدَ فى بعضِ أبياتِ الحماسةِ ، وهو معدود من أبيات المعانى :

أهابُكِ إجلالا وما بكِ قدْرَةٌ ... علىَّ ولكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُها[1]

فكثيراً ما يصْدُرُ مثلُ هذه الأقوال عن ألْسنةِ الجهَّال .

وسمعتُ مايجرِى هذا المجرَى من بعض العبيد الأحابيش الذينَ لا يسْتطيعون تقويم صِيَغ الألفاظ ، فضلا عمَّا وراءَ ذلك . وذاك أنه رأى صَبيًّا فى يده طاقةُ رَيحان ، فقال : « هذه طاقةُ آسٍ تحمل طاقةَ ريحان » . فلمَّا سمعتُ ذلك منه أخذتنى هِزَّة التَّعَجُّب ، وذكرتُ شعرِ أبِى نُواسٍ الذى تواصَفَه الناسُ فى هذا المعنى ، وهو قوله :

وَوَرْدَةٍ جاءَ بها شادنٌ ... فى كفِه اليمنى فحَيَّانا
سبَّحْتُ ربِّى حينَ أبصرْتُها ... رَيْحانة تحمِلُ رَيْحانَا

وحضَر عندى فى بعضِ الأيام رجلٌ نصرانىٌّ موسومٌ بالطب ، وكانَ لا يُحسِن أن يقولَ كلمَةً واحدةً ، وهو أقلفُ اللسان ، يسىءُ العبارةَ ، فسألته عن زيارةِ شخصٍ ، وهل يتردَّدُ إليه أمْ لا ؟ فقال : « ظلامُ اللَّيلِ يهدِينى إلى باب

---

(١) ديوان الحماسة ٢/١٣١

مَنْ أوَدُّه ، وصوء النّهار بضلّ بى عنْ باب من لا أوَدُّه » وهذا منْ ألطفِ المعانى وأحْسَنِها ، وهو من الحكمةِ المطلوبة .

وكنتُ قصدْتُ زيارة بعضِ الإخوان من الأجناد وهو من الأغْتامِ[1] الأعْجام . فسألتُه عَنْ حاله ، وكان توالتْ عليه سكبَاتٌ طالتْ أيَّامُها ، وعظُمَتْ آلامُها ، فقالَ لى فى الجوابِ ما معناه : إنّه لم يبقَ عندى ارْتياعٌ لوقوع نائبةٍ من النّوائبِ . وهذا معنًى لو أتى به شاعرٌ مُفْلِق ، أو كاتبٌ بليغ ، لاسْتُحْسِنَ منه غاية الاستحسان .

وكنتُ فى سنةِ ثمانٍ وثمانين وخمسمائة بأرض فِلَسْطِين ، فى الجيش الذى كان قُبالةَ العدوّ الكافرِ من الفرِنج ، لعنهم الله ، وتقابَل الفريقان على مَدِينة « يافا » وكان إلى جانبى ثلاثةُ فُرسانٍ من المسلمين ، فتعاقَدُوا على الحملة إلى نحو العَدُوِّ ، فلما حَمَلُوا صَدَقَ منهمُ اثنان ، وتلكَّأَ واحدٌ ، فقيلَ له فى ذلك ، فقال : « الموتُ طعامٌ لا تَجُشُّه[2] المعِدَة » . فلما سمِعْتُ هذه الكلمةَ استَحْسنتها ، وإذا هىَ صادرةٌ عن رَجلٍ من أهل « بصْرَى » فَدْمٍ[3] من الأفْدَام .

ولو أخذتُ فى ذِكْرِ ما سَمعته من هذا لأطَلْتُ ، وإنّما دَلَلْتُ بيسير ما ذكرتُه على المُراد ، وهو أنّه يجبُ على المتصدّى للشّعرِ والخطابة أن يَنتَبّعَ أقوالَ الناسِ فى مُحاوَرَاتِهمْ ، فإنّه لا يعدمُ ممَّا يسْمَعُه منهم حِكَمًا كثيرة ، ولو أراد استخراجَ ذلك بفكرِهِ لأعجَزَه .

---

(١) جمع أغتم ، وهو من لا يفصح شيئاً .
(٢) يقال : جشه أى دقه وكسره .
(٣) الفدم العيي عن الكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم ، والغليظ الأحمق الجافى .

ويُحكى عن أبي تمّام أنّه لما نظمَ قصيدتَه البائيَّة التي أوّلها :

* على مِثلها من أربُعٍ ومَلاعِبِ (١) *

انتهى منها إلى قوله :

يرَى أقبحَ الأشياءِ أوْبَةَ آملٍ ... كَسَتْهُ يدُ المأمولِ حُلَّةَ خائِبِ

ثم قال .

« وأحْسَنُ مِنْ نَوْرٍ يُفتِّحُهُ الصَّبا »

ووقفَ عِنْدَ صَدْرِ هذا البيتِ يردِّدُه ، وإذا سائلٌ يسألُ على البابِ ، وهو يَقولُ : « مِنْ بياضِ عَطَايا كَمْ في سَوادِ مَطالِبنَا » ، فقالَ أبو تمَّام :

* بياضُ العَطَايا في سَوَادِ المطالِبِ *

فأتمَّ صدرَ البيْتِ الذي كانَ يردِّدُه من كلام السائلِ .

وسمعتُ امرأة قد تُوُفِّي لها ولد ، وهو بِكرُها الذي هو أوَّلُ أوْلادها ، فقالت : كيفَ لا أحزَنُ لِذهابه ، وهو أولُ دِرْهمٍ وقعَ في الكيس ؟ فأخذت أنا هذا المعنى ، وأوْدَعْتُه كتاباً من كتبي في التعازي ، وهو كتابٌ كتبتُه إلى بعضِ الإخوانِ ، وقد تُوُفِّيَ بكْرُهُ مِنَ الأولادِ . فقلت : « وهوَ أوَّلُ دِرْهمٍ ادَّخَرْتَه في كيس الادِّخار ، وأعْدَدْتَهُ لحوادِث الليلِ والنَّهارِ » .

وبلغَني عن الشيخ أبي محمد [عبد الله بن (٢)] أحمد بن أحمدَ المعروفِ بابن الخشّاب البغداديّ ، وكانَ إماماً في عِلْمِ العربيَّةِ وغيره ، فقيلَ إنه كانَ

---

(١) ديوانه ٤٠ ، وعجز البيت * أذيلت مصونات الدموع السواكب * وهو مطلع قصيدة يمدح بها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي ، وهي من عيون قصائده .

(٢) زيادة ليست في الأصل صححنا بها الاسم ، وقد سبقت ترجمته في صفحة ٤٣

كثيراً ما يقفُ على حِلَقِ القُصَّاصِ والمُشَعْبِذِينَ . فإذا أتاهُ طلبةُ العِلْمِ ، لا يَجِدُونَه في أكثر أوقاتِهِ إلَّا هناك ، فَلِمَ على ذلك ، وقيلَ له : أنتَ إمامُ الناس في العِلْمِ ، ومَا الَّذي يبعَثُكَ على الوقوف بهذه المواقف الرَّذيلة ؟ فقال : « لو علمتمْ ما أعلم لما لُمْتمْ ! ولَطَالما استَفَدْتُ من هؤلاء الجُهَّالِ فوائدَ كثيرةٍ ، تجرِي في ضِمْنِ هَذَيَانِهم مَعَانٍ غريبة لطيفةٌ . ولو أردتُ أنا أوْ غيري أن نأتِيَ بمثلها لما استَطَعْنا ذلك » . ولا شكَّ أن هذا الرجلَ رأى ما رأيتُه ، ونظرَ إلى ما نظرتُ إليه .

الفصل السابع

في الحقيقة والمجاز

وهذا الفصلُ مهمٌّ كبير من مهمَّات علم البيان ، لا بل هو علمُ البيان بأجمعه . فإنَّ في تصريفِ العباراتِ على الأسْلوب المجازيِّ فوائد كثيرةً ، وسيرد بيانُها في مواضِعها من هذا الكتاب إنْ شاء اللهُ تعالى . وقدْ بيَّنَّا في هذا الموضع على جُملتها دون تفصيلها .

فأمَّا (الحقيقةُ) فهي اللفظُ الدَّالُ على موضُوعه الأصليِّ .

وأمَّا (المجازُ) فهوَ ما أُريدَ به غيرُ المعنى الموضوع له في أصلِ اللُّغة . وهو مأخوذٌ من جازَ من هذا الموضع إلى هذا الموْضعِ ، إذا تخطَّاهُ إليه .

فالمجازُ إذاً اسمٌ للمكانِ الذي يُجَازُ فيه ، كالمَعَاج والمَزَارِ وأشْباهِهما . وحقيقتُه هي الانتقالُ من مكانٍ إلى مكانٍ ، فَجُعِلَ ذلِكَ لنقل الألفاظ من محلٍّ إلى محلٍّ ، كقولنا زيدٌ أسدٌ . فإنَّ زيداً إنسانٌ . والأسد هو هذا الحيوانُ

المعروفُ . وقد جُزْنَا من الإنسانيَّة إلى الاسَدِيَّة ، أىْ عَبرْنا من هذه إلى هذه لوصْلَة بينهما ، وتلكَ الوُصْلةُ هى صفةُ الشجاعةِ .

وقدْ يكونُ العُبُورُ لغير وُصْلة ، وذلك هو (الاتِّسَاع) كقولهمْ فى كتابِ « كليلةَ ودِمْنة » قالَ الأسدُ ، وقالَ الثعلبُ . فإنَّ القولَ لا وُصْلةَ بينه وبينَ هذين بحال من الأحوال ، وإنَّما أجْرِى عليهما اتِّسَاعًا مَحْضاً لا غيرُ .

ولهذا مثالٌ فى المجاز الحقيقىّ الذى هو المكانُ المجَازُ فيه . فإنَّه لا يخلو إمَّا أنْ يُجَازَ من سَهْلٍ إلى سَهْلٍ ، أو مِنْ وَعْرٍ إلى وَعْرٍ ، أو مِنْ سَهْلٍ إلى وَعْر . فالجوازُ من سَهلٍ إلى سهلٍ أو من وَعْرٍ إلى وَعْرٍ ، هو كقولنا زيدٌ أسدٌ ، فالمشابهةُ حاصلةٌ فى ذات بينهما كالمشابهةِ الحاصلة فى المكانِ . والجواز من سهل إلى وعْرٍ كقولهم : قال الأسدُ ، وقال الثعلبُ . وكما أنه لا مشابهةَ بين القول وبينَ هذَيْن ، فكذلكَ لا مُشَابهةَ بين السَّهلِ والوَعْرِ . وسَيأْتى كشفُ الغِطَاء عن ذلك ، وإشباعُ القولِ فى تحقيقه فى باب (الاستعارة) فلْيُؤْخَذْ من هناك .

وقدْ ذهبَ قومٌ إلى أن الكلامَ كلَّهُ حقيقة لا مجازَ فيه ، وذهبَ آخَرونَ إلى أنه كلّه مجازٌ . لا حقيقةَ فيه . وكلا هَذَيْن المذْهبين فاسدٌ عندى ، وسأجيبُ الخصْمَ عما ادَّعاهُ فيهما ، فأقول : محلُّ النزاعِ هو أنَّ اللغةَ كلَّها حقيقة . أو أنَّها كلَّها مجازٌ ، ولا فرقَ عندى بين قولك إنها كلّها حقيقةٌ ، أو إنَّها كلّها مجازٌ ، فإنَّ كِلاَ الطرَفَيْنِ عندى سَوَاء ، لأنَّ مُنْكرَهما غير مُسَلَّم لهما . وأنَا بِصَدَدِ أن أُبيِّنَ أنَّ فى اللغة حقيقة ومجازاً

و (الحقيقةُ اللُّغويةُ) ، هى حقيقةَ الألفاظِ فى دلالتها على المعانى ، وليستْ بالحقيقةِ التى هى ذاتُ الشيءِ ، أىْ نَفْسه وعَيْنه فالحقيقة اللفظية إذاً هى دِلاَلَةُ اللَّفظ على

المعنى الموضوعِ له في أصْلِ اللُّغة . والمجازُ هو نقلُ المعنَى عن اللَّفظِ الموضوعِ له إلى لفظٍ آخرَ غيرِه .

وتقريرُ ذلك بأنْ أقولَ : المخلوقاتُ كلُّها تفتقر إلى أسماء يُسْتَدَلُّ بها عليها ، ليُعْرَفَ كل منها باسمه ، من أجلِ التفاهُم بين الناس . وهذا يقعُ ضرورةً لابُدَّ منها ، فالاسمُ الموضوعُ بإزاء المسمَّى هو حقيقة له ، فإذا نُقلَ إلى غيره صار مجازاً .

ومثالُ ذلك أنَّا إذا قُلنا « شمس » أردْنا به هذا الكوكب العظيم الكثيرَ الضَّوء ، وهذا الاسمُ له حقيقة ، لأنَّه وضعَ بإزائه . وكذلك إذا قلنا « بحر » أردنا به هذا الماءَ العظيمَ المجتمع الَّذى طعْمُه مِلْحُ ، وهذا الاسمُ له حقيقة ، لأنَّهُ وضع بإزائه .

فإذا نقلنا « الشمس » إلى « الوجهِ المليحِ » استعارةً كان ذلك له مجازاً لا حقيقة . وكذلك إذا نقلْنا « البحر » إلى « الرجل الجواد » استعارةً كان ذلك له مجازاً لا حقيقة .

فإن قيلَ : إنَّ « الوجهَ المليحَ » يقال له « شمس » وهو حقيقة فيه ، وكذلك « البحر » يقال للرَّجُلِ الجواد ، وهو حقيقةٌ فيه . فالجواب عن ذلكَ من وجهين أحدُهما نظريٌّ . والآخرُ وضعيٌّ .

أمّا النظريُّ فهوَ أنَّ الألفاظَ إنَّما جُعلتْ أدلّةً على إفهامِ المعانى ، ولوْ كانَ ما ذهبْتَ إليه صحيحاً لكانَ « البحر » يطلق على هذا الماء العظيمِ الملْحِ ، وعلى الرَّجُلِ الجوادِ بالاشتراك . وكذلكَ الشَّمسُ أيضاً ، فإنَّها كانتْ تطلق على هذا الكوكبِ العظيم الكثير الضَّوء ، وعلى الوجه المليحِ بالاشتراك .

وحينئذٍ فإذا وَرَدَ أحدُ هذين اللفظين مطلقاً بغير قرينةٍ تخصصه ، فلا يُفهم المرادُ به ما هوَ من أحد المعنيَيْن المشتركين المندرجين تحته ، ونحن نرى الأمرَ بخلافِ ذلكَ . فإنا إذا قلنا « شمس » أو « بحر » وأطلقنا القولَ لا يُفهمُ من ذلكَ وجهٌ مليحٌ ، ولا رجلٌ جوادٌ ، وإنما يُفهمُ منه ذلك الكوكبُ المعلوم ، وذلك الماء المعلومُ لا غير . فبطلَ إذاً ما ذهبتَ إليه بما بيَّناه وأوضحْناهُ .

فإنْ قلتَ : إنّ العُرْفَ يخالفُ ما ذهبتَ إليه ، فإنَّ من الألفاظ ما إذا أُطلِقَ لمْ يَذهَب الفهمُ منهُ إلا إلى المجازِ دونِ الحقيقة ، كقولهم : « الغائط » فإن العُرْفَ خَصَّصَ ذلكَ بقضاءِ الحاجةِ دُونَ غَيْره من المطمئنِّ من الأَرْضِ .

قلتُ في الجوابِ : هذا شيء ذهبَ إليه الفقهاء ، وليسَ الأمرُ كما ذهبُوا إليه ، لأنَّه إنْ كانَ إطلاقُ اللفظ فيه بين عامَّةِ الناسِ من إسكافٍ ، وحدادٍ ونجَّارٍ ، وخبَّازٍ ، ومَنْ جرَى مجراهُمْ ، فهؤلاءِ لا يفهمونَ من « الغائط » إلا قضاءَ الحاجةِ ، لأنهمْ لم يعلمُوا أصلَ وضعِ هذه الكلمةِ ، وأنها مطمئنٌّ من الأرْض . وأمّا خاصَّةُ الناسِ ، الذين يعلَمُون أصلَ الوَضْع ، فإنّهم لا يفهمونَ عند إطلاقِ اللفظ إلا الحقيقةَ لا غيرُ ، ألا ترَى أنَّ هذه اللفظة لما وَرَدَتْ في القرآنِ الكريم ، وأُريدَ بها قضاءُ الحاجةِ قُرِنَتْ بألفاظٍ تدلُّ على ذلك ، كقوله تعالى : « أَوْ جَاءَ أَحدٌ مِنْكُم مِنَ الغائِطِ » [1] فإن قوله : « أو جاء أحدٌ منكمْ

---

(١) سورة المائدة ، آية ٦

من الغائطِ » دليلٌ على أنّه أرادَ قضاءَ الحاجة ، دون المطمئنِّ من الأرض ، فالكلامُ فى هذا وأمثالِه إنّما هوَ مع علمِ أصْلِ الوَضْعِ حقيقةً والنّقْلِ عنه مجازاً ، وأمّا الجُهّالُ فلا اعتبارَ بهمْ ، ولا اعتدادَ بأقوالهم ، والعجبُ عندِى من الفقهاءِ الّذِينَ دَوَّنُوا ذلك على ما دَوَّنُوه ، وذهبُوا إلى ما ذهبُوا إليه .

وأمّا الوجهُ الوَضْعِيُّ فهوَ أنَّ المرجعَ فى هذا وما يَجْرِى مجراهُ إلى أصلِ اللّغةِ ، التى هى وَضْعُ الأسماء على المسمَّياتِ ، ولم يوجدْ فيها أنّ الوجهَ المليحِ يسَمَّى شمساً ، ولا أنَّ الرجلَ الجواد يُسَمَّى بحراً . وإنما أهلُ الخطابةِ والشِّعْر توسّعُوا فى الأساليبِ المعنويَّة ، فنقَلوا الحقيقةَ إلى المجاز . ولمْ يكنْ ذلك من واضعِ اللّغةِ فى أَصْلِ الوَضْعِ . ولهذا اختصَّ كلٌّ منهمْ بشىءٍ اخترعَه فى التوسُّعاتِ المجازيَّة .

هذا امْرُؤُ القيْسِ قد اخترعَ شَيْئاً لمْ يكنْ قبله ، فمنْ ذلك أنّه أول من عبَّرعن الفرس بقوله : « قَيْدِ الأَوَابِد »(١) ولم يُسمعْ ذلك لأَحدٍ من قبله .

وقدْ رُوِيَ عن النَّبى صلى الله عليهِ وسلمْ أَنّه قال يوم حُنَيْن : « الآنَ حَمِيَ الوطيسُ » وأرادَ بذلك شدَّة الحرْب ، فإنَّ الوطِيسَ فى أصل الوضْعِ هو التَّنُّورِ ، فنقلَ إلى الحربِ استعارة ، ولمْ يُسمَعْ هذا اللفظُ على هذا الوجهِ من غير النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم ، وواضعُ اللّغةِ ما ذكَرَ شيئاً من ذلك .

---

(١) من بيته المشهور فى معلقته :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها   بمنجرد قيدِ الأوابد هيكل

والأوابد جمع آبدة الوحش ، قال أبو هلال : والحقيقة مانع الأوابد من الذهاب والإفلات ، والاستعارة أبلغ ؛ لأن القيد من أعلى مراتب المنع عن التصرف ، لأنك تشاهد ما فى القيد من المنع ، فلست تشك فيه .

فعلمنا حينئذٍ أنَّ من اللغة حقيقةً بوضعه، ومجازاً بتوسُّعاتِ أهلِ الخطابةِ والشِّعرِ. وفى زماننا هذا قد يخترعونَ أشياءَ من المجازِ على حُكمِ الاستعارةِ لمْ تكن من قبل، ولو كان هذا موقوفاً من جهة واضعِ اللُّغَة لَمَا اخترعَهُ أحدٌ من بعدهِ، ولا زِيدَ فيه، ولا نقصَ منه.

وأمَّا الفرقُ بينَه وبينَ الحقيقة، فهو أنَّ الحقيقة جاريةٌ على العُموم فى نظائرِ. ألا تَرَى أننا إذا قلنا: «فُلانٌ عالمٌ» صَدَقَ على كلِّ ذى علم، بخلافِ «واسألِ القرية»[1] لأنَّه لا يصحُّ إلَّا فى بعضِ الجمادات دُونَ بعض، إذِ المرادُ أهلُ القَرْيَة، لأنَّهم مِمَّن يصحُّ السؤالُ لهمْ، ولا يجوزُ أن يقالَ: واسألِ الحجرَ والتُّرابَ، وقدْ يحْسُنُ أن يقالَ: واسألِ الرَّبعَ والطَّلَلَ.

واعلمْ أنَّ كلَّ مجازٍ فلَهُ حقيقةٌ، لأنَّه لم يصحَّ أنْ يُطلقَ عليه اسمُ المجاز إلَّا لنقله عن حقيقةٍ مَوْضُوعةٍ له، إذِ المجازُ هو اسمٌ للموضع الذى يُنتقلُ فيه من مكانٍ إلى مكانٍ، فجُعِلَ ذلك لنقلِ الألفاظ من الحقيقة إلى غيرها.

وإذا كان كلُّ مجاز لابدَّ له من حقيقةٍ نُقِلَ عنها إلى حالته المجازية، فكذلك ليسَ مِنْ ضرورةِ كلِّ حقيقةٍ أن يكون لها مجازٌ. فإنَّ من الأسماء مالا مجازَ له، كأسماء الأعلام، لأنَّها وُضِعَتْ للفرق بين الذَّوات، لا للفرق بين الصِّفاتِ.

وكذلك فاعلمْ أنَّ المجازَ أوْلَى بالاستعمالِ من الحقيقة فى بابِ الفصاحةِ والبلاغةِ[2]، لأنَّه لو لم يكنْ كذلكَ لكانتِ الحقيقةُ التى هى الأصلُ أوْلَى منه،

---

(١) سورة يوسف: آية ٨٢

(٢) هذا رأى من الآراء الشائعة، وليس على إطلاقه، لأنه إذا كانت البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، كانت البلاغة فى المجاز كما تكون فى الحقيقة، والتحقيق أنه لو لم يؤد المجاز غرضاً من الأغراض البلاغية لا تؤديه الحقيقة لكانت الحقيقة أولى منه بالاستعمال؛ وقد ذكر المؤلف نفسه فيما يلى بعض الأغراض التى يفضل بها المجاز الحقيقة؛ وعاد إلى الرأى الذى قلناه.

حيثُ هو فرعٌ عليها ، وليسَ الأمرُ كذلك ، لأنَّه قد ثبتَ وتحقَّقَ أنَّ فائدةَ الكلامِ الخَطَابيّ هو إثباتُ الغرضِ المقصُودِ فى نفسِ السامعِ بالتَّخْييل والتَّصوير ، حتى يَكادُ يُنظرُ إليهِ عِيَاناً

ألا ترَى أن حقيقةَ قولنا : « زيدٌ أسدٌ » هى قولُنا : « زيد شجاع » لكن الفرقَ بين القولين فى التصوير والتَخْييل ، وإثبات الغرض المقصودِ فى نفسِ السَّامع ، لأن قولَنا : « زيد شجاع » لايتخيَّل منه السامعُ سِوَى أنه رجلٌ جرىءٌ مِقْدامٌ ، فإذا قلنا : « زيد أسد » يخيَّل عند ذلكَ صورةُ الأسد وهيئتُه ، وما عندَه من البَطْشِ والقوَّةِ ودَقِّ الفرائسِ ، وهذا لا نزاعَ فيه . وأعجب ما فى العبارة المجازية أنها تنقل السامعَ عَنْ خُلُقِه الطبيعىِّ فى بعض الأحوال حتى أنها ليسمحُ بها البخيلُ ، ويَشْجُعُ بها الجبان ، ويحكمُ بها الطائشُ المتسرِّع ، ويجد المخاطب بهاعند سماعها نشوةً كنشوة الخمر ، حتى إذا قُطع عنه ذلك الكلامُ أفاق وندِم على ما كانَ منه من بَذْلِ مالٍ ، أو تركِ عُقوبة ، أو إقدامٍ على أمرٍ مَهُولٍ .

وهذا هو فَحْوَى السِّحْرِ الحلال ، المستغنى عن إلقاء العَصَا والحبالِ

واعلمْ أنه إذا وَرَدَ عليك كلامٌ يجوز أن يُحمَلَ معناه على طريق الحقيقة وعلى طريق المجاز باختلاف لفظه ، فانظرْ ، فإنْ كانَ لا مزيَّةَ لمعناهُ فى حَمْله على طريقِ المجاز ، فلا يَنْبَغِى أن يُحْمَل إلا على طريقِ الحقيقةِ ، لأنَّها هى الأصلُ ، والمجاز هو الفرع ، ولا يُعْدَلُ عن الأصلِ إلى الفرع إلا لفائدةٍ مثالُ ذلكَ قولُ البُحْتُرىّ :

مَهِيبٌ كحدِّ السَّيفِ لو ضَرَبْتَ بِهِ ذُرَا أجَإٍ ظَلَّتْ وأعلامُها وُهْدُ[1]

ويروى أيضاً « لو ضُرِبَتْ به طُلَى أجَإٍ » جمع طُلْيَة . وهي العنقُ .
فهذا البيتُ لا يجوزُ حمله على المجاز . لأنَّ الحقيقةَ أوْلَى به ألا ترى أن « الذُّرَا » جمع « ذِرْوَة » وهو أعلى الشيء ، يقالُ : ذِرْوَةُ الجبلِ أعلاه . والطُّلَى جمع طُلْيَة وهي العنق ، والعنقُ أعلى الجسَد ، ولا فرقَ بينهما في صفةِ العلوِّ هنا .
فلا يُعْدَل إذاً إلى المجاز . إذْ لا مزيَّةَ لهُ على الحقيقة .

وهكذا كلُّ ما يجيء من الكلامِ الجارِي هذا المجرى ، فإنَّه إن لم يكنْ في المجاز زيادةُ فائدةٍ على الحقيقةِ لا يُعدلُ إليهِ

الفصل الثامن

في الفصاحة والبلاغة

اعلمْ أنَّ هذا بابٌ متعذِّرٌ على الوالجِ ، ومسلكٌ متوعِّرٌ على الناهجِ ، ولمْ يزَلْ العلماء من قديم الوقت وحديثِهِ يكثرونَ القولَ فيه ، والبحثَ عنه ، ولمْ أجدْ من ذلكَ ما يعوَّلُ عليه إلا القليل .

---

(١) ديوان البحترى ١/ ١١٠ وأجأ أحد جبلى طيء أجأ وسلمى، والوهد والوهدة الأرض المنخفضة والهوة فى الأرض ، والبيت من قصيدته التى يصف فيها الذئب حين لقيه . ورواية الديوان :

مهيباً كنصل السيف لو ضربت به ذرا أجأ ظلت وأعلامها وهد

وقبـله :

بني ناهل مهلا فإن ابن أختكم له عزمات هزل آرائها جـد
متى هجتموه لا تهيجوا سوى الردى وإن كان خرقا ما يحل له عقد

وغاية ما يقالُ في هذا الباب أنّ « الفصاحة » هي الظهورُ والبيانُ في أصلِ الوضعِ اللّغويّ ، يقال « أفْصَحَ الصُّبْحُ » إذا ظهر ، ثم إنَّهم يقفونَ عند ذلك ، ولا يكشفُونَ عن السِّرِّ فيه .

وبهذا القولِ لا تتبيَّن حقيقةُ الفصَاحةِ . لأنَّه يُعْتَرَضُ عليه بوجوهٍ من الاعتراضاتِ :

أحدُها : أنّه إذا لم يكن اللفظَ ظاهراً بينا لم يكنْ فصيحاً ، ثمّ إذا ظهر وتبيَّن صار فصيحاً .

الوجهُ الآخرُ : أنه إذا كان اللفظُ الفصيحَ هو الظاهرُ البيِّن ، فقد صارَ ذلك بالنّسبِ والإضافاتِ إلى الأشخاص ، فإنّ اللفظَ قد يكونُ ظاهراً لزيدٍ ، ولا يكونُ ظاهراً لعَمْرو . فهو إذاً فصيحٌ عند هذا ، وغيرُ فصيحٍ عند هذا . وليسَ كذلك ، بل الفصيحُ هو فصيحٌ عند الجميع ، لا خلافَ فيه بحالٍ من الأحْوالِ ، لأنَّه إذا تحقَّق حَدُّ الفصاحةِ ، وعُرِف ما هِيَ ، لم يَبْقَ في اللفظ الذي يختصُّ به خلاف .

الوجه الثالثُ : أنّه إذا جِيءَ بلفظٍ قبيحٍ يَنْبُو عنه السمعُ ، وهو معَ ذلك ظاهرٌ بيِّنٌ ، ينبغي أنْ يكونَ فصِيحاً ، وليس كذلك . لأنَّ الفصاحةَ وَصْفُ حُسْنِ اللفظ لا وَصفُ قبح .

فهذه الاعتراضاتُ الثلاثةُ واردةٌ على قول القائل : إنَّ اللفظَ الفصيحَ هوَ الظاهرُ البيِّن ، من غير تفصيل .

ولمَّا وقفتُ على أقوالِ الناسِ فى هذا الباب ملكتنى الحَيْرَةُ فيها ، ولم يثبُتْ عندى منها ما أُعوّلَ عليه ، ولكثرة مُلابَستى هذا الفن ، ومعاركتى إيَّاه ، انكشفَ لى السِّرُّ فيه ، وسأوضِّحه فى كتابى هذا ، وأحقِّقُ القولَ فيه . فأقولُ :

إنَّ الكلامَ الفصيحَ هو الظاهرُ البيِّن ، وأعني بالظاهر البيِّن أن تكونَ ألفاظُهُ مفهومةً ، لا يُحتاجُ فى فهمها إلى استخراجٍ من كتاب لُغَةٍ . وإنَّما كانت بهذه الصفة ، لأنَّها تكونُ مألوفةَ الاستعمالِ بينَ أربابِ النظمِ والنثر ، دائرةً فى كلامهمْ . وإنَّما كانتْ مألوفة الاستعمال دائرة فى الكلام دونَ غيرها من الألفاظِ لمكانِ حُسْنِها . وذلكَ أنَّ أربابَ النظم والنثر غَرْبَلُوا اللغةَ باعتبارِ ألفاظِها ، وسَبَرُوا وقَسَّمُوا ، فاختارُوا الحسَنَ من الألفاظِ فاستعملوه . ونفَوْا القبيحَ منها فلمْ يستعملوهُ فحُسْنُ الألفاظ [1] سببُ استعمالها دون غيرها ، واستعمالها دون غيرها ظهورِها وبيانِها ، فالفصيحُ إذاً من الألفاظِ هو الحَسَنُ .

فإنْ قيلَ : من أىِّ وَجهٍ عَلِمَ أربابُ النظم والنثر الحَسَنَ من الألفاظِ حتَّى استعملوه ، وعَلِمُوا القبيحَ منها حتَّى نفوهُ ولم يستعملوه ؟

قلتُ فى الجواب : إنَّ هذا من الأمور المحسوسةِ ، التى شاهِدها من نفسِها ؛ لأنَّ الألفاظَ داخلةٌ فى حَيِّزِ الأصواتِ ؛ فالّذى يستلذُّه السمعُ منها ، ويميلُ إليه هو الحَسَنُ ، والَّذى يكرهُهُ وينفِرُ عنه هو القبيح .

ألا ترى أن السمعَ يستلذُّ صوتَ البُلْبُلِ منَ الطَّيْرِ ، وصوتَ الشَّحْرُورِ ،

---

(١) فى الأصل «وحسن الاستعمال» وهو تكرار يختل به المعنى .

ويميلُ إليهما ، ويكرهُ صوتَ الغرَاب وينفِرُ عنه ، وكذلك يكرهُ نهيق الحمار ولا يجدُ ذلك فى صَهِيل الفرَس ؟ والألفاظُ جاريةٌ هذا المجرى ، فإنَّه لا خلافَ فى أنَّ لفظة « المزْنة » و « الديمة » حسنةٌ يستلذُّها السمعُ ، وأنَّ لفظة « البُعَاق » قبيحة يكرهُها السمعُ . وهذه اللفظَاتُ الثلاثة من صِفِة المطر ، وهىَ تدلُّ على معنًى واحدٍ ، ومعَ هذا فإنَّك ترى لفظتى « المزْنَة » و « الدِّيمة » وما جرَى مجرَاهما مألوفةَ الاستعمالِ ، وترى لفظ « البُعاق » وما جرى مجرَاه متروكاً لا يُسْتعمَل ، وإن استُعْمل ، فإنَّما يستعمله جاهلٌ بحقيقةِ الفصاحةِ ، أو مَنْ ذوقُه غيرُ سليم لا جرم أنَّه ذُمَّ وقُدحَ فيه ، ولم يلتفتْ إليه ، وإن كان عرَبيًّا محضاً من الجاهليَّةِ الأقدمين . فإنَّ حقيقةَ الشَّىْءِ إذا عُلِمْتَ وَجَبَ الوقوفُ عندها ، ولم يُعرَجْ على ما خَرَجَ عنها .

وإذَنْ ثبتَ أنَّ الفصيحَ من الألفاظ هو الظاهرُ البيِّن . وإنما كان ظاهراً بيِّناً ، لأنه مألوفُ الاستعمالِ . وإنما كانَ مألوفَ الاستعمالِ لمكانِ حُسْنه ، وحُسْنُهُ مُدْركٌ بالسَّمع . والَّذِى يُدْرَكُ بالسَّمع إنما هو اللَّفْظُ ، لأنَّه صوتٌ يأتلفُ عن مخارجِ الحروفِ فما استلذَّهُ السمعُ منه فهو الحسَنُ ، وما كَرِهَه فهو القبيحُ . والحسَنُ هو الموصوفُ بالفصاحة ، والقبيحُ غيرُ موصوفٍ بفصاحةٍ ، لأنّه ضدُّها لمكانِ قُبحه . وقد مثَّلْتُ ذلك فى المثالِ المتقدِّمِ بلفظةِ « المزْنة » و « الديمة » ولفظة « البُعاقِ » .

ولو كانت الفصاحةُ لأمرٍ يرجعُ إلى المعنى لكانَتْ هذه الألفاظُ فى الدَّلالة عليه سواءً ، ليس منها حَسَن ومنها قبيحٌ . ولمَّا لمْ يكنْ كذلك علمنا أنَّها تخصُّ اللفظَ دونَ المعنَى .

وليس لقائلٍ هاهنا أن يقولَ : لا لَفْظَ إلّا بمعنى ، فكيف فصَلْتَ أنت بين اللفظِ والمعنَى ؟ فإني لم أَفْصِلْ بينهما ، وإنما خَصَصْتُ اللفظَ بصفة هي له ، والمعنى يجيء فيه ضِمْنًا وتبعاً .

الوجهُ الثَّاني أن وزنَ « فَعِيل » هو اسم فاعِل من « فَعُلَ » بفتح الفاء وضمّ العين ، نحو كَرُمَ فهو كريم ، وشَرُفَ فهو شريف ، ولطُفَ فهو لطيف ، وهذا مُطَّرِدٌ في بابه وعلى هَذَا فإنَّ اللفظَ الفصيحَ هو اسمُ فاعلٍ من فَصُحَ فهو فصيح ، واللفظُ هو الفاعِل للإبانةِ عن المعنَى ، فكانت الفصاحة مختصَّةً به .

فإنْ قيلَ : إنّكَ قلتَ : إنَّ الفصيحَ من الألفاظِ هو الظاهرُ البيِّن ، أي المفهومُ ، ونرَى أن من آياتِ القُرآن مالا يُفْهَمُ ما تضمَّنَه من المعنى إلا باستنباطٍ وتفسيرٍ ، وتلكَ الآياتُ فصيحةٌ لامحالةَ ، وهذا بخلاف ما ذكرْتَه .

قلتُ : لأنَّ الآياتِ التي تُسْتَنْبَطُ ، وتَحْتَاجُ إلى تفسير ، ليسَ شيءٌ منها إلا ومفرداتُ ألفاظِه كلّها ظاهرةٌ واضحةٌ . وإنما التفسيرُ يقعُ في غموض المعنَى من جهةِ التَّركيبِ ، لا من جهةِ ألفاظِه المفردة ، لأنَّ معنى المفردةِ يتداخلُ بالتَّركيبِ ، ويصيرُ له هيئةٌ تخصُّه . وهذَا ليسَ قَدْحًا في فصاحةِ تلكَ الألفاظ ، لأنَّها إذا اعْتُبِرَتْ لَفْظَةً لفظةً ، وُجِدَتْ كلُّها فصيحة ، أيْ ظاهرةً واضحةً ، وأعجبُ ما في ذلكَ أن تكون الألفاظ المفردةُ التي تركَّبَتْ منها المركبةُ واضحةً كلّها ، وإذا نُظِرَ إليها معَ التركيبِ احتاجتْ إلى استنباطٍ وتفسير . وهذا لايختصُّ به القرآنُ وحده ، بل في الأخبارِ النبويَّة والأشعارِ والخطَب والمكاتباتِ كثيرٌ ذلك ، وسأورد هاهنا منه شيئاً . فأقول : قد وَرَدَ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم

أنه قال : « صَوْمُكم يوم تصومون ، وفطرُكم يوم تُفطِرُون ، وأضحاكم يوم تُضَحّون » وهذا الكلامُ مفهومةٌ مفردات ألفاظِهِ ، لأنَّ الصومَ والفطرَ والأضْحَى مفهومٌ كلُّه . وإذا سُمع هذا الخبرُ من غير فكْرةٍ قيل : عَلِمْنَا أن صومَنا يومَ نصومُ ، وفطرَنا يوم نُفطِر ، وأضحَانا يومَ نُضَحّى ، فما الذى أعلمنا به مما لم نعلمه ؟

وإذا أمْعَنَ الناظرُ نظرهُ فيه علِم أنّ معناه يحتاجُ إلى استنباط . والمرادُ به أنه إذا اجتمع الناسُ على أن أوَّلَ شهْر رمضان يومُ كذا ، ولم يكن ذلكَ اليومُ أوَّلَهُ فإن الصوم صحيح ، وأوله هوَ ذلكَ اليوم الذى اجتمعَ الناسُ عليه . وكذا يقالُ فى يوم الفطر ويوم الأضْحَى . ولهذا الخبر المشَار إليه أشباهٌ كثيرةٌ ، تفْهَمُ معانى ألفاظها المفْرَدة ، وإذا تركَّبَتْ تحتاجُ فى فهْمها إلى استنباطٍ .

وأمَّا ما وَرَدَ من ذلك شعراً فكقول أبى تمَّامٍ (١) :

وَلِهَتْ فأظْلَمَ كلُّ شَىْءٍ دُونَها وأضاءَ (٢) منها كلُّ شَىْءٍ مُظْلِمِ

فإن الوَلَهَ والظُّلمةَ والإضاءةَ كلٌّ ذلك مفهومُ المعنى ، لكنَّ البيتَ بجملته يحتاجُ فى فهمه إلى استنباط . والمرادُ به أنَّها وَلِهَتْ فأظلمَ ما بينى وبينها ، لِما نالني من الجزع لِوَلَهِهَا ، كما يقولُ الجازعُ : أظلمت الأرضُ علَىّ ، أى أنى صِرْتُ كالأعْمَى الذى لا يُبْصر . وأما قوله « وأضاءَ منها كلُّ شىْءٍ مظلمِ » أى وَضَح لى منها ما كان مُستتراً عني من حبِّها إياى .

---

(١) ديوان أبي تمام ٣١٢ وهو من قصيدة فى مدح أبي الحسين محمد بن الهيثم ومطلعها :

نثرت فريد مدامع لم تنظم والدمع يحمل بعض شجو المغرم

(٢) رواية الديوان « وأنار » .

وكذلك ورد قول أبي عُبادة البحتري في منهزم(١) :

إذا سَارَ سَهْباً عادَ ظهراً عَدُوَّهُ وكانَ الصَّدِيقَ بكرةَ ذلكَ السَّهْب

فإنَّ السّير ، و سَهب ، والظهر ، والعدوّ ، والصديق ، كلُّ ذلك مفهومُ المعنى . لكنَّ البيتَ بمجموعه يحتاجُ معناه إلى استنباطٍ . والمرادُ أنَّ هذا المنهزم يرى ما بين يديه محبوباً إليه ، وما خَلْفَه مكروهاً عنده ، لأنه يطلُبُ النجاة فيُؤْثِرُ البُعْدَ مما خلْفه ، والقرب ممَّا أمامه . فإذا قطَع سَهْبا ، وخلفه وَرَاءَهُ صارَ عنده كالعدو . وقبل أن يقطعَه كان له صديقا ، أي يطلب لقاءَهُ ، ويحبُّ الدُّنوَّ منه .

فانظرْ أيها المتأمّلُ إلى ما ذكرتُه منْ هذه الأمثلةِ ، حتى يَثْبُتَ عندكَ ما أردتُ بيانَه .

وأمّا البلاغةُ : فإنَّ أصلها في وضع اللّغة من الوُصُولِ والانتهاء ، يقال : بَلغتَ المكانَ ، إذا انتهيتُ إليه ، ومبلغُ الشيءِ منتهاهُ . وسمِّى الكلامُ بليغاً من ذلك ، أي أنَّه قد بلغ الأوصافَ اللفظيَّة والمعنويَّة .

والبلاغةُ شاملةٌ للألفاظ والمعاني ، وهي أخَصُّ من الفصاحة ، كالإنسان من الحيوان . فكلُّ إنسانٍ حيوانٌ ، وليسَ كلُّ حيوانٍ إنساناً . وكذلكَ يقالُ : كل كلامٍ بليغٍ فصيحٌ . وليسَ كلُّ كلامٍ فصيحٍ بليغاً .

ويفرَّق بينهما وبين الفصاحة من وجهٍ آخرَ غيرِ الخاصّ والعامّ ، وهو أنَّها لا تكونُ إلا في اللفظِ والمعنَى ، بشرطِ التركيب ، فإنَّ اللفظةَ الواحدة لا يطلَق

---

(١) ديوان البحتري ٢/٧٨ ، ومعنى السهب هنا الفلاة .

عليها اسم البلاغة ، ويطلقُ عليها اسم الفصاحةِ ، إذ يوجد فيها الوصفُ المختصُّ بالفصاحةِ ، وهو الحسْن . وأمّا وصفُ البلاغة فلا يوجَدُ فيها ، لخلوّها من المعنى المفيدِ الذى ينتظم كلاماً .

مسألة تتعلق بهذا الفصل

هل أخذ علم البيان من ضروبِ الفصاحةِ والبلاغةِ بالاستقراء من أشعارِ العرب ، أم بالنَّظَرِ وقضيَّة العقل ؟

الجواب عن ذلك أنَّا نقول : لم يؤخذ علمُ البيان بالاستقراءِ ، فإنَّ العربَ الذين ألَّفوا الشعرَ والخطبَ لا يخلو أمرُهُمْ من حالين ، إمَّا أنهم ابتدعُوا ما أتَوْا به من ضُرُوبِ الفصاحة والبلاغة بالنَّظر وقضيَّة العقل ، أو أخذوه بالاستقراءِ ممَّن كان قبلهم . فإنْ كانوا ابتدعُوه عند وقوفِهمْ على أسرارِ اللغة ، ومعرفةِ جيِّدَها من رَدِيئها ، وحَسَنها من قبيحها ، فكذلكَ هو الذى أذهبُ إليه وإن كانوا أخذوه بالاستقراءِ ممَّنْ كانَ قبلَهم ، فهذا يَتسَلْسَل إلى أوَّل من ابتدعَهُ ولم يَسْتَقْرِهِ ، فإنَّ كلَّ لغةٍ من اللُّغات لا تخلو من وَصْفى الفصاحةِ والبلاغةِ ، المختصيَّن بالألفاظ والمعانى . إلَّا أنّ للُّغة العربيَّة مزيَّةً على غيرها ، لما فيها من التوسُّعاتِ التى لا توجدُ فى لُغَةٍ أخرى سواهَا .

مسألة أخرى تتعلق بهذا الفصل أيضا

هل علم البيان من الفصاحة والبلاغة جارٍ مجرى علم النَّحو أم لا ؟

الجوابُ عن ذلك أنَّا نقول : الفرقُ بينهما ظاهرٌ ، وذاكَ أنَّ أقسامَ النحو أُخِذَتْ من واضعها بالتقليد ، حتى لو عكس القضيَّة فيها لجازَ له ذلك ،

ولما كانَ العقل يأباهُ ولا ينكرُه ، فإنَّه لو جعَل الفاعل منصوباً ، والمفعولَ مرفوعاً ، قلَّد في ذلكِ ، كما قلَّد في رَفْع الفاعلِ ونصْبِ المفعول . وأمَّا علمُ البيان من الفصاحةِ والبلاغةِ فليسَ كذلك ، لأنَّه اسْتُنْبطَ بالنَّظرِ وقضيَّة العقل ، من غير واضع اللغةِ ، ولم يُفْتَقَرْ فيه إلى التوقيف منه ، بل أُخِذَتْ ألفاظ ومعان على هيئةٍ مخصوصةٍ ، وحكَمَ لها العقل بمزيَّة من الحسْنِ ، لا يشاركها فيها غيرها ، فإنَّ كلَّ عارفٍ بأسرار الكلامِ من أيِّ لغةٍ كانتْ من اللّغاتِ يعلمُ أنَّ إخراج المعاني في ألفاظ حسنة رائقةٍ ، يلذُّها السمعُ ولا ينبُو عنها الطبْعُ ، خيرٌ منْ إخراجها في ألفاظٍ قبيحة مُستكرَهَة ، ينبُو عنها السمع . ولوْ أرَادَ واضع اللغة خلافَ ذلكَ لما قلَّدناه .

فإن قيلَ : لو أُخِذَتْ أقسامُ النحو بالتقليد من واضعها لما أُقيمتْ الأدلّة عليها ، وعُلِمَ بقضيَّة النظرِ أن الفاعلَ يكون مرفوعاً ، والمفعول منصوباً

فالجوابُ عن ذلك أنا نقول : هذه الأدلَّةُ واهيةٌ ، لا تثبتُ على محكِّ الجدَل ، فإنَّ هؤلاء الذين تصدوْا لإقامتها سمعُوا عن واضعِ اللّغةِ رَفْعَ الفاعلِ ونَصْبَ المفعول ، من غير دليلٍ أبداهُ لهمْ ، فاستخرجُوا لذلك أدِلَّةً وعِللاً ، وإلَّا فمن أين علمَ هؤلاء أنَّ الحكمَةَ التي دعتْ الواضعَ إلى رفعِ الفاعلِ ، ونصب المفعولِ هي التي ذكروها ؟

الفصل التاسع

فى أركان الكتابة

اعلمْ أنّ للكتابة شرائطَ وأركاناً . أمّا شرائطُها فكثيرةٌ ، وهذا التأليف موضوعٌ لمجموعها وللقسمِ الآخرِ من الكلامِ المنظوم .

وليسَ يلزمُ الكاتبَ أن يأتى بالجميع فى كتابٍ واحدٍ ، بلْ يأتى بكل نوعٍ من أنواعها فى موضعِه الذى يليقُ به ، كما أريْناه فيما يأتى من هذا التأليفِ .

وأما الأركانُ التى لا بدّ من إيداعها فى كلّ كتاب بلاغىّ ذِى شأن فخمسةٌ :

الأوّلُ : أن يكون مطلعُ الكتابِ عليهِ جِدّةٌ ورَشَاقةٌ ، فإنّ الكاتب مَنْ أجاد المطْلَعَ والمَقْطعَ ، أوْ يكون مبنيًّا على مَقْصِدِ الكتابِ . ولهذا بابٌ يسمى باب « المبادىء والافتتاحات »[1] فليحذُ حَذْوَه . وهذا الرُّكْنُ يشتركُ فيه الكاتبُ والشاعِرُ .

الركنُ الثانى : أن يكونَ الدعاء المودَعُ فى صدر الكتاب مُشْتَقًّا من المعنَى الذى بُنِيَ عليه الكتابُ : وقدْ نبَّهْنا على طَرَفٍ من ذلك فى باب يخصُّه[2] أيضا ، فليطلبْ من هناكَ . وهَو ممّا يدلُّ على حذاقةِ الكاتبِ

---

(١) هو النوع الثانى والعشرون من ضروب الصناعة المعنوية ، وسيأتى .

(٢) هو باب الاشتقاق وهو النوع السادس والعشرون من ضروب الصناعة المعنوية .

وفطانته ، وكثيراً ما تجده فى مكاتبات التى أنشأتها ، فإنى قصدته فيها ، و توخيته بخلاف غيرى من الكتاب ، لأنه ربما يوجد فى كتابة غيرى قليلا ، وتجده فى كتابتى كثيراً .

الركن الثالث : أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة ، لتكون رقاب المعانى آخذة بعضها ببعض ، ولا تكون مقتضبة . ولذلك باب مفرد أيضا يسمى باب « التخلص والاقتضاب (١) » . وهذا الركن أيضاً يشترك فيه الكاتب والشاعر .

الركن الرابع : أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلولقة بكثرة الاستعمال ، ولا أريد بذلك أن تكون ألفاظاً غريبة ، فإن ذلك عيب فاحش ، بل أريد أن تكون الألفاظ المستعملة مسبوكة سبكاً غريباً ، يظن السامع أنها غير ما فى أيدى الناس ، وهى مما فى أيدى الناس . وهناك معترك الفصاحة الذى تظهر فيه الخواطر براعتها ، و الأقلام شجاعتها ، كما قال البحترى .

بالّلفظ يقرب فهمه فى بعده   عنّا ويبعد نيله فى قربه (٢)

وهذا الموضع بعيد المنال ، كثير الإشكال ، يحتاج إلى لطف ذوق ، وشهامة خاطر ، وهو شبيه بالشىء الذى يقال إنه « لا داخل العالم ولا خارج العالم » فلفظه هو الذى يستعمل ، وليس بالذى يستعمل ، أى أن مفردات ألفاظه هى المستعلمة المألوفة ، ولكن سبكه وتركيبه هو الغريب العجيب .

(١) فى الأصل «التخليص» والتخلص والاقتضاب هو النوع الثالث والعشرون من ضروب الصناعة المعنوية .

(٢) ديوان البحترى ٢/١٩٩ ورواية الديوان « منا » موضع « عنا » والبيت من قصيدة يمدح بها الحسن بن وهب .

وإذا سَمَوْتَ أيُّها الكاتبُ إلى هذه الدرجة ، واستطعَمْتَ طعمَ هذا الكلام المشار إليه عَلِمْتَ حينئذٍ أنه كالرُّوح السَّاكنة فى بَدَنك التى قال اللهُ فيها : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي »[1] وليسَ كلُّ خاطرٍ بَراقٍ إلى هذه الدَّرجة ، « ذلكَ فضلُ اللهِ يُؤْتيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذو الفضلِ العَظِيم »[2] .

ومع هذا فلا تظنَّ أيُّها الناظرُ فى كتابى أنّى أردتُ بهذا القول إهمالَ جانبِ المعانى ، بحيثُ يؤتَى باللفظِ الموصوفِ بصفاتِ الحُسْنِ والملاحَةِ ، ولا يكون تحتَه من المعنى ما يماثِلُه ويساويه . فإنه إذا كان كذلكَ كانَ كصورةٍ حَسَنة بديعةٍ فى حُسنها ، إلا أنّ صاحبها بليدٌ أبْلَهُ والمرادُ أن تكونَ هذه الألفاظُ المشارُ إليها جسمًا لمعنى شريفٍ .

على أنّ تحصيلَ المعانى الشريفةِ على الوَجْهِ الذى أشَرْتُ إليه أيْسَرُ من تحصيلِ الألفاظِ المشارِ إليها .

ويُحكَى عن المبرِّد — رحمه الله تعالى — أنه قال : ليسَ أحدٌ فى زمانى إلّا وهو يسألُني عن مُشْكِلٍ من معانى القرآن ، أو مُشْكِلٍ من معانى الحديث النبوىّ ، أو غير ذلك من مشكلات علم العربيّة ، فأنا إمامُ الناسِ فى زمانى هذا ، وإذا عَرَضَتْ لى حاجةٌ إلى بعض إخوانى ، وأردتُ أن أكتبَ إليه شيئًا فى أمرها أحْجِمُ عن ذلك ، لأنى أرتِّبُ المعنى فى نفسى ، ثم أحاول أن أصوغَه بألفاظٍ مرضيَّة ، فلا أستطيعُ ذلك ! ولقد صدَقَ فى قوله هذا ، وأنصفَ غاية الإنصاف .

---

(١) سورة الإسراء : آية ٨٥ (٢) سورة الحديد : آية ٢١

ولقدْ رأيتُ كثيراً من الجُهَّال الذينَ هُمْ من السُّوقة أربابِ الحِرَفِ والصّنائع ، وما منهم إلَّا مَنْ يقعُ له المعنى الشريفُ ، ويظهرُ من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنَّه لا يحسِنُ أن يُزاوِجَ[1] بين لفظتين . فالعبارةَ عن المعانى هى التى تُخْلَبُ بها العقُول .

وعلى هذا فالناسُ كلُّهم مشتركون فى استخراج المعانى ، فإنّه لا يمنع الجاهلَ الذى لا يعرف علماً من العلوم أن يكونَ ذكيًّا بالفطرة . واستخراج المعانى إنما هو بالذكاء ، لا بتعلُّم العِلْم .

وبَلغَنِى أَنَّ قوماً ببغدادَ من رِعَاع العامة يَطُوفُون بالليل فى شهر رمضانَ على الحارات وينادُون بالسُّحور ، ويخرجونَ ذلك فى كلام موزونٍ على هيئة الشِّعر ، وإنْ لم يكنْ من بحارِ الشعرِ المنقولةِ عن العرب ، وسمعتُ شيئاً منهُ فوجدتُ فيه معانى حسنةً مليحةً ، ومعانى غريبةً ، وإنْ لم تكن الألفاظ التى صِيغَتْ به صِيغَةً . وهذا الرُّكن أيضاً يشترك فيه الكاتبُ والشاعر .

الركن الخامس : أن لا يخلوَ الكتاب من معنًى من معانى القرآنِ الكريم والأخبار النبويَّة ، فإنَّها معدنُ الفصاحة والبلاغة . وإيراد ذلك على الوجهِ الذى أشرت إليه فى الفصل الذى يَلِى هذا الفصلَ من حلّ معانى القرآنِ الكريم والأخبار النبويَّة أحسنَ من إيرادهِ على وجه التَّضْمين . وتوخِّى ذلك فى كل كتابٍ عسِرٌ جدًّا . وأنا انفردْتُ بذلكَ دونَ غيرى من الكُتَّابِ ، فإنى استعملتُه فى كل كتابٍ ، حتَّى إنَّه ليأتِى فى الكتابِ الواحد فى عدَّة مواضعَ منه ، ولقد

---

(١) فى الأصل « يزوج » وهو تحريف ، والمزاوجة من فنون البلاغة .

أنشأتُ تقليداً لبعض الملوك مما يكتَبُ من ديوانِ الخلافة ، ثمَّ إنى اعتبرتُ ما وَرَدَ فيه من معانى الآياتِ والأخبار النبويّة ، فكانَ ما يزيدُ على الخمسين ، وهذا لا أتكلّفه تكلُّفاً ، وإنما يأتى على حَسَبِ ما يقتضيهِ الموضعُ الذى يُذْكَرُ فيه . وقد عرَّفتُك أيُّها الكاتبُ كيفَ تستعمل ما تستعملُه من ذلك فِى الفَصْلِ الذى يأتى بعدَ هذا الفصل ، فَخُذْهُ من هناك .

وهذا الركنُ يختصُّ بالكاتبِ دون الشَّاعِرِ ، لأنَّ الشاعرَ لا يلزمهُ ذلك ، إذ الشِّعْرُ أكثره مدائح ، وأيضاً فإنّه لا يتمكّنُ من صَوْغِ معانى القرآنِ والأخْبار فى المنظوم ، كما يتمكّنُ منْهُ فى المنثور . ولرُبَّما أمكنَ ذلكَ فى الشيءِ اليَسِير فى بعضِ الأحيانِ .

وإذا استكملْتَ معرفةَ هذه الأركان الخمسة ، وأتيْتَ بها فى كل كتاب بلاغىٍّ ذى شأنٍ ، فقد استحقَقْتَ حينئذٍ فضيلةَ التقدمُ ، وَوَجب لك أنْ تسمِّيَ نفسكَ كاتباً .

الفصل العاشر

فى الطريق إلى تعلم الكتابة

هذا الفصل هوَ كنزُ الكتابةِ ومنبعُها ، وما رأيتُ أحداً تكلّمَ فيه بشيء ولما حُبِّبَتْ إليَّ هذه الفضيلةَ ، وبلَّغني الله منْها ما بلغنِي وجدتُ الطريقَ ينقسم فيها إلى ثلاثِ شُعَبٍ :

الأولى : أن يتصفّحَ الكاتبُ كتابة المتقدّمين ويطّلعَ على أوضاعهم فى استعمال الألفاظِ والمعانى ، ثمَّ يحذو حَذْوَهُمْ وهذه أدنى الطبقاتِ عندى .

الثانية : أن يَمزُجَ كتابةَ المتقدمين بما يستجيدهُ لنفسِه من زيادةٍ حسنةٍ ، إمّا فى تحسين ألفاظٍ ، أو فى تحسين معانٍ . وهذه هى الطَبقةُ الوُسطَى ، وهى أعلى من الّتى قبلها

الثالثة : أن لا يتصفَّحَ كتابةَ المتقدمين ، ولا يطَّلع على شىءٍ منها ، بل يصرفُ همه إلى حفظ القرآن الكريم ، وكثيرٍ من الأخبار النبويَّة ، وعدَّةٍ من دواوين فحول الشعراء ، ممّن غلبَ على شعرهِ الإجادةُ فى المعانى والألفاظِ ، ثم يأخذُ فى الاقتباسِ من هذه الثلاثة ، أعنِى القرآنَ والأخبارَ النبويَّة والأشعارَ ، فيقومُ ويقعُ ، ويخطئ ويصيبُ ، ويَضِلُّ ويهتدى ، حتَّى يستقيمَ على طريقةٍ يفتتحُها لنفسِه ، وأخلِقْ بتلك الطريق أن تكونَ مبتدعةً غريبة ، لا شركةَ لأحدٍ من المتقدِّمين فيها ، وهذه الطريقُ هى طريق الاجتهادِ ، وصاحبها يُعَدُّ إماماً فى فن الكتابةِ ، كما يعد الشافعىُّ وأبو حنيفةَ وَمالكٌ ، رضى الله تعالى عنهم ، وغيرهُم من الأئمةِ المجتهدين فى علم الفقه ، إلا أنّها مُستَوعرةٌ جدًّا ، ولا يستطيعُها إلا مَنْ رَزَقه الله تعالى لساناً هَجَّامًا ، وخاطرًا رَقَّامًا . وقد سَهَّلْتُ لك صِعَابَها وَدَلَّلْتُ مَحَاجَّهَا . وكنتُ أشِحُّ بإظهارِ ذلكَ لِمَا عانيتُ من نيْلِه من العناءِ ، فإنى سلكت إليه كلَّ طريقٍ حتى بَلَغتُه آخرًا . وإنما تكون نَفَاسةُ الأشياءِ لعِزَّةِ حصُولها ، ومشقَّةِ وُصُولِها :

لَيسَ حُلوًا وُجودُكَ الشىءَ تَبغِيـــــهِ طِلاباً حَتى يعزّ طِلابُه[1]

ولقد مارستُ الكتابةَ ممارساً كشفَتْ لِى عن أَسْرَارِها ، وأظفَرَتنِى بكنوزِ

---

(١) البيت للبحترى : ديوانه ٢ /٦٢ ، ورواية الديوان :

ليس يحلو وجودك الشىء تبغيـــه التماساً حتى يعـــز طلابه

جَوَاهِرِها ، إذ لم يَظفرْ غيرى بأحجارها ، فما وَجَدْت أَعْوَنَ الأشياءِ عليها إلا حَلَّ آياتِ القرآن الكريم ، والأخبار النبويّة ، وحَلَّ الأبيات الشّعرية .

وقدْ قَصَرْتُ هذا الفصلَ على ذِكرِ وجُوهها وتقسيمها ، وتمهيدِ الطَّريق إلى تعليمها ، فَمَنْ وقفَ على ما ذكرتُه علِم أني لمْ آتِ شيئاً فرِيًّا (١) ، وأنَّ الله قد جعلَ تحت خواطِرى من بنات الأفكارِ سَرِيًّا (٢) ، وهذه الطريق يجهلها كثيرٌ من مُتعَاطِي هذه الصِّناعة ، والَّذى يعلمها منهمْ يرْضَى بالحواشى والأطرافِ ، ويَقْنَعُ من لآلئها بمعْرفةِ ما فى الأصْدَافِ ، ولو استخرجَ منها ما استخرجْتُ ، واستنتجَ ما اسْتَنتجْتُ ، لَهَامَ بها فى كلِّ وادٍ ، وتزوَّدَ إلى سُلُوكِ طريقها كلَّ زادٍ :

لوْ يَسْمَعُون كما سَمِعْتُ كلامَها ... خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وَسُجُودَا (٣)

ولا أريدُ بهذه الطريقِ أن يكونَ الكاتبُ مرتبطاً فى كتابتِه بما يستخرجُه من القرآن الكريم والأخبارِ النبوية والشِّعْر ، بحيثُ أنَّه لا يُنْشِىء كتاباً إلّا منْ ذلك ، بلْ أريدُ أنَّه إذا حفظَ القرآنَ الكريمَ ، وأكثرَ من حِفْظ الأخبار النبوية والأشعار ، ثمَّ نَقَّبَ عن ذلك تنقيبَ مُطّلعٍ على معانيه ،

---

(١) بديعاً عجيباً ، والفرى القطع كأنه يقطع العادة ، والعبارة تضمين قوله تعالى « قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فرياً » سورة مريم : آية ٢٧

(٢) السرى النهر الصغير ، والعبارة تضمين قوله تعالى « قد جعل ربك تحتك سريا » سورة مريم : آية ٢٤

(٣) البيت لكثير ، ورواية الأمالى (ج ٢ ص ٧٥) :

لو يسمعون كما سمعت كلامها ... خروا لعزة خاشعين سجودا

مُفَتِّشٍ عن دَفائنه ، وقَلَبَهُ ظهراً لبطنٍ ، عَرَفَ مِنْ أَيْنَ تُؤْكل الكَتِفُ ، فيما يُنْشِئه منْ ذاتِ نفسِه ، واستعان بالمحفوظِ على الغَرِيزَةِ الطبيعيَّةِ .

ألا تَرَى أنَّ صاحبَ الاجتهادِ منْ الفقهاء يفتقرُ إلى معرفةِ آيات الاحكام وأخبارِ الأحكام ، وإلى معرفة النَّاسِخِ والمنسوخِ من الكتابِ والسُّنَّة ، وإلى معرفةِ علمِ العربيَّة ، وإلى معرفة الفرائض والحسابِ من المعلومِ والمجهولِ ، منْ أجلِ مسائل الدَّورِ والوَصَايَا وغيرها ، وإلى معرفةِ إجماعِ الصَّحابة ؟ فهذه أدواتُ الاجتهادِ ، فإذا عَرَفها استخرجَ بفكرتهِ حينئذٍ ما يؤدِّيه إليه اجتهاده ، كما فعلَ أبو حنيفةَ والشافعيُّ ومالكٌ وغيرهم من أئمَّة الاجتهادِ .

وكذلك يَجْرِي الحكم فى الكاتب إذا أحبَّ الترقِّيَ إلى درجة الاجتهاد فى الكتابة ، فإنَّه يحتاج إلى أشياءَ كثيرةٍ ، قد ذكرتُها فى صَدْرِ كتابى هذا ، إلَّا أنَّ رأسها وعمودها وذِرْوَةَ سَنَامِها ثلاثة أشياء ، هى حفظُ القرآنِ الكريمِ ، والإكثارُ من حفظِ الأخبار النبويَّة ، والأشعار .

وحيثُ انتهىَ بنا القول إلى هذا الموضع ، فأولُ ما أبدأ به على عقب ذلك أنْ أقولَ :

حل الآبيات الشعرية

ينقسمُ إلى ثلاثة أقسام :

الأول منها وهو أدناها مرتبة :

أنْ يأخذَ الناثرُ بيتاً من الشِّعر ، فينثره بلفظِه ، من غير زيادة . وهذا عيبٌ فاحشٌ . ومثاله كمن أخذَ عِقْدًا ، قد أُتقِنَ نظمُه ، وأُحْسِنَ تأليفه ، فأَوْهَاه وبدَّده ، وكان يقومُ عُذْره فى ذلكُ أنْ لوْ نقله عن كونه عِقْدًا إلى صورةٍ أخرى مثلِه ، أو أحسنَ منه . وأيضا فإنَّه إذا نثرَ الشِّعر بلفظِه كانَ صاحبُه مَشْهورَ السَّرقة ، فيقَال : هذا شعر فلانٍ بعَيْنِه ، لكون ألفاظِه باقيةً ، لم يتغيَّر منها شيءٌ .

وقد سلَكَ هذا المسلك بعضُ العراقيِّين ، فجاءَ مُسْتَهْجَناً ، لا مُسْتَحْسَناً ، كقولِه فى بعضِ أبيات الحماسَة [1] :

وَأَلَدَّ ذِى حَنَقٍ عَلَيَّ كأنّمَا ... تَغْلِى عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فى مِرْجَلِ [2]

أَرْجَيْتُهُ عَنّى فأَبْصَرَ قصْدَهُ ... وكَوَيْتُهُ فَوْقَ النَّوَاظِرِ مِنْ عَلِ [3]

---

(١) ديوان الحماسة ١/٢٣ والبيتان لربيعة بن مقروم الضبى .

(٢) الألد الشديد الخصومة ؛ والحنق الغيظ ؛ والمرجل القدر من نحاس ؛ يقول : رب خصم تغلى العداوة فى صدره غليان المرجل بما فيه على النار .

(٣) أرجيته أخرته وصرفته ؛ قال أبو الفتح بن جنى : أكثر من نرى يروى هذا البيت أرجيته بالراء ؛ فإذا تعالى شيئاً رواه أرجأته بالهمز ؛ وكلاهما تصحيف ؛ وإنما هو أوجيته بالواو ؛ أى أذللته وقهرته . يقول : رب خصم صرفته عن نفسى ، وقد أبصر رشده ، وكويته فوق نواظره من أعلاه .

فقالَ في نثرِ هذين البيتين : « فكم لَقِيَ ألدّ ذا (١) حَنَقٍ كأنَّه ينظُر إلى الكواكبِ من علٍ ، وتَغْلِي عداوةُ صدره في مِرْجل ، فكواه فوقَ ناظريه وأكبَّه لِفَمِهِ ويَدَيْه » فلم يَزِدْ هذا الناثرُ على أن أزَالَ رونقَ الوَزْن ، وطلاوةَ النظم لا غير .

ومن هذا القسمِ ضَرْبٌ محمودٌ لا عيبَ فيه ، وهو أن يكونَ البيتُ من الشِّعر قد تضمَّن شيئاً لا يمكنُ تغييرُ لفظِه ، فحينئذٍ يُعذَرُ ناثره ، إذا أتى بذلك اللفظِ ، ومثاله قول الشاعرِ في أول الحماسة (٢) :

لو كنتُ منْ مَازِنٍ لم تَسْتَبِحْ إبلي ... بَنُو اللَّقيطة مِنْ ذُهْل بْنِ شَيْبَانَا

وقد نثرتُ ذلك ، فقلتُ : « لستُ ممن تستبيحُ إبلي بنُو اللَّقيطةِ ، ولا الَّذى إذا هَمَّ بأمرٍ كانت الآمالُ إليه وَسِيطة ، ولكنِّي أحمل الهَمَلَ ، وأقرِّبُ الأمَل ، وأقولِ : سَبَقَ السَّيْفُ العَذَل (٣) » : فذكرُ « بني اللّقيطة » هاهنا لا بُدّ منه على حَسَب ما ذكره الشاعرُ . وكذلك الأمثال السائرةَ فإنّه لابُدَّ من ذكرها على ماجاءتْ في الشِّعر .

وأما القسم الثاني وهو وسط بين الأول والثالث في المرتبة :

فهو (٤) أن يُنثرَ المعنى المنظوم ، ببعضِ ألفاظه ، ويعزمَ عن البعْض بألفاظٍ أُخر . وهنالكَ تظهرُ الصنعة في المماثلةِ والمشَابهةِ ، وموَاخاةِ الألفاظِ الباقية بالألفاظ المرتجلة ، فإنّه

---

(١) في الأصل «ذى» (٢) ديوان الحماسة ١٣/١ والبيت لقريط بن أنيف أحد بني العنبر .

(٢) مثل من أمثال العرب قاله ضبة بن أدلما لامه الناس على قتله قاتل ابنه في الحرم ، انظر مجمع الأمثال الميداني ٢٤١/١

(٣) في الأصل « وهو » .

إذا أخذ لفظاً لشاعرٍ مجيد ، قدْ نقَّحه وصحَّحه ، فقرَنه بمالا يُلائمُهُ كان كَمَنْ جمعَ بينَ لُؤلُؤةٍ وحَصَاةٍ ، ولا خفاءَ بما فى ذلك من الانتصاب للقَدْح ، والاستهدافِ للطَّعنِ .

والطريقُ المسلوكُ إلى هذا القسمِ أَنْ تأخذَ بعضَ بيتٍ من الأبياتِ الشِّعرية ، هوَ أحسنُ ما فيه ثمَّ تماثله . وسأورِدُ هاهُنا مثالاً واحداً ، ليكونَ قُدْوَة للمتعلِّم ، فأقول : قد وَرَدَ هذا البيت من شعر أبى تمّامٍ فى وصفِ قصيدةٍ له :

حَذَّاءَ تَمْلأُ كلَّ أُذنٍ حِكمةً وبلاغةً وَتدِرُّ كلَّ وَريدِ(١)

فقوله . « تملأُ كلَّ أُذنٍ حكمةً » من الكلامِ الحَسَن ، وهوَ أحْسن ما فى البيت . فإذا أَرَدْتَ أن تنثرَ هذا المعنى فلا بُدَّ من استعمالِ لفظِه بعَيْنه ، لأنّه فى الغايةِ القَصْوَى من الفصاحة والبلاغةِ ، فعليك حينئذٍ أن تؤاخِيَه بمثله . وهَذَا عسِرٌ جدًّا ، وهو عندى أصعبُ مَنَالًا من نثر الشعر بغير لفظه ، لأنّه مَسْلكٌ مضيقٌ ، لِمَا فيه من التعرُّض لمماثلةِ ما هوَ فى غايةِ الحُسْن والجَوْدَة .

وأمَّا نثرُ الشعر بغير لفظه ، فذلك يتصَرَّف فيه ناثرُه على حَسَب ما يراه ، ولا يكونُ مقيَّدًا فيه بمثالٍ يُضْطرُّ إلى مؤاخاته .

وقد نثرتُ هذه الكلماتِ المشارَ إليها ، وأتيت بها فى جُملة كتاب فقلت :

---

(١) ديوان أبي تمام ٨٥ وهو من قصيدة يمدح بها أبا عبد الله أحمد بن أبي دواد ، ويعتذر إليه وقبله :

خذها مثقفة القوافى ربهـا لسوابغ النعماء غير كنود

وفى الأصل « وحداء » موضع « حذاء » والحذاء القارصة أو الطاعنة ؛ وتدر : تحلب ؛ والوريد عرق فى العنق .

« وكلامى قد عُرِف بين الناسِ واشتهرَ ، وفاقَ مَسيرَ الشّمس والقمر ، وإذا عُرِفَ الـكلامُ صارت المعرفةُ له علامةً ، وأمِنَ مِنْ سَرِقته ، إذ لو سُرِق لدلّتْ عليه الوسَامة ، ومن خصائص صفاته أنْ يملأ كلَّ أذنٍ حكمةً ، ويجعل فصاحةَ كلِّ لسانٍ عُجْمَةً ، وإذا جرَتْ مثاته فى الأفهامِ قالتْ : أهذهِ بنتُ فـكرةٍ ؟ أمْ بنتُ كَرْمَة ؟ »

فانظرْ كيفَ فعلتُ فى هذا الموضعِ ، فإنى لما أخذْتُ تلكَ الـكلماتِ من البيتِ الشّعرىِّ التزمْتُ بأنْ أوَاخيَها بما هو مثلها ، أوْ أحْسَنُ منها فجئْتُ بهذا الفصل كما تراه ، وكذلك ينبغى أنْ يُفْعَلَ فيما هذا سبيلُه .

وأما القسم الثالث وهو أعلى من القسمين الأولين :

فهوَ أنْ يؤْخذ المعنى ، فيصاغَ بألفاظٍ غير ألفاظه . وثَم يتبيَّن حِذْقُ الصائغِ فى صياغتِه ، و يُعلمُ مقدارُ تصرُّفِه فى صناعتِه ، فإن استطاعَ الزيادةَ على المعنى فتلك الدرجة العاليةُ ، وإلَّا أحْسَنَ التصرُّفَ ، وأتقنَ التأليف ، ليـكونَ أوْلى بذلك المعنَى مِنْ صاحبه الأوّل .

واعلم أنَّ منْ أبيات الشّعر ما يتَّسعُ المجال لناثره ، فيُوردُه بضروب من العِبارات ، وذلك عندى شبيهٌ بالمسائلِ السَّيالة فى الحساب ، التى يُجابُ عنها بعدَّة من الأجوبة ومن الأبيَات ما يضيقُ فيه المجالُ حتى ليـكادُ الماهرُ فى هذه الصناعةِ ألّا يخرجَ عن ذلك اللفظ ، وإنما يكونَ هذا لعَدم النظير .

فأمّا ما يتسعُ المجالُ فى نثره فكقولِ أبى الطيّبِ المتنبّى :

لا تعذُلِ المُشتاقَ فى أشواقِهِ   حتّى يكونَ حشاكَ فى أحشائِهِ (١)

وقد نثرتُ هذا المعنى ، فمنْ ذلكَ قولى : « لا تعذُلِ المحبَّ فيما يهواه ، حتى تطوى القلبَ على ما طواه » ومن ذلك وجهٌ آخرُ وهوَ : « إذا اختلفتِ العينانِ فى النَّظرِ ، فالعذلُ ضربٌ منَ الهذرِ » .

ومن هذا البابِ قول أبى الطيّبِ المتنبّى أيضاً :

إنَّ القتيلَ مُضرّجا بدُموعِهِ   مثلُ القتيلِ مُضرَّجا بدِمائِهِ (٢)

أخذتُ هذا المعنى فنثرته فمن ذلكَ قولى : « القتيلُ بسيفِ العيُونِ ، كالقتيلِ بسيفِ المنونِ ، غيرَ أنَّ ذلك لا يُجرَّدُ من غمدِهِ ، ولا يُقادُ صاحبُه بعَمْدِه » فزدتُ على المعنى الذى تضمّنه البيتُ ، وغيَّرتُ اللفظَ . ومن ذلكَ وجهٌ آخرُ ، وهو « دمعُ المحبِّ ودمُ القتيلِ مُتّفِقانِ فى التَّشبيهِ والتمثيلِ ، ولا تجد بينهما بوناً ، إلّا أنّهما يختلفانِ لوناً » وهذا أحسنُ من الأوّلِ

وأمّا ما يضيق فيه المجالُ ، فيعسُرُ على الناثرِ تبديلُ ألفاظه فكقولِ أبى تمّامِ :

---

(١) ديوان المتنبى ١/٦ ؛ وفى الأصل «لاتعزل» بالزاى ؛ وفى الديوان « لا تعذر » بالذال والراء ؛ يقول : لا تكن عاذراً للمشتاق فى شوقه حتى تجد مايجده ؛ ويكون قلبك فى قلبه ، أى تحب مثل ما يحب ، وهو من قول البحترى :

إذا شئت ألا تعذل الدهر عاشقاً   على كمد من لوعة البين فاعشق

(٢) المصدر السابق ، ويروى «إن المشوق» جعل جريان الدمع كجريان الدماء ، وهذا لأنه جعل العاشق كالقتيل ، تعظيما للأمر .

تردّى ثيابَ الموتِ حُمراً فما أتى ... لها الليلُ إلّا وهي من سُندسٍ خُضرُ [١]

وقول أبي الطيّبِ المتنبّي :

وكانَ بها مثلُ الجُنونِ فأصبحتْ ... ومن جُثثِ القتلى عليها تَمائِمُ [٢]

وأمثالُ هذا لا تأتي إلا قليلًا ، وسَبَبُه أن المعنَى ينحصرُ في مقصدٍ من المقاصد حتّى لا يكادُ يأتي إلّا فذًّا كهذين البيتين ، ألاَ ترَى أنّ أبا تمّامٍ قصدَ المؤاخاة في ذِكرِ لونَي الثيابِ من الأحمرِ والأخضر . وجاءَ ذلك واقعاً على المعنى الّذي أراده من لونِ ثيابِ القتلى وثيابِ الجنَّةَ . فإذا فُكّ نَظْمُ هذا البيت ، وأُريدَ صَوْغُهُ بغير لفظهِ لا يمكن ذلكَ .

وبيتُ أبي الطّيّبِ جارٍ هذا المجرَى ، فإنّه بناهُ على واقعةٍ من الوقائع . وذاكَ أن حصناً من حُصُون سَيْف الدّولة قصدَه الرُّوم وانتزعوه وأخرَبوه . فنَهدَ سيفُ الدَّولةِ إليه ، واسترجَعَهُ ، وجدّد بناءه ، وهَزَمَ الرُّومَ ، ونصبَ من جُثثِ القتلى على السُّورِ . فنظَمَ المتنبّي في هذا قصيداً أوَّلَه :

* عَلى قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائمُ [٣] *

فلما انتَهى إلى ذِكرِ الحِصْنِ جاء بهذا البيتِ في جُملةِ أبياتٍ ، فشرح صورةَ الحالِ في إزعاجِ الحِصْنِ بالقتالِ ، وتعليق القتلى عليه . وأبرز ذلك

---

(١) ديوان أبي تمام ٣٦٩ . ويروى «فما دجى» موضع «فما أتى» والسندس نوع من رقيق الديباج معرب ، كنى بالأول عن موته قتيلا ، وبالثاني عن دخوله الجنة .

(٢) ديوان المتنبي ٣/٣٨١

(٣) ديوان المتنبي ٣/٣٧٨ وعجز البيت * وتأتي على قدر الكرام المكارم *

فى معنى التمثيلِ بالجنون والتمائم . وهذا لا يمكنُ تبديلُ لفظِه . وهوَ وأمثالُه مما يجبُ على الناثر أن يَحْسِنَ الصنعةَ فى فكِّ نظامِه ، لأنّه يتصدّى لنثره بألفاظِه . فإنْ كان عنده قوّةُ تصرُّفٍ ، وبَسْطَةُ عبارةٍ ، فإنه يأتى حَسَنًا رائعاً .

وقد نثرتُ هذين البيتين . أما بيتُ أبى تمّام فإنى قلتُ فى نثره : « لم تَكْسُهُ المنايَا نَسْجَ شِفَارِهَا ، حتّى كَسَتْهُ الجنةُ نَسْجَ شِعَارِها . فبُدِّلَ أحمرَ ثوبِهِ بأخْضرِه ، وكأسَ حِمامِه بكأسِ كَوْثَرِه » . وهذا من الحُسْنِ على غايةٍ يكونُ كَمَد حَسُودِها منْ جُملةِ شهُودِها .

وأمّا بيتُ أبى الطيِّب المتنبِّى فإنى قلتُ فى نثره : « سَرَى إلى حِصْن كذا مستعيداً منه سَبِيَّةً نزعَها العدوّ اختلاساً ، وأخذَهَا مُخادَعَةً لا افتراساً ، فما نزَلَها حتى استقادَهَا ، ولا نزَلَها حتَّى استعادها . وكأنّما كان بها جُنونٌ فبعثَ لها منْ عزائمِهِ عزائمَ ، وعلّق عليها من رُءوس القتلى تمائمَ » . وفى هذا من الحُسْنِ مالا خفاءَ به ، فمن شاء أن ينثُرَ شِعْرًا فلينثرْ هكذا ، وإلّا فليترُكْ .

وقد جئتُ بهذا المعنى على وجهٍ آخرَ ، وأبرزْته فى صورةٍ أخْرَى . وذاكَ أنى أضفْتُ إلى هذا البيتَ الذى قبلَه ، وهوَ :

بَنَاها فأَعْلَى والقَنَا تَقْرَعُ القَنَا وَمَوْجُ المَنَايَا حَوْلَهَا مُتلاطِمُ

ولما نثرتُ هذينِ البَيْتَيْنِ قلتُ فى نثرِهما ما أذكره ، وهوَ « بناها والأسنَّة فى بنَائِها مُتخاصِمة . وأمواجُ المنايا فوقَ أيدى البَانِينَ متلاطِمَة

وما أحلت الحرب عنها حتى زُلْزِلَتْ أقطارُها برَكْضِ الجياد ، وأُصيبت بمثلِ الجُنونِ فعلقَتْ عليها تمائمُ من الرءوس والأجساد ، ولا شكَّ أنَّ الحربَ تغرد عمَّنْ عزّ جانِبُهْ ، وتقول : ألا هكذا فليكْسِب المجدَ كاسِبُهْ »

وهذا أحسنُ من الأوّل . وأتمّ معنى .

وقد تصرَّفتُ فى هذا الموضع بزيادةٍ فى معناه ، ونثرته على أسلوب أحسن من هذا الأسلوب ، فقلتُ : « بناها ودُونُ ذلكَ البناء شَوْكُ الأسَل ، وطوفانُ المنايا الذى لا يقال سآوى منه إلى جبَل ، ولمْ يكُن بناؤُها إلا بعدَ أنْ هُدِمَت رءوسٌ عن أعناق ، وكأنما أُصِيبَتْ بجنون فعلقَت القتلى عليها مكانَ التمائم ، أوْ شينَتْ بعَطَلٍ فعلِّقتْ مكانَ الأطْواق » وهذا الفصلُ فيه زيادةٌ على الفصل الذى قبله .

وإذا انتهى بنا الكلامُ إلى ههُنا فى التنبيه على نثر الشعر وكيفيَّةِ نثره ، وذِكْرِ ما يَسْهُلُ منه ومَا يَعْسُرُ ، فلنَتْبعْ ذلك بقول كليٍّ فى هذا الباب ، فنقُول :

مَنْ أحَبَّ أن يكونَ كاتباً أو كانَ عنده طبعٌ مُجيبٌ ، فعليه بحفظِ الدَّواوين ذواتِ العددِ ، ولا يقنعُ بالقليلِ من ذلك ، ثمَّ يأخُذ فى نثر الشِّعْر من محفُوظاته ، وطريقُه أنْ يَبْتَدِىءَ فيأخذَ قصيداً من القصائد ، فينثرَهُ بيتاً بيتاً على التَّوالى . ولا يستنكفُ فى الابتداء أن ينثرَ الشِّعْرَ بألفاظِه أوْ بأكثرها ، فإنه لا يستطيعُ إلا ذلك . وإذا مَرَنَت نفسُه وتدرّب خاطرُه ، ارتفعَ عن هذه الدرجة ، وصارَ يأخذ المعْنَى ويكسوه عبارةً مِنَ عِنْده .

ثم يرتفعُ عن ذلك ، حتى يكسُوه صروباً من العباراتِ المختلفة ، وحينئذٍ يحصُلُ لخاطره بمباشرةِ المعانى لِقاح ، فيستنتجُ منها معانِىَ غيرَ تلك المعانى ، وسبيله أنْ يُكْثِرَ الإدمانَ ليلًا ونهاراً ، ولا يزَال على ذلك مدةً طويلة حتى يصيرَ له مَلَكَةٌ ، فإذا كتبَ كتاباً ، أو خطَبَ خُطبة تدفقَت المعانى فى أثناءِ كلامه ، وجاءَت ألفاظه مَغسُولة لا مغسُولة ، وكان عليها حِدَة ، حتى تكادُ ترقص رقصًا . وهذا شىءٌ خبَرْتُه بالتجرِبة ، وَلاَ يُنَبِّئُكَ مثلُ خبير .

فإنْ قيلَ : الكلامُ قسمان : منظوم ، ومنثُور فلِمَ خَصَصتَ على حفظِ المنظومِ ، وجعلتَه مادَّةً للمنثور ، وهلّا كانَ الأمرُ بالعكسِ ؟

قُلتُ فى الجواب : إنَّ الأشعارَ أكثر ، والمعانى فيها أَغْزَرُ . وسببُ ذلك أَنَّ العربَ الذين هُمْ أصلُ الفصاحةِ كلُّ جُلِّ كلامِهم شِعر ، ولا نجدُ الكلامَ المنثور فى كلامهمْ إلا يَسِيراً ، ولو كَثرَ فإنه لم يُنْقَلْ عنهم ، بل المنقولُ عنهم هوَ الشِّعر . فأَوْدَعُوا أشعارَهم كلَّ المعانى كما قال الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فى كلِّ وَادٍ يَهيمون[1] » ثمَّ جاءَ الطرازُ الأوَّل من المَخضْرَمِين فلم يكنْ لهمْ إلّا الشِّعرُ . ثمَّ استمرَّتْ الحالُ على ذلك ، فكان الشعر هوَ الأكثر ، والكلام المنثورُ بالنسبة إليه قطرةٌ من بحْرٍ . ولهذا صارت المعانى كلّها مُودَعَةً فى الأشعار . وحيثُ كانتْ بهذه الصورة فكانَ حَقٌّ على حفظها ، واستعمال معانيها فى الخطب والمكاتباتِ لهذا السَّبب .

---

(١) سورة الشعراء : آية ٢٢٥

وقد نثرتُ فى هذا الموضعِ أبياتًا تكونُ قدوةً للمتعلِّم ، فمن ذلك قولِى فى فصلٍ من فصولِ الكلام يتضمنُ ذِكرَ السِّيادة :

« هوَ الشريف مَنْ شرُفَ بنفسه ، لا بما دُفِنَ مع أبيه فى رَمْسِه ، فإنَ تلكَ مكارمُ أتتْ فتجمَّلَ الزمانُ بذأتاها ، ثمّ ماتَ أرْبابها فدُفنتْ معَ موْتاها . ولو سادَ الناسُ بآبائهمْ لكانتِ السيادةُ للطينةِ الأولى ، ولقدْ خلقَ الأبناء من الآباء مجبولاً » . وهذا المعنى مأخوذٌ من قولِ الشاعر :

وما الفخرُ بالعَظْم الرَّميمِ وإنَّما ... فخارُ الَّذى يبْغِى الفَخار بنفسِه

غير أنَّ الفصلَ الذى ذكرته يتضمنُ من المعنى زيادةً على ما تضمَّنه هذا البيت .

ومن ذلك ما كتبتُه فى فصلٍ من كتابٍ يتضمَّن معاتبةَ أخٍ لإخْوَتِه ، وتنصُّلَه إليهم ، فقلت :

« جرَحوا قلبى ، وحبُّهم يذهب بألم الجراحَة ، وطرَفوا عينى وهم يزيدون فى نظرها ملاحَة . وإذا صَدَرَت الإساءة عن الأحباب لم يكن وَقْرُها وقْرًا ، وأصبحَت وهى منسيَّة إذا تجدَّدَتِ الإساءةُ بالذكرَى ، وما منهم إلا مَنْ سِيطَ دَمى بدَمِه ، ولحمى بلحمِه ، ولولاَ أنَّ الأسماءَ معارفَ الأشخاص لكان اسمى وَارِداً على اسْمِه ، وكيفَ أخْشُنُ عليهم ، وقدْ جبلنى الله لهمْ على اللِّين ؟ أمْ كيفَ أذودُ النفسَ عنهمْ وهى مُشتَقَّة منهم ، وآدَمُ بيْنَ الماءِ والطِّين ؟ ومتَى أؤمِّلُ من شجرَتِى أغصاناً كهذه الأغصان ، وقد أُصيبت جُرْثومتها

بالجداد[١] ؟ ولهذا قيل إن الإخوة يتعذر الاعتياض عنهم، ولا يتعذر الاعتياض عن الأولاد » آخر هذا الفصل مأخوذ من شعر ابن الرومي، وهو قوله[٢] :

تعزيت عن أمرتك حياته ... وَوَشْكُ التعزي عن ثمارك أجدر
تعذر أن نعتاض عن أمهاتنا ... وآبائنا[٣] والنسل لا يتعذر

غير أن ابن الرومي ذكر ذلك في تعزية إنسان بابنه، فتصرفت أنا في هذا المعنى، ونقلته إلى هذ الفصل في تضمنه معاتبة أخ لإخوته.

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن ذم المشيب، فقلت :

« والعيش كل العيش في سن الحداثة، وما يأتي بعدها فلا يدعى إلا سن الغثاثة، وليس بعد الأربعين من مصيف للذة ولا مربع، وهي القوة الصالحة من الطبائع الأربع، فإذا تجاوزها المرء أشفت ثمار عمره على حرصها[٤]، وصارت زيادته كزيادة التصغير التي هي زيادة تدل على نقصها. وأصبح بعد ذلك يدعى أبا بعد أن كان يدعى ابنا، وتقمص ثوبا من المشيب لا يجر ثوبه خيلاء، ولا يزهى به حسنا، وإن قيل: إن أحسن الثياب شعار البياض، قيل: إلا هذا الثوب فإنه مستثنى، ويكفيه

---

(١) الجداد القطع .
(٢) ديوان ابن الرومي ١٠٤
(٣) في الأصل « وأبنائنا » وهو خطأ، والتصحيح عن الديوان .
(٤) الخرص حزرما على النخل من الرطب تمراً .

من الفظاعةِ أنْ ينظرَ الأحبابُ إليه نظرَ القِتال ، ولولا أن الجمودَ بعده لما استعير له لفظةُ الاشتعالِ ، ومن الناس من يُدلّسُ لونه بصبْغة الخضاب ، وليسَ ذلك إلا حِداداً على فقدِ الشباب ، وهوَ في فعله هذا كاذبٌ ، ولا يخفى أُنْسُ الصَّادقِ من وَحشَةِ الكذّاب . وخداعَ النفسِ أن تَسْلوَ عن بدره المعطّلة ، وقصرهِ المَشيد ، ويحسُنُ لها الخروجُ في ثوبٍ مرقّعٍ ، وهي تراهُ بعينِ الثوب الجديد » . وبعضُ هذا مأخوذٌ من شعرِ ابن الرومىّ ، وهو قوله :

رأيتُ خضابَ المرء بعد مَشيبه حِدادًا على شَرْخِ الشّبيبة يلْبَس[١]

غير أن في هذا الفصلِ معانىَ كثيرةً لطيفةً لا توجد في كلامٍ آخر

ومن ذلك قولي في وصف الجود والسماء ، وهذا الفصل يشتمل على معان متعددة ، فمنها قولي في العطاء ، وهو :

شافهتني أسباب الغنى برؤيته حتى كادت تنطق ، واخضَرَّتْ أكنان منزلي بعطائه حتى كادتْ تورِق ، ومن فضيلةِ برّه أنه لا يأتي به على أعْيُنِ الناس ، وإذا غرَسَه عند إنسانٍ ربَّ ذلك الغِراس ، فلا يستكثر ما حادتْ به سحاب يده ، ولا يمنعهُ عطاء يومِه عن عطاءِ غَدِه » وبعض هذا المعنَى مأخوذ من شعر أبي نواس :

كانوا إذا غرسُوا سقَوْا وإذا بَنَوْا لم يَهْدِمُوا لبنائِهمْ آساسَا[٢]

(١) ديوان ابن الرومى ٢٩٧ ورواية الديوان « رأيت خضاب المرء عند مشيبه »

(٢) ديوان أبي نواس ١٣٠ وهو من أبيات يبكي فيها البرامكة ، وقد مر بدورهم ، فكتبها على حائط منها .

ومن هذا المعنى أيضاً قولى : « وهو أخذَ المكارمَ من سمائِها وأرضِها ، وقامَ بنفلِها فى الناسِ وفرضِها . وتحلّى ببعضِ أسماءِ الشُّهور حتى أصبحَ بعضُها حاسِداً لبعضِها ، فالمحرَّمُ للعائذِ بحَرِمه ، وصَفَرٌ للطّامِعِ فى سَعادة قدَمِه ، ورَبيعٌ لرائدِ نوَاله ، ورَجَبٌ لأقوالِ عُذّاله » . وهذا مأخوذٌ من قول الفرَزْدَق :

يَدَاكَ يدٌ ربيعُ الناس فيهَا ... وفى الأُخرَى الشُّهورُ من المحرَّم

وقد قال الشُّعَراء فى ذلك كثيراً إلّا أنى أنا تصرّفتُ فى هذا المعنى تصرّفاً لم يتصرّفْ فيه أحدٌ غيرى .

ومن هذا المعنى ما ذكرته فى فصل من كتاب وهو:

ولقد سَوَّى بينَ أعدائهِ فى البُغضِ وبيْنَ أموالِهِ فهذه مُعَنَّيةٌ بوقعِ نِصَالِهِ . وهذه مُعَنَّيةٌ بصنائعِ نوَالِهِ ، ولو أحبَّ المالَ لكانَ إليهِ ما يَبْذُلُه ، كما أنَّ أحبَّ الناسِ إليه مَنْ يَسْأَله . ومِنْ أحْسَنِ ما سَنَّهُ من الكرمِ أنّه جادَ حتى بَدَّلَ رَغَبَ العارفين زُهْدًا ، ورَأَى الحمد عِوضاً من الصَّنيعةِ فأَبَى أن يعتاضَ من صَنائعهِ حَمْدًا » وبعضُ هذا المعنَى مأخوذٌ من شِعْرِ أبى نُوَاسٍ ، وهو :

لَيْتَ أعْدَائى كانُوا ... لِأَبى إسْحَاقَ مالاَ [1]

ومن ذلك قولى فى وصف القتال ومواطن الحرب ، ووصف الشجاعة والإنجاد ، وما يتعلق بذلك ، ويجرى معه . وهذا الفصل يشتمل على معان مختلفة . فمن ذلك ما ذكرته فى وصف العسكر ، وهو

« فسِرْنا فى غَمامَةٍ من الكتائِبِ تُظِلُّها غَمامَةٌ من الطيور الأشائِب [2] ،

---

(١) ديوان أبي نواس ١١٨ وهو من قصيدة يمدح بها إبراهيم بن عبيد الله الحجبي
(٢) الأشائب : الأخلاط ، جمع أشابة بضم الهمزة .

فهذهِ يضمُّها بَحرٌ من حديدٍ ، وهذه يضمُّها برٌّ من صعيدٍ ، وما مَرَرْتَ ببلدٍ إلا أزَلْتَ أرْضَه من سمائِه ، وألبسْتَ نهارَهُ ثوبَ ظَلمائِه ، وبدَّلْتَ أحرارَهُ بعَبيدِه ، وحَرائرَه بإمائِه ، وكذلكَ فعلتَ بمدينةِ فُلانة ، وقد ضرَبَ الأمن عليها أسْوَاراً ، وبعُدَ عَهْدها بالنوائبِ فلم تدخلْ لها دياراً ، فهى تخبرُ عن بُلَهْنِيَةِ الخفْضِ ، ولَمْ تُرَعْ عنه بالانتقال ، ولا رأتِ السَّيْفَ وقدْ ألقَى لونَهُ فى ذوائبِ الأطفالِ ، فما شعُرَ أهلُها إلَّا وقدْ رَجَمَهَا الجيشُ بكاهلِه ، ورماها بوابله قبل طَلَّه ، وطلِّ السَّحابِ قبلَ وَابِلِه ، وبَرَزَتْ خيْلُ القومِ ولها زِيُّ فرسانِها ، وهى مُسْتَبِقَةٌ إلى طِرادِها كاستِبَاقِها إلى مَيدانِها إلا من تتأوَّدُ الفناةَ مِنْ يَدِهِ بينَ لِهذَمَين (١) ، وتَسْتَقِلُ السرجَ مِنه ومِنْ جَوادِه بَيْنَ مُطَهَّمين (٢) ، فجرَتَ المَفاويرُ إلى المَغاويرِ ، وتلاقتِ الرياحُ بالأعاصيرِ ، وكانَ الطَّعْنُ بينهم عِناقاً ، والليثُ وفَاقاً ، وسَبَقَ ألَمَ الموت ألمُ الجِراح ، ونَفَذَتْ نيرٌ مُختضبةٌ لسُرْعَتِها أسنةَ الرِّماح ، وحصلَ القومُ القَبْضَةَ ، وذمُّوا عُقْبَى النَّهْضَةِ ، وجىء بالأسرى مُقرَّنين فى الأصفاد ، موقنين أنَّ رُءوسَهم عَوارٍ على تلك الأجساد ، ولو استطاعَ رأسُ أحدهمْ أن ينكرَ عُنقَه لأنكرَه ، ولا يودُّ — وهو المعظَّمُ — أنْ يقالَ : ما أعظَمُه ! بلْ يقال : ما أحقرَه ! وتصرَّفتْ أيدى المسلمينَ فى القتْلِ والنِّهابِ ، وكانَ للسَّيفِ رقابٌ ، وللسَّبْى رقابٌ » .

---

(١) اللهذم على وزن جعفر القاطع من الأسنة .

(٢) المطهم على وزن معظم السمين الفاحش السمن ؛ والنحيف الجسم الدقيقه ؛ ضدان . والتام من كل شىء ، والبارع الجمال ، والمنتفخ الوجه ، والمدور الوجه المجتمعه .

فى هـذا الفصل معانٍ كثيرةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ ، ومنها مَا أُخِذَ من شِعْرِ المتنبىِّ كقوله :

سَحَابٌ من العِقْبانِ يَزْحَفُ تَحْتَها
سَحَابٌ إذا اسْتَسْقَتْ سَقَتْهَا صَوَارِمُه[1]

وكقولهُ :

واسْتَعَارَ الحديدَ لوناً وَأَلْقَى لوْنَهُ فى ذوائبِ الأطْفَالِ[2]

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف المسلوبين ، فى فصل من جملة كتاب يتضمن البشرى بهزيمة الكفار ، وهو :

« فَسُلِبُوا وعَاضَتْهم الدِّماء عن اللّباس ، فَهُمْ فى صورةِ عارٍ ، وزِيُّهُمْ زِىُّ كاس ، وما أَسْرَعَ ما خِيطَ لهمْ لباسُها المُحْمَرُّ ، غيرَ أَنَّهُ لم يجبْ عليهم ولم يُزَرَّ ، وما الكِسْوه حتَّى لبسَ الإسلامُ شعارَ النَّصْر الباقىَ على الدَّهر ، وهوَ شِعَارٌ نسجَهُ السِّنان الخارقُ ، لا الصنعُ الحاذِق ، ولم يَغِبْ عن لابسِه إلا رَيْثمَا غابَت البِيضُ فى الطُّلى والهَام[3] ، وألف الطَّعْن بين ألف الخطِّ واللَّام »

وهذه معان حسنةٌ رَائِقَةٌ ، ومنها معنًى واحدٌ مأخوذٌ من شعر البُحْتُرِىّ ، وهوَ :

---

(١) ديوان المتنبى ٣/٣٣٨ . جعل الطير التى يطير فوق عسكره سحابا ، وجعل جيشه سحابا ، لما فيه من بريق الأسلحة وصبّ الدماء وصوت الأبطال ، وجعل الأسفل يسقى الأعلى إغرابا فى الصنعة .

(٢) ديوان المتنبى ٣/٢٠٠

(٣) الطلى بالضم الأعناق أو أصولها ؛ جمع طلية بضم الطاء ، أو طلاة بضمها أيضاً .

سُلبُوا وَأشْرَقَتِ الدّماء عليهمُ مُحْمَرّةً فكأنّهمْ لمْ يُسْلَبُوا[(١)]

ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب يتضمن فتحا وهو: « أُصْدِرَ هَذَا الكتابُ، والفَتْحُ غضٌّ طَرِيٌّ لم تتَّصلْ حُمرةُ يومه، ولا أُغمِدَتْ سُيُوفُ قومِهِ. فسطُورُه مُتَرّبَةٌ بِمثارِ عَجَاجِه، مُمتلئةٌ بخطِّ ضَرْبِه وإعجامِ زِجَاجِه[(٢)] ».

وهذا المعنى يَنْظُرُ إلى قولِ أبى تمّام[(٣)]:

كَتَبْتَ أوْجُهَهُمْ مَشْقًا وَنَمْنَمَةً ضَرْبًا وَطَعْنًا يقُدُّ الهامَ والصُّلُفَا[(٤)]
كِتَابَةً ما تَنِي مَقْرُوءَةً أبدًا وما خَطَطْتَ بها لامًا وَلا ألِفَا

إلّا أنّ أبا تمّام مثّل آثارَ الضّرْب والطّعْنِ في الوجوهِ بالكتابةِ، وأنا مثّلْتُ الكتابةَ وَإعْجَامه بالضّرب والطّعْن، فكأنّني عكَسْتُ المعنى الّذي ذكره أبو تمّام:

وهذا مَقْصِدٌ في حلِّ الأبيات الشّعريةِ حَسَنٌ، فإنّ استخراجَ المعنى من عكْسِه أدقُّ من استخراجِهِ من نفْسه، وقد نبّهْتُ على ذلك في مواضعَ أُخَرَ من هذا الباب.

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن فتحا من فتوح الكفار، وهو:

« وأقبلتْ أحْزَابُ الكُفْر وهىَ معتصمةٌ بصَلِيبِها، ورَفَعَتْه على أعوادِ

---

(١) ديوان البحترى ١٨٩/٢

(٢) الزجاج بكسر الزاى جمع زج بضمها: الحديدة فى أسفل الرمح.

(٣) ديوان أبى تمام ٢٠٣

(٤) المشق مد الحروف، والصلف جمع صليف، وهو عرض العنق.

عاليةٍ كهيئةِ خطيبها ، ولمْ تعلمْ أنَّ اللهَ كتبَ عليْه الهَوانَ بعد تلكَ الكرامةِ ، وأنّه ذو شُعَبٍ أرْبَعٍ ، والتَّرْبيعُ نَحْسٌ فى حُكمِ النِّجامةِ (١) ، وكيفَ ترْجُو بِكُفْرِها ظهوراً ، ولها مِنْهُ معنى الاختفاء ، وللإسْلامِ مَعْنَى السَّلامة ، ولمَّا التقىَ الجمعانِ اصْطَفَقتْ بمين وشِمَال ، وزَحَفَتْ جبالٌ إلى جبَال ، وكَثُرَتْ النُّفوسُ على المنَايَا حتَّى كادتْ لا تَفِي بالآجَال ، وأَقْدمَت الخيلُ إقدامَ فُرْسَانِها ، وأظلمَ النَّقْعُ فلا تبصرُ إلَّا بآذانِها ، ونالَتِ النُّحُورَ ثأْرَها من كُعُوبِ الرِّماح ، واشتَكتِ الأسنَّةُ فلا طريقَ بينها لمهبِّ الرِّياح ، واستُؤصِلتْ شجرةُ الكافرين بالقَطْع لا بالجِدَادِ ، وحالَ حدُّ السَّيْفِ دُونَ حديد الأصْفَادِ ، ونُقلوا إلى جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وبئس المِهادِ ، وانقلبَ المسلمونَ وقد مَلئوا الأيمانَ نصْرًا ، والصحائفَ أجْراً ، والأيدىَ وَفْرًا ، والقلوبَ جَذَلا ، والألسنةَ شكْراً ، وكان ذلكَ اليومُ فى الأيَّام عَلما ، وفى الأقْسَام قسَمًا ، ولم يرَهُ الزمان منسوبًا إليه إلا رَاجَعَ شبَاباً بعد أنْ نَاهزَ هرَمًا » .

فى هذا الفصل شيء من معانى الشِّعر ، وذلك من قولِ أبى الطيِّب المتنبِّى (٢) :

أتاهمْ بأَوْسَعَ مِنْ أرْضِهِمْ ... طِوَالَ السَّبيبِ قِصَارَ العُسُبْ (٣)

(١) أراد بها صناعة التنجيم ، قال ابن أبى الحديد : إن لفظة « النجامة » رديئة مستغفلة ، على أنا لا نعرف صحتها وجوازها ، ولا سمعناها اسما للتنجيم ولا مصدراً — انظر الفلك الدائر على المثل السائر ٤٣

(٢) ديوان المتنبي ١/١٠١

(٣) السبيب : شعر الناصية والعرف والذنب ؛ والعسب جمع عسيب ؛ وهو منبت الذنب من الجلد والعظم ؛ والعسيب من السعف : فوق الكرب لم ينبت عليه خوص ، والعسيب : اسم جبل . يريد أن الدمستق ملك الروم أتاهم بخيل أوسع من الأرض ؛ والمستحب فى الخيل ما ذكر : أن يطول شعر الذنب ، ويقصر عظمه .

تَغيبُ الشَّوَاهِقُ في جَيْشِهِ   وتَبْدُو صِغَارًا إذا لمْ تَغِب
ولا تعْبُرُ الرِيحُ في جَوِّهِ   إذا لمْ تَخطَّ القَنَا أَوْ تَثِبْ

ومنْ قولِه أيضاً[١] :

في جَحْفَلٍ سَتَرَ العُيُونَ غُبارُهُ   فكأنَّما يُبْصِرْنَ بالآذانِ

ومن ذلك ما ذكرته في الإنجاد وإجابة الصريخ ، وهو :

إذا استُصْرِخَ أَصْرَخَ بعَزْمٍ غَذَتْهُ صُحْبَةُ الجيش عن لذَّةِ العَيْش ، فهوَ يستعْذبُ حَرَّ الثغور على بَرْدِ الثُّغور ، ويَلْهُو بالبيض الذُّكور عن بيضِ الخُدور ، ولا طِيبَ عندَهُ إلا ريحُ العَجَاج ، ولا عِنَاق إلَّا أطرَافُ الزِّجَاج ، ولا أرَبَ لَهُ في الرُّقَاد ، إلَّا على صَهَوَاتِ الجياد ، فعَسكَرُ قلْبِهِ أمْضَى في الوَغى من عَسكر ، ونَجْدَتُهُ بأسِهِ تأبَى لِقاءَ الأقْرَان في دِرْعٍ أوْ مِغْفَر[٢] وهذه المعاني مأخوذةٌ من أبياتِ الحماسَة ، ومِنْ شعر مُسلم بن الوليدِ

ومن ذلك ما ذكرته في وصف المخبر دون المنظر ، وهو :

«إذا سَمَوْتَ لأمرٍ فكُنْ واحداً في مكانِك ، ولا تَرْضَ بكثرةِ الشُّركاء فيُقالُ : فُلانٌ من أقْرَانِكْ . ألمْ تَرَ إلى الحِرْبَاء الذي هُوَ دُوَيْبَّةٌ حقيرةُ الشَّأن ، ضعيفَةُ الأرْكان . فإنّه ارْتَفَعَ في هَوَاهُ عن الأرض وأُنْسِهَا ، إلى السَّماءِ وشَمْسِهَا ؟ وقالَ : لا أُحِبُّ مَنْ تُفْسِدُ الأيامُ من حُسْنه ، ولا مِنْ أحد بسمة

---

(١) ديوان المتنبي ٤/١٧٦ والجحفل الجيش العظيم ؛ مأخوذ من تجحفل القوم ، أي اجتمعوا .
(٢) المغفر على وزن منبر : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة ، أو حلق يتقنع بها المتسلح .

خِلّه (١) ولا خِذْنه ، والهِمَمُ ليست مَنوطةً بجَهارةِ المَناظِر ، والتَّعويلُ على الخبَر المسْتَتِر فى الأفئدة الباطنةِ لا على الظَّواهِر ، ومِنْ هاهنا قِيلَ إنَّ وَضاءَةَ النفُوس أنْضَرُ من وَضَاءةِ الأجْساد ، ورَقْم الشِّيَم أحْسَنُ من رَقْم الأبْرادِ »

وآخرُ هذا الفصْل ينظرُ إلى قول سُحَيْم عَبْدِ بني الحَسْحَاس (٢) :

إنْ كُنْتُ عبداً فنَفْسِى حُرَّةٌ كَرَماً ... أوْ أسْوَدَ اللَّوْنِ إنِّى أبْيَضُ الخُلُق (٣)

إلَّا أنَّ الفصل يتضمَّنُ معنًى غريباً لم يَسْبِقْنِى إليه أحَدٌ .

ومن ذلك ما ذكرته فى الحسد فى فصل من كتاب ، وهو :

« حاسِدُ سَيِّدِنَا ينظرُ إلى زَهْرَةِ دُنْيَاه ، ولا يَنْظر إلى اسْتِحقاقه ، وهُوَ كالنّاظر إلى الأطْوَاق الموضوعةِ فى الجيدِ ، ولا يَدْرِى أنَّ الجيدَ أحْسَنُ من أطْوَاقِه ، ولوْ قاسَ الدُّنيا بالاسْتِحْقاق لذَهَبُ الحَسَدُ من صَدْرِه ، وقالَ : مالى أحْسُدُ مَنْ لم يَنْتَهِ قَدْرُ دُنْياَ إلى مِعْشَارِ قَدْره ؟ »

ومن ذلك ما ذكرته فى صدر كتاب يتضمن الإعذار عن تواتر المطالبات ، وهو :

« إذا اعْتُذِرَ من انقطاعِ الكُتُبِ ، اعتَذَرَ الخادمُ من اتِّصالِها ، ولوْ كانت واردةً على غير ذلكَ البابِ الكريم لخافَ من إملالها ، وقَدْ عُدَّ احتِمالُ تثقيلها

---

(١) الخلم بالكسر الصديق والصاحب .

(٢) سحيم عبد بنى الحسحاس من المخضرمين أدرك الجاهلية والإسلام ، وكان أسود شديد السواد ؛ وبنو الحسحاس من بنى أسد بن خزيمة ؛ قال المبرد : كان عبد بنى الحسحاس يرتضخ لكنة حبشية . وقتل سحيم فى خلافة عثمان رضى الله عنه ؛ لما قيل من تنزله فى امرأة من بنى عبد الحسحاس .

(٣) البيت فى خزانة الأدب ١/٣٨٢

من جُمْلة الأيادِي التي أثقلَتْه ، وأرادَ أنْ يَجْرِيَ معها بسوابقِ شُكْرِهِ فأعْجَلَتْه وَمَا أمهَلَتْه ، وهو الآن مُرْتَهَنٌ بين قديمٍ وجديد ، وأصبح كَخِرَاشٍ إذْ تكاثَرَتِ عليه الظِّبَاء فلم يَدْرِ لِكثرتِها ما يَصِيد ، فإنْ أمْسَكَ سيِّدنا من أياديهِ ، وإلا فليتفضَّلْ على الشكر بالأنْظَار ، وليعلم أن ذِمَّةَ وفائه كَذِمَّةِ ديوانِ المَـالِ فى الإعْسَار » .

هذا فصلٌ فى هذا المعنى قَلَّمَا يؤْتَى بمثله ، وفيه معنًى واحد منْ قول الشاعر :

تكاثَرَتِ الظِّباء على خِرَاشٍ ... فمَـا يَدْرى خِرَاشٌ ما يَصِيدُ

ومن ذلك ما ذكرته فى استطلاع مودة ، فقلت :

« كنتُ عنده بالمنزلةِ التى آمَنُ بها ما أجْنيه فصِرْتُ أخافُ مالمْ أجْنه ، وكانَ لايقبلُ علىَّ شهادة عيْنِه ، فأصبحَ الآنَ يقبلُ علىَّ شهادةَ أذنِه ، لكن لمْ يجعلِ الله القلوبَ بين أصْبُعَين من أصَابعه إلَّا ليذهَبَ بها كلَّ وَاد ، ومِنْ هاهنا كانتْ تنتَقِل منْ وِدَادٍ إلى قِلًى ، ومِنْ قِلًى إلى ودَاد ، ولا شَكَّ أنَّ لها بين الحالتينِ عُمْراً تنتهى إليه كما تَنْتَهى أعمارُ الأَجْسَاد ، والصَّبْرُ خيرُ ما استُعْمِل فى جَفَاءِ الإخْوان ، والماء إذا جَرَى فى مكانٍ ثم انحرفَ عَنْهُ فلابدَّ أنْ يعُودَ إلى ذلِكَ المكان » .

وبعضُ هذا مأخوذٌ منْ شِعْرِ ابن الرُّومِىّ :

عَهِدْتُكَ لا تَعْتدُّ بالعيْنِ شَاهِدًا ... علىَّ فلِمْ أصْبحْتَ تَعْتدُّ بالأُذْنِ [1]

---

(١) ديوان ابن الرومى ٤٣١ وهو من قصيدة قالها مستعطفا ومستبطئا أبا الحسن محمد ابن أبي سلالة فى مكاتبته إياه .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب إلى بعض الملوك على يد بعض العفاة ، وهو :

« الشِّيَم الكريمةُ للإنسان ، بمنزلةِ المِسْكِ فى سُرَرِ الغِزْلانِ ، غَيْرَ أنَّ طيبَ هذه يَعْبُقُ بالأنوف ، وطيبُ هذه يَعْبقُ بالآذان ، وقدْ جُعِلَ تفاوتُ المزيَّة بين هَذَيْن الطِّيبَيْن فَرْقاً ، فأحدهما يَبْقَى دائماً ولا يذهبُ ، والآخرُ يذهبُ ولا يَبْقَى . وَنَصِيبُ مَوْلانا من الطِّيبِ الباقى نَصِيبٌ زَكَتْ مَعَادِنُه ، وكثرتْ خَزَائنُه ، وسارتْ فى الأرض محاسِنُه ، ورَفَعَه الله به إلى محلٍّ يَبْعُدُ شأْوُه على الطالب ، ولا يُرَى إلا فى لسَانِ شاعرٍ أو لسانِ خاطب ، وهُوَ مِمَّا اسْتُثْنى من خَلْقِ النَّاس الذى هوَ منْ طينٍ لازِب[1] . ومنْ أجلِ ذلكَ يُرَوْنَ أشباهاً ماعَدَاه ، وما مِنْهُمْ إلا مَنْ يُقِرُّ بفضلِهِ ولو كان من حُسَّادِهِ أوْعِدَاه ، وقدْ أصبحُوا وَهُمْ يقلُّون لديْهِ حينَ يكثرُون ، ويقولُ كلٌّ منهم لصاحبِه : « أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُم لاَ تُبْصِرُونَ[2] » .

هذا الفصل وإنْ تَضَمَّنَ شيئاً من القرآن الكريم ، فليسَ المرادُ هاهنا القرآنَ الكريم ، بلْ منه شيءٌ مأخوذٌ من الشِّعر ، وهو قول المتنبيّ[3] :

النَّاسُ مالمْ يَرَوْكَ أَشْبَاهُ ‏ ‏ ‏ والدَّهْرُ لَفْظٌ وَأَنْتَ مَعْنَاهُ

---

(١) تضمين قول الله تعالى « فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب » سورة الصافات : آية ١١ ، واللازب : اللازق .

(٢) سورة الطور : آية ١٥

(٣) ديوان المتنبي ٤/٢٦٣ وهو مطلع قصيدة يمدح بها أبا العشائر ؛ وقد أراد سفراً .

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف الخمر ، وهو :

« الخمرُ لا تَفِي لذَّةَ إسكارِها [إلَّا] بتنغيص خمارها . فهيَ خرقاءُ البَيان بذيئة اللسان . وتأنيثها يدُلُّك أنها من ناقصاتِ العقولِ والأديان . وقد عُرِفَ منها سُنَّةُ الجَوْرِ فى أحكامها ، ولولاَ ذلكَ لما استأثرَتْ من الرؤوس بجنايةِ أقدامِها »

وهذا أحسنُ من قول الشاعر وأغربُ وألطفُ ، لأنَّه قالَ :

ذكرتْ حقائدَها القديمةَ إذ غَدَتْ ... وَهْناً تُداسُ بأَرْجُلِ العَصَّارِ
لانَتْ لهمْ حتى انتَشَوْا فتحكَّمَتْ ... فيهمْ فنادَتْ فِيهمُ بالثَّارِ

وكذلك قلت فى وصفها أيضا ، وهو

« مُدَامَةٌ تَنفِي خواطرَ الهُمُوم ، وتَسْرِى مَسْرَى الأرْوَاح فى الجسُوم ، وتَشْهَدُ بأَن الكَرَم مستَمَدٌّ من ماءِ الكرُوم ، ويتمثلُ حَبَبُها نُجوماً ، إلَّا أنها مضِلَّةٌ والهِدَايةُ للنُّجوم » وبعضُ هذا مأخوذٌ من قولِ أبى نوَاسٍ :

إذا هِيَ حلَّتْ فى اللَّهاة من الفَتَى ... دَعَا همَّهُ مِنْ صَدْرِه برَحِيلِ (١)

وما زَالَ الشعراء يتَوَارَدُونَ على هذا المعنى حتى سَمُجَ ، لكنَّ الذى ذكَرْته بعد هذا المعنى من محاسنِ المعانى فى وَصْفِهَا .

وكذلك ما ذكرته فى وصفها ، وهو :

« الخمرُ كالعَذْرَاءِ فى نُفورِها ، وملازَمَةِ خُدُورِها ، ولهذا تَشْمَئِزُّ من

---

(١) ديوان أبى نواس ٢١٠ ورواية الديوان * إذا ما أتت دون اللهاة من الفتى *
واللهاة اللحمة المشرفة على الحلق ، أو مابين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم .

نِكاحِ المِزَاج ، وتصخَبُ لمسِّ الماءِ صَخَبَ الأبكار لمسِّ الأزْوَاج ، ومِنْ شأنِهَا أنْ تلبسَ عند الزِّفاف إكليلًا على رأسِهَا ، وكذلكَ شأنُ العرائِسِ عندَ زِفَافها إلى أعْراسِها » .

وهذه المماثلةُ بين الخمرِ وبينَ البِكْرِ على هذا النَّسَق لمْ يأت بها أحدٌ غيرى ، وإنما وُصِفَتْ بأنها بكر ، كقول أبى نواسٍ (١) :

فَقلْتُ لشيخٍ مِنْهُمُ مُتَكلِّمٍ لهُ دِينُ قِسِّيسٍ وفى نُطْقِهِ كُفْرُ (٢)
أعِنْدَكَ بِكْرٌ مُرَّةُ الطَّعْمِ قَرْقَفٌ صَنِيعَةُ دِهْقَانٍ تَرَاخَى لهُ العُمْرُ (٣)
فقَالَ عَرُوسٌ كانَ كِسْرَى رَبِيبَهَا مُعَتَّقَةٌ مِنْ دُونِهَا البابُ والسِّتْرُ

وَوُصِفَتْ بالنِّكاحِ والزَّوَاج ، كقولِهِ أيضاً (٤) :

وَقَهْوَةٍ كالعقيقِ صَافِيَةٍ يَطِيرُ مِنْ كَأْسِهَا لها شَرَرُ
زَوَّجْتُهَا الماءَ كَيْ تَذِلَّ لهُ فامْتَعَضَتْ حِينَ مَسَّهَا الذَّكَرُ

ومن ذلك ما ذكرته فى الحزم ، وهو :

« لا ينبغى للحازِمِ أن يُسَاوِرَ المَوْرِدَ المُؤْذِنَ بِتَضِيقِهِ ، وَإِنْ أفْضَى الصَّدَرُ

---

(١) ديوان ابى نواس ٢٨٠
(٢) موضع هذا البيت فى الديوان :
حططنا على خمارها جنح ليلة فلاح لنا فجر ولم يطلع الفجر
(٣) رواية الديوان * وأبرز بكراً مرة الطعم قرقفاً *
والقرقف : على وزن جعفر الخمر يرعد عنها صاحبها ؟ والدهقان بالكسر والضم القوى على التصرف مع حدة ، والتاجر ، وزعيم فلاحى العجم ، ورئيس الإقليم ، معرب . والجمع دهاقنة ودهاقين . والاسم الدهقنة .
(٤) ديوان أبى نواس ٢٨٩ . والبيت الثالث بعد هذين البيتين :
كذلك البكر عند خلوتها يظهر منها الحياء والخفر

إلى رَحِيبِه ، فإنَّ توَقّى الداءِ خيرٌ من التَّعرُّضِ له مَعَ وُجودِ طَبيبه ، ولْندَعْ قول من يَقْعُدُ على تَلِّ السلامَةَ ، ثمَّ يلبسُ الكتائبَ بالكتائِب ، ويقول ليس للعزم إلّا تمامُ الصُّدُور ، وليسَ له تمامُ العَوَاقِب » .

بعضُ هذا مأخوذٌ من شِعْر أبى تمَّام [١] :

وَرَكْبٍ كأَطْرَافِ الأسنَّة عَرَّسُوا عَلى مِثْلِها والليلُ تَسْطُوا غيَاهِبُهُ
لِأَمْرٍ عَلَيْهِم أَنْ يتمَّ صُدورُهُ وليسَ عَلَيْهِمْ أَنْ تتمَّ عَوَاقِبُهْ

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف الرأى والكيد وهو :

« أَخْفَى على العدُوِّ كيدَه حتَّى لم يَدَعْ كائداً ، وأَعْمَى عليه سُلُوكَ الطريق حتى ظنَّه حائداً ، فسُيُوفه تسطُو على بُعْدها ، ولا تَقْطَعُ إلَّا وهى فى غِمْدِها » .

وبعضُ هذا المعنى أخذتُه من شعر أبى تمَّامٍ ، وهو [٢] :

سَكَنَ الكَيْدُ فيهمُ إنَّ من أَعْظ مِ كَيْدٍ أَلَّا تُسَمَّى أَرِيبَا

وكذلك قولى فى هذا المعنى وهو :

« أَخَذ بسَمْعِ العَدُوِّ وبَصَرِه ، وسَدَّ مَطْلَعَ وِرْدِه وصَدَرِه ، فيداهُ مَغْلُولة مَعَ أَنَّها مُطْلَقةُ السَّرَاح ، ومقاتِله باديةٌ على أَنَّها شاكيةُ السِّلاح » .

وهذا المعنى ينظرُ إلى المعنى الَّذِى قبْلَه » .

---

(١) ديوان أبى تمام ٤٤ من قصيدة يمدح بها أبا العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين ابن مصعب ؛ ومطلعها :

أهن عوادى يوسف وصواحبه فعزماً فقدماً أدرك السؤل صاحبه

(٢) ديوان أبى تمام ٢٧ . ورواية الديوان «إن من أعظم إرب» والإرب الحاجة أو الدهاء والأريب : العاقل . والبيت من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى ، وأولها :

من سجايا الطلول ألا تجيبا فصواب من مقلتى أن تصوبا

وكذلك قولى أيضاً ، وهو :

« يَبيتُ برأيهِ العدوَّ قبلَ جَيْشِهِ وتلقاه يطيش قلبه ، الذى كلُّ الحِلْمِ فى طَيْشهِ ، فإذا أطلَّتْ وجوه الآراء كان رأيهُ لها صَباحا ، وإذا جُهزَتِ الجحَافِلُ لحرْبٍ كان قلمُهُ لها سِلاحا » .

وبعض هذا المعنى مأخوذٌ من شعر البُحْتُرِى :

وَهُوَ المرء ما غزَا بلدًا بالرَّأْ يِ إلا كَفَاه غَزْوَ الجُنُودِ (١)

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف السير والركاب والجبل والقفار وما يتعلق بها فمنه ما يتعلق بالسير وهو :

رَكِبَ ظَهْرَ الليلِ يُبَارِى مَسِيرَ شُهُبِه بِمَسِيرِ أشْهَبِه ، وَيَسْتَقْرِبُ بُعْدَ المَدَى فى نَيْلِ مَطْلَبه ، غيرَ أنَّ تلك تَفْرِى أدِيمَ الغَيَاهِب ، وهَذا يَفْرى أدِيمَ السَّبَاسِبِ (٢) » .

وهذا مأخوذ مِنْ قولِ المتنبيِّ :

يُبَارِى نُجُومَ القَذْفِ فى كلِّ لَيْلَةٍ نُجُومٌ لهُ مِنْهنَّ وَرْدٌ وَأدْهَمُ (٣)

ومن هذا المعنى أيضا قولى وهو :

« اتَّخَذَ الليلِ ظَهْراً ، واسْتَلاَنَ خُشُونَةَ المَسْرَى ، فلم يَزَلْ يقذِفُ صَبْغَةَ

---

(١) هو مثل قوله :

فهى من عزم رأيه فى جنود فمن من حولها مقام الجنود

(٢) السباسب : جمع سبسب ، وهو المفازة ، أو الأرض المستوية البعيدة .

(٣) ديوان المتنبي ٣/٣٥٣ . ورواية الديوان « تبارى » بالتاء ، ونجوم القذف : هى التى تقذف بها الشياطين ، قال الله تعالى «ويقذفون من كل جانب دحورا» . والورد : الفرس الأحمر

سوادِهِ بصَبْغَةِ جوادهُ ، حتّى بدَتْ فى أيمِ الليلِ شِيَاتُ صَباحِه ، وشَابَهَ الأدْهَمَ فى غُرَّتِهِ وأوْضَاحه ، فعندَ ذلك أخذَ أحدهما فى رَحِيله ، وأخذ الآخرُ فى نُزُوله » .

وهذا المعنى ينظرُ إلى الذى قبله ، وفيه من شَرَفِ الصَّنعة مالا خفاءَ به .

ومن ذلك ما ذكرته أيضاً فى فصل من كتاب وهو :

« سِرْتُ وتحتِي بنتُ قَفْرَةٍ لا يذهَبُ السُّرى بِجماحها ، ولا تَستزيدُ الحادِىَ من مِرَاحِها ، فهى طَمُوحٌ بأثناءِ الزِّمام ، وإذا سارتْ بينَ الآكامِ قيلَ هذهِ واحدةٌ من الآكامِ ، ولم تُسمَّ « جَسْرةً (١) » إلا لأنَّها تقطعُ عرضَ الفلاةِ كما يقطعُ الجسْرُ عَرْضَ الماءِ ، ولا سُمِّيَتْ « حَرْفاً (٢) » إلّا لأنَّها جاءتْ لمعنى فى العزائمِ لا معنًى فى الأفعالِ والأسماءِ . وخَلْفَها جَنِيبٌ من الخيْلِ يُقْبِلُ بجذْعٍ وَيُدْبِرُ بصَخْرَةٍ . ويَنظرُ من عَيْنٍ جَحْظَة ، ويَسمَعُ بأُذُنٍ حَشْرَةٍ ، ويجْرِى معَ الرِّيحِ الزَّعْزَعِ ، فيذرُها وقد ظهر فيها أثرُ الفَتْرَة . وما قُيِّدَ خَلْفَها إلّا وهو يَهْتَدِى بها فى المسالكِ المُضِلَّة ، وَيطأُ على أثرها ، فيرْقُمُ وُجُوهَ البدورِ بأشكالِ الأهِلَّة ، هذا والليلُ قدْ ألقى جِرَانه (٣) فلمْ يَبرَحْ ، والكواكبُ قدرَ كدَتْ فيه فلمْ تَسْبَحْ . وأنا أوَدُّ لو زادَ طولَه ، ولم تظهرْ غُرَّةَ أدْهَمِه ولا حجُوله ، فقد قيل إنه أدْنى للبُعْدِ وَأكْتَمُ للأسْرَار ، ودلَّ عليه القول النبوىُّ بأنَّ الأرْضَ تطْوَى فيه مالا تُطوى فى النهار ، وما زِلْتُ أسيرُ بريدَهَا تَنوءُ به حتّى كادَ

---

(١) الجسرة : العظيم من الإبل . (٢) الحرف : الناقة العظيمة .

(٣) جران البعير : مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره

يَنْضُونَ السّواد ، وظهرَ لونُ السرحان ، فأغارَ على سَرْحِ السَّماء كما يُغيرُ السِّرحان على سَرْحِ النِّقاد[١] ، فعِنْدَ ذلك نَهلَتِ العَيْنُ مِنَ الكَرى نَهلةَ الطَّائر ، ولم يكنْ ذلك على ظَهْرِ الأرضِ المطمئنَّةِ ، وإنما كانَ على الظَّهرِ السَّائر » .

في هذا الفصلِ كلُّ مليحةٍ من المعانى ، ولو لم يكنْ فى هذا الكتاب سِواه ، لكان كافياً ، وبعضهُ مأخوذ من الشِّعر ، كقول أبى تمَّام :

طَمُوحٌ بأثناء الزِّمامِ كأنما يخال بها من عَدْوِها طَيْفَ جِنَّةِ[٢]

وكقوله :

بالشَّذْقميَّاتِ العتَاقِ كأنَّما أشْباحُها بَيْنَ الإكامِ إكام[٣]

ومن ذلك ما ذكرته في النسب في فصل من كتاب وهو :

« لهمْ نَسَبٌ لا تدخلُه لامُ التَّعريف ، وهُوَ موضوعٌ لا يجرى على سَنَنِ التَّوقيف ، فإذا ذُكِرَ أوَّلُه وَقفْتَ من عِرْفانه على طَلَل ، وَوَجَدْتَه مُهْمَلا فى جُمْلةِ الْهَمَل ، وإنْ قيل : إنَّه من نجومِ السَّماء ، قُلْت . لكنَّه لا يخرُجُ عن الثَّوْرِ أوْ الحَمَل ، فما أرْهفَ لوصْفِه لِسَانٌ إلا نبَا ، ولا اقتدحَ له زِنَاد خاطر إلا كَبَا ، وهمْ منه كآوَى الَّذى يرَى النَّاسُ له ابْناً ، ولا يَرَوْنَ لابْنِه أبَا » .

وهذا مِنْ أغْرَب ما يُؤْتى بهِ فى ذمِّ النَّسَب ، وهوَ من باب توليدِ

---

(١) النقاد جمع نقد جنس من الغنم قبيح الشكل .
(٢) ديوان أبى تمام ٦٠ والنانة الطموح التى ترفع يديها فى السير .
(٣) ديوان أبي تمام ٢٨ ، والشذقيات يراد بها النوق الكرام ، والإكام التلال .

المعانى الذى يُسَمَّى الـكِيمِيَاء ، وبعْضُهُ مُسْتَوْلد من قول أبى نواسٍ فى هِجَاءِ الْخصِيب [١] :

وَمَا خُـبْزُه إلا كَآوَى يُرَى ابنُه ‏ ‏ ولمْ يُرَ آوَى فى حُزُونٍ وَلاَ سَهْلِ [٢]

فأبو نُواسٍ ذَمَّ خبزَ [٣] الخصيب فى عدم رُؤْيَتِه ، وأنا نقلتُ ذلكَ إلى النَّسَب ، فجاءَ أَلطفَ وأَحسَنَ وَأَلْيَقَ ، وأَدْخَلَ فى بابِ الصَّنعة . وإذا حُقِّقَ النظرُ فيما ذكره أبو نواسٍ فى هذا المعنى لم يوجَدْ مناسِبًا ، فإن الخبز [٣] فى عدم رُؤْيته لا يُحْمَلُ على ابن آوَى . وإنّما المناسبةُ تقعُ فى النَّسَب من أجلِ ذِكْرِ الابنِ والأبِ .

ومن ذلك ما ذكرته فى ذم قوم وهو فصل من كتاب فقلت :

« تركت قوماً لم يَنْقَعُوا صَدًى ، ولم يَبْرُوا إلى مَدًى ، فأَعْرَاضُهُمْ نـكرة العارفِ ، وأموَالُهمْ حنظلة النَّاقفِ ، ولا تُمْطِرُ سُحُبُهُمْ على كثرة مائها ، ولا تَرَكُوا الزَّرِيعَةَ بأَرْضِهِمْ على نمَائها » .

وبعض هذا المعنى مأخوذٌ من شِعْرِ الشَّرِيفِ الرَّضِيّ [٤] .

تَرَكْتُ أُنَاسًا لَمْ يَهُشُّوا لِمنَّةٍ ‏ ‏ وَلَمْ ينقعُوا غُلَّ الظّاء الحوامِسِ

(١) هكذا روى ابن الأثير ، والذى فى ديوان أبي نواس (ص ١٧١) أن هذا الشعر هجابه إسماعيل بن أبى سهل بن نوبخت . وقبل هذا البيت :

على خبز إسماعيل واقية البخل ‏ ‏ فقد حل فى دار الأمان من الأكل

وبعده :

وما خبزه إلا كعنقاء مغرب ‏ ‏ تصور فى بسط الملوك وفى المثل

(٢) فى الأصل «وما خبره» بالراء ، وهو تصحيف .

(٣) فى الأصل « خبر » بالراء ، وهو تصحيف .

(٤) هو أبو الحسن محمد بن الحسين الرضى العلوى الموسوى ، نقيب أشراف بغداد ، وأشعر بنى هاشم ، توفى سنة ٤٠٦ هـ عن خمس وأربعين سنة .

عَلى القُرْبِ فيهمْ إنَّنى غيرُ طَامعٍ   ومنكَ عَلى بُعْدِ المَدَى غيرُ آيِسِ

ومن هذا الباب أيضا قولى وهو

« تَركتُ قوماً يَسْلُون الحبيب ، ويمَلُّونَ القَرِيب ، ولاَ يَرْعَوْنَ مَنْ يَرْعَاهُمْ ، ولا يَدِرُّ اللَّبَنُ على مَرْعَاهُمْ . فَنوَا لُهُمْ تَحَايَا ، وَأَغْرَاضُهُمْ ضَحَايَا ، ومِنْ أَحْسَنِ صِفَاتِهم أَنَّهم يعاقبونَ على الظِّنَّة ، ولا يَرْتاحُونَ لِمِنَّة ، فالذَّرائعُ لديهم مَدْفُونة ، والصَّنائعُ غيرُ مَسْنُونة » .

وبعضُ هذه المعانى مأخوذٌ من شِعْرِ أَبى الطَّيِّب المتنبِّى (١) :

رَأَيتكُمْ لايَصُونَ العِرْضَ جارُكُمْ   وَلاَ يَدِرُّ عَلى مَرْعَاكُمُ اللَّبَنُ
جَزَاءُ كلِّ قَرِيبٍ مِنْكُم مَلَلٌ   وَحَظُّ كلِّ مُحِبٍّ مِنْكُم ضَغَنُ

ومن ذلك ما ذكرته فى الحث على الاغتراب وهو :

« لولاَ التَّغرُّبُ مَا ارْتَقَتْ بَنَاتُ الأَصْدَافِ إلى شَرَفِ الأعْناق ، ولا ارْتَقى تُرابُ الأحجارِ إلى نُورِ الأَحْدَاق » .

وكذلك قولى فى هذا المعنى وهو :

« فى الانتقال تنويهٌ لحامل الأقْدَار ، ولولا ذلك لم يُكْسَ الهلالُ حُلَّةَ الأبدار ، والمَنْدَلُ الرَّطْبُ حَطَبٌ فى أوطانِه ، والمِسْكُ دَمٌ فى سُرَرِ غِزْلانه ، ولولا فراقُ السَّهْمِ وَتَرَهُ لم يَحْظَ بفضْلِ الإصابَة ، ولولا فراقُ الوَشِيجِ (٢) منبِتَه لم يتحلَّ بعزِّ اللِّسَانِ ولا شَرَفِ الذُّؤَابة » .

---

(١) ديوان المتنبى ٤/٢٣٦ من قصيدته التى مطلعها :
بم التعلل ؟ لا أهل ولا وطن   ولا نديم ولا كأس ولا سكن
(٢) الوشيج : شجر الرماح .

وهذا الفصلُ فصلٌ من القول في مَعْنَاه ، وممَّا لم يُنْبَشْ للخواطرِ ابتناءُ مَبْنَاه ، فمنه ما هو مأخوذٌ من الشِّعْر ، ومنه ما سَنَحَ به الخاطرُ على غير مثال ، وهو يشهدُ لنفسِه .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الأيام وهو :

«أيامٌ تعدُّ بأعوامٍ لِقِصَرِ أعمَارِها ، وشُهُورٌ لايشْعَرُ بأنْصَافِها ولا سِرَارِها[1] فالأوقات بها أصائِل ، والمحاسِنُ فيها شَمَائِل ، والمـآرِب في سَاعاتها رياضٌ في خمائل ، فما أدْرِي أهِي خيالاتُ أحلامٍ غرَّتْ ، أمْ أحاديث أمانٍ مرَّتْ ؟ »

وبعضُ هذا المعنى مأخوذ من أبياتِ الحماسة[2] :

شُهُورٌ يَنْقَضِينَ وما شعَرْنَا ... بأنصافٍ لهنَّ ولا سِرَارِ

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الإخوان وهو :

« ليسَ الصديقُ من عَدَّ سَقطَاتِ قرينِه . وجازَاهُ بغثِّه وسمِينِه ، بل الصديقُ من مَاشَى أخاهُ على عَرَجِه ، واستقام له على عِوَجِه ، فذلكَ الذى إنْ رأى سيئةً وَطِئها بالقَدَم ، وإنْ رَأى حَسَنَةً رَفعَهَا على عَلَم » .

وبعضُ هذا المعنى مأخوذٌ من أبياتِ الحماسة[3] .

إنْ يَسْمَعُوا ريبَةً طَارُوا بها فرحاً ... عَنِّي ومَا سَمِعُوا مِنْ صَالحٍ دَفَنُوا

---

(١) السرار من الشهر آخر ليلة منه .

(٢) ديوان الحماسة ٢/٦٦

(٣) ديوان الحماسة ٢/١٧٩ ونسبه لقعنب بن أم صاحب ، وهو شاعر إسلامى كان فى أيام الوليد بن عبد الملك .

إلَّا أنَّ الذى ذكرته ضِدُّ هذا المعنى ، وقد يُستخرَجُ المعنى من ضِدِّه ، وهو أحسَنُ مما يستخرَجُ من نفسه .

ومن هذا قولى أيضاً وهو :

« ليسَ الصديقُ من صرّى[1] أخلاقَ وُدِّه ، وغَشَّ فى صَفْقَةِ عهده ، بل الصديقُ مَنْ لا تُرَدُّ سِلْعَةُ وُدِّه بإقالةٍ ولا عَيْب ، ولا تَخُصُّ محافظةُ إخائِه بِشَهادَةٍ دُون غَيْب . فذلكَ أخى من غيرِ نَسَب وكَنْزى من غير نَشَب[2] »

وهذا مأخوذٌ من الفِقْه فى تَصْرِيَةِ ضَرْعِ الشَّاةِ عند البيعِ ، وذلك يُوجِبُ الرَّد .

ومما ينتظم بهذا السلك قولى وهو :

« الانتقال عن خِلَّةِ الوَاد كالانتقال عن نَسَبِ الميلاد ، وكما يَحْرُم هذا فى نصِّ الحكْم المشْرُوع ، فكذا يَحْرُم هذا فى خُلُق الكَرَم المطْبُوع ، على أنَّ نَسَب الخلَّة الذى يَنمِيهِ القلبُ إلى القلْب ، أوْصَلُ من نسَبِ الرَّحِمِ الَّذِى يَنمِيه الابْنُ إلى الأب ، ولهذا كانتْ مودَّةُ سَلْمَانَ[3] قُرْبى ، ونَسَبُ أبى لهب سَبًّا وَتَبًّا » .

وبعضُ هذا مأخوذٌ من شعر أبى نُوَاسٍ ، وهو :

كانتْ مودَّةُ سَلْمَانٍ لهُ نَسَبًا ولمْ يَكُنْ بَيْنَ نُوحٍ وابْنِه رَحِمُ[2] ؟

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف الديار وهو :

« دارٌ كانتْ مَقاصِرَ جَنَّة ، فأصبحَتْ وهىَ ملاعبُ جِنَّة ، ولَقَدْ عَمِيَتْ

---

(١) صرى الشاة تصرية إذا لم يحلبها أياماً ، حتى يجتمع اللبن فى ضرعها ، والشاة مصراة .
(٢) النشب بفتحتين المال والعقار . (٣) يقصد سلمان الفارسى .

أخبارُ قُطَّانِها ، وأنشاز أوطانها ، حتى شابهتْ إحداهما فى الخفاء الاخرى فى العَفاء ، وكنتُ أظنُّ أنها لا تُسقى بعدهُم بغمام ، ولا يُرفعُ عنها جِلْبابُ ظلام ، غيرَ أنَّ السَّحابَ بكاهُمْ فجرتْ بها سَوافحُ دُمُوعِه ، والليلُ شَقَّ عليهمْ ثوْبَه ، فظهرَ الصَّباحُ من خِلال صُدُوعِه » .

وهذه معان لطيفةٌ جدا ، وبعضُها مأخوذ من شعْرِ الشريفِ الرَّضِى ، رحمهُ الله تعالى :

أمَرَابعَ الغِزْلانِ غيَّرَكِ البِلَى ... حتَّى غدَوْتِ مَرَاتعَ الغِزْلانِ

ومما يلتئم بهذا المعنى قولى أيضا ، وهو :

« دارٌ أصبحتْ مَرَاتِعَ أذْوَاد ، بعْد أنْ كانتْ مناجِعَ رُوَّاد ، فلوْ تصوَّرْتَ الآمالَ التى مَثلتْ بِفِنائِها ، كما تصوَّرْتَ الآثارَ الماثلة من بنائِها ، لرأيْتَ رسُومَها مَعَ رُسُوم القِباب ، وعلمْتَ كَمْ غارَ بها من بَحْرٍ ، ونَضَبَ من سَحَاب » .

وهذا معنًى حسَنٌ ، له من نفسهِ مُثْنٍ وَحَامِد ، ومِنْ سَامِعِه يمينٌ وشَاهِد ، وهُوَ من معانِيَّ المستَخْرَجَةِ .

ومن ذلك قولى أيضا ، وهو :

« النقصُ مُوَكَّلٌ بكَمالِ النَّعْماء ، ولذلكَ كان الوَخْمُ مُقْتَرِنًا بالمَرْعَى والماء ، وقلَّما ترَى ثَمرةً إلا وَمَعَها زُنبُور ، ولا لَذَّةً إلا وَإلى جانِبِها شىءٌ مَحْذُور » .

وكذلك قولي أيضا ، وهو :

« لا يظفرُ الرَّجُلَ بمَطالبه شَفْعًا ، ولا تُؤْتيه مِنْ كلِّ جهةٍ نَفعًا ، بل يَرَى مَرْعًى بلا مَاء وماءً بِلاَ مَرْعًى ، ولذلكَ كانتْ النَّخلةَ مع الشهْدَة ، والشَّوْكةَ مَعَ الوَرْدَة » .

وبعضُ هذهِ المعانى مأخوذٌ من قول أبى تمَّام :

أَرْضٌ بها عُشْبٌ زاكٍ ولَيْسَ بهَا ماء وأُخرى بها مَاء ولا عُشُبُ (١)

إلا أنَّ فى الكلامِ المنثُورِ زيادةً على ما تضمَّنَه الشِّعر ، وكأنَّه ينظرُ إليه نظراً بعيداً .

ومِنْ سَبيل المتصدِّى لهذا الفَنِّ أنْ يأخذَ المعنى من الشّعر ، فيجعَله مِثْل الإكسيرِ فى صِنَاعَةِ الكيمِيَاء ، ثم يُخرِجُ مِنْهُ ألواناً مختلفةً من جَوْهرٍ وذهب وفِضَّة ، كما فعلتُ فِي هَذا الموضِعِ ، فإنِّى أخذتُ معنى هذا البيتِ من الشّعْر ، فاستَخْرَجْتُ منه ما ليسَ مِنْه ، وهذا أعلى الدَّرجاتِ فى نثر المعانِى الشّعْريَّة .

وقد بسطتُ القوْلَ فى هذا الموضِع ، وكشفتُ عن دفائنِه فى الكِتاب الذى وَسَمْتُه : (الوَشْيِ المرْقُوم ، فى حَل المَنْظُوم) ، وهو كتابٌ مفردٌ لهذا الفنِّ خاصَّة .

ومن هذا الضرب الذى هو الكيمياء فى توليد المعانى ما ذكرته فى وصف الربيع فقلت :

«فصلُ الرَّبيعِ هو أَحَدُ ميزَانىْ عَامِه ، والمُسْتَفِيدُ لِسَامِه مِنْ حَامِه ، وقد

(١) ديوان أبى تمام ٥٠ ورواية الديوان « أرض بها عشب جرف وليس بها » والجرف ماجرفته السيول وأكلته من الأرض .

وُصِفَ بأنه ميعاد نُطق الأطيار ، ومِيلادُ أجِنَّةِ الأزهار ، والذى تستوفى به حَوْلَها سُلافَةُ العُقار ، فإذا سَلَّت السُّحُبُ فيه سُيُوفَها ، كان ذلك للرِّضا لا للغضب ، وإذا خلعَتْ على الأرضِ غُلالَتَها الدَّكْنَاء لبِسَتْ مِنْها دِيباجَ مَنْسُوجَةً بالذهب » .

وهذا المعنى مُسْتَوْلَدٌ من قول أبى تَمَّام فى وَصْفِ السَّحاب :

سَلَبَتْهُ الجَنُوبُ والدِّينَ والدُّنْـ ـيا وَصَافِى الحَياةِ فِى سَلَبِه[1]

إلا أنَّ فى الذى ذكرتَه مَعْنَيَيْن غَرِيبَيْن ، إذا أمْعَنَ النَّاظِرُ نظرهُ فهِمَهما .

ومن ذلك ما ذكرته فى لين القول وإعادته ، وما يجرى مجراه ، كقولى فى فصل من كتاب ، وهو :

لَمْ أُعِدْ عليه القولَ لأنه لا يَبْلُغ مَدَى مَيْدانِه ، إلا بتحريكِ سَوْطِه وعِنَانِه ، بل أخَذَ بأدَبِ اللهِ فى أذكار القرآن ، واتِّباعًا لسُنَّةِ نبيِّه صلى الله عليه وسلم فى تثويب الأذان[2] » .

وبعضُ هذا مأخوذٌ من شعرِ أبى تمَّام :

لوْ رَأَيْنا التَّأْكِيدَ خُطَّةَ عَجْزٍ ما شَفَعْنا الأذانَ بالتَّثْوِيبِ[3]

وكذلك قولى أيضا ، وهو :

« عَلِمَ أنَّ لِينَ القَوْلِ أنْجَعُ قَبُولًا ، وهو من أدب كليم اللهِ إذ بعثه

(١) ديوان أبى تمام ٥٢ والذى فى الديوان :

قد جلبته الجنوب فالدين والدنـ يا وصافى الحياة من جلبه

وهو من قصيدة يمدح بها أبا الحسن محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمى ، ومطلعها :

إن بكاء فى الربع من أربه فشايعا مغـرماً على طربه

(٢) التثويب فى أذان الفجر أن يقول المؤذن « الصلاة خير من النوم » .

(٣) ديوان أبى تمام ٣٨ ورواية الديوان « التوكيد » بالواو ، ومن معانى التثويب الترديد .

إلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ، ألاَ تَرَى أن الحُدَاءَ يَبْلُغ من المطايا بلُطفِه ، مالاَ يَبْلُغه السَّوْط على عُنفِه » .

وبعضُ هذا المعنَى مأخوذٌ من شعرِ أبى تمَّام :

وَخُذْهُمْ بالرُّقَى إنَّ المَهَارَى ... يُهَيِّجُهَا عَلَى السَّيْرِ الحُدَاءُ[1]

ومن ذلك ما ذكرته فى ذم الدنيا ، وهو :

« أنْكَادُ الدُّنْيَا مَشُوبَةٌ بالأشْيَاء التى جُبِلَتْ النُّفُوسُ على حُبِّها ، وكلُّ ما تستلذّه الأبْدَانُ من مأكلِها فإنه يَضرُّهَا من جِهَةِ طِبِّها ، ولهذا يُذَمُّ من منفعةِ الهَلِيلَج[2] ، ومضرَّة اللَّوْزِينَج ، وأعجبُ من ذلكَ أنَّه لا ينْتَفِع الإنسانُ بشىء من لذاتها إلا ضرَّه من جهة ثوَابِه ، وهوَ كالَّذِى ينتفعُ باصْطِلاءِ النارِ وهى مُحْرِقَةٌ لأثوَابه ، وقد ضربَ لذلكَ مَثَلٌ من الأمثال ، وقيل : إنَّ كلَّ ما ينفعُ الكَبِدَ مُضِرٌّ بالطِّحَالِ » .

وهذا مأخوذٌ من الأمثالِ العربيَّة والمولدة

ومن ذلك ما ذكرته فى الزهد ، وهو :

الناسُ فى الدُّنيا أبناء السَّاعةِ الراهنَة ، وكما أنَّ النفوسَ لَيْسَتْ فيها بقَاطِنَة ، فكذلك الأحوالُ ليستْ بقَاطِنَة ، ولهذا كانت المآتمُ بها كالأعْراس ،

---

(٢) ديوان أبى تمام ٣٩٤ ، والرقى جمع رقية ، والحداء الغناء .

(٣) ذكره أكثر كتب اللغة باسم « الإهليلج » بفتح اللام الثانية وكسرها ، والواحدة بهاء ، ثمر منه أصفر ومنه أسود وهو البالغ النضج ، ذكر أنه يحفظ العقل ويزيل الصداع .

يَتفرّقُ نَدِيُّ جَمْعِها، فهذِهِ تَنْسَى ما مَضَى من لذّة سرُورِها، وهذه تَنسَى ما مَضَى من ألم فَجْعِها، ولا شَبِيهَ لها عَلى ذلكَ إلا الأَحْلامُ التى يَتلاَشَى خيالُهَا عَاجِلا، وتجعَلُ اليقظةُ حَقَّها باطِلا، وَمَا يَنْبغى حينئذٍ أن يُفْرَحَ بها مُقْبِلة، ولا يُؤْسَى عَلَيْها مُدْبِرةً، وكلُّ ما تراهُ العينُ منها ثمَّ يَذهَبُ فكأنَّها لم تَرَهُ، وغايَةُ مطلوبِ الإنسانِ منها أن يُمَدَّ له فى مُدَّةِ عُمُرِه، ويُمْلَى لهُ فى امْتِداد كُثْرِه، أما تعميرُهُ فيَعْتَرِضُه المَشيب الَّذِى هو عدمٌ فى وُجُود، وهو أخُو الموتِ فى كلِّ شىء إلا فى سُكْنَى اللُّحُود، فالجوارِحُ التى يُدْرِكُ بها الشَّهواتِ تُرَى وكلٌّ منها قد تَحَوَّل، وأصبحَ كالطَّلَلِ الدَّارسِ الذى ليسَ عِندَهُ مِنْ مُعَوَّل، فلا لَيْلَى بِلَيْلَى، ولا النَّوّار بالنُّوّار، ولا الأَسْماعُ أَسْماعٌ، ولا الأبصارُ أبصَار، وأمَّا مَالُه فإِنْ أَمْسَكَهُ فهوَ عُرْضَةٌ لوارثٍ يأكُلُه، أو لحادثٍ يَسْتَأْصِلُه، وإنْ أنفقَه كان عليه فى الحلالِ حساباً، وفى الحرامِ عِقَاباً، فهذِهِ زهرُ الدُّنيا الناضرَة، وهذهِ عُقْباها الخاسِرَة».

وبعض هذا المعنَى مأخوذٌ من شعرِ صَالح بن عبد القدوس:

وإذَا الجَنَازَةُ والعروسُ تلاقَيَا ... أَلفَيْتَ جَمْعًا كُلُّهُ يتفرَّقُ

ومن قولِ أبى العَتَاهية:

إنَّما أنْتَ طُولَ عُمْرِكَ ما عُمِّرْ ... تَ فى السَّاعةِ الَّتِى أَنْتَ فِيهَا

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب يتضمن تعزية، وهو:

«كيفَ يُظْلِمُ ذلكَ اللَّحْدُ وبه من أعمالِ ساكِنِه أَنْوَار؟ أَمْ كيفَ يُجْدِبُ وبه من فيضِ يمينِه سَحَابٌ مِدْرَار؟ أَمْ كيفَ تُوحِشُ أَقْطارُهُ

والملائكة داخلةٌ عليه من تلك الأقطار ؟ أم كيف يُخفيه طول العهدِ على زوّاره وطيبُ تُرابه هادٍ للزوّار ؟ وما أعلمُ ما أقولُه فى هذا الخَطْبِ الجليل ، الذى دَقّ فيه الحزنُ الجليل ، وسَمحَتْ له النفوسُ بالفِدْيَةِ على حُبّ الحياة ، وذلك من الفِداء القليل ، وقدْ قيل : إنّه لم يُخلَق الدَّمعُ إلا إنذارًا بأنّ نوائبَ الزمانِ ستَنُوب ، وقد جعلهُ الله ذُخرًا للقائها ، وإنما يُذخرُ السّلاح لِلقاء الحُروب ، والذى ذَخرْته : لم يغنِ عَنّى فى هذه النّائبةِ ، وأىّ جُنَّةٍ تقومُ فى وجهِ سهامِها الصائبة ؟ لا جَرَمَ أنّى أصبحتُ بين يَدَيْها هَدَفًا للرِّماء ، ولم يبقَ مِنّى إلى ذَمَاءَ الحُشاشَة [١] ، ومِنْ العَجَبِ بقاءُ الذماءِ » .

وشىء من هذا الفصلِ مأخوذٌ من شِعْرِ ابن الرُّومىّ :

لمْ يُخلَق الدَّمعُ لامرىءٍ عبثًا ... اللهُ أدرَى بلوْعةِ الحزَنِ [٢]

وكذلك ذكرت فصلا فى كتاب آخر بتضمن تعزية ، وهو :

« فيا وَيْحَ أيدٍ أسلَمَته إلى الثَّرَى وما كانَ يُسْلِمها إلى الإعْدام ، وألبَسَتْه ظُلمةَ اللّحدِ وطَالَمَا جلاَ عَنها غيَابَةَ الظُّلْمِ والإظْلام ، وغادَرَته بوَحْدَتِه مُسْتَوحِشًا ، وقدْ كانَ يؤْنِسُها بنَوافِلِ الأنْعام ، ومِثْلُهُ لا يُوارِى القبْرُ منه إلا صُورةً يُدْرِكُها النَّفَاد ، وتَبْلَى كما يَبْلَى غيْرُها من الأجْساد ،

---

(١) الرماء مصدر راماه مراماة ورماء ، والذماء بقية الروح فى المذبوح ، والحشاشة بقية الروح فى المريض والجريح .

(٢) ديوان ابن الرومى ٤٨٠ .

ولكنهُ لا يستطيعُ مُوَارَاةَ الذِّكْرِ الخالدِ الذى يَذْهَبُ بِشَماتَةِ الْحُسَّاد ، ويتمثَّلُ فى السماء بصورةِ الكواكبِ وفى الأرضِ بصُورَةِ الأطْوَاد » .

وبعضُ هذا مأخوذٌ من قولِ بعض شُعراء الحماسة[1] :

فإنْ تَدْفِنُوا البَكْرِىَّ لاتَدْفِنُوا اسْمَهُ ... وَلاَ تَدْفِنُوا مَعْرُوفَهُ فِى الْقَبَائِلِ[2]

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف كلام بالفصاحة ، وهو فصل من كتاب ، فقلت :

« وله البيانُ الذى يغضُّ منه نسق الفريد ، ولا يُخلِقُ نَضْرةَ لباسه الجديد ، وهُوَ فوقَ كلام المُجيد ، ودونَ القرآن المَجِيد ، وإذا اختَصر واصفه قال : إنّه يستميلُ سمعَ الطَّرُوب ، ويستحقُّ وقارَ القلوب ، ويتمثّل آياتٍ بيضاءَ ، من غير ضَمٍّ إلى الْجُيُوب ، وأن يُرَى فى الأرضِ غيرَ لاغبٍ إذا مسَّ غيرَه فَتْرَةُ اللُّغُوب . ولا تزالُ الناسُ فى عِشْقِ معانيه ضرباً واحداً والعاشقُونَ ضُرُوب ، ولما وقفتُ عليه قلتُ : سُبْحانَ من أَعْطَى سيِّدنا فلمْ يَبخلْ ، وخصَّهُ بنُبُوَّةِ البيانِ إلا أنه لم يُرْسَلْ ، ولولا أنَّ الوحىَ قد سُدَّ بابُه لقيل : هذا كتابٌ مُنزَّل . ولقد خَارَهُ الله لأُولِى الفصاحةِ إذْ لَمْ يَحْيَوْا إلى عصرِه ، ولمْ يُبْتَلَوا فيهِ بداء الحَسَدِ الذى يُصْلِيهم بتوقُّدِ جَمْرِه ، ولئن سَلِمُوا من ذلكَ فما سَلِمَتْ أقوالُهُمْ من أقواله التى مَحَتْها مَحْوَ المِدَاد ، وقد كانتْ باقية بعدَهُمْ فلما أتى صَارَتْ كما صَارُوا إلى الأَلْحَاد »

---

(١) هو أبو الشغب العبسى ، قاله فى خالد بن عبد الله القسرى لما وقع خالد أسيراً فى يد يوسف بن عمر الثقفى .

(٢) رواية ديوان الحماسة ١/٣٩١ :

فإن تسجنوا القسرى لاتسجنوا اسمه ... ولا تسجنوا معروفه فى القبائل

وفى هذا الفصل شىء من المعانى الشعرية كقول البُحترى :

مُسْتَمِيلٌ سَمْعَ الطَّرُوبِ المُعَنَّى عن أغَانِى مَعْبَدٍ وعَقِيدِ(١)

وقول الشَّريف الرَّضِىِّ — رحمه الله — :

عَشِقْتُ ومالِى ، يعلم الله ، حاجةٌ سِوَى نَظَرِى والعاشِقُونَ ضُرُوب(٢)

وفيه أيضاً شىء من معانى القرآنِ الكريم ، إلا أنها جاءت ضِمْنًا وتَبَعًا ، وموضعها يأتى بعد الأبياتِ الشعرية .

وكذلك ذكرت فصلا آخر من هذا الأسلوب ، وهو :

«وإنَّ للكلامةِ طعماً يُعْرَفُ مَذَاقَهُ من بَينِ الكلامِ ، وخفَّةُ الأرواحِ معلومة من بين ثِقْلِ الأجْسَامِ ، فلو لم نَعرِفْه بطعْمِه ، عَرَفْناه بِوَسْمِه ، والصباحُ لا يُتمارَى فى إسْفَارِه ، ولا يُفْتَقَرُ إلى دليلٍ على إشْرَاقِ أنوارِه ، وقد عُلِمَ أنَّ العِرْقَ يُعْرَفُ بِغُصْنِه ، وأنَّ القولَ يُعْرَفُ بلحنِه ، ونفائسُ هذه العُقودِ لا يُبْرِزُها إلا أنفاسُه ، فدُرَرُها لَفْظُه ، وسُلوكُها قِرْطَاسُه» .

---

(١) ديوان البحترى ٢ / ١٩٥ وهو من قصيدة يمدح بها محمد بن عبدالملك الزيات، ومطلعها :

بعض هـذا العتاب والتفنيد ليس ذم الوفاء بالمحمـود

وقد ورد الشطر الثانى فى رواية الديوان هكذا * عن أغانى مخارق وعقيد *

ومخارق هو مخارق بن يحيى بن ناوس الجزار ، مولى الرشيد ، وكان قبله لعاتكة بنت شهدة ، وهى من المغنيات المحسنات المتقدمات فى الضرب ، ونشأ فى المدينة ، وقيل كان منشؤه بالكوفة . وكان أبوه جزاراً مملوكاً ، وكان مخارق وهو صبى ينادى على ما يبيعه أبوه من اللحم، فلما بان طيب صوته علمته مولاته طرفا من الغناء ، ثم أرادت بيعه ، فاشتراه إبراهيم الموصلى منها ، وأهداه إلى الفضل بن يحيى ، فأخذه الرشيد ، ثم أعتقه .

(٢) ديوان الشريف الرضى ١ / ١١٧ طبعة الحلبى

ومن هذا الباب قولي أيضا وهو :

« ألفاظ كخَفْق البُنُود، أوْ زَأْر الأسُود ، ومعانٍ تدلُّ بإرْهَافِها أنها هي السُّيوف وأنَّ قلوباً تَمتْهَا هي الغُمُودُ ، فيخالُها المتأمِّلُ حَوْمَةَ طِعَان ، أو حَلْبَةَ رِهَان » .

وبعض هذا مأخوذ من شعرِ البحتريّ :

يَقظانَ ينتخبُ الكلامَ كأنَّه جيشٌ لَدَيْهِ يريدُ أنْ يُلْقَى بِهِ[1]

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الإخوان من أهل الكتابة كان اعتدى عليه شخص يدعي الكتابة وليس من أهلها ، فقلت :

« وقدْ نِيطَ بسيِّدنا قلمَا الخط اللذانِ يُنسَبُ أحدُهما إلى المِدَاد ، ويُنسَبُ الآخرُ إلى الصِّعَاد[2] ، فهو يُديرُ هذا في مَعْرَكةِ المَقَال ، وهذا في مَعْرَكةِ الطِّرَاد ، ولربَّما صَهَلَ أحَدُ قلميه من فوقِ صفحاتِ الدُّرُوج[3] ، كما تَصهَلُ الجيادُ من تحتِ أعوَادِ السُّرُوج ، فله احتفالُ المواطنِ والمجالس ، وإليه غَنَاء أصحابِ العمائم والقلانِس ، لا كَمَنْ لا يُجاوزُ همُّهُ طَرَفَيْ رِدائه ، وإذا نُودِيَ لفضيلةٍ قيل إنما يسمعُ الحيُّ بندائِهِ . وكمْ في الناسِ من صُوَرٍ لا تجد لمعناها أثرًا ، وإذا رأيتَها قلت أرَى خَالًا[4] ولا أرَى مَطَرًا ، وأيُّ جمالٍ

---

(١) ديوان البحتري ٢/٩٣ من قصيدة يعاتب بها إسماعيل بن شهاب .

(٢) الصعاد : الرماح .

(٣) الدروج جمع درج بفتح الدال وسكون الراء ، أو بفتحهما ، ما يكتب فيه .

(٤) الخال سحاب لا مطر فيه .

عند من ليسَ له إلا جمالُ ثيابِه ، وَهَلْ ينفعُ السيف الكَهَامَ[1] أَنْ يُجْعَلَ من الذهب حليةُ قِرَابِه . وكلٌّ من هؤلاءِ ذَنَبٌ يسعَى بغير رأس ، ولا له هَمٌّ إلا فى عيشةِ الطَّاعِمِ الكاس ، وإذا اعْتُبِرَ حالهُ وُجِدَ من البهائم وإن كانَ منسوباً إلى النَّاس ، والسيادةُ ليسَتْ فى وَشْيِ الثياب ، ولا فى طِيبِ الطعام والشراب ، وإنما هى فى شيئين : إمَّا شهامةُ قَلَمٍ تفرَقُ لها قُلُوبُ الغُمُود ، أو شهامةُ رُمْحٍ تَفْرَقُ لها قلوبُ الأُسُود . وكأنى بقومٍ يسمعُون هذا وكلهم يمتعِضُ امتعاضَ المُغْضَب ، وَيَتَتابعُ نَفَسُهُ تتابعُ المُتْعَب ، ويعترضَ الشَّجَى فِى حلقِه حتى يَغَصَّ من غيرِ أَنْ يَشْرَبَ . ولم يزل بالحسادِ من سيِّدِنا داء يُورِّثهم أرقاً ، ويُوسِعُهُمْ شَرَقاً ، وكثيرا ما تعرقُ لهم جباهُهُمْ وكذا الميت تَنْدى جَبِينُه عَرَقاً ، وما أَرَى لهؤلاءِ دَوَاءً إلا أَنْ يطرحُو عن مناكبهم ثِقْلَ المُسَاجلة ، والحَسَدُ إنَّما يكونُ ممَّن يجرى مع صاحبِه فى مِضْمار المماثلة . وكنتُ أحبُّ أن يُقامَ على الكتابةِ مُحْتَسِب حتى يَتَمَلَّس منها خلقٌ كثيرٌ ، وتستريحَ جيادٌ كثيرةٌ من رُكوبِ حمِير ، وفى مثل هذا السُّوقِ يَظْهَرُ أهل الخِلاَبَةِ والنَّجْش[2] ، وما مِنْهُمْ إلَّا من هُوَ فى الحضِيضِ الأسفلِ ، وقد أجلسَ نفسَهُ قائمة العَرْش ، ونار الآلة العُمَرِيَّة تميزُ خالصَ النقودِ من زيفِها ، ولا حَيْفَ فى هذا المقامِ على من أشرفَتْ دعواهُ الكاذبة فى حَتْفِها » .

---

(١) السيف الكهام — على وزن سحاب — الكليل الذى لاغناء فيه .

(٢) النجش أن تواطىء رجلا إذا أراد بيعاً أن تمدحه ، أو أن يريد الإنسان أن يبيع بياعة فتساومه فيها بثمن كثير ، لينظر إليك ناظر ، فيقع فيها .

وبعض هذا الفصل مأخوذ من شعرِ عبد السَّلام بن رُغبان ، عُرِفَ بِدِيكِ الجِنّ [١] :

يُزْهَى به القلمان إلّا أنَّ ذَا   لَدْنُ المَجَسّ وَأنَّ ذَا بِكُعُوبِ
عُودَانِ يَقْضِبُ ذَا الطُّلَى [٢] بلعابِهِ   ويَجُوبُ ذَا المُهَجَاتِ بالتَّرْكِيبِ

ويكفيك أيها المتوشّحُ لنثر الشعر أن تنظر إلى هذا الفصل ، وتتأمَّل الوضعَ الذى أخذتُ مَعْنَى هذين البيتين ، ووضعْتُه فيه ، فإنَّ فيه غَنَاءً وَمَقْنَعًا .

وأمَّا حلُّ آياتِ القرآن العزيز فليس كنثر المعانِى الشعريَّةِ ، لأنَّ ألفاظَه ينبغى أن يُحافَظَ عليها ، لمكانِ فَصَاحتها ، إلا أنّه لا ينبغى أن يُؤْخَذَ لفظُ الآيةِ بجُملته ، فإنَّ ذلك من باب (التَّضْمِين) ، وإنَّما يُؤْخَذُ بَعْضُه . فإمَّا أن يُجْعَلَ أولًا لكلامٍ أوْ آخِراً ، على حسب ما يَقْتضيه موضعُه ، وكذلك تفعلُ بالأخبارِ النبويَّة . على أنّه قد يؤخَذُ معنى الآيةِ والخبر ، فيُحكَى لفظاً غير لفظِهِ ، وليسَ لذلكَ من الحُسْنِ ما لِلقسْم الأوَّل ، [illegible] التى أشرْنا إليها .

وقد سلكتَ فى ذلك طريقاً اخترعتُها ، وكنتُ أنا ابنَ عذْرَتِها ،

---

(١) ديك الجن هو عبد السلام بن رغبان ، ولد فى حمص ، وديك الجن لقب له ، وكان شديد التشيع والعصبية على العرب ، وهو شاعر مجيد ، لم يبرح نواحى الشام ، وكان متشيعاً لآل البيت ، وله مراث كثيرة فى الحسين بن على ، وكان مع ذلك خليعاً ماجناً عاكفاً على اللهو والقصف ، متلافاً لما ورث عن آبائه وما اكتسبه بشعره من أحمد وجعفر ابنى على الهاشميين . توفى ديك الجن سنة ٢٣٥ هـ .

(٢) الطلى بالضم الأعناق أو أصولها جمع طلية أو طلاة بضم الطاء فيهما .

وعند تأمُّل ما أوردتهُ منها فى هذا الكتاب يظهر للمتأمِّل صحَّةَ دَعَاوِىَّ . ولئن كانَ مَنْ تقدَّمني أتى بشىء من ذلك ، فإنِّى ركبتُ فيه جوادًا وركِبَ جَملا ، ونال من مَوْرِدِهِ نَهْلةً واحدة ، ونِلتُ منه نَهلًا وعَللا .

ومن أتاهُ الله فى القرآن بَصِيرة فإنه يَنْبك ألفاظَه ومعانِيَهُ فى كلامه ، ويَسْتَغْنِي به عن غيره ، إلا أنَّه ينبغى أنْ يكونَ فيه صَوَّاغا يُخرِجُ منه ضروبَ المَصُوغات ، أو صَرَّافاً يَتجَهْبَذَ فى نقودِهِ المختلفةِ من الذَّهب المختلفِ الألوان ، ولا أقولُ من الفضَّةِ ، فإنه ليسَ فيه من الفضةِ شىء وهو أعْلَى من ذلك ، أو يكونَ فيه تاجراً يديرُه على يَدِه ، ويتصرَّفُ فى أرباحِه ، ويُخرِج من الأمتعةِ المجلوبةِ من مَنَاسِجه كلَّ غريبة عجيبة ، وكلُّ هذا يفهمهُ مَنْ عَرَفَ فلَزِم ، وحَكَمَ بما عَلِم :

وَمَا كلُّ من قالَ القَرِيضَ بِشَاعر ... ولا كلُّ مَنْ عَانى الْهوَى بمتَيَّمِ

واعلم أن المتصدَّى لحلِّ معانى القرآن يحتاجُ إلى كثرةِ الدَّرْس ، فإنه كلّما دِيمَ على دَرْسَه ظَهَر من معَانيه مالمْ يظهرْ من قبلُ .

وهذا شىء جرَّبتُه وَخَبَرْته ، فإنِّى كنتُ آخُذُ سورةَ من السُّورِ ، وأتلوهَا وكلَّما مرَّ بى معنًى أثْبَتُّهُ فى ورقةٍ مفردةٍ ، حتَّى أنتهى إلى آخرها ، ثم آخذَ فى حلِّ تلك المعانى التى أثْبتُها واحدًا بعد واحدٍ ، ولا أقنعُ بذلكَ حتَّى أعاودَ تِلاوة تلك السورة ، وأفعلَ مثلَ ما فعلتُهُ أوَّلا ، وكلما صَقَلْتُها التلاوة مرَّةُ بعد مرَّة ظهرَ فى كلِّ مرَّة من المعانى مالمْ يظهرْ فى المرَّةِ التى قبلها .

وسأوردُ فى هذا الموضعِ سورةَ من السُّوَر ، ثمَّ أُردِفُها بآيات أخرى

من سُوَرٍ متفرِّقة ، حتَّى يتبَّين لكَ أيُّها المتعلّم ما فعلتُه ، فتحذُوَ حذْوَهُ .
وقد بدأْتُ بالسُّورةِ أوَّلا ، وهى سورةُ يوسُفَ عليه السَّلام ، لأنَّها قِصَّةٌ مفردةٌ برأسِها ، وفيها معان كثيرة .

فالأول ما ذكرته فى دعاء كتاب من الكتب ، وهو :

« وصلَ كتابُ الحضْرَةِ السَّامية ، أحْسَنَ اللهُ أثَرَهَا ، وأعْلَى خطَرَها ، وقَضَى من العَلْيَاء وَطَرَهَا ، وأظهرَ على يدِها آياتِ المكارمِ وسُوَرَها ، وأسْجَدَ لها كواكبَ السِّيادَةِ وشمسَها وقمرَهَا » .
وهذا أولُ معنًى فى السّورة ، وقد نقلتُه عن قصّةِ المنامِ إلى الدُّعاء .

ثم أبرزت هذا المعنى فى صورة أخرى ، وهو :

« أكرمُ النِّعم ما كانَ فيها ذِكْرَى للعابدين ، وتقدَّمه أنِّى رَأَيْتُ أحَدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهمْ لى ساجدين ، فهذه النعمةَ هى التى تأتى بتيسيرِ العَسِيرِ ، وتجلو ظلمَةَ الخَطْبِ بالصباحِ المُنير ، فانظرْ إلى آثارِ رحمةِ اللهِ كيفَ يُحْيِي الأرْضَ بعدَ مَوْتِها ، إنَّ ذلك لَمُحْيِي الْموْتَى ، وَهُوَ على كل شيءٍ قدير » .

ثم تصرفت فى هذا المعنى ، فأخرجته فى معرض آخر ، وهو فصل من جملة تقليد يكتب من ديوان الخلافة لبعض الوزراء ، فقلت :

وقد علمه أميرُ المؤمنينَ ، فأدْنَى مجلسَه من سَمائه ، وآنسَهُ على وَحْدة الانفرادِ بِحَفْلِ نِسْمائه ، ورفعَهُ حتى ودَّتْ الشمسُ لو كانتْ من أترَابه ، والقمرُ

لو كانَ من نُدَمَائه ، وذلكَ مقامٌ لا تستطيعُ الجدودُ أن ترقَى إلى رُتبتِهِ ، ولا الآمالُ أن تطوفَ حولَ كَعبتِه ، ولا الشفاهُ أن تتشرَّف بتقبيلِ تُرْبتِه . فليزدْ إعجاباً بما نالته مواطئُ أقدَامِه ، ولينظرْ إلى سُجُودِ الكواكب له فى يقظتِه لا فى منامِه » .

ومن ذلك ما ذكرته فى ذم بخيل ، وهو :

« لم أرَ كمواهبِ فلانٍ ملأت أملِي بطمعِ وُعُودِها ، وفرغتْ يدِى من نَيْلِ جُودِهَا ، فلم أحظَ إلا بلامعِ سَرَابِها ، وكانتْ كدمِ القَمِيص فى كِذَابِها » .

ومن ذلك ما ذكرته فى تزكية إنسان مما رمى به ، وهو :

« لم تُرْمَ مذنبٍ إلا نابتْ البراءةَ له منَابَ الشُّهود ، وَجيءَ من أهلِها بشَهادة القميص المَقدُود » .

ومن ذلك ما ذكرته فى عذر الهوى ، وهو :

« لم يَهْوَ حبيباً إلا كانَ لأهل التُّقَى فيه أُسْوَة ، وَلاَ لِيمَ من أجله إلا اعْتذَر عذرَ امرأةِ العزيزِ إلى النِّسوة » .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من جواب كتاب إلى بعض الإخوان ، وهو :

« إن كانَ الكلامُ كما قيلَ ذَكَراً والجوابُ أُنثَى ، فجوابى هذا عروسٌ تُجْلى فى حُلَلِها المحبَّرة ، وعُقُودِها المشذَّرة ، وتُزْهَى بما آتاها اللهُ من

الحُسْنِ الذى ليسَ بالمجلوب ، ولا ترْضَى بتقطيعِ الأيدى دونَ تقطيع القلوب .
وها قدْ أرسلْتها إلى سيِّدنا ، حتى يعلمَ أن نتائج خاطرِى على الفِطْرَة ، وأنَّها معشوقةَ الصُّورة ، وَكل الناسِ فى هواها بنو عُذْرَة » .

وفى هذا الفصلِ معنَى الآية والخبر النبوىّ والبيتِ من الشِّعر .

ومن ذلك ماذكرت فى تقلب الأيام ، وهو :

« لقينا أيَّامًا ضاحكاتٍ . وَلِيتْها أيامٌ عابسَات . فكانتْ كسَبْعِ سُنْبُلات خُضْر وَأُخَرَ يابسَات » .

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف كريم ، وهو :

« ليسَ ممّن يرقُبُ عجفَ الزمَان ، فيذرُ الحَبَّ فى سُنبله ، ولكنّه يستأنفُ الصَّبر فى آخره ، وَيستهلك المالَ فى أوَّلِه ، فلا يُبْقِي من يومه لغَدِه ، ولا يُتَّهم ربَّهُ فيما بيده » .

ومن ذلك ما ذكرته فى مدح الرشوة ، وهو :

« الرِّشوَةَ تحلُّ عُقَدَ القلوبَ ، وتهون فراقَ المحبُوب . ألا ترَى أن رَدَّ البضاعَة حكم على أخِى يُوسُفَ بالإضاعة ؟ » .

ومن ذلك ما ذكرته فى الاستسلام لحكم الأقدار ، وهو :

« لا تحترسْ من جُنود الأقدارِ بالآراء المتعمِّقة ، وسواءٌ عندها الباب الواحد والأبوابُ المتفرِّقة »

ومن ذلك ما ذكرته فى تتابع الإساءة ، وهو :

« لم يزلْ يَرْشُقنى بقوارصِه حتى تكاثر النَّبل ، واستَحكَم التَّبل[١] ، ولم يكفه الإلقاء فى غيابة الجُبّ حتى قال : إنْ يَسْرِقْ فقد سَرَقَ أخٌ له من قَبل » .

ومن ذلك ماذكرته فى التوكل ، وهو :

« إذا طَلَبَ أمراً أجملَ فى المطلوب ، وَوَكله إلى الذى بيده مفاتيحُ الغُيُوب ، وتأسَّى فى حاجته منه بالحاجةِ التى كانتْ فى نَفْسِ يَعْقُوب » .

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف الكبر ، وهو :

« لم يأت أمراً إلا أخْفَى أسبابَ أَوَاخِيه ، وبدأ فيه بالأوْعِيَةِ قَبْلَ وِعاء أخيه » .

وهذه ثلاثةَ عَشَرَ معنًى من سورة يُوسُفَ عليه السلام .

وأمّا الآياتُ التى هى من سُوَرٍ متفرّقة فأوّلها ما كتبتُه فى صَدْرِ كتابٍ إلى بعض الإخوانِ جواباً على كتابِهِ وهو : « وَرَدَ كتابُه عشيَّةَ يوم كذا فَعُرِض علىّ عَرْضَ الجيادِ على سُلَيمانَ ، وتساوينا فى الاشتغالِ منه ومنها بالاستحسان ، غير أنَّ الجيادَ وإن حَسُنَتْ فإنّها لاتبلُغ فى الحُسْنِ مبلغَ الكتاب ، لكنْ قلت كما قال : إنى أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عن ذِكرِ ربّى حتى توارتْ بالحجاب . ولئن قضَى الاشتغالُ هناكَ بمسحِ سُوقٍ وأعناق ، فإنَّه لم يقْضِ

(١) من معانى التبل العداوة ، والذحل ، والإسقام ، وتبله ذهب بعقله ، وتبل الدهر القوم رماهم بصروفه وأفناهم ، وكل هذه المعانى تصح .

هاهنا بمسحِ سُطورٍ ولا أوراق ، وإنما اشتغلتُ عنْ عِبادةٍ بعبادةٍ ، ولو شِئْتُ لقلتُ : عن إفادةٍ بإفادةٍ » .

وهذا مأخوذٌ من قصَّة سليمانَ عليه السلامُ فى سورة (ص) وهِىَ قوله تعالى : « وَوَهَبْنَا لداودَ سليمانَ نعْمَ العبدُ إنَّه أوَّاب * إذْ عُرِضَ عليه بالعَشِيِّ الصافناتُ الجيادُ * فقَالَ إنى أحْبَبْتُ حُبَّ الخيرِ عن ذكْرِ رَبِّى حتى توارتْ بالحجابِ * رُدُّوهَا علىَّ فطَفِقَ مَسْحًا بالسُّوقِ والأعْنَاق [1] » .

فانظر كيفَ أخذتُ هـذه القصَّةَ، وقابلتُ بينها وبين الكِتَاب ، ثم إنِّى تصرَّفتُ فيها بالموافقةِ بينهما تارة ، والمخالفةِ بينهما أُخْرَى .

وهكذا ينبغى أن يُفعل فيما هذا سبيله .

ومن ذلك ما كتبته عن الملك الأفضل على بن يوسف

إلى الديوان العزيز النبوىِّ ببغدادَ فى فصلٍ من كتاب ، وهو :

« وقد علم أنَّ المالَ الذى يُختزَن كالماء الذى يُختقن . فكما أن هذا يأْجَنُ بتعطيل الأيدى عن امْتياحِ مشاربه ، فكذلكَ يأْجَنُ هذا بتعطيل الأيدى عن امْتياحِ مواهبه ، وأىُّ فرقٍ بين وجودِه وعدَمه لولا أنْ تملكَ به القلوب ، وتقلّ به الخطوب، ويُرْكَبُ به ظهرُ العزْمِ الذى ليسَ بِرَكُوب . ومن بَسط اللهُ يده فيه ، ثم قبضها بخله ، فإنَّه يقفُ دون الرجال مغموراً ، ويقعُدُ عن نَيْلِ المعالى مَلُومًا محسوراً ، وإذا أدركَتْهُ مَنِيَّةٌ مضَى وكأنَّه لم يكنْ شيئاً مذكوراً .
ومذ ناطَ الله بيد الخادم ما ناطَهُ من أمرِ بلاده لم يدَّخر منها إلا مَرْبطَ أشقَرِ

(١) سورة ص : الآيات ٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣ .

ومركز أشقره[١] . وما عداها فإنه مصروف إلى قوة الإسلام فى سد ثغوره ، وتكثير جنوده ، وإيقاد حرب عدوه بعد خمودها ، واستباحة جمرها عند وقوده ، وما يفضل عن ذلك فإنه للناس يشتركون فى وشله وغمره[٢] ، والمسلم أخو المسلم يساويه فى حقه من بيت المال ، وإن خالفه فى مزية قدره ، ولا سبيل على هذا الخادم وهو يفعل ما يفعله أن يدلس من هذا المال بتبعة المطلوب ، أو يلتحق بالقوم الذين يكنزونه فيجزى عليه بكى الجباه والظهور والجنوب . ولم يأت به الله على فترة من مثله إلا ليمحو به سيئات الدين ، ويعيد به الإسلام إلى وطنه بعد أن طال عهده بمفارقة الوطن ، ولا يكون حسنة من حسنات أمير المؤمنين ترفعها الدنيا فى ديوانه ، وتثقل بها فى الآخرة كفة ميزانه » .

فى هذا الفصل معنى آيتين ، إحداهما : فى سورة « هل أتى » والأخرى فى سورة « براءة » .

ومن ذلك ما كتبته عنه :

إلى عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب من كتاب يتضمن استعطافه والتنصل إليه ، وهو :

« من شيمة الأقدار أن تذهب ببصائر ذوى الألباب ، وتمثل لهم الخطأ

(١) المراد بالأشقر الفرس وبالأسمر الرمح .
(٢) الوشل الماء القليل ، والغمر الماء الكثير .

فى مثال الصواب ، ولولا ذلكَ لما زلَّ الحكيم ، واعوجَّ المستقيم والملوك يقبِّل اليدَ الكريمةَ المَوْلَوِيَّةِ الملكيَّة العادليَّة ، لا زالَ عُرْفها مأمولا و إحسانها عندَ اللهِ مقبولا ، وفعلُها فى المكرماتِ مبتدعاً إذا كان فِعْلُ الأيادِى مفعولا ونَستغيثُ إلى عَفْوها الذى يكفى فيهِ لفظةَ الاعْتذار . ولا ينفد بمواظبة الإصرار . ولو عَرَفَ ذَنبه بادياً لقرعَ له سِنَّ الندامَة ، وعادَ على نفسه بالملامَة ، وما كانَ عَجيباً أن يكونَ مُليما(١) ، وأن يكونَ مولانا كريماً لكنه حَمَلَ إصرَةَ الذَّنب وهو برىء مِن حَمْلها ، وخافَ أن تكونَ هذهِ كأخَواتها التى سَلَفَتْ من قبلها . و الأمورُ المتشابهةَ يقاسُ البعضُ منها على البعْضِ ، والملسوعُ لا يستطيعُ أن يرَى مجرَّ حَبْلٍ على الأرْض . ولم يَجتَرِمِ الملوكَ الآنَ جريمة سِوَى أن فرَّ إلى الاعتصام ، وألقى بيدِهِ إلى أقوامٍ لم يكونُوا له بأقوام ، وإذا ضاقَ على المرء أقربُه كان الأبْعَد له من ذوى الأرحام ، وليسَ بأوَّلِ مَنْ ذَهَبَ هذا من المذهب ، ولا بأوّل من حَمَلَ نفسَه على رُكوبِ هذا المركَب . ولئن قال بعضُ الناسِ : إنه عجَّل فى اعتصامه وفِرَاره ، وأنه لَوْ صَبَرَ لحمد مَغَبَّةَ اصطِباره ، فهذا قولُ من لم يعرِفْ حالَ المملوك فيقيمَ لهُ عذراً ، ولا ابتلى بما ابتُلِى به من قوارضِ مولانا مرَّةً بعد أُخرَى . ولقد تكاثَرَتْ عليه هذه الأقوالُ المؤنبة حتى ملأ طَرْفَه كَحلُ السُّهاد ، وَجَنْبَه شَوكُ القَتَاد . وأصبحَ وهو يرَى أنه زَلِقَ فى خَطيئته زَلقاً ، وغَصَّ بندمه من أجلِها

---

(١) المليم الداخل فى الملامة .

شَرَقًا ، وبدتْ لهُ سَوْأَتَه حتى طَفِقَ يَخصِفَ عليها وَرَقًا[1] . ومع هذا فإنه واثقٌ أنْ حِلْم مولانا لا يُؤْتى من الزَّلَلِ ، وأن حَصَاةَ الذُّنوب لا تخفُّ بوزن ذلك الجبل ، وها هو قد جاء نازِعًا ، وللنَّازِعِ المُعْتَبى ، وعاد مُسْتَشْفِعًا ، ولا شَفِيعَ أكرمُ من القُرْبَى » .

ثم مضيت على النَّهجِ إلى آخر الكتاب .

وفى الذى أوردْتَه من هذا الفصلِ معنى آيةٍ من القرآنِ فى سُورَةِ « الأعراف » وهى قوله تعالى : « بَدَتْ لهمَا سَوْءَاتُهما وطَفِقَا يَخصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ[2] » .

ومن ذلك ما كتبته عن الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان بن مسعود صاحب الموصل .

إلى الديوان العزيز ببغدادَ بعد وفاةِ والدهِ يَسألُ فِى التَّقْليد ، وكانَ عُمْرُهُ إذ ذاك ستَّ عَشْرَةَ سنة .

فمَّا جاء فى صدر الكتابِ بعدَ الدُّعاء قولِى ، وهو :

« إذا تُوُفِّىَ ولىٌّ من أولياء الدَّولة فمن السُّنَّة أن يعزَّى بفقْده ، ويُسْتَخرَجَ إذْنُها فى سَلِيلِه القائم من بعدِهِ ، حتى لا تخلوَ أرضُها من رواسى الجبال ، ولاسماؤها من مَطالع الكواكب التى تجلُو ظُلْمَةَ الليال ، وقد مضى

---

(١) يجعل على عورته ورقة فوق ورقة ، ليستتر بها ، كما تخصف النعل .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٢ ، وفى الأصل «فبدت» وصحة الآية « فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما .. »

وَالِدُ العَبْدِ إلى رحمةِ اللهِ ، وهوَ متزوِّدٌ من الطاعة خيرَ زاد ، غير خائف من إحصاءِ الرَّقيبِ العَتِيد إذْ جَعَلها لهُ من العَتاد ، وما عليْه وقدْ ثقلتْ كِفَّة مِيزَانِه ما كانَ فى الـكِفَّةِ الأخرَى من السِّجلاَّت الـكثيرة الأعْدَاد ، ومضمونُ وصيَّتِه التى عهِدْتُها أن نَمْشِيَ فى الطَّاعةِ على أثرِه ، ونَهْتَدِىَ بالأوامرِ الشَّريفةِ فى مَوْرِد الأمْرِ ومَصْدَرِه ، وقد جاءها العَبْدُ نجىَّ فـكرِه إذا قامَ وإذا قعد ، وسُبحة صلاته إذا رَكَع وإذا سَجَد ، وهو يرَى أنّه لم يَمْضِ والده حتى أبقَى للدَّوْلَةِ مَنْ يُثَبِّتُ قدمَه موضعَ قَدَمِه ، وعند ذَلكَ يُقال إنَّ غُصْنَ الشجرةِ كالشَّجرةِ فى ثبَاتِ أصْلِه ، وقُوَّةِ مَغْجَمه . وهذا مقامٌ لا تَمْتَازَ فيهِ الآباء عن الأبْناء ، وليستِ المزيَّةَ لاكْتهالِ السنْ إنما هى لشَبيبَةِ الغَنَاء . وقدْ أوتِىَ يَحْيَى الحُـكْمَ قبلَ أن يَجْرِى القلمُ فى كتابه ، وشَهِدَ له بالتَّزْكية قبل أن يَنْتَصِبَ فى مِحْرَابِه ، وكذلكَ قد أمرَّ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أسَامَةَ على فَتاءِ عُمرِه ، وشَهِدَ أنّه خليقٌ بمـا أسْنَدَ إليه من أمْرِه ، والعبدُ وإن بَسَطَ الاستحقاقُ لِسانَه ، فإنَّ الادبَ يَحْـكُم بانقباضِه ، ويُرِيه أنَّ التفويضَ إلى إنعام الديوانِ العزيزِ أسرعُ فى نُجْحِ أغراضه ، ولا شكَّ أنَّ منتهى الآمالِ لا يبلُغ أدنى تِلْكَ المواهِب ، ولَوْ جُمِعَتْ فى صعيدٍ واحدٍ . ثم سألتْ مطالبها لما نقصتْ خزائنُ العطايا من تلكَ المطالِب » .

وهذا الفصل من أول الـكتاب ، وفيه معني آيتين من سورة مريم عليها السلام . أما الأولى فقولُه تعالى عند ذكر يَحْيَى عليه السَّلام « وَآتَيْنَاه

الحُكم صَبِيًّا »[١] وأمّا الثانية فقوله تعالى : « وَحنَانًا مِنْ لَدُنَّا وزَكَاةً وكانَ تقِيًّا »[٢] .

وفى هذا الفصل أيضا معان ثلاثة من الأخبار النبويّة ، وليسَ هذا مَوْضِعَها ، وإنما جاءت ضِمْناً وتبعاً .

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف الغبار فى الحرب ، وهو :

« وعقدَ العَجَاجُ سَقفًا فانعقَدَ ، وأرانا كيف رَفْعُ السماءِ بِغيْرِ عَمَد ، غير أنّها سماءٌ بُنِيَتْ بِسَنَابِك[٣] الجيادِ ، وزُيِّنَتْ بنجومِ الصِّعَاد[٤] ، ففيها ما يُوعَد من المَنَايا لا ما يُوعَدُ من الأرزاق ، ومنها تُقْذَفُ شياطينُ الحَرْب لا شَيَاطِينَ الاسْتِرَاق » .

وهذه المعانى مأخوذة من سورة « الرّعد[٥] » وسُورة « الصَّافَّات[٦] » وسورة « الذّاريات[٧] » .

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف طعام ، وهو فصل من كتاب ، فقلت :

« طعامٌ لا يُمَلُّ إذا شِيئَتْ الأطعمةَ بِمَلِلها ، وكأنما تولّتهُ يَدُ الخِلْقةِ ولم تباشِرْهُ الأيدى بِعَمَلِها ، فهوَ من بقايا المائدة التى نزلتْ من السَّماء ،

---

(١) سورة مريم : الآية ١٢ . (٢) سورة مريم : الآية ١٣

(٣) السنابك جمع سنبك على وزن قنفذ ضرب من العدو ، وطرف الحافر .

(٤) الصعاد الرماح .

(٥) انظر سورة الرعد : الآية ٢ « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » .

(٦) انظر سورة الصافات : الآيات ٨ و٩ و١٠ .

(٧) انظر سورة الذاريات : الآية ٢٢ « وفى السماء رزقكم وما توعدون » .

وقد طابَ حتّى لا يُحتاجُ من بعدِه إلى استعمالِ الماء ، وما رآهُ ذُوشِبَعٍ إلا رأى تَرْكَهُ غَبْنًا ، وَوَدَّ لوْزِيدَ إلى بِطْنِهِ بَطناً » .

وبعض هذا مأخوذٌ من سُورة « المائدة » (١)

ومن ذلك ماذكرته فى فصل منه كتاب إلى ديوان الخلافة ، وهو :

« قد تكاثرتْ وسائلُ الخادمِ حتى لا يَدْرِى ما يجعلُه لِطِلاَبِه سَفِيرًا ، وما منها إلا ما يُقَالُ إنَّه أولٌ ولَيْسَ فيها ما يُجْعَلُ أخيراً ، غير أنَّه لا يَذْكُرُ منها إلا مَا هُوَ تَوْءَمُ إيمانِه ، والذى لا يَنْظُرُ الله من ابن آدمَ إلا إلى مكانه ، وفى ذلك كافٍ عن الوسائلِ التليدةِ والطَّريفة ، وقولُ « لا إلهَ إلا الله » لا يَعْدِلُه شىءٌ من الحسناتِ المودعةِ فى الصَّحيفة ، وقد تجدَّد الآنَ للخادمِ مطلبٌ هو بالنسبةِ إلى مواهبِ الديوان العزيزِ يسير ، ولو قامتْ مطالبُ الناسِ فى صعيدٍ واحدٍ لأعطَى كلاًّ مَرَامَهُ ولم يقلْ ذلك كثير ، وكتابُه هذا سائرٌ إلى تلكَ المواهبِ التى يضيقُ عنها صدرُ الأرضِ باتساعه ، وليس الذى يَسْأَلُهُ ممنعًا ، فيحالَ على النظرِ إلى الجبلِ فى امتناعه ، وكما أنَّ عبيدَ الديوانِ العزيزِ أطوارٌ ، فكذلكَ مَطَالِبُهُمْ أَطْوَارٌ ، وقد جعلَ اللهُ الأشياءَ متفاوتةً فى مراتبها ، وكلُّ شىءٍ عنده بِمِقْدَار » .

وهذا الفصل من أحْسَنِ ما يُكْتَبُ فى استنجازِ مطلوب ، وفيه معان ثلاثة أخبار نبويّة ، ومعنَى آيتين منَ القرآن الكريم ، وليسَ هذا

---

(١) انظر سورة المائدة : الآية ١١٤ « قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين » .

موضعَ الإخبار وإنما جاء ضِمْنًا وتبعاً ، فالآيةُ الأُولى فى سُورَة « الأعراف » والآيةُ الثانيةَ فى سورة « الرعد[1] » .

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف كاتب ، وهو :

« إذا دَجَا ليلُ قلمِه ، وطَلَعَتْ فيه نجومُ كلِمِهِ ، لم يقعد لها شيطان بلاغةٍ مَقْعَدًا ، إلا وَجَد له شهاباً مُرْصَداً ، فأسرارُها مَصُونةٌ عن كلِّ خاطف ، مطويّة عن كل قائف » .

وهذا المعنى مأخوذ من سُورَةِ « الجنّ »[2] .

ومنه ذلك ما ذكرته فى وصف كاتب أيضا ، فقلت :

« له بنتَ فكر ما تمخضتْ بمعنى إلّا أنتجَتْهُ من غير ما تَمْهِله ، وأتَتْ به قَوْمَها تحمِلَه ، ولم يُعْرَضْ على مَلإٍ من البلغاء إلّا ألقوْا أقلامَهم أيهم يَسْتَعِيرُه ، لاَ أيُهُمْ يَكْفُلُه » .

فى هذَيْنَ السَّطْرَيْن آيتان من القرآنِ الكريم : الأولى فى سُورَة « مَرْيَم » وقصَّتها وقصَّة ولدِها عليهما السلام ، وهى قوله تعالَى : « فأتَتْ به قَوْمَها تَحمِلُه »[3] ، والثانية فى سُورة « آلَ عِمْرَان » فى قوله : « إذ يُلقُونَ أقلامَهُمْ أَيُّهمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ »[4]

---

(١) سورة الرعد : الآية ٨ .

(٢) انظر سورة الجن : الآية ٩ .

(٣) سورة مريم : الآية ٢٧ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ٤٤ .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب بعض وصف القلم ، فقلت :

« وقدْ أوْحَى اللهُ تعالى إلى قلمِه مَا أوْحَاهُ إلى النحْلِ ، غيرَ أنها تأوى إلى المكان الوَعْر ، وهُوَ يأوى إلى البَيانِ السَّهْلِ ، ومن شأنِه أنْ يَجْتَنِيَ من ثمراتٍ ذاتِ أزْوَاج لا ذَاتِ أكْمَام ، ويَخرُجَ من نفثَاتِه شرَابٌ مُختلِفٌ طعْمهُ فِيهِ شِفَاءٌ للافهام . وأينَ ما تُنْبِته كثَافَةُ الخشَبِ ممَّا تُنْبِته لطافة المعنَى ؟ ولا تَستوى نَضَارَةُ هذا الثَمر وهذا الثمر ، ولا طيب هذا المَجْنَى وَهَذَا المجْنَى . وقدْ أرْخص اللهُ ما يكثُرُ وُجُوده فيذهبُ فى لهوَاتِ الأفوَاه ، وأغْلَى ما يعزُّ وُجُودُه ، فيَبْقَى خالداً على ألْسِنَةِ الرُّوَاة ، وكلُّ هٰذِهِ الأوْصَافِ لا تصحُّ إلا فى قلم سيِّدنا الذى إذا خَلاَ بخاطِرِه امتلأتْ بحديثِه المحافلُ ، وإذا حَلا كتابُه وجدْتَ الكتبَ الحاليةَ من قبْلِه وهى عَواطِل ، فله حِينئذٍ أنْ ينظُرَ إلى غيره بعين الاحتقار ، ولوَاصِفه أن يُسْهِبَ وهو قائم مَقَامَ الاختصار » .

هذا الفصلُ غريبٌ عجيبٌ ، وقد جمعَ بين الأضْدَادِ فمنالُه بعيدٌ ، وفَهْمُهُ قريبٌ . وهذا مأخوذ من سُورة « النحل »

ومن ذلك ما ذكرته فى ذم بخيل ، وهو :

« له شِيمة فى الجود لا يُشَام نائِلُها ، وإذا هزَّها سَائلُها قال : إنها كلمةٌ هو قائلُها » .

وهذا مأخوذٌ من سورة « المؤمنين »[1]

(١) سورة « المؤمنون » : الآية ١٠٠ .

ومن ذلك ما ذكرته فى صدر كتاب ، وهو :

« وصل كتابُه ، فوُقِفَ منه على اللَّفظِ الرَّخيم ، والمعنى الذى هُوَ فى كلِ وادٍ يَهيم ، وقال : يأَيُّها الملأ إنى أُلقِىَ إلىَّ كتابٌ كَرِيم ، ثمَّ أخذَ فى إعلاء قَدْره ، وتَنويه ذِكْره ، ولم يَستَفْتِ الملأَ فى الإذْعَان لأمرِهِ ، ولا أهْدَى فى قُبَالته سِوَى هَدِيَّة لسانِهِ وصَدْرِه لاَ جرَمَ أَنَّها تُقْبَلُ ولا تُرَدّ ، ويُعْتَدُّ بها ولا تُعَدُّ ، فإنَّها مالٌ لا يُنفِدُه الإنفاقِ ، وجَوْهرٌ تتحلَّى به الأخلاقُ ، لا الأعْناق » .

وهذا مأخوذٌ من قِصَّةِ سليمانَ عليه السلامُ فى كتابه إلى بلقيس ، وهى مذكورة فى سُورَة « النمل »[٢] وفى هذا من شرفِ الصَّنْعة أنه خُولف بين معانيه ومعانى ما أتى به القرآنَ الكريم .

ومن ذلك ما ذكرته فى صدر كتاب يتضمن ذكر معركة حرب بين المسلمين والكفار ، وهو :

« إذا خطبَ القلمُ عن الرُّمح الذى هو نَدِيده قام مُختفِلا ، وأسْهَبَ مترويّاً ومُرتجِلا ، حتّى يأتى فى خَطابته بالمعانى الأخائر ، وأصدقُ القولِ ماصدَرَ عن شهادةِ الضَّرائر للضَّرائر . وكتابُنا هذا يصِفُ معركةً احمرَّتْ ضَبَابتُها ، وضاقتْ بالأسُودِ غابَتُها ، فالطعن بها مُحْتَضَر ، والموتَ مُحتَقَر

(٢) سورة النمل : انظر الآية (٢٩) وما بعدها من الآيات .

والنصرُ من كلا الفريقين مُقْتَسَر ، وكان الإسلامُ هناكَ زجر السَّنِيح [١] ، وفوزَ القِدْحِ المَنِيح [٢] . وليسَ الَّذِى يرقبُ المعونةَ من الله الذى هو ربُّ المَسيح كمن يرقبُها مِنَ المَسِيح ، ولقد نفَذَت الرماحُ فى أعداءِ اللهِ تعالى حتى اعتدلتْ من جَانِبَى الصُّدُور والظُّهور ، وتركت النَّاجىَ منهم وهو لا ينظرُ إلى الصَّليب إلّا نظرَ الخائِفِ المَذْعُور ، فليسَ لهمْ من بعدها جيشٌ يُجْمَع ، ولا لواءٌ يُرْفع ، وقد كانتْ بلادُهمْ من قبلُ مانعةً ، وهى الآنَ لا تَذُبُّ عنها ولا تَمنَع ، وهذه معركةٌ قُلِّتْ بها الرقابُ المأسُورة ، وكثرَتْ النفوسُ المَقْتُولة ، وقرِّبَتْ بها القرابينُ الَّتى تأكلُها النارُ ، لا لأنَّها مقبولة » .

ومعنى الآية فى هذا الفصلِ مأخوذٌ من سُورة « آلَ عِمْران » إلّا أنَّها تخالفُه ، وذاكَ أنَّ القربانَ كانَ يُقْبَلُ ، فتنزلُ النارُ تأكلَه ، وأجسادُ هؤلاء الكُفَّار قربانٌ تأكلَه النَّار ، ولكنَّها لا تأكلَه لأنَّه مقبول . وباقِى الفصلِ يتضمَّن معنى حسناً رقيقاً .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب يتضمن الشكوى من خلق بعض الإخوان ، وهو :

« ولقد صبرتُ على أخلاقِه العائثة ، وعاملتُه بالخليقةِ الرائثة ، وعالجتُه بضروب المعالجات ، فلم تنفعْ فيـه رُقى الرَّاقية ، ولا نفْثُ النَّافِثة ولمَّا أعياءَ علىَّ إصلاحُه أخذتُ عقالة الخِضْرِ لموسَى فى المرَّةِ الثالثة » .

(١) السنيح والسانح : ماولاك ميامنه ، وكانوا يتفاءلون به ، ومنه قولهم « من لى بالسانح بعد البارح » أى بالمبارك بعد الشؤم .

(٢) المنيح على وزن أمير قدح بلا نصيب ، قد يستعار تيمنا بفوزه ، أو قدح له سهم (انظر القاموس المحيط ١/٢٥١) .

وهذا مأخوذ من قصةِ موسَى عليه السلام وقصة الخضر فى سورة « الكهف »[(١)]

ومن ذلك ماذكرته فى فصل من كتاب ، وهو :

« تجمَّعوا فى نارِ النَّدمُ يُعْرَضُون عليها غدوًّا وعَشِيًّا ، وصار الأمرُ الذى كانوا يَرجُونه مَخْشِياً ، وأضحَوْا كأهلِ النارِ الَّذين صارُوا أعداء ، وكانوا شِيَعا ، وقال ضُعفاؤهم للذين استكبرُوا : إنَّا كنَّا لكمْ تَبعا » .

وهذا مأخوذ من سورة « حَم المؤمن[(٢)] » ومن سورة « سَبأ[(٣)] » .

ومن ذلك من ما ذكرته فى ذم غلام أبله :

كنت أقاسِى من بَلَهِه نكداً ، فكتبتُ يوماً من الأيام إلى بعض إخوانى كتاباً ، وعرَّضتُ فيه بذكره ، فقلتُ :

ولقد ملكهُ النسيانَ ، حتى كأنه يقظٌ فى صُورةِ نائم ، وحتى حقق قول التناسُخ فى نقلِ أرواحِ الأناسىَ إلى البهائم ، فما أُرْسِلَ فى حاجةٍ إلا ذهبتَ عن قلبه يَمْنَةً ويَسْرَةَ ، ولا طُلِبَ منه ما استحْفظه إلّا قال : أرأيتَ إذْ أوَيْنَا إلى الصَّخْرَةِ » .

وهذا فصلٌ يشتملُ على عدة معانٍ منها ما هو مأخوذٌ من القرآن الكريم من سورة « الكهف »[(٤)] .

---

(١) لعله يشير إلى قوله تعالى « ... لاتصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا » ـ الآية ٧٦ من سورة الكهف ، وكان ذلك بعد المرة الثانية ؛ بعدسؤاله عن خرق السفينة ، وعن قتل الغلام .

(٢) سورة غافر : الآية ٤٦ « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » .

(٣) انظر سورة سبأ : الآيات ٣١و٣٢و٣٣ .

(٤) انظر سورة الكهف : الآية ٦٣ .

ومن ذلك ما ذكرته فى تقليد قاض ، وهو فصل منه ، فقلت :

« والفضائلُ ما بقيت موجودة ولم تفقد ، وهى حيَّةٌ وإن أوْدَى أربابُها ولا يموتُ مَنْ لَمْ يُولَد ، ومِنْ أكرم ما أُوتيه منها فضيلةَ التَّقْوى التى الكرمُ من شِعارها ، والعاقبةُ والحسْني كلاهما منْ آثارها . وما نقولُ إلّا أنَّه اتخذها حارساً يمنع الخَصْمَ من تَسُوُّر محرابه ، ويُؤَمِّن قلبَه من الفتنةِ الداعيَةِ إلى استغفارِه ومَتَابه ، وقد قَرَن الله له هذه الفضيلة بالعلم الّذى أَعْلَمه بعلامته ، وَوَسَمَهُ بوَسَامته ، وقذَفَ فى رُوعِه مالا يُسأَل معَه عن السَّفينة وخرْقِها ، والغُلَامِ وقَتْلِهِ ، والجِدَارِ وإقامتِه ، وعلى ما بلغه مِنْه فإنَّه فيه أَحَدُ المَنْهُومَيْن اللّذين لا يَشْبَعان[1] . وإذا كانَ لغيرِهِ فيه نظرٌ واحدٌ ومسمعٌ ، فلهُ فيه نظران ومسمعان » .

فى هذا الفصل المُختصر معانى عدَّةِ آيات وخبر من الأخبار النبويّة :

أمَّا الآية الأولى فقوله تعالى : « إنَّ أَكْرَمَكُمْ عند الله أتقاكُم[2] » .

وأمَّا الآيةَ الثانيةَ فقولُه تعالى : « والعاقبةَ للتَّقْوى »[3]

وأما الثالثةَ فقولَه تعالى : « وهل أتاكَ نبأُ الخَصْمِ إذْ تَسَوَّرُوا المِحْرابَ »[4] .

وأما الآيةُ الرابعةُ فقولُه تعالى « فانطَلَقا حتَّى إذا رَكبا فى السَّفينةِ

---

(١) إشارة إلى الخبر المأثور « منهومان لايشبعان : طالب علم وطالب مال » .

(٢) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

(٣) سورة طه : الآية ١٣٢ .

(٤) سورة (ص) : الآية ٢١ .

خرقها (١) » وكذلك إلى آخر القصة . وهذا من أحسن ما يأتى فى هذا الباب .

ومن ذلك ما ذكرته فى جملة كتاب يتضمن عناية ببعض الفقراء فقلت بعد الابتداء بصدر الكتاب :

« وقد عُلِمَ منه أنَّه يَعُدُّ لطالبِ فضلِهِ فضلا ، ويرى التبرُّعَ بمعروفِهِ فرضاً ، إذا رآه غيرُه مع المُساءلَةِ نفلا ، وماذاكَ إلا لمزيةِ خُلقٍ توحَّد بطيبِ التُّربةِ وشرفِ الرُّتبةِ ، أُوتى من كنوز الكرمِ ما إنَّ مَفاتِحَهُ لتنوء بالعُصْبَة ، ولهذا خرجَ على قومه من الأخلاقِ فى زينتِهِ ، وفَضَلَ الخلقَ بطينةٍ غير طِينته ، ومن فضلِهِ أنه يَسألُ عن السائلين ، ويحتالُ فى استنباطِ أمل الآملين » .

ثم مضيتُ على هذا النَّهج حتَّى أنهيتُ الكتاب .

والغرضُ أن تعلمَ أيها المتعلمُ كيف تضعُ يدَكَ فى أَخْذِ ما تأخذه من بعض الآيةِ ، ثمَّ تضيف إليه كلامًا من عندك ، وتجعله مَسْجُوعًا ، كما قد فعلتُ أنا فى هذا الموضِع .

ألا ترَى أنِّى أخذتُ بعضَ هذه الآيةِ فى قصَّة من سُورة (القَصَص) وهى قوله تعالى : « إنَّ قارُونَ كانَ من قوم مُوسَى فبغَى عليهمْ ، وآتيناه منَ الكنوزِ ما إنَّ مفاتحَهَ لتنوء بالعُصبَةِ أُولِى القوَّةِ إذْ قالَ لهُ قومُه لا تفرحْ

---

(١) سورة الكهف : الآية ٧١

إنَّ اللهَ لا يحبُّ الفرحين »[١] . فهذه الآيةَ أخذتُ بعضَها ، وأضفتُ إليه كلامًا من عندى ، حتَّى جاء كما تراه مسْجُوعًا .

وكذلك فعلت بالآية الأخرى من هذه السُّورة أيضاً وهى قوله : « فخرج على قومِهِ فى زِينَتِهِ قالَ الذينَ يُرِيدُونَ الحياةَ الدُّنيا ياليتَ لنا مِثْلَ ما أُوتِىَ قارون إنَّه لذُو حظٍّ عَظِيم »[٢]

وهذا ينبغِى لك إذا أردْت أن تسلُكَ هذه الطَّرِيق ، وقَدرْتَ على سُلوكها ، وهى من محاسِنِ الصناعَةِ البلاغيَّةِ ، ولَيْسَ فوقَها من الكلامِ ما هوَ أعلى درجةً منها ، لأَنَّها ممزوجة بالقرآن ، لا على وَجْهِ التَّضْمين ، بل على وَجْهِ الانْتِظام به ، واللهُ يختصُّ بها مَنْ يَشاء من عِبادِه .

وفيما ذكرتهَ من نثرِ هذه الآيات كفايةٌ للمتعلِّم .

وأمَّا الأخبارُ النبويَّة فكالقرآنِ العزيزِ فى حلِّ معانِيها

فإنْ قلتَ : إنَّ الأخبارَ النبويَّةَ لا يجرى فيها الأمرُ مجرَى القرآنِ ، إذ القرآنَ له حاصرٌ وضابِط ، وكلُّ آياته تدخُل فى الاستعمال ، كما قال بعضهم : لوْ ضَاعَ منِّى عقالٌ لوجدتهَ فى القرآن الكريم ، وأمَّا الأخبارُ فليست كذلك لأنها كثيرةٌ لا تَنْحَصِر ، ولو انحصرتْ لكان منها يدخُلُ فى الاستعمال ، ومنها ما لا يَدْخُل . ولابدَّ من بيانٍ يمكنُ الإحاطة به والوقوف عنده ؟

---

(١) سورة القصص : الآية ٧٦ .
(٢) سورة القصص : الآية ٧٩ .

قلتُ في الجوابِ عن هذا : إنكَ أوَّل ما تحفظه من الأخبارِ هو كتابُ « الشهاب » فإنه كتابٌ مختصرٌ ، وجميعُ ما فيه يُستعمل لأنه يتضمَّن حكماً وآداباً ، فإذا حفظتَه ، وتدرَّبت باستعماله كما أريتُك هاهُنا حصل عندكَ قوة على التصرّفِ والمعرفة بما يدخل فى الاستعمال وما لا يدخل . وعند ذلك تتصفح كتابَ صَحِيحِ البُخَارِىِّ ، ومسلمٍ ، والموطأ ، والترمذىّ ، وسُنَنِ أبى داوُد ، وسُنن النَّسائِى ، وغيرها من كتب الحديث ، وتأخذ ما تحتاجُ إليه ، وأهل مكَّةَ أخبرُ بشِعَابها ، والذى تأخذه إن أمكنكَ حفظه والدَّرسُ عليه فهو المراد ، لأنَّ ما لا تحفظُهُ فلستَ منهُ على ثقةٍ ، وإن كانَ لك محفوظاتٌ كثيرةٌ كالقرآن الكريم ، ودواوين كثيرة من الشعر ، وما ورَدَ من الأمثال السَّائرةِ ، وغير ذلك مما أشرنا إليه ، فعليك بمداومةِ المطالعَةِ للأخبار ، والإكثار من استعمالها فى كلامك ، حتى ترقَمَ على خاطرك ، فتكون إذا احتجتَ منها إلى شيء وجدتَه ، وسهُل عليك أن تأتِيَ به ارتجالًا . فتأمَّلْ ما أوْرَدْتُهُ عليك ، واعملْ به .

وكنتُ جرَّدتَ من الأخبارِ النبويَّة كتاباً يشتملُ على ثلاثةِ آلافِ خبر ، كلُّها تدخلُ فى الاستعمالِ ، وما زلتُ أواظبُ مطالعته مدة تزيد على عَشر سنين ، فكنتُ أنهى مطالعتَه فى كل أسبُوع مرَّة ، حتى دارَ على ناظِرى وخاطرى ما يزيد على خمسمائةِ مرَّة ، وصارَ محفوظاً لا يشذ عنى منه شيء . وهذا الذى أوردتُه هاهُنا فى حل معانى الأخبار وهو من هناك .

وسأذكرُ ما دارَ بيني وبينَ بعض علماءِ الأدبِ في هذا الأسلوبِ الذي أنا بصَدَده هاهنا

وذاكَ أنه استوعَرَه وأنكره ، وقال : هذا لا يتهيَّأُ إلا في الشيْء اليسير من الأخبار النبويّة

فقلت : لا بلْ يتهيَّأ في الأكثر منها .

فقال : قد وَرَدَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اختُصِمَ إليه في جَنين ، فقَضَى على من أسقَطَه بغُرَّة : عبدٍ أو أمَةٍ ، فأينَ يُستعمَلُ هذا ؟

فأفكرتُ فيما ذكره ، ثم أنشأتُ هذا الفصلَ من الكلام ، وأودعْتُه فيه .

« قد كثُر الجهلُ حتى لا يقالَ فلان عالمٌ وفلان جاهل ، وضربَ المثلُ بباقِل[1] ، وكمْ في هذه الصُّورَةِ المثَلةِ من باقِل ، ولو عرَف كلُّ إنسانٍ قدرَه لما مَشى بدَنٌ إلا تحت رأسِه ، ولا انتصبَ رأسٌ إلا على بدَنِه ، ولكانَ صاحبُ العمامة بعمامَتِه ، وصاحبُ الرَّسَن أحقَّ برَسَنِه وكنت سمعت بكاتب من الكتاب كَلِمهُ إلى غثاثة ، وقلمُه بُغاثة لا يَستنسِر[2] وأيُّ بطش لِبُغاثَة ، وإذا وجَبَ الوضوء على غيره بالخارجِ

---

(١) رجل مشهور عندهم بالعى ، قالوا إنه اشترى ظبيا بأحد عشر درهماً ، فسئل عن شرائه ، ففتح كفيه وأخرج لسانه يشير إلى ثمنه ، فانفلت الظبي ، وضرب به المثل في العى .

(٢) البغاث من الطير مالا يصيد ولا يرغب في صيده لأنه لا يؤكل ، وهو بطيء الطيران ، واستنسر البغاث صار نسراً ، وعليه قولهم « إن البغاث بأرضنا يستنسر » أى أن الضعيف يصير قويا بأرضنا .

من السَّبيلين وجب عليه من سُبُلٍ ثلاثة . هذا وهو يَدَّعِي أنه في الفصاحةِ أمَّةٌ وحدَه ، ومَنْ قُسُّ إيادٍ(١) وسَحْبَانُ وَائل(٢) عنده ؟ وإذا كُشِفَ عن خاطره وُجِدَ بليداً ، لا يخرجُ عن العَمَهِ والكَمَهِ ، وإنْ رَام أن يَسْتنتجهُ في حينٍ من الأحيانِ قضى عليه بغُرَّة عبدٍ أوْ أَمَة ، وكثيراً ما يتقدَّمُ ونقيصَتُه هذهِ على الأفاضِل من العلماء ، وقد صارَ الناسُ إلى زمان يعلُو فيه حَضِيضُ الأرضِ على هَامِ السَّماء » .

فلما أورِدتُه عليه ظهرتْ أمارةُ الحسَدِ على صَفَحات وجهه وفلتاتِ لسانه ، مع إعجابه به ، واستغرابِه إيَّاه . ثم قال : وقَدْ ورَدَ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم هذا الحديث وهو : « لا تدخل الملائكةُ بيتًا فيه صُورةٌ ولا تمثالٌ » فهذا أين يستعمل من المكاتبات ؟

فتروَّيت في قولِه تَرَوِّيا يسيرا ، ثم قُلْتُ هذا يُسْتَعْمَلُ في كتاب إلى ديوان الخلافة ، وأمليت عليه الكتاب ، فجاء هذا الحديث في فصلٍ منه ، وهو :

« إذا أفاضَ الخادمُ في وَصْفِ ولائه نكَصَتْ هِمَمُ الأولياء عن مقامِه ، وعلمُوا أنه أَخَذَ الأمرَ بزمَامه ، فقد أصْبَحَ وليس بقلبِه سوى الولاء والإيمان ، فهذا يَظْهَرُ أثرُه في طاعةِ السِّرِّ ، وهذا فِي طاعةِ الإعْلان ، وما عَدَاهما فإنَّ دخولَه إلى قلبه من الأشياءِ المحظورَةِ ، والملائكةُ تدخلُ

(١) هو قس بن ساعدة الإيادي ، احد خطباء العرب المشهورين ، سمعه النبي صلى الله عليه وسلم يخطب في الموسم .

(٢) سحبان وائل ، مضرب المثل في الخطابة والفصاحة والبيان .

بيتًا فيه تمثالٌ ولا صورة ، فليعوا. الديوانُ العزيزُ على سيفٍ من سُيُوفِ الله يَفْرِى بلا ضارِب ، ويَسْرِى بلا حَامِلٍ ، ولا يسلّ إلا بيدِ حقٍّ ، ولا يُغْمَدُ إلا فى ظَهْرِ باطل . وليعلم أنه كَرِشُه وعَيْبَتُه فى تضمُّن الأسْرَار ، وأنَّه أحدُ مُسْعِدَيْه إذا عُدَّت مواقفُ الأنْصَار » .

فلما رأى هذا الفصلُ بُهِتَ له ، وأعجب منه ، ثم إنى لم أقْنع بإيرادِ ذلكَ الحديثِ ، حتى قرنتُ به حديثاً آخر ، وهو قول النبيّ صلى الله عليه وسلم « الأنصارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي » .

وحيثُ عرَّفتك أيها المتعلمَ ما تقتدِى به فى هذا الموضع فقدْ ذكرتَ لكَ أمثلةً كثيرةً تتدرَّبُ بها .

فمن ذلك ما ذكرته فى دعاء كتاب من الكتب ، وهو :

« أعاذَ اللهُ أيامَهُ من الغِيَر ، وبيَّن بخطر مَجْدِه نَقصَ كلِّ خطر ، وجعلَ ذِكرَهُ زاداً لكلِّ رَكْب ، وأنسًا لكلِّ سَمَر ، ومنَحَهُ من فضلِه مالا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سَمِعَتْ ، ولا خطَر على قلب بَشَر » .

وهذا المعنى مأخوذٌ من الحديث فى وصفِ نعيم الجنَّةِ ، فنقلته إلى الدُّعاء .

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف الحلم ، وهو :

« تركتُه حتَّى جال فى المَيْدَان ، وامتدَّ فى الأشْطَان[1] ، ولم أنتصرْ

---

(١) الأشطان جمع شطن وهو حبل البئر .

خوفاً من قِيَامِ المَلَك وقعودِ الشيطان ، والحليمُ لا يظهرُ أثرُ حِلمه إلا عند تلدُّدِه[1] ، والكَظِيمُ[2] هو أشدُّ ما يُخافُ من تبدُّدِه » .

وهذا المعنى أخذتُه من قصَّة أبى بكر — رضى الله عنه — فى خِصَامه ، فإنه بُغِيَ عليه ثلاثَ مرَّاتٍ وهو ساكت ، ففى الثَّالثة انتصَر . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كانَ المَلَكُ جالساً إلى جانبِ أبى بكرٍ يكذِّبُ خَصْمَه بما يقول ، فلمَّا انتصرَ قامَ المَلكُ وقعدَ الشيْطَان » .

ومن ذلك ما ذكرته فى النصرة على العدو فى موطن القتال ، وهو :

« أخذنَا بسُنَّة رسُولِ الله صلَّى الله عليه وسلم فى النَّصر الَّذى نرجُوه ، ونبذنا فى وجهِ العدُوِّ كفًّا من التراب ، وقلنا : شَاهَتِ[3] الوُجُوه ، فثبَّتَ الله ما تزلزل من أقدامِنا ، وأقْدَم حَيْزُومُ فأغْنَى عن إقْدَامنا » .

وهذان المَعْنَيان أحدُهُما مأخوذٌ من حديث غَزْوَةِ حُنَيْنٍ ، وما فعله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى أخذه قبضةَ من التُّرابِ ، وألْقاها فى وُجُوهِ الكُفَّارِ ، وقوله : « شَاهَتِ الوُجُوهُ » والمعنَى الآخرُ مأخوذٌ من حديثِ غَزْوةِ بدْر ، وذاكَ أن رجُلًا من المسْلمينَ لاقَى رجلاً من الكُفَّارِ ، وأرادَ أن يَضربه ، فخرَّ على الأرضِ ميتاً قبل أن يَصِل إليه ، وسمِعَ الرجُلُ المسلمُ صوتاً

---

(١) تلدد تلفت يميناً وشمالا ، وتحير ، وذلك عند إشتداد الخصومة .
(٢) الكظيم الذى يكظم الغيظ ، أى يبقى على ما فى نفسه منه على صفح أو غيظ .
(٣) شاهت الوجوه قبحت .

من فوقه وهو يقول : « أقدم حَيْزومُ[1] » فجاء إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلم وأخبره ، فقال : « ذاكَ من مَدَد السماء الثّالثة » .

ومن ذلك ما ذكرته في ضمن مجال الحرب ، وهو :

« وضاقَ الضَّربُ بين الفريقين حتّى اتصلتْ مواقعُ البِيضِ الذُّكور ، وتَصَافَحَتِ الفُورُ بالْفُورِ[2] ، والصُّدُورُ بالصُّدُور . واستَظلّ حِينئذٍ بالسُّيوف لاشتباكِ مَجالها ، وتُبُوِّئَتْ مقاعدُ الجَنَّةِ الّتي هِيَ تحت ظِلالها »

وهو مأخوذٌ من الحديث النبويِّ وهو قولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم « الجنةَ تَحْت ظِلال السُّيوف » .

ومن ذلك ما ذكرته في جملة كتاب أذم فيه الزمان ، فقلت :

« ولـكنّها الأيامُ تُبدى لنا من جَوْهَرِها كلَّ غَرِيبة ، وتَسوسُنَا سياسةَ العَبْدِ المُجَدَّعِ الذى كأنَّ رأسَه زَبِيبَة ، وليسَ للمرء فيما يلقاهُ من أحْدَاثها نُعْمَى كانتْ أو بُوسى ، إلّا أنْ يَـكِلَ الأمورَ إلى وَلِيها فيقول حاجَّ آدمُ موسَى » .

وهذا مأخوذٌ من الخبرِ النبويِّ في قوله صلّى الله عليه وسلم : « حاجَّ آدمُ موسَى ، فقال لهُ موسَى : أنتَ أخرجْتَ الناسَ بخَطيئَتِك من الجَنَّة ، وأشْقَيْتَهمْ . فقال له آدمُ : أنتَ الذى اصْطفاكَ الله تعالَى برِسَالتِهِ وكلامِه ،

---

(١) حيزوم : فرس جبريل عليه السلام ، كما فى القاموس .
(٢) الفور : وبهاء ولد تهمز ريح فى رسغ الفرس تنفش إذا مسحت وتجتمع إذا تركت .

أتلومني على أمر كتبه الله تعالى عليّ قبل أن يخلقني ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فحجّ آدمُ موسى » .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف بعض الكتاب ، وهو فصل من كتاب كتبته إليه ، فقلت :

« ولقد سُرِدَتْ عليه أحاديثُ البلاغةِ ، فاستغنى عن بَسْطِ ردائه ، وهُدِيَ إلى جوامعِ كَلِمِها ، فاقتدَى الناسُ باهتدائه ، فإذا اشتبهتْ عنده مَسالكُ طُرُقِها لم يملكه سلطانُ الحَيْرَة ، وإن أَغْرَبَ في أساليبها لم يُقَل فيه ما قيلَ في روايةِ أبي هُرَيْرَةَ » .

وهذا الفصلُ من أحسَنِ ما يأتي به في صناعةِ نثرِ المعاني ، وهو مأخوذٌ من حديث أبي هُرَيْرَةَ ، قال : قلتُ : يا رسولَ الله أسمعُ منك أشياءَ فلا أحفظها ، فقال : ابْسُطْ رِداءَكَ ، فبسطْتُه ، فحدّثَ حديثاً كثيراً ، فما نَسِيتُ شيئاً حدَّثني به . وأما روايةَ أبي هريرةَ فشكَّ فيها قومٌ لكثرتِها .

وقد اجتمع في هذا الفصلِ معنى الحديث النبويّ وغيره . ومثلُ هذا لا يَتَفَطَّنَ له عند الوقوفِ عليه إلّا مَنْ تبحَّر في الوقوف على الأخبار النبويّة ومنْ أجْلِ ذلك جعلته ركناً من أركانِ الكتابة في الفصل التاسع .

ومن ذلك ما ذكرته في ذمّ بعض البلاد الوخمة ، فقلت :

« ومن صفاتِها أنها مدرة[1] مستوبلة الطِّينة ، مجموعٌ لها بين حر مكة

---

(١) المدرن واحدة المدر ، وهي المدن والحواضر .

ولأْوَاءِ[1] المدينة ، إلَّا أنها لمْ يأْمَنْ حَرَمُها فى الخطفة ، ولا نقلتْ حُمَّاها إلى الجُحْفة »

فى هذه الـكلماتِ القصارِ آيةٌ من القرآن الـكريم وخبرَانِ من الأخبار النبويَّة . فالآية من سورة العنـكبوت ، وهى قولُه تعالى : « أَوَلَمْ يرَوْا أَنَّا جعلْنَا حَرَماً آمناً ويُتخَطَّفُ الناسُ من حَوْلِهمْ »[2] . وهذا موضعٌ يختصُّ بالأخبار لا بالآيات ، غير أنَّ الآية جاءتْ ضمناً وتبعاً .

وأمَّا الخبران ، فالأولُ منهما قولُ النبي صلّى الله عليه وسلّم : مَنْ صَبَرَ على حرِّ مكّةَ ولأْوَاءِ المدينَةَ ضمنت له على الله الجنة . وأما الثانى فقوله صلَّى الله عليه وسلَّم فى دعائه للمدينةِ : « اللهمَّ حبِّبْها إلينَا كما حبَّبْتَ إلينا مكَّة ، وانقلْ حُمَّاهَا إلى الجُحْفَةِ[3] » .

فانظرْ أيُّها المتأمل إلى هذه الـكلماتِ ، حتّى تعلمَ أنَّ عِدَّتَها مصوغةٌ مِنَ الآيةِ والخَبَرَيْن سَوَاء بسَواء .

وهذا طريقٌ لو ادَّعيْتُ الانفِرادَ بسُلوكِه لما اخْتَلَفَ علىَّ فى الاعترافِ به اثْنَان .

---

(١) اللأواء والشدة .

(٢) سورة العنـكبوت : الآية ٦٧ .

(٣) الجحفة : كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة إلى مكة ، وهى ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينة ، وكان اسمها مهيعة ، وسميت الجحفة لأن السيل جحفها ، وبينها وبين البحر ستة أميال .

ومن ذلك ما كتبته في كتاب إلى بعض الإخوان جوابا عن كتاب ورد منه :

وكان كتابه تأخر عنى زمانا طويلا ، فقلت :

« ولمَّا تأمَّلْتُه ضَمَمْتُه إلىَّ والتزمْتُه ، ثم استَلَمْتُه والتَثمْتُه ، وعلمتُ أن المعارفَ — وإن قَدُمَتْ أيامُها — أنسابٌ وشِيجَة ، وتأسَّيْتُ بالخلق النبوىِّ فى العَجوز التى كانت تأتى فى زمِنِ خَدِيجَة » .

وهذا مأخوذٌ من الخبر المنقولِ عن عائشة رضى الله عنها ، وهو أنها قالت: كانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يَذْبحُ الشَّاة فيُعضِّيها[1] أعضاء ، ويُقسِّمها فى أصدقاء خَديجة ، وكانت تأتيه عجوزٌ فيُكرمها ويبسُطُ لها رداءه ، فسألتُه عن ذلك ، فقال « هذهِ كانت تأتِينَا فى زَمن خديجة ، وحُسْن العَهْد من الإيمان » .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كتاب ، وهو :

« كلُّ سطرٍ منه رَوْضةٌ ، غير أنها ليلٌ فى صَبَاح ، وكل معنًى منهُ دُمْيَة ، غير أنْ ليْسَ على مُصوِّرِها من جُناح » .

وهذا مأخوذ من الحديثِ فى تحريمِ الصُّور .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كريم وهو :

« فأغنى بجُوده إغناءَ المطر ، وسَمَا إلى المعالى سُموَّ الشَّمْسِ وسَارَ فى منازِلها مَسِيرَ القمر ، ونُتِجَ مِنْ أبْكار فضائله ما إذا ادَّعاه غيرُه قيلَ : للْعَاهِرِ الحَجَر » .

---

(١) عضيت الذبيحة بالتشديد جعلتها أعضاء .

وهذا المعنى من قولِ النبيّ صلَّى الله عليه وسلّم : « الولَدُ للفراشِ وللعاهِرِ الحَجَرُ » .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الفصاحة، فقلت:

« أفكارُ الخواطرِ لا تَستَولدُ على انفرادِها ، وغايتُها أن يُدَنا كَحَ في استنتاجِ أوْلَادِهَا ، وأنا أُنكِحُ فكرِي لِفِكرى نكاحَ الأنساب ، ولا أخاف أن أَضْوَى ، فأَمِيلَ إلى الاغْتراب » .

وهذا مأخوذٌ من قولِ النبيّ صلَّى الله عليه وسلم في الأمرِ بنكاحِ البعيدةِ النّسَب ، فقال : « غرِّبوا لا تَضْوَوْا » يريدُ بذلكَ أن الإنسان إذا نكح المرأةَ القريبةَ إليه حصل بَينهما حَياءٌ يمنعَ من قضاءِ الشَّهْوة كما ينبغى ، فيجىء الولدُ ضاوياً ، أىْ هزيلا . وهذا معنى غريبٌ لى استخرجتهُ من الحديث النبويّ .

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الإخوان :

جواباً عن كتابٍ ورد منه يتضمن الشكوى من شخصٍ جرتْ بينَه وبَيْنَهُ مُخاصمة ، فقلت :

« وصَلَ كتابُه وهو كتابٌ من أكثرِ الشكوى، وطلب العَدْوَى[1]، ونزَلَ من التظلّمِ بالعُدْوَةِ[2] الدُّنيا ، وأَنْزَلَ خَصْمه بالعُدْوَةِ القُصْوَى ، والقاضِي

---

(١) العدوى هنا طلب التقوية والنصرة . قال ابن فارس : العدوى طلبك إلى وال ليعديك على من ظلمك ، أى ينتقم منه باعتدائه عليك .

(٢) عدوة الوادى جانبه .

لا يحكم لأحد الخَصْمين حتى يَحضرَ صاحبُه ، وإن فُقِئَتْ عينُ أحدِهما فربَّما فُقِئَتْ عينُ الآخَر ، وهُشِّمَ حاجبُه ، على أنَّه قد اعترفَ أنَّ كِلَيْهما كانَ لِلَحْم أخيهِ آكِلا ، وعليه فى حالِ مَحْضَرِهِ جَاهِلا ، وسِبَابُ المؤمِنِ مَعْدُودٌ من فُسُوقه ، وإطْرَاقهُ عن تورُّدِ هذا المقام أَوْلَى مِنْ طَرُوقه ، ولولا تغليظُ النَّكِير لما جُعِلَ اللسانُ واليدُ سواءً فيما جَرَحا ، ولما أخَّر الله المغفرةَ عن الخائضِين فيها حتى يَصْطَلِحَا ، فكنْ أنتَ مِمَّنْ أطاعَ تقواه لا هَوَاه ، واتَّبعَ من عِلمَ الحقَّ فرآه ، أو سَمِعه فرواه . واعلمْ أنَّ تهاجُرَ الأخَوَيْن فوقَ الثلاثةِ من مَنْهِيَّات الحَرَام ، وأن الفائزَ بالأجْر منهما هو البادىء بالسَّلام ، ودَفْعُ السَّيئةِ بالحسَنةِ يجعلُ العدوَّ وليًّا حَمِيا ، وقدجعلَ الله المتخلِّقَ بهذا الخلُقِ صابراً ، وجعل له حظًّا عظيما . والشيطان إنما يحُوم على آثاره مواقع الشَّنَآن ، ولا يَحْمَدُ من أعمالِ بنيه شيئاً إلا مازَيَّل[1] بين الإخوان » .

فى هذا الفصل معانِى آياتٍ وأخبار ، وهذا الموضعُ مختصٌّ بذكر الأخبار دون الآياتِ .

فأوَّلُ المعانى المأخوذةِ من الأخْبار قولُ النبىِّ صلَّى الله عليه وسلَّم : « إذا أتاك أحدُ الخَصْمَيْنِ ، وقد فُقِئَتْ عينه ، فلا تحكُمْ له ، فربما أتى خَصْمه وقد فُقِئَتْ عَيْناه » .

وأمَّا المعنى الثانى فقولُه صلَّى الله عليه وسلم : « سِبَابُ المؤمِنِ فُسُوقٌ ، وقتالُه كُفرٌ » .

---

(١) زيل بينهم فرق .

وأمّا المعنَى الثالثُ فقولَه صلّى الله عليه وسلم : « إنَّ الأعمالَ تُعرَضُ على الله يومَ الاثنَيْنِ ويَومَ الخميس ، فيغفِرُ لكلِّ امرىءٍ لا يشركُ باللهِ شيئاً إلّا امرأً كانتْ بينَه وبينَ أخيه شَحناء ، فيقولُ : اتركوا هذَيْنَ حتى يَصطلحا » .

وأمّا المعنَى الرابِع فقولَه صلّى الله عليه وسلم : « لا يحلُّ المؤمنِ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاث »

وأمّا المعنى الخامسُ فقولُ النبيّ صلّى الله عليه وسلم : « إذا التقى المتهاجرَان ، فأعْرَضَ هذا ، وأعْرَض هذَا ، فخيرُهما الذى يَبْدَأُ بالسّلام » .

وأمّا المعنَى السّادس فقولَه صلى الله عليه وسلم : « إنَّ إبليسَ له عرش على البحرِ ، فيَبُثُّ بَنِيهِ فى آفاقِ الأرض فيأْتى أحدُهم ، فيقول : فعلتُ كذا ، وفعَلتُ كذَا . فيقول : ما فعلتَ شيْئاً ، ويأتى أحَدُهُمْ فيقولُ : زَيَّلْتُ بَيْنَه وبين أخِيه ، أوْ بَيْنَه وبين زوْجته ، فيقولُ : نعمَ الولَدُ أنْت ! » .

فانظر كم فى هذه الأسطرِ اليسيرة من معنى خبرٍ نبوىٍّ . هذا سوى ما فيها من معانى الآياتِ ، وإذا عددْتَ هذه الكلماتِ المذكورةَ فى هذهِ الأسطر وجدتَها جميعها منتظمةً من الآيةِ والخَبَر .

وهذا مما يدلّك على الإكثارِ من المحفوظِ واستحضاره عند الحاجةِ إليهِ على الفورِ .

ومن ذلك ما ذكرته فى صدر كتاب ، وهو جواب عن كتاب يتضمن تهديدا وتخويفا ، فقلت :

« وَرَدَ الكتابُ مضمَّناً من الوَعْدِ والوَعِيدِ ما آنسَ نفْسَ المملوكِ وَأَوْحَشَها ، ونَقَعَ ضلوعَه وَأَعْطَشَها ، وأقامَ له من الظُّنُونِ السَّيئةِ جنوداً تُقاتِلُه ، وتأخذَ عليه شُعَبَ الأفكارِ فلا تزَاولُه . وكانتْ كلماتُه طِوالا ، وأوراقُه ثقالا ، وما أفلت سَطرٌ من سُطورِه إلَّا كانَ الآخرِ له عِقالا ، ولمَّا استكْمَلَ الوقوفَ عليه تَقَلَّبَتْ أطوارُ الْخَوْفُ والرَّجاءِ من أطواردِ ، وعُرِضَتْ عليه الجَنَّةَ والنارُ فِى قرطاسِهِ ، كما عُرِضَتْ على رسول الله صلَى الله عليه وسلم فى عَرْضِ جِداره ، ولولاَ وُثوقُه بأناةِ مَوْلانا لذهبتْ نفسُه فَرَقاً ، وابتغى فى السماءِ سُلّما ، وفى الأرض نَفَقاً ، لكنَّه قد توسَّم فى كرمِه مخايلَ الصُّنْعِ الوَسِيمِ ، وغرَّه منْهُ ما غرَّهُ من رَبِّه الكريم ، وعلم أنَّ خُلُقَ حِلمه يغلبُ خُلُقَ غَضَبِه ، إذْ هذا حادث وذاك قديم » .

فى هذا الفصلِ معنَى خبرٍ من الأخبار النبويَّة ، وهو أنَّه كانَ — صلواتُ الله عليه — يخطبَ ، فمالَ بيده إلى الجدَار ، وقال : « عُرِضَتْ علىَّ الجنةَ والنَّار فى عَرْض هذَا الجدار ، فلمْ أرَ كاليومِ فى الخيْرِ والشَّرِّ » .

ومن ذلك ما ذكرته فى صدر كتاب إلى بعض الإخوان ، وهو :

« الخادمُ يواصلُ بالدُّعاءِ الّذِى لايزالُ لقلبه زميلاً ، ولِلِسانِهِ رَسِيلاً (١) ، وإذا

---

(١) يقال راسله فى عمله إذا تابعه فيه فهو رسيل .

رفع أذنته الملائكة قرباً إذا تباعدت عن غيره ميلا ، ولا اعتداد بالدعاء إلا إذا صدر عن أكرم مصدر ، ووجد له فوق السماء مظهراً وإن لم يكن هناك من مظهر ، ووصف باطنه بأنه الأبيض الناصع الذى هو خير من ظاهر الأشعث الأغبر ، ولا يعامل الخادم أهل وده إلا بهذه المعاملة ، ومن خلقه المجازفة فى بذل المودة إذا أخذ الناس نسبة المكايلة » .

فى هذا معنى خبرين :

أحدهما : قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنه إذا كذب الكاذب تباعد الملك عنه ميلا لنتن كذبه » .

والآخر : قوله صلى الله عليه وسلم : « رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » .

ومن هذا الباب ما ذكرته فى كتاب يتضمن خطبة مودة :

فابتدأت الكلام فيه بعد تصدره بالدعاء ، فقلت :

« لولا العادة لرفع الخادم كتابه هذا أن يسطر فى ورقة ، وليس ذلك إلا لإرساله فى خطبة مودة رأى صورتها فى سرقة(١) ، ولما تأملها قال : إن يكن ذلك من عند الله يمضه ، وأبدى لها صفحة الرضا ، وإن كانت كل مودة لم ترضه ، وخير المودات ما ليس لها ضرة تشاركها فى وسامتها ، ولا تضاهيها فى درجة كرامتها . فتلك التى تزدهى ذا الهمة أبوة وجمالا ، ولم يغله مهرها ولو بذل فيه نفسا لا مالا ، وما يظنها الخادم إلا هذه المودة التى خطبها ، وقد

---

(١) السرقة شقة حرير بيضاء ، قال أبو عبيدة : كأنها كلمة فارسية ، والجمع سرق مثل قصبة وقصب .

علمت أن تكونَ راغبةً ولـكنْ هو الّذى أرْغبها ، على أنه لم يترشَّحْ لها إلّا من هُو منْ أكفائِها ، وليْسَت الـكفاءةُ هاهُنا إلا ما تبْذُله الضمائر من صَفائِها ، وقد أتاحَ الله لها كُفئًا يُـكثر من إيناسِها ، ويضعُها من البرِّ فى محلّة نَاسِها ، ويجعلَ كلَّ يومٍ من أيّامِها عُرْساً ، حتى تتَّصلَ مواسمُ أعراسِها » .

ثم مضيتُ على هذا النَّهج إلى آخر الـكتابِ ، والمعنى المأخوذ فيه من الخبر النبوى فى موضعين :

الأول : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضى الله عنها « إنّ جبريلَ عليه السلامُ عَرَضَ علىَّ صورَتَكِ فى سَرَقَة — والسَّرَقَةُ حريرةٌ بيضاء — وقال : هذه زوجتُك فى الدُّنيا والآخرةِ ، فقلتُ : إنْ يكنْ ذلِك من عندِ الله يُمْضِه » . فأخذت أنا هذا المعنى ، ونقلتُه إلى خِطْبةِ مَوَدَّةٍ ، ولا يأتى فى خِطبة الموَدَّاتِ شىء أحسنُ منه ، ولا ألطفُ ، ولا أشَدُّ مقصداً .

الخبرُ النبوىُّ الثانى : قولُ النبىِّ صلى الله عليه وسلّم : « إنَّما تُنـكَحُ المرأةُ لأرْبَعٍ : لِحَسَبِها ، أو لِدِينِها ، أو لِمالِها ، أو لِجَمَالِها » . فقلتُ أنا « فتلكَ التى تزدهِى ذا الهِمَّة أبوَّةً وجمالا » أى قد جمعتِ الحسَبَ والجمال .

ومن ذلك ما ذكرته فى سبب حب المال ، وهو :

« بين المالِ عَلاقَةٌ وكيدة وبينَ القلوب ، وهى لهُ بمنزلةِ المحبِّ وهو لها بمنزلةِ المحبُوب ، وليسَ ذلِك إلا لأنَّ الله قبضَ قَبْضَةً من جَمِيع الأرْض فخلق آدمَ من تلكَ القَبْضة ، ويوشِكُ حينئذٍ أنّ صُورَةَ قلبه تكوَّنَتْ من مَعْدن الذّهب

والفِضَّة ، ولولا أنْ يكونَ مِنهما عُنصر إبْدائِه ، لما جعَلهما الأطبَّاء دواءَه من دائِه ، فلا تستغرِبْ إذَنْ أن يكونَ على حُبِّهما مطبوعا ، إذْ كانَ منْهما مَصْنُوعاً » .

وهذا المعنى من قولِ النَّبى صلَّى الله عليه وسلم : « إنّ الله خلقَ آدمَ من قبضَةٍ قبَضها من جَميعِ الأرض ، فجاءَ بَنُو آدم على قدْر الأرض ، منهم الأحمرُ والأبيضُ والأسودُ ، وبينَ ذلك ، والحَزْنُ والسَّهلُ والخبيثُ والطَّيب » غيرَ أنِّى استَنبطتُ أنَا حُبَّ المالِ من هذا الحديثِ ، وهو معنًى غريبٌ لم أُسْبَقْ إليه .

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف كلام ، وهو :

« ليس السِّحْرُ ما أُودِعَ فى جُفِّ طَلْعَة[١] ، بل ما أُودِعَ فى صَوْغِ مَعْنًى أو نظمِ سَجْعَة ، ولذلكَ لبيدٌ[٢] فى شِعرِه أسْحَرُ من لَبيدٍ[٣] فى سِحْرِه ، وكلا صُنعِهِمَا مِنَ الغَريب العَجيب ، غيرأن ما يُسْتَنْبَطُ مِن القَلْبِ أعْجَبُ مِمَّا يُدْفَنُ فى القَلِيب » .

---

(١) الجف بالضم وعاء الطلع ، والجف أصل النخلة

(٢) هو لبيد بن ربيعة العامرى أحد أصحاب المعلقات .

(٣) هو لبيد بن الأعصم الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى حديث عائشة قول النبى صلى الله عليه وسلم : أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى ، فقال أحدهما لصاحبه . ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب ، قال : من طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، قال : فى أى شىء ؟ قال : فى مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر ، قال : وأين هو ؟ قال فى بئر ذروان ، فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ناس من أصحابه ، فجاء فقال : ياعائشة كأن ماءها نقاعة الحناء ، أوكان رءوس نخلها رءوس الشياطين . قلت : يارسول الله أفلا استخرجته؟ قال : قد عافانى الله، فكرهت أن أثور على الناس فيه شرا ، فأمر بها فدفنت .

وهذا المعنى مأخوذٌ من قصَّةِ لبيد بن الأعصَم فى سِحْرِه النبى صلى الله عليه وسلم ، ومَنْ عرفَ القصَّة وصُورَتَها عَلِمَ ماقدْ ذكرته فى نثر هذه الكلماتِ البديعة .

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف المنجنيق من جملة كتاب ، فقلت :

« وَنُصِبَ المَنْجَنيقُ فجَثَمَ بين يدى السُّورِ مَناصِياً ، وبَسَطَ كفَّه إليه مُؤَاتِياً ، ثم تولَى عُقُوبتَه بعَصاه التى تَفْتِك بأحجارِه ، وإذا عَصَى عَلَيْها بلدٌ أخَذتْ فى تأديبِ أسْوَارِه ، فما كانَ إلا أن استمرَّت عُقوبَتُها عليْه حتى صَارَ قائِمُهُ حَصِيداً ، وعَاصِيه مُسْتَقِيداً ، وقال : ألمْ يكنْ نهى عن المدِّ والتَّجرِيدِ فَمَالى لا أرى إلاَّ مَدًّا وتَجْرِيداً . وعند ذَلِك أذعَنَ لفتح الأبواب ، وتَلاَ قَوْلَه تعَالَى « لِكُلِّ أجَلٍ كتاب »[1] وكذلك لمْ نَأْتِ صعباً إلا استَسْهل ، ولا حَثَثْنَا مِطِيًّا إلا استَعْجَل ، ولطالَمَا وقفَ غيرُنا على هذا البَلَد ، فشفَّه طولُ الانتظار ، ولم يحْظ منه إلا بمُسَاءلةِ المنْصَبِ أحْجَارَ الدِّيار »

فى هذا الفصلِ معنًى خبر من الأخبار النبوِيَّة ، وهو قول النبى صلَّى الله عليه وسلم فى النهى عن ضرب المحدود : « لا مَدَّ ولا تجْرِيد » أىْ لا يمدُّ على الارضِ ، ولا يُجرَّدُ عَنْهُ ثَوْبُهُ .

ومن ذلك ماذكرته فى صدر كتاب إلى الديوان العزيز النبوى ، وهو :

« خلَّدَالله دولةَ الدِّيوان العزيز النبوىِّ ، ولازالتْ أكنافُها وَادِعَة ، وعلياؤُها

---

(١) سورة الرعد : الآية ٣٨ .

جامعة ، وجُدُودها كالنجوم التى ترَى فى كلّ حينٍ طالعة ، وأيامُها كالليالى ساكنة . ولياليها كالأيامِ ناصعة ، وأبوابُها كأبواب الجنةِ التى يقالُ فيها ثامنٌ وثامنة ، إذا قيلَ فى أبواب غيرِها سابعٌ وسابعة . وهذا الدُّعاء قد استجابَه الله قبل أن ترْفع إليه يدٌ ، أو يَنطِقَ به ضَمير ، فإذا دعَا به الخادمُ وَجدَ صُنْع اللهِ قد سَبقه أولا ، وجاءَ هُو فى الزَّمنِ الأخير . فليس له حينئذٍ إلا أن يدعُوَ لما خوّله الديوانُ العزيزُ بالدّوامِ ، وأن يُعيذَه من النّقص بعد التّمام ، ثم يستَهْدِى ما يؤَهّلُ له من الخِدَمِ التى يعتدُّها من لطائفِ الإحسان ، وإذا نَدِبَ لتكليفِ أوامرِها قال والحمدُ والشكرُ يسْجُدان . ولا شكّ أن درجاتِ الأولياء تتفَاوَتُ فى الصفاتِ والأسْماء ، فمنها ما يكونُ ببطن الأرض ، ومنها ما يُرى كالكوْكَبِ فى أُفقِ السّماء ، ولولاَ النَّهى عن تزْكيَةِ المرءِ نفسَهُ لادَّعَى الخادمُ أنَّ لَه أعْلاها ، وجاء بالأولياء من بعدِه ، فقال : « والشّمْسِ وضَحاها والقمرِ إذَا تلَاهَا »[1] . لكنه لايمُنُّ بما يعتدُّه عندَ الله من ذَخْره ، وسِرُّ الولاءِ فى هذا المقامِ أكرَمُ من جَهْرِه ، وليس الذى يَمُنُّ بصَلاتِه وصِيَامِه كالذى يَمُنُّ بسرٍّ وَقَرَ فى صَدْرِه ، والله لاينظرُ إلا الأعْمَالِ وإنما يَنظُرُ إلى القُلوب ، وَفرْقٌ بين المُطيع بمحضَرِ الشَّهادةِ ، وبيْنَ المطيعِ بظَهْرِ الغُيوب ، ولو اطّلعَ الديوانُ العزيزُ على ضمير الخادمِ فى الطاعةِ لسَرَّه ، وعلم أنّه الأشْعَثُ الأغبَرَ الذى لو أَقسَم على اللهِ لأبرَّه » .

---

(١) سورة الشمس : الآيتان ١ و ٢ .

فى هذا الفصل من الآياتِ والأخبارِ عدّة مواضع. وهذا الموضعُ مختصٌّ بالأخبارِ فلنذكرْها دونَ الآيات .

أما الأول منها فقولُ النبيّ صلّى الله عليه وسلم : « إنكم ترون أهلَ الدّرجات العُلاَ فى الجنّةِ كما تَرَوْنَ الكواكب فى أفق السماء » .

وأما الخبرُ الثانى فقوله صلى الله عليه وسلم : « ما فَضلكمْ أبو بكر بصلاةٍ وصيام ، ولكنْ فَضَلَكمْ بسِرٍّ وَقَرَ فى صَدْره » .

وأمّا الخبرُ الثالث فقوله صلى الله عليه وسلم : « رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذِى طِمْرَيْن لوْ أقسَم على الله لأبرّه »

وفيما أوردته من حل المعانى الشعريّة ، وحلّ آياتِ القرآن والأخبار النبويّة ، طريقٌ واضحٌ لمن يَقْوَى على سُلوكه ، واللهُ الموفّق للصّواب

المقالة الأولى

في الصناعة اللفظية

وهي تنقسم قسمين:

القسم الأول

في اللفظة المفردة

اعلمْ أنه يحتاجُ صاحبُ هذه الصِّناعة في تأليفهِ إلى ثلاثةِ أَشياء:

الأول منها: اختيار الألفاظ المفردة:

وحكمُ ذلك حكمُ اللآلئ المبدَّدَةِ، فإنّها تتخيَّرُ وتُنْتَقَى قبْلَ النظم.

الثاني: نظم كل كلمة مع أختها في المشاكلة لها:

لئلا يَجِيءَ الكلامُ قَلِقاً نافراً عن مواضِعه، وحكمُ ذلكَ حكمُ العِقْدِ المنظومِ في اقترانِ كل لُؤْلُؤةٍ منه بأخْتِها المشاكلة لها.

الثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه:

وحكمُ ذلكَ حكمُ الموْضعِ الَّذِي يوضعُ فيه العِقْدُ المنظومُ، فتارةَ يُجْعَلُ إكليلاً على الرأس، وتارةَ يُجعل قِلادةَ في العُنُق، وتارَةَ يُجْعَلُ شَنْفاً[1] في الأُذُنِ. ولكل موضعٍ من هذه المواضعِ هيئة من الحسن تخصُّه

(1) الشنف: القرط.

فهذه ثلاثة أشياء ، لابد للخطيب والشاعر من العناية بها ، وهي الأصلُ المعتمد عليه في تأليفِ الكلامِ من النَّظم والنَّثر .

فالأول والثانى من هذه الثلاثةِ المذكورةِ هما المرادُ بالفصاحة . والثلاثة بجملتها هى المرادُ بالبلاغة .

وهذا الموضعُ يضلُّ فى سلوك طريقة العلماء بصناعةِ صَوْغ الكلامِ من النَّظم والنَّثر ، فكيفَ الجُهَّال الذين لم تَنفَحْهُمْ رائحة ، ومَنْ الَّذى يُؤتيه الله فطرة ناصعة ، يكادُ زَيتُها يُضىء ولو لم تَمسَسْهُ نار ، حتى ينظرَ إلى أسرار ما يستعملُه من الألفاظِ ، فيضَعها فى مواضِعها .

ومن عجيبِ ذلك أنك تَرى لفظتين تدلَّان على معنى واحدٍ ، وكلاهما حسن فى الاستعمال ، وهما على وَزن واحد وعِدَّةٍ واحدة ، إلَّا أنَّه لا يحسُنُ استعمالُ هذه فى كلِّ موضعٍ تستعملُ فيه هذه ، بل يُفرَّقُ بينهما فى مواضع السَّبْك ، وهذا لا يدرِكُه إلّا مَنْ دقَّ فهمُهُ ، وجلَّ نظرُه

فمن ذلك قولُه تعالى : « ما جعَل اللهُ لرجلٍ من قلبين فى جَوْفِه[1] » وقولُه تعالى : « ربِّ إنِّى نذرْتُ لكَ ما فى بطنى مُحَرَّرًا[2] » . فاستعمل « الجوف » فى الأولى ، و « البطن » فى الثانيـة ، ولم يَستعمل « الجوف » موضعَ « البطن » ولا « البطن » موضعَ « الجوف » . واللفظتان سواء فى

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٤ .
(٢) سورة آل عمران : الآية ٣٥ ومعنى « محررا » مخلصا للعبادة .

الدِّلالة ، وهما ثلاثيَّتان فى عددٍ واحدٍ ، ووزنُهما واحدٌ أيضًا . فانظرْ إلى سبكِ الألفاظِ كيفَ تفعل .

ومما يجرِى هذا المجرى قولُه تعالى : « مَا كَذَبَ الفؤَادُ ما رَأَى »[1] .
وقوله : « إن فى ذلك لذِكرَى لمن كانَ له قلبٌ أو ألْقى السمعَ وهو شهيد »[2] فالقلبُ والفؤادُ سواء فى الدِّلالة ، وإن كانا مختلفين فى الوزن ، ولم يستعمل فى القرآن أحدُهما فى موضعِ الآخَر

وعلى هذا وَرَدَ قولُ الأعرَجِ[3] من أبياتِ الحماسة :

نحنَ بنو الموتِ إذا الموتُ نزَلْ لا عارَ بالموتِ إذا حُمَّ الأجَلْ
الموتُ أحلى عندنا من العَسَلْ[4]

---

(١) سورة النجم : الآية ١١ .
(٢) سورة (ق) : الآية ٣٧ .
(٣) قال التبريزى : قيل الصحيح أنها لعمرو بن يثربي ، وكلاهما من شعراء الإسلام ، والأعرج منسوب إلى معن طيء ، وقد أدرك الدولتين ، وكان أحد الخوارج فى زمن بنى أمية وبنى العباس .
(٤) لعل ابن الأثير اختصر الشعر على هذا النحو ، والشعر كما ورد فى الحماسة (١/١١٠) على هذا الترتيب :

أنا أبو برزة إذ جد الوهل خلقت غير زمل ولا وكل
ذا قوة وذا شباب مقتبل لاجزع اليوم على قرب الأجل
الموت أحلى عندنا من العسل نحن بنى ضبة أصحاب الجمل
نحن بنو الموت إذا الموت نزل ننعى ابن عفان بأسراف الأسل
* ردوا علينا شيخنا ثم بجل *

الوهل : الفزع ، والزمل : الضعيف ، والوكل : الذى يتكل على غيره ، والأسل : الرماح . وبجل بمعنى حسب .

وقال أبو الطيّب المتنبّي :

إذا بي مشتْ حفّتْ على كل سابحٍ رجالٌ كأن الموتَ فى فمها شهدُ[1]

فهاتان لفظتان هما « العسل » و « الشهد » وكلاهما حَسَنٌ مستعملٌ ، لا يُشَكُّ فى حسنه واستعماله . وقد وردتْ لفظةُ « العسل » فى القرآن دون لفظة « الشهد » لأنّها أحسنُ منها ، ومع هذا فإنّ لفظةَ « الشهد » وردتْ فى بيتِ أبى الطيِّب ، فجاءتْ أحسنَ من لفظة « العسل » فى بيت الأعرج

وكثيراً ما نجدُ أمثال ذلك فى أقوالِ الشعراء المفلقين وغيرهم منْ بلَغاء الكتّاب ومِصقَعِى الخطباء ، وتحته دقائقُ ورموزٌ إذا عُلِمَتْ وقيسَ عليها أشباهها ونظائرُها كانَ صاحبُ الكلام فى النظم والنثر قد انتهى إلى الغاية القُصْوَى فى اختيارِ الألفاظ ، ووضعها فى مواضعها اللائقة بها .

واعلمْ أن تفاوتَ التفاضُل يقعُ فى تركيب الألفاظ أكثر مما يقعُ فى مُفرداتها ، لأن التركيبَ أعسَرُ وأشقُّ .

ألا ترَى ألفاظَ القرآن الكريم — من حيثُ انفرادُها — قد استعملتها العربُ ومَنْ بعدهم ، ومع ذلك فإنّه يفوقُ جميع كلامهمْ ، ويعلُو عليه ؟ وليس ذلك إلا لفَضيلةِ التركيب .

---

(١) هكذا رواه ابن الأثير ، ورواية الديوان (١/٣٧٤) :

إذا شئت حفت بى على كل سابح رجال كأن الموت فى فمها شهد

والسابح : الفرس السريع الجرى ، كأنه يسبح فى سيره ، والشهد : العسل .

وهل تشكُّ أيُّها المتأمِّل لكتابنا هذا إذا فكَّرْتَ فى قوله تعالى : « وقيل ياأرضُ ابلعِى ماءكِ ، وياسماءُ أقلِعِى ، وَغِيضَ الماء ، وقضِيَ الأمرُ ، واستوتْ على الجوديِّ ، وقيلَ بُعْدًا للقومِ الظالمينَ »(١) ، أنك لم تجدْ ما وَجَدْتَه لهذهِ الألفاظِ من المزِيَّةِ الظاهِرَةِ إلّا لأمرٍ يرجعُ إلى تركيبها ، وأنه لم يَعرِضْ لها هذا الحُسْنُ إلا مِنْ حيثُ لاقَتْ الأولى بالثانية ، والثالثةُ بالرابعة ، وكذلك إلى آخرها

فإن ارتَبْتَ فِي ذَلِكَ فتأمَّلْ ، هلْ ترى لفظةً منها لو أُخِذَتْ من مكانِها ، وأُفرِدَتْ من بيْنِ أخَوَاتِها كانتْ لابسةً من الحُسْنِ ما لبِسَتْه فى مَوضعها من الآية ؟

ومما يشهدُ لذلِكَ ويُؤيِّدَه أنك ترى اللفظة تروقك فى كلامٍ ، ثم تراها فى كلامٍ آخر ، فتكرهُها ، فهذا ينكره من لم يذُقْ طعمَ الفصاحةِ ولا عَرَفَ أسرارَ الألفاظِ فى تركيبِها وانفرادها(٢) .

ومأضربُ لك مثالًا يشهدُ بصحة ما ذكرتُه ، وهو أنه قد جاءت لفظة واحدة فى آيةٍ من القرآن وبيت من الشعر ، فجاءتْ فى القرآنِ جَزْلَةً متينَةً ، وفى الشعر ركيكةً ضعيفةً ، فأثرَ التركيبُ فيها هذينِ الوَصفين الضِّدَّين

(١) سورة هود : الآيه ٤٤ .

(٢) الرأى الذى قاله ابن الأثير فى أن مجال التفاوت إنما هو فى التراكيب دون الألفاظ هو رأى عبد القاهر الجرجانى الذى بسطه فى كتابه « دلائل الإعجاز » بل إن ابن الأثير الذى يباهى دائما بابتكاره نقل رأى عبد القاهر بأكثر كلماته ، وهو ذال عينه هو الذى مثل به عبدالقاهر وعلق عليه هذا التعليق بتفصيل أكثر ـ انظر دلائل الإعجاز : صفحة ٣٦ وما بعدها .

(٣) عبارة عبد القاهر الجرجانى : ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر . انظر دلائل الإعجاز صفحة ٣٨ .

أما الآيةُ فهى قولُه تعالى : « فإذا طَعِمتُمْ فانتشِرُوا ولا مُستأنِسِينَ لحديثٍ ، إنّ ذلكُمْ كان يُؤذِى النبىَّ فيستحيِى منكُمْ ، واللهُ لا يستحيِى من الحقّ »[١]

وأما بيتَ الشِّعرِ فهو قولُ أبى الطَّيِّب المتنبِّى :

تَلَذُّ لَهُ المروءَة وهى تُؤذِى ومَنْ يَعْشَقْ يَلَذُّ لهُ الغرَامُ[٢]

وهذا البيتُ من أبياتِ المعانى ، الشَّرِيفة ، إلا أن لفظة « تؤذى » قد جاءتْ فيهَ وفى الآيةِ من القرآن ، فحطّتْ من قدْرِ البيت ، لضَعْف تركيبها ، وحُسْنِ موقعها فى تركيب الآية .

فأنصِفْ أيُّها المتأمّلُ لما ذكرناه واعرِضهُ على طبعِكَ السَّليم ، حتَّى تعلمَ صحته .

وهذا موضعٌ غامض يحتاجُ إلى فضلِ فِكْرة ، وإمعانِ نَظَرٍ وما تعرَّضَ للتنبيه عليه أحدٌ قبلى[٣] .

وهذه اللفظة التى هى « تُؤذِى » إذا جاءت فى الكلام فينبغى أن تكون مندَرِجاً مع ما يأتى بعدها ، متعلقةً به ، كقوله تعالى : « إنَّ ذلكم كان يُؤْذِى النبىَّ » وقد جاءتْ فى قول المتنبى منقطعة . ألا ترى أنه قال : « تَلَذُّ له المروءَةَ وهى تُؤذِى » . ثم قال : « ومن يعشَقْ يلذُّ له الغرام » فجاءَ بكلام مستأنَف .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٥٣

(٢) ديوان المتنبى ٤/٧٥ .

(٣) كذب ابن الأثير وغالط ، وليس فيما قال رأى جديد لم يسبق إليه ، بل إنه نقل كلام عبد القاهر ورأيه وأمثلته كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وقد جاءت هذه اللفظة بعينها فى الحديث النبوى ، وأضيف إليها كاف الخطاب ، فأزال ما بها من الضعف والركة . وذاك أنه اشتكى النبى صلى الله عليه وسلم ، فجاءه جبريل عليه السلام ، ورقاه ، فقال : « باسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك » .

فانظر إلى السر فى استعمال اللفظة الواحدة ، فإنه لما زيد على هذه اللفظة حرف واحد أصلحها وحسنها .

ومن هاهنا تزاد الهاء فى بعض المواضع ، كقوله تعالى : «فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرءوا كتابيه ، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه »[١] ثم قال : « ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه »[٢] فإن الأصل فى هذه الألفاظ كتابى ، وحسابى ، ومالى ، وسلطانى ، فلما أضيفت الهاء إليها — وتسمى « هاء السكت » — أضافت إليها حسناً زائداً على حسنها ، وكستها لطافة ولباقة .

وكذلك ورد فى القرآن الكريم : « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة »[٣] فلفظة « لى » أيضا مثل لفظة « يؤذى » وقد جاءت فى الآية مندرجة متعلقة بما بعدها ، وإذا جاءت منقطعة لا تجىء لائقة ، كقول أبى الطيب أيضاً :

تمسى الأمانىُّ صرعَى دُونَ مَبْلَغِهِ ... فما يَقُولُ لشىء ليت ذلكَ لِى[٤]

---

(١) سورة الحاقة : الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

(٢) سورة الحاقة : الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) سورة (ص) : الآية ٢٣ (٤) ديوان المتنبي ٣/٨١

وربما وَقَع بعضُ الجهّال فى هذا الموضعِ ، فأدْخَلَ فيه ما ليسَ منه ، كقولِ أبى الطيِّب :

ما أَجْدَرَ الأيَّامَ والليالِى ... بأن تقولَ مَالَهُ ومَالى[1]

فإن لفظة « لى » هاهنا قد وردت بعد« ما» وقبلها «ماله » ثم قال : «ومالى» فجاء الكلام على نسقٍ واحدٍ . ولو جاءت لفظة « لى » هاهنا كما جاءت فى البيت الأوّل لكانتْ منقطعةً عن النّظير والشبيه ، فكان يَعْلوها الضعفُ والركّة .

وبين وُرُودها هاهنا وَوُرُودِها فى البيت الأول فرقٌ يحكمُ فيه الذوقُ السليم .

وهاهنا من هذا النوع لفظة أخرى قد وَرَدَتْ فى آيةٍ من القرآنِ الكريم ، وفى بيتٍ من شِعْر الفَرَزْدق ، فجاءتْ فى القرآنِ حَسَنَةً ، وفى البيتِ الشعر غيرَ حَسنة ، وتلك اللفظة هى لفظة « القمل » أما الآية فقولُه تعالى : « فأرسَلْنا عليهمُ الطُّوفَانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضَّفادِعَ والدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ »[2] . وأما البيتُ الشّعر فقولُ الفَرَزْدق :

مِنْ عِزِّهِ احتجرت كلَيْبٌ عندَهُ ... زَرْباً كأنَّهمُ لديْهِ القَمَّل[3]

---

(١) ديوان المتنبى ٣/٣١١ (٢) سورة الأعراف : الآية ١٣٣

(٣) هكذا فى المثل السائر ، ورواية ديوان الفرزدق (٧١٥) :

من عزهم جحرت كليب بيتها ... زرباً كأنهم لديه القمل

ومعنى جحرت دخلت جحرها ، واجتحر له جحراً اتخذه ، واحتجر الأرض ضرب عليها مناراً ، واحتجر به التجأ واستعاذ ، والزرب موضع الغنم ، والقمل الدبى ، وهو أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها ، أو البراغيث ، أو كبار القردان .

وإنما حَسُنَتْ هذه اللفظة فى الآية دونَ هذا البيتِ من الشِّعر لأنَّها جاءتْ فى الآيةِ مُندرجةً فى ضِمن كلام ، ولمْ يَنقطِع الكلامُ عندَها ، وجاءتْ فى الشِّعْر قافية ، أىْ آخراً انقطعَ الكلامُ عندَها .

وَإذا نظرْنَا إلى حِكْمَةِ أسْرَار الْفصَاحَةِ فى القرآن الكريمِ غصْنا مِنْهُ فى بحر عَمِيق لا قَرَارَ له ،

فِمنْ ذلكَ هذه الآيةُ المشارُ إليها ، فإنَّها قد تضمَّنَتْ خمسةَ ألفاظٍ ، وهى : الطُّوفَان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدَّم . وأحسَنُ هذه الألفاظِ الخمسةِ هىَ الطُّوفَانَ ، والجراد ، والدَّم . فلما وردتْ هذه الألفاظَ الخمسةُ بجملتها قُدِّم منها لَفظَتَا « الطُّوفان » و « الجراد » وأخِّرَتْ لفظة « الدَّم » آخراً ، وجُعِلَتْ لفظةَ « القُمَّل « والضفادع » فى الوسَط ، لِيطْرُقَ السمعَ أولا الحسَنَ من الألفاظِ الخمسة ، وينتهى إليه آخرا . ثم إن لفظة « الدَّم » أحسنُ من لفظتى « الطوفان » و « الجراد » وأخفُّ فى الاستعمال ، ومن أجْل ذلك جىءَ بها آخِراً . ومُراعاةُ مثل هذه الأسرارِ والدَّقائق فى استعمالِ الألفاظِ ليسَ من القدرة البشريّة .

وقدْ ذكرَ من تقدمَنى من علماء البيانِ للألفاظ المفردةِ خصائص وهَيْئات تتَّصفُ بها . واختلفُوا فى ذلِكَ ، واسْتَحْسَنَ أحدُهُمْ شَيْئاً ، فخُولِفَ فيه ، وكذلكَ استقْبَحَ الآخرُ شيئاً ، فَخُولِفَ فيه

ولو حقّقُوا النظرَ ووقفوا على السِّر فى اتصاف بعض الألفاظ بالحسْن وبعضِها بالقُبْحِ لما كانَ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ فى شىء منها .

وقد أشرتُ إلى ذلكَ في الفصلِ الثامنِ[1] من مقدمة كتابي الذي يشتملُ على ذكرِ الفصاحةِ ، وفي الوقوفِ عليهِ والإحاطةِ به غِنى عن غيرهِ ، لكنْ لابدَّ أنْ نذكر هاهنا تفصيلاً لما أجملْناه هناك ، لأنَّا ذكرْنا في ذلك الفصلِ أنَّ الألفاظَ داخلةٌ في حيِّزِ الأصواتِ ، لأنها مركبةٌ من مخارج الحرُوف ، فما استلذّه السمع منها فهو الحسَنَ ، وما كَرِهَه ونبَا عَنْهُ فهو القبيح .

وإذا ثَبَتَ ذلِكَ فلا حَاجَةَ إلى ما ذُكِرَ من تلكَ الخصائص والهَيْئَاتِ الَّتي أورَدَها علماء البَيان في كتبهم ، لأنَّه إذا كان اللفظُ لذيذاً في السَّمْع كان حَسَناً ، وإذا كان حَسَناً دخلتْ تلك الخصائصُ والهَيْئاتُ في ضِمْن حُسْنه .

وقد رَأيت جماعة من الجهَّالِ إذا قيلَ لِأحدهمْ : إنَّ هذهِ اللفظةَ حسنةٌ ، وهذه قبيحةٌ ، أنكرَ ذَلِكَ ، وقال : كلُّ الألفاظِ حَسَن ، والواضِعُ لم يضعْ إلَا حَسَناً !

ومنْ يبلغْ جهله إلى أن لا يفرِّق بين لفظةِ « الغصنَ » ولفظة « العُسْلوج » وبينَ لفظة « المدامة » ولفظة « الإسْفنْطِ » وبينَ لفظة « السيف » ولفظة « الخنْشَلِيل » وبين لفظة « الأسَدِ » ولفظة « الفَدَوْكس » فلا ينبغي أن يخاطبَ بخطاب ، ولا يُجاوَبَ بجواب ، بلْ يُترَكُ وشأنه ، كما قيل : اتركوه

---

(١) انظر صفحة ١١٢ من هذا الكتاب

الجاهل بجهله . ولو ألقى الجعر[1] في رجله ! وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد شوهاء الخلق ، ذات عين محمرة ، وشفة غليظة كأنها كلوة ، وشعر قطط[2] كأنه زبيبة ، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ، ذات خد أسيل[3] ، وطرف كحيل ، ومبسم كأنما نظم من أقاح[4] ، وطرة[5] كأنها ليل على صباح .

فإذا كان بإنسان من سقم النظر أن يسوى بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوى بين هذه الألفاظ وهذه . ولا فرق بين النظر والسمع في هذا المقام ، فإن هذا حاسة وهذا حاسة ، وقياس حاسة على حاسة مناسب .

فإن عاند معاند في هذا ، وقال : أغراض الناس مختلفة فيما يختارونه من هذه الأشياء ، وقد يعشق الإنسان صورة الزنجية التي ذممتها ، ويفضلها على صورة الرومية التي وصفتها ! .

قلت في الجواب : نحن لا نحكم على الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال ، بل نحكم على الكثير الغالب . وكذلك إذا رأينا شخصاً يحب أكل الفحم مثلا ، أو أكل الجص والتراب ، ويختار ذلك على ملاذ الأطعمة .

---

(١) الجعر مايبس من العذرة في المجعر أى الدبر ، أو نحو كل ذات مخلب من السباع .

(٢) شعر قطط شديد الجعودة ، وفي التهذيب : القطط شعر الزنجي .

(٣) الأسيل من الخدود الطويل المسترسل .

(٤) الأقاح والأقاحي جمع الأقحوان وهو البابونج .

(٥) الطرة الناصية .

فهل نستجيدُ هذه الشهوة ، أو نحكم عليه بأنه مريض ، قد فسدت معدته وهو محتاجٌ إلى علاجٍ ومداواة ؟

ومن له أدنى بصيرة يعلمُ أنّ للألفاظ فى الأذن نغمةً لذيذةً كنغمةِ أوتار ، وصوتاً منكراً كصوتِ حمار ، وأن لها فى الفمِ أيضاً حلاوةً كحلاوةِ العسل ، ومرارةً كمرارةِ الحنظل . وهى على ذلك تجرى مجرى النغماتِ والطعوم

ولا يسبق وهمك أيها المتأملُ إلى قولِ القائل الذى غلب عليه غلظ الطبع وفجاجة الذهن بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا ، فهذا دليلٌ على أنه حسن ، بلْ ينبغى أن تعلمَ أن الذى نستحسنه نحنُ فى زماننا هذا هو الذى كان عند العربِ مستحسناً ، والذى نستقبحهُ هو الذى كانَ عندهم مستقبحا .

والاستعمالُ ليسَ بدليلٍ على الحسنِ ، فإنا نحنُ نستعملُ الآنَ من الكلامِ ما ليسَ بحسن ، وإنما نستعمله لضرورةٍ . فليسَ استعمالُ الحسنِ بممكنٍ فى كلّ الأحوال . وهذا طريقٌ يضلُّ فيه غيرُ العارفِ بمسالكه . ومن لم يعرفْ صناعةَ النظمِ والنثر ، وما يجدهُ صاحبها من الكلامِ فى صوغِ الالفاظ واختيارها فإنه معذورٌ فى أن يقول ما قالَ :

لا يعرفُ الشوقَ إلا من يُكابدُهُ ولا الصبابةَ إلا منْ يُعانيها

ومع هذا فإنّ قولَ القائلِ بأنّ العربَ كانتْ تستعملُ من الألفاظِ كذا وكذا ، وهذا دليلٌ على أنه حسن ، قولٌ فاسد ، لا يصدرُ إلا من

جاهلى ، فإنّ استحسانَ الألفاظِ واستقباحَها لا يُؤْخَذُ بالتقليدِ من العرَب ، لأنّه شيء ليس للتقليدِ فيه مَجَال ، وإنّما هو شيء له خصائصُ وهَيْئات وعلامات إذا وُجِدَتْ عُلِمَ حُسْنُهُ من قُبْحِهِ . وقد تقدم الـكلام على ذلك فى باب الفصاحةِ والبلاغةِ .

وأمّا الذى نقلد العرب فيه من الألفاظِ فإنّما هو الاستشهادُ بأشعارِها على ما يُنقَلُ من لغتها ، والأخذُ بأقوالها فى الأوضاع النحويَّةِ ، فى رفع الفاعل ، ونَصْب المفعول ، وجرّ المضافِ إليه ، وجزم الشَّرْط ، وأشـباه ذلك ، وما عداه فلا .

وحُسْنَ الألفاظِ وقبحَها ليسَ إضافيًّا إلى زيدٍ دُونَ عمرو ، أو إلى عمْرٍو دُونَ زيدٍ ، لأنَّه وصفٌ ذَوويٌّ لا يتغيَّر بالإضافةِ .

ألا ترَى أن لفظة « المُزْنَة » مثلاً حسنةٌ عند الناسِ كافةً من العرب وغيرهم ، وقَلَّ جرًّا ، لا يختلفُ أحدٌ فى حُسْنها . وكذلك لفظةَ « البُعَاق » فإنها قبيحةٌ عند الناس كافَّةً من العرب وغيرهمْ ، فإذا استعملتها العربُ لا يكونُ استعمالَهم إيَّاها مُخرِجاً لها عن القُبْح ، وَلَا يُلتفتُ إذنْ إلى استعمالهمْ إيَّاها بل يعابُ مُستعملها ، ويُغلَظ له النَّـكيرُ حيثُ استعملَها .

وقد ذكر ابنُ سنان الخفاجىُّ ما يتعلق باللفظةِ الواحدة من الأوصاف ، وقسّمها إلى عِدَّة أقسام : كتباعُدِ مخارجِ الحُرُوف ، وأن تكونَ الـكلمةُ جاريةً على العُرْفِ العربىِّ غيرَ شاذَّةٍ ، وأنْ تكونَ مصغرَةً فى موضع يُعبَّر به عن شىء لطيف أو خفىّ أو ما جرَى مجراه ، وأن لا تكونَ مبتذَلةً بين العامة ، وغير ذلك من الأوصافِ . وفى لذى ذكرهُ ما لاحاجةَ إليه .

أما تباعُد المخارج ِ فإنَّ معظَمَ اللغة العربيةِ دائر عليه ، لأنَّ الواضع قسَّمها فى وضعه ثلاثةَ أقسامٍ : ثلاثيًّا ، ورُباعيًّا ، وخُماسيًّا .

والثلاثىُّ من الألفاظِ هو الأكثر ، ولا يوجَدُ فيهِ ما يُكْرَهُ استِعماله إلاّ الشاذُ النادرُ

وأمَّا الرُّباعىُّ فإنه وسَط بين الثلاثىِّ والخُماسىِّ فى الكثرةِ عدداً واستعمالاً .

وأمَّا الخُماسىُّ فإنه الأقلُّ ، ولا يوجدُ فيه ما يستعمَلُ إلا الشاذُّ النادر .

وعلى هذا التقديرِ فإنّ أكثرَ اللغةِ مستعملٌ على غير مكْرُوه ، ولا تقتضِى حكمةُ هذه اللغةِ الشَّريفة التى هى سيدةُ اللغاتِ إلاّ ذلكَ . ولهذا أسقط الواضعُ حروفاً كثيرة فى تأليف بعضها مع بعض استثقالاً واستكراهاً ، فلم يؤلِّفْ بين حُروف الحلقِ كالحاء والخاء والعيْن . وكذلك لم يؤلف بين الجيمِ والقافِ ولا بين اللامِ والرَّاءِ ، ولا بين الزَّاء والسِّين وكل هذا دليلٌ على عنايتهِ بتأليف المتباعدِ المخارجِ دونَ المتقاربِ . ومن العجب أنّه كانَ يُخِلُّ بمثلِ هذا الأصل الكلِّى فى تحسين اللُّغة ، وقد اعتَنَى بأمُورٍ أُخَرَ جُزْئيةٍ ، كمماثلته بين حركاتِ الفِعْل فى الوجود وبينَ حركاتِ المصْدَر فى النُطق كالغَلَيانِ ، والضَربان ، والنّقَدَان ، والنّزَوَان ، وغير ذلك ممَّا جرَى مجراه ، فإن حُرُوفَهَ جميعَها متحركاتٌ ، وليسَ فيهما حرفٌ ساكنٌ ، وهى مماثلةٌ لحركاتِ الفعل فى الوُجُود

ومَنْ نظر فى حُكمه وَضْعَ هذه اللغةَ إلى هذه الدقائِق ، التى هى كالأطرافِ والحواشى ، فكيف كان يخلّ بالأصل المعوّل عليه فى تأليفِ الحروفِ بعضِها إلى

بعضٍ ، على أنه لو أراد الناظمُ أو الناثر أن يعتبر مخارجَ الحروف عند استعمال الألفاظِ ، وهل هِيَ متباعدة أو متقاربةٌ ، لطالَ الخطبُ في ذلكِ وعَسُر ، ولَمَا كان الشاعرُ ينظم قصيداً ، ولا الكاتبُ ينشيء كتاباً إلا في مدّةٍ طويلة تمضي عليها أيامٌ وليالٍ ذواتُ عددٍ كثير .

ونحنُ نرىَ الأمرَ بخلافِ ذلكَ ، فإن حاسَّةَ السَّمعِ هي الحاكمة في هذا المقامِ بحسْنِ ما يَحسُن من الألفاظ ، وقُبح ما يقبُحُ .

وسأضربُ لك في هذا مثالاً ، فأقولُ : إذا سُئِلْت عن لفظةٍ من الألفاظ ، وقيلَ لَكَ : ما تقولُ في هذه اللفظةِ ، أَحَسَنَةٌ هي أم قبيحة ؟ فإني لا أراكَ عند ذلك إلا تُفْتِي بحُسْنها أو قبحها على الفوْر ، ولو كنتَ لا تُفْتِي بذلكَ حتَّى تقولَ للسائل : اصبِرْ إلى أنْ أعتبرَ مخارجَ حرُوفها ، ثم أُفْتِيك بعد ذلكَ بما فيها من حُسْنٍ أو قُبح ، لصَحَّ لابْن سِنَانٍ ما ذَهَبَ إليه من جَعْلِ مخارج الحُروف المتباعدةِ شرطاً في اختيار الألفاظ ، وإنما شذّ عنه الأصل في ذلِكَ ، وهُو أَنَّ الحسَنَ من الألفاظِ يكونُ متباعِدَ المخارِجَ . فَحُسْنُ الألفاظِ إذنْ ليسَ معلوماً من تبَاعُد المخارِجِ ، وإنّما عُلِمَ قبلَ العِلْم بتبَاعُدِهَا .

وكلُّ هذا راجعٌ إلى حاسَّةِ السَّمع . فإذا استَحْسَنْتَ لفظاً أو استقبحْتَهُ وُجِدَ ما تستحْسِنه متباعَد المخارجِ ، وما تستقبحُه متقاربَ المخارج ، واستِحْسانها واستقباحها إنما هو قبل اعتبار المخارج ، لا بعدَه .

على أن هذه قاعدة قد شذّ عنها شواذ كثيرة ، لأنَّه قد يجيء في المتقارب المخارجِ ، ما هو حسن رائق .

ألاَ ترى أن الجيمَ والشِّينَ والياء مخارجُ متقاربة ، وهى من وسط اللسَان بينهُ وبينَ الحنك ، وتسمَّى ثلاثتُها « الشَّجَرِيَّة » وإذا تركَّبَ منها شىء من الألفاظِ جَاء حسناً رائقاً .

فإن قيلَ « جَيْش » كانتْ لفظة محمودة ، أوْ قُدِّمت الشّينُ على الجيم ، فقيل « شَجى » كانتْ أيضاً لفظة محمودة ، ومِمّا هُوَ أقربُ مخرجاً مِنْ ذلكَ الباء والميمُ والفاء ، وثلاثتُها من الشَّفَةِ ، وتسمَّى « الشفهيَّة » فإذا نُظِمَ منها شىء من الألفاظِ كانَ جميلاً حسناً كقولنا « فم » فهذه اللفظةُ من حرفَيْن هما : الفاء والميمُ ، وكقولِنا « ذُقْتُه بِفَمِى » وهذه اللفظةُ مؤلفة من الثلاثة بجُمْلتِها ، وكِلاَهما حَسَنٌ لا عيبَ فيه .

وقد وردَ من المتباعدِ المخارجِ شىء قبيحٌ أيضاً ، ولو كانَ التباعدُ سبباً للحُسْنِ لَمَا كان سَبَباً للقُبْح ، إذْ هُمَا ضِدّانِ لا يَجْتمِعَانِ . فمنْ ذلكَ أنه يقالُ « مَلَعَ » إذا عدا ، فالميمُ مِنَ الشَّفَة ، والعينُ من حرُوف الحَلْق ، واللام من وَسطِ اللِّسان ، وكلٌّ ذَلِكَ متباعدٌ ، ومعَ هذا فإنَّ هذه اللفظة مكروهَةُ الاستعمال يَنْبُو عنها الذوقُ السَّليمُ ، ولا يَسْتعملها مَنْ عندهُ معرفَةٌ بفنّ الفصاحَةِ .

وهاهنا نكتةٌ غريبةٌ ، وهو أنَّا إذا عكسْنَا حرُوفَ هذه اللفظةِ صارتْ « عَلِم » وعند ذَلك تكونُ حَسَنَةً لا مَزيدَ على حُسْنِها .

وماندرى كيف صارَ القبْحُ حُسْناً ؟ لأنَّه لم يتغيَّرْ من مخارجها شىء ، وذَاك أنَّ اللامَ لم تزلْ وَسطاً ، والميمُ والعَيْن يكتنفانها من جانِبَيْها ،

ولو كانَ مخارجُ الحروفِ مُعتَبراً فى الحسنِ والقبحِ لمـا تغيَّرتْ هذه اللفظة فى «ملع» و« علم ».

فإنْ قيلَ : إن إخراجَ الحروفِ من الحلْق إلى الشَّفةِ أيْسَرُ من إدخالِها من الشَّفَةِ إلى الحَلْق ، فإن ذلك انحدارٌ ، وهذا صُعُودٌ ،والانحدارُ أسهل ! .

فالجوابُ عن لك أنِّى أقولُ : لو استمرَّ لك هذا لَصَحَّ ما ذَهبْت إليه ، لـكنَّا نرى من الألفاظِ ما إذا عكسْنَا حُرُوفَه من الشَّفَةِ إلى الحلْق ، أو من وسَط اللَّسانِ أو منْ آخرِه إلى الحَلْق لا يتغيَّر كقولنا « غلب » فإنّ العَيْن من حروف الحلْقِ ، واللامِ من وسَطِ اللسان ، والباء من الشّفة . وإذا عكَسْنَا ذلك صار « بلغ » وكلاهُما حسنٌ مليحٌ .

وكذلكَ تقول : «حلم» من الحلم ، وهوِ الأناة ، وإذا عكسْنا هذه الـكلمةَ صارت « مَلُحَ » على وزن فَعُلَ بفتح الفاء وضمِّ العين ، وكلاهُما أيضاً حسنٌ مِليحٌ .

وكذلك تقول : «عقر» و « رقع » و« عرف » و« فرع » و « حلف » و« فلح » و « قلم »و « ملق » و« كلم » و « ملك » ولو شئتُ لأوْرَدتُ من ذلك شيئاً كثيراً تضيقُ عنه هذه الأوراقُ .

ولو كانَ ماذكرتهُ مطَّرداً لـكُنَّا إذَا عكسْنا هذه الألفاظَ صار حُسْنها قُبْحاً ، وليسَ الأمر كذلك .

وأمَّا ما ذكرهُ ابنَ سنان من جرَيان اللفظةِ على العُرْفِ العربىِّ فليسَ

ذلك مما يوجبُ لها حُسناً ، ولا قُبحًا ، وإنَّما يقدحُ في معرفةِ مُستعملها بما يَنقُله من الألفاظِ ، فكيفَ يعدُّ ذلك من جُملةِ الأوصافِ الحسَنةِ ؟.

وأما تصغيرُ اللفظةِ فيما يُعبَّر به عن شيء لطيفٍ أو خفيٍّ أوْ ما جرى مجراه فهذا ممَّا لا حاجةَ إلى ذكْره ، فإن المعنَى يَسُوقُ إليه ، وليسَتْ معانى التصْغير من الأشياء الغامضةِ الَّتى يُفْتَقرُ إلى التَّنبيهِ عليْها . فإنها مُدوَّنةٌ فى كُتبِ النَّحو ، وما منْ كتابِ نحوٍ إلا والتَّصغيرُ بابٌ من أبْوابه . ومع هذا فإنَّ صاحبَ هذهِ الصناعةِ مخيَّرٌ فى ذلك ، إنْ شاءَ أن يُورِدَهُ بلفظِ التَّصْغير ، وَإنْ شاء بمعناه ، كقولِ بعضهمْ .

لَوْ كان يَخْفى على الرَّحْمنِ خافِيةٌ   مِنْ خَلْقِهِ خَفِيَتْ عَنْهُ بَنُو لبدِ

فهلْ يمكنُ هذا الشاعر أن يصغِّر من هؤلاءِ القومِ ، ويحقِّرَ من شأْنهمْ بألفاظِ التّصغير ، ويجىءَ هكذا ، كما جاءَ بيتُه هذا ؟ فالوصيّةَ به إذنْ مُلغاةٌ ، لا حاجَةَ إليها .

وأما الأوصافُ الباقية التى ذكرتْ ، فهى الَّتى ينبغِى أن يُنَبَّهَ عليها .

فمنْها أن لا تكونَ الكلمةَ وَحْشِيَّة

[الوحشى] :

وقد خفِىَ الوحشىُّ على جماعةٍ من المنتَمِينَ إلى صناعةِ النَّظْمِ والنَّثر ، وظنّوه المستَقْبَحَ من الالفاظِ ، وليس كَذلك ، بل الوحشىُّ ينقسم قسمين : أحدُهما : غريبٌ حَسَنٌ .

والآخرُ : غريبٌ قبيحٌ

وذلكَ أنَّه منسوبٌ إلى اسْمِ الوَحْشِ الَّذى يسكنُ القِفَارَ ، وليس بأنيس ، وكذلك الألفاظُ الَّتى لم تكنْ مأنوسَةَ الاستعمالِ . وليسَ من شَرْطِ الوحشِ أن يكونَ مُسْتقبَحًا ، بلْ أَنْ يكونَ نافرًا لا يألف الإنْسَ ، فتارة يكون حَسَنًا ، وتارة يكونُ قبيحاً .

وعلى هَذا فإنَّ أحدَ قِسْمَى الوَحْشِىِّ ـ وهو الغريبُ الحسَن ـ يختلفُ باختلافِ النِّسَبِ والإضَافاتِ .

وأمَّا القسمُ الآخرُ من الوحْشِىِّ ـ الَّذى هو قبيح ـ فإنَّ الناسَ فى استقباحِهِ سواء ، ولا يختلفُ فيه عربىٌّ بادٍ ، ولا قَرَوِىٌّ مُتَحَضِّرٌ .

وأحسنُ الألفاظِ ما كانَ مألوفاً متداوَلا ، لأنَّهُ لم يكنْ مألوفاً متداوَلا إلا لمكانِ حُسْنه ، وقدْ تقدَّم الكلامُ على ذلك فى بابِ الفصاحةِ . فإنَّ أربابَ الخطابةِ والشِّعْرِ نظرُوا إلى الألفاظِ ، ونقَّبُوا عنْها ، ثم عَدَلُوا إلى الأحْسنِ منها فاستعملوه ، وتركُوا ما سِوَاه ، وَهُوَ أيضاً يتفاوتُ فى درجات حُسْنه .

فالألفاظَ إذنْ تنقسِمُ ثلاثةَ أقسامٍ : قِسْمانِ حَسَنَان ، وقسمٌ قبيحٌ .

فالقسمانِ الحسَنانِ :

أحدهما : ماتداوَلَ استعمالَه الأول والآخِرُ من الزَّمَنِ القديمِ إلى زمانِنا هذا ، ولا يُطْلَقُ عليه أنَّه وَحشِىٌّ .

والآخِرُ : ما تداوَلَ استعمَاله الأوَّلُ دُونَ الآخِرِ ، ويُختَلَفُ فى استعمالِه بالنسبة إلى الزَّمنِ وأهله . وهذا هُوَ الّذى لا يعابُ استعمالُ عندَ العربِ ، لأنه لم يكنْ عندهمْ وحشِيًّا ، وهوعندنا وَحْشِىٌّ . وقدْ تضمَّنَ القرآنُ الكريمُ منه كلماتٍ معدودة ، وهى التى يُطْلَقُ عليْها « غريبُ القرآنِ » وكذلك تضمَّن الحديثُ النبوىُّ منه شيئاً ، وهو الّذى يطلَقُ عليه « غريب الحديث » .

وحضر عندِى فى بعض الأيامِ رجلٌ مُتَفلسفٌ ، فجرَى ذكرُ القرآنِ الكريمِ ، فأخذْتُ فى وصْفِه ، وذِكْرِ ما اشتملتْ عليه ألفاظُه ومعانِيه من الفصاحةِ والبلاغةِ : فقال ذلك الرجُل : وأىُّ فصاحةٍ هناكَ ، وهُوَ يَقولُ « تِلْكَ إذاً قسْمَةٌ ضِيزَى[1] » ؟ فهلْ فى لفظة « ضيزى » من الْحُسْنِ ما يوصَفُ ؟

فقلتُ لهُ : اعلَمْ أنَّ لاستعمالِ الألفاظِ أسرارًا لم تَقِفْ عليها أنْتَ ولا أئِمَّتُكَ ، مثل ابنِ سِينَا والفَارَابىّ ، ولا مَنْ أضَلَّهُمْ مثل أرسطاليس وأفلاطُون . وهذهِ اللفظة التى أنكرتَها فى القرآنِ ، وهى لفظةُ « ضيزى » فإنها فِى مَوْضِعها لا يسدُّ غيرُها مسدَّها . ألا ترَى أن السُّورة كلَّها التى هى سورة النَّجْم مسجُوعَةٌ على حرف الياء[2] فقال تعالى « والنَّجمِ إذا هَوَى * ما ضلَّ صَاحِبُكُمْ وماغَوَى »[3] وكذلك إلى آخر السورة ، فلمَّا ذَكرَت الأصنامُ وقِسْمَةُ الأولاد ، وما كانَ يَزعُمهُ الكفَّارُ قال : « أَلَكمُ الذَّكَرُ ولَهُ الأُنْثَى ، تِلْكَ إذاً قِسْمةٌ ضِيزَى »[4]

---

(١) سورة النجم : الآية ٢٢

(٢) يبدو أن ابن الأثير نظر إلى الحرف المكتوب ، والعبرة فى هذا بالحرف المنطوق ، وهو هاهنا الألف المقصورة .

(٣) سورة النجم . الآيتان ١ ، ٢ .

(٤) سورة النجم : الآيتان ٢١ ، ٢٢ .

فجاءتِ اللفظةَ على الحرف المَسْجُوع الّذى جاءتِ السُّورةُ جميعُها عليه ، وغيرُها لايسدُّ مسدَها فى مكانِها .

وإذا نزلْنا معكَ أيُّها المعانِدُ على ما تُريد قلْنا إنَّ غير هذه اللفظةِ أحسَنُ منها ، ولكنّها فى هذا الموضِعِ لا تَرِدُ ملائمةً لأخواتِها ، ولا مناسِبة ، لأنّها تكونُ خارجةً عن حَرْفِ السُّورة .

وسأُبيّنُ ذلكَ فأقولُ : إذَا جئْنا بلفظةٍ فى معنَى هذهِ اللفظةِ قُلْنا : قسمة جائرة ، أو ظالمة . ولا شكَّ أنّ « جائرة » أو « ظالمة » أحسنُ من « ضيزى » إلا أنّا إذا نظَمْنَا الكلامَ ، فقلنَا : ألكمُ الذكرُ ولهُ الأنْثى ، تلكَ إذا قسمة ظالمةٌ ، لم يكنْ النظمُ كالنظمِ الأوّلِ ، وصارَ الكلامُ كالشىْءِ المُعْوِز ، الذى يحتاجُ إلى تمامٍ ، وهذَا لا يخفَى على من لَهُ ذَوْقٌ ومعرفةٌ بنظمِ الكلامِ .

فلمَّا سمِعَ ذلكَ الرجلُ ما أوردْتُه عليه رَبَا لِسانُه فى فَمه إفْحَاماً ، ولم يكنْ عندَهُ فى ذلكَ شىءٌ سِوى العِنادِ الّذى مُستفَادُهُ تقليدُ بعضِ الزّنادقةِ الّذين يكفرونَ تَشهِّيًا ، ويتقوَّلونَ مَا يقولونَهُ جَهْلا ، وإذا حُوققوا عليه ظَهرَ عجزُهُمْ وقصُورهُم .

وحيثُ انتهى القولُ إلى هاهنا فإنّى أرْجِعُ إلى ما كنتُ بصددِ ذكرِه ، فأقول :

وأمّا القبيحُ من الألفاظِ الّذى يعابُ استعمالُه ، فلا يسمّى « وحشيًّا » فقط بل يسمّى « الوحشىَّ الغليظ » وسيأتى ذكره .

وإذا نَظَرْنَا إلى كتابِ اللهِ تعالى الذى هو أفصحُ الـكلامِ وجدْناه سَهْلا سلِسًا ، وما تضمَّنه من الـكلماتِ الغَرِيبةِ يسيرٌ جدًّا .

هذا ، وقد أُنزِلَ فى زَمَنِ العَرَبِ العَرْبَاء ، وألفاظُه كلُّها من أسهلِ الألفاظِ وأقربِها استعمالا ، وكفَى به قُدْوَة فى هذا البابِ . قال النبىُّ صلى الله عليه وسلَّم : «ما أنزل الله فى التوراةِ ولا فى الإنجيلِ مثلَ أمِّ القرآنِ ، وهى السَّبْعُ المَثَانِى» . يريدُ بذلكَ فاتحةَ الـكتابِ ، وإذا نظرْنا إلى ما اشتملتْ عليهِ من الألفاظِ وجدْناها سهلةً قريبةَ المَأْخَذِ ، يفهمُها كل أحدٍ حتَّى صِبْيان المـكاتب وعوامّ السُّوقة ، وإنْ لم يَفهَمُوا ما تحتَها من أسرارِ الفصاحةِ والبلاغةِ ، فإنَّ أحسنَ الـكلامِ ما عَرَفَ الخاصةَ فَضْلَهُ ، وفهِمَ العامَّةُ معناه .

وهكذا فلتـكنْ الألفاظُ المستعملةُ فى سهولةِ فهمِها ، وقرْب متناوَلِها ، والمقتدِى بألفاظ القـــرآنِ يكتفِى بها عنْ غيرِها من جميعِ الألفاظ المنثورَة والمنظومَة

وأما ما ورد من اللفظِ الوَحْشِىِّ فى الأخبار النبويَّة فمنْ جُملةِ ذَلِك حديثُ طَهْفةَ ابنِ أبى زُهَيْرِ النَّهْدِىِّ(١) ، وذاكَ أنَّه لمَّا قَدِمَتْ وُفود العَرب على النبىِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قامَ طَهْفَةَ بنُ أبِى زُهَيْرٍ ، فقالَ : أتيناكَ يا رسُول اللهِ من غَوْرَىْ تِهَامَةَ(٢) على أكْوَارِ المَيْس(٣) ترتمى بنا العِيسُ ، نَسْتَحْلِبُ الصَّبير(٤) .

---

(١) نهد إحدى قبائل اليمن .
(٢) أصل الغور ماتداخل من الأرض وانهبط ، وقيل كل ماانحدر سيله مغربا فهو الغور .
(٣) الميس شجر تتخذ منه الرحال للينه وقوته ، ويطلق على الرحال نفسها .
(٤) الصبير السحاب الـكثيف .

ونَسْتَحْلِبُ الْخَبِير[١] ، ونَسْتَعْضِدُ الْبَرِيرَ[٢] . ونَسْتَخِيلُ الرِّهَامَ[٣] ونَسْتَحِيلَ الْجَهَامَ[٤] ، فى أرض غائلةِ النِّطاء[٥] ، غليظةِ الوِطَاءِ ، وقد نشف المُدْهُنُ[٦] ، ويَبِسَ الجِعْثِنُ[٧] وسقط الأملوج[٨] ، ومات العُسْلُوجُ[٩] وهَلَكَ الْهَدِيُّ[١٠] ومَاتَ الْوَدِيُّ[١١] برئنا إليكَ يا رسول الله من الوثَنِ والعَنَنِ[١٢] ، وما يُحْدِثُ الزمن ، لنا دَعْوة السَّلام ، وشريعةُ الإسلام ، ما طَمَى البحرُ ، وقَامَ تِعارُ[١٣] ، ولنا نَعَمٌ هَمَلٌ أغفال ما تَبِضُّ ببلالٍ[١٤] ، ووقيرٌ كثيرُ الرَّسَلِ قليل الرِّسْلِ[١٥] . أصابَتْنَا سُنَيَّةٌ حمراء مُؤْزِلَة ليسَ لها عَلَلٌ ولا نَهَلَ[١٦] .

فقالَ رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم: اللهم بارِكْ لَهُمْ فى مَحْضِهَا ومَخْضِهَا ، ومَذْقِهَا وفِرْقِهَا[١٧] ، وابعثْ رَاعِيها فى الدَّثْرِ[١٨] بيانِع الثَّمر ، وافجر له الثَّمد[١٩] ، وبارِكْ له فى المالِ والولَدِ . مَنْ أقامَ الصَّلاةَ كانَ مُسْلِمًا ، ومَنْ آتَى الزَّكاةَ كانَ مُحْسِنًا . ومَنْ شَهِدَ أن لا إلهَ إلاّ الله كان مخلصاً ، لكُمْ يا بَنِي نَهْدٍ وَدَائِعُ الشِّرْكِ[٢٠] ،

---

(١) الخبير : العشب .
(٢) استعضد الثمرة اجتناها . والبرير ثمر الأراك ، وكانوا يأكلونه وقت الجدب لقلة الزاد .
(٣) الرهام : جمع رهمة وهى المطر الضعيف الدائم . ونستخيل نخال ونظن .
(٤) الجهام : السحاب قد أراق ماءه . (٥) النطاء : البعيد أى بعيدة بعداً مهلكا
(٦) المدهن : مستنقع الماء ، أو كل موضع حفره سيل .
(٧) أصل النبات (٨) ورق كورق السرو لشجر بالبادية .
(٩) مالان واخضر من القضبان وعسلجت الشجرة أخرجته .
(١٠) الهدى : ما يهدى إلى مكة لينحر (١١) الودى : الفسيل وهو النخل الصغار .
(١٢) العنن : الصنم الصغير . (١٣) جبل ببلاد قيس .
(١٤) الهمل المهملة ، والأغفال جمع غفل بالضم ، وهو مالاسمة عليه من الدواب وبض الماء يبض سال قليلا قليلا والبلال المبلل ؛ والمراد قلة اللبن
(١٥) الوقير القطيع من الغنم ؛ والرسل القطيع من كل شىء . والرسل اللبن .
(١٦) سنية تصغير سنة . وهى القحط والمجاعة . وحمراء أى شديدة . ومؤزلة ذات أزل بسكون الزاى ، وهو الضيق والشدة .
(١٧) المحض اللبن الخالص ومخض اللبن أخذ زبده ، والمذق اللبن الممزوج بالماء ، والفرق القطيع من الغنم .
(١٨) الدثر : المال الكثير . وقيل هو الكثير من كل شىء .
(١٩) الثمد : الماء القليل لامادة له . أو ما يظهر فى الشتاء ويذهب فى الصيف .
(٢٠) أى الغنائم التى تغنم من المشركين ، وتودع بيت مال المسلمين ، لينفقوا بها على شئونهم .

وَوَضَائِعُ[١] المِلْكِ ، لا تَلْطَطْ[٢] فى الزَّكاةِ ، ولا تُلْحِدْ[٣] فى الحياةِ ، ولا تَتَثَاقَلْ عن الصَّلاةِ

وكتبَ معه كتاباً إلى بَنِى نَهْدٍ : « مِنْ محمّدٍ رسولِ الله إلى بَنِى نَهْدٍ : السَّلامُ على مَنْ آمَنَ باللهِ ورَسُولِهِ ، لكُمْ يا بَنِى نهدٍ فى الوَظِيفَةِ الفَرِيضَةَ[٤] ولكم الفارِضُ[٥] والفَرِيشُ[٦] وذُو العِنانِ الرَّكُوبُ[٧] والفَلُوُّ الضَّبِيسُ[٨] ، لا يُمْنَعُ سَرْحُكُمْ[٩] ، ولا يُعْضَدُ طَلْحُكُمْ[١٠] ، ولا يُحْبَسُ دَرُّكُمْ[١١] ، ولا يُؤْكَلُ أُكُلُكُمْ ، ما لَمْ تُضْمِرُوا الإماقَ[١٢] وتأكُلوا الرِّبَاقَ[١٣] . مَنْ أَقَرَّ بما فى هذا الكتابِ فلَهُ مِنْ رسُولِ اللهِ الوفاءُ بالعهدِ والذِّمَّة ، ومَنْ أَبَى فعليهِ الرِّبْوة »

---

(١) الوضائع جمع وضيمة ، وهى ما يأخذه السلطان من الخراج والعشور .

(٢) يقال لطلت عنه حقه إذا جحدته . (٣) يقال ألحد إذا مال ومارى وجادل .

(٤) الوظيفة النصاب فى الزكاة ، وأصله الشىء الراتب ، والفريضة الهرمة المسنة ، والمراد أنها لا تؤخذ منهم فى الزكاة ، بل تكون لهم ، ويروى « عليكم فى الوظيفة الفريضة » أى فى كل نصاب ما فرض فيه .

(٥) الفارض المسنة كالفريضة ، ويروى «العارض» بالعين وهى المريضة ، أو التى أصابها كسر

(٦) هى التى وضعت حديثا ، فهى كالنفساء من النساء ، والفرس بعد نتاجها بسبع ليال .

(٧) ذو العنان الركوب الفرس الذلول .

(٨) الفلو المهر الصغير ، وقيل الفطيم من جميع أولاد ذوات الحافر ، والضبيس العسر الصعب الذى لم يرض .

(٩) السرح المواشى السائمة ، أى أنها لا تمنع من المرعى .

(١٠) يعضد يقطع ، والطلح شجر عظام .

(١١) الدر اللبن ، والمراد ذوات الدر من المواشى .

(١٢) الإماق مخفف من الإمآق ، ترك الهمز منه ليوازن الرباق ، والإمآق نكث العهد من الأنفة

(١٣) الرباق جمع ربق بالكسر ، وهو حبل فيه عدة عرى تشد به البهيمة من يدها أو عنقها . والمعنى تقطعوا رباق العهد الذى فى أعناقكم وتنقضوه ، واستعار الأكل لذلك ، لأن البهيمة إذا أكلت الربقة خلصت من الشد .

وفصاحةُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم لا تقتضِى استعمالَ هذهِ الألفاظِ ، ولا تكادُ توجدُ فى كلامِهِ إلا جواباً لمنْ يُخاطبهُ بمثلها ، كهذا الحديث ، وما جَرى مجراه . على أنَّه قدْ كانَ فى زمنِه متداوَلاً بين العربِ ، ولكنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لمْ يستعمِلْه إلا يسيراً ، لأنَّهُ أعلمُ بالفصيحِ والأفصحَ .

وهذا الكلامُ هو الَّذى نعدُّه نحنُ فى زمانِنَا وحشِيًّا ، لِعَدَمِ الاستِعْمَال

فلا تظنَّ أن الوحشىَّ من الألفاظِ ما يكرهُهُ سمعُك ، ويَثْقُلُ عليكَ النُّطقُ به ، وإنَّما هُوَ الغَرِيبُ الَّذِى يقلُّ استعماله . فتارةً يخفُّ على سَمْعِكَ ، ولا تَجِدُ به كراهةً ، وتارةً يَثْقُلُ على سمعِك ، وتجدُ منه الكراهَةَ .

وذلكَ فى اللفظ عيبان :

أحدُهما : أنَّه غريبَ الاستعمال .

والآخَرُ : أنَّه ثقيلٌ على السَّمع ، كريهٌ على الذوق

وإذا كانَ اللفظُ بهذِهِ الصِّفَةِ فلا مَزيدَ على فَظَاظَتِه وغَلاظَته ، وهو الذى يسمى « الوحشىّ الغليظ » ويسمَّى أيضاً « المتوعِّر » . وليسَ وراءَهُ فى القبح درجةٌ أُخرىَ ، ولا يَستعمله إلا أجهلُ الناس ممنْ لم يخطرْ ببالِهِ شىءٌ من معرفةِ هذا الفنِّ أصْلا .

فإن قيلَ : فما هذا النوعُ من الألفاظ ؟

قلتُ : قد ثَبَتَ لك أنَّه ما كرِهَهُ سمعُك ، وثقل على لسانك النُّطقُ به .

وسأضرِبُ لك فى ذلك مثالا ، فمنه ما وَرَدَ لتأبطَ شرًّا فى كتاب الحماسة :

يَظَلُّ بموْمَاةٍ ويُمْسى بغَيْرِهَا   جَحِيشاً ويَعْرَوْرِى ظُهُورَ الْمَسَالِكِ[1]

فإن اللفظة : « جَحِيش » من الألفاظِ المنكَرةِ القبيحةِ . ويالله العجبُ !
أليسَ أنَّها بمعنى « فريد » . وفريد لفظةٌ حسنةٌ رائقةٌ ، ولو وُضِعَتْ فى هذا
البيت مَوْضَعَ « جَحِيش » لما اختلَّ شىءٌ من وزنه .

فتأبَّطَ شرًّا مَلُومٌ من وجهيْنِ فى هذا الْمَوْضِع :

أحدُهما : أنَّه استعملَ القبيحَ .

والآخرُ : أنَّه كانَتْ له مندوحةٌ عن استعمالِه ، فلَمْ يعدِلْ عنه .

وممَّا هوَ أقبحُ منها ما وَرَدَ لأبِى تمّام قوله :

قد قُلْتُ لما اطلَخَمَّ الأمْرُ وانبَعَثَتْ   عَشْوَاءُ تَالِيةٌ غُبْساً دَهَارِيسَا[2]

فلفظة « اطلخمَّ » من الألفاظِ المنكَرةِ التى جمعتْ الوصفين القَبيحَيْن
فى أنَّها غريبةٌ ، وأنها لبيظةٌ فى السَّمع ، كريهة على الذَّوق ، وكذلك لفظةُ
« دهاريس » أيضاً .

---

(١) ديوان الحماسة ١/٣١ ورواية الديوان :

• ويعرورى ظهور المهالك •

والموماة المفازة لا ماء فيها ، والجحيش المنفرد ، ويعرورى أى يرتكب المهالك . والمعنى أنه كثير الجولان فى الأرض مستأنس بنفسه ، يرتكب المهالك لشدة حماسته وجراءته .

(٢) ديوان أبي تمام ١٧١ وهو من قصيدة يمدح بها عياش بن لهيعة ، ومطلعها :

أحيا حشاشة قلب كان مخلوساً   ورم بالصبر عقلا كان مألوساً

ومعنى اطلخم أظلم ، والعشواء ضعيفة البصر ، والغبس جمع غبساء وهى المظلمة ، والدهاريس الدواهى .

وعلى هذا وَرَدَ قولُه من أبياتٍ يصفُ فرساً من جُملتها :

نِعْمَ متاعُ الدُّنيا حَبَاكَ بِهِ أَرْوَعُ لا جَيْدَرٌ ولا جِبْسُ[(٣)]

فلفظة « جَيْدَر » غليظة . وأغلظُ منها قول أبي الطيب المتنبِّي :

جَفَخَتْ وهُمْ لا يَجْفَخون بِهَا بِهِمْ شِيَمٌ على الحَسَبِ الأغرِّ دلائِلُ[(٤)]

فإن لفظةَ « جَفخ » مُرَّة الطعم ، وإذا مرَّت على السَّمع اقشَعرَّ منها . وأبو الطيب فى استعمالِها كاستعمالِ تأبَّطَ شرًّا لفظة « جَحيش » فإن تأبَّطَ شرًّا كانت له مندوحة عن استعمالِ تلكَ اللفظةِ ، كما أشرْنا إليه فيما تقدَّم . وكذلِكَ أبو الطيِّبِ فى استعمالِ هذه اللفظةِ التى هى « جَفَخَتْ » فإنَّ معناها فَخَرَتْ ، والجَفْخَ الفَخر ، يقال « جَفخَ فلان » إذا فَخَر . ولو استعملَ عِوَضاً عن « جَفَخَتْ » « فَخَرَتْ » لاستقامَ وزْنُ البيتِ ، وحَظِيَ فى استعماله بالأحسَن .

وما أعلمُ كيفَ يذهبُ هذا وأمثالُه على مثلِ هُولاء الفحول من الشعراء ؟ !.

وهذا الذى ذكرتُه وما يجرى مجراهُ من الألفاظِ هو الوحشىُّ اللفظِ الغليظ الَّذى ليسَ له ما يدانيهِ فى قُبْحِهِ وكراهتِه . وهذهِ الأمثلةُ دليلٌ على ما أردناهُ .

---

(٣) ديوان أبى تمام ١٦٧ وهو من قصيدة يمدح بها الحسن بن وهب ، ومطلعها :

هل أثر من ديارهم دعس حيث تلاقى الأجزاع والوعس

ورواية الديوان « حيدر » بالحاء المهملة وهو القصير ، والجيدر بمعناه ، والأروع الذى يعجب الإنسان ، والجبس الجامد الثقيل الروح .

(٤) ديوان المتنبى ٣/٢٠٨ من قصيدة يمدح بها أحمد بن عبد الله الانطاكى ، ومطلعها

لك يامنازل فى القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أواهل

جفخت تكبرت وفخرت ؛ وفى البيت تقديم وتأخير ، وتقديره : جفخت بهم شيم وفخرت ، وهم لا يفخرون بها ، وشيمهم دلائل على حسبهم الظاهر .

والعرَبُ إذَنْ لا تُلَامُ على استعمالِ الغَريبِ الحسَنِ مِنَ الألفاظ ، وإنَّما تُلامُ على الغريب القبيح . وَأمَّا الحَضَرِيُّ فإنَّه يُلامُ على استعمالِ القسْمين معاً ، وهوَ في أحدِهما أشدُّ ملامةً من الآخَرِ .

على أنَّ هذا الموضعَ يحتاجُ إلى قيدٍ آخَر ، وذلكَ استخْرجتهُ أنا دونَ غيرى ، فإنِّى وجدْتُ الغريبَ الحسَنَ يَسُوغُ استعمالُه فى الشِّعر ، ولا يسوغُ فى الخُطب والمكاتَباتِ . وهذا يُنكرُه من يسمعُه حتى ينتهىَ إلى ما أوردتُه من الأمثلةِ ، ولرُبَّما أنكرَهُ بعدَ ذلِكَ إمَّا عِنادًا ، وإمَّا جَهْلاً ، لِعدمِ الذَّوْقِ السَّليم عندَهُ .

فمن ذلك قولُ الفرزدق[1] :

ولَوْلاَ حياءٌ زِدْتُ رَأْسَكَ شَجَّةً ... إِذَا سُبِرَتْ ظَلَّت جَوَانِبُهَا تَغْلى[2]

شَرَنْبَثَةً شمطاءَ مَنْ يَرَ مَا بها ... تَشِبْهُ ولَوْ بَيْنَ االخُماسِيِّ والطِّفْلِ[3]

فقوله: « شَرَنْبَثَةً » من الألفاظِ الغريبةِ التى يَسُوغُ استعمالُها فى الشِّعرِ ، وهى هاهنا غيرُ مُسْتَكرهَةٍ ، إلاَّ أنَّها لو وَرَدَتْ فى كلامٍ مَنْثُورٍ من كتابٍ أو خَطْبَةٍ لِعيبَتْ على مُسْتَعْمِلِها .

وكذلِكَ وَرَدَت لفظةُ « مُشْمَخِر »[4] فإنَّ بِشراً قد استعمَلها فى أبياتِه التى يصفُ فيها لقاءَهُ الأسدَ ، فقال :

وأطْلَقْتُ المهنَّـــد عن يَمِينِى ... فقَدَّ لهُ مِنَ الأَضْلاَعِ عَشْرَا

(١) ديوان الفرزدق ٢/٧١٣ من قصيدة مطلعها :
ألا استهزأت منى هنيدة أن رأت ... أسيراً يداني خطوه حلق الحجل

(٢) رواية الديوان « هزمة » موضع « شجة » والهزمة الشق ، والسبر تقدير الجراحة .

(٣) الشرنبث فى الأصل الغليظ ، أراد أنها قبيحة منكرة ، فى الأصل « . من يرى بها يشبه ... » ويقال « غلام خماسى » إذا كان طوله خمسة أشبار ، ولا يقال سداسى ولا سباعى ، لأنه إذا بلغ ستة أشبار فهو رجل ، والطفل هو الصغير أو المولود .

(٤) المشمخر الجبل العالى

فَخْرًا مُضرَّجًا بِدَمٍ كأنّى هَدَمْتُ بِهِ بناءً مُشْمَخِرًّا

وعلى هــذا وَرَدَ قولُ البُحْترىّ فِى قَصِيدَتِهِ الّتى يَصِفُ فيهَا إِيوانَ كِسْرَى ، فقال :

مُشْمَخِرٌ تعــلو لَهُ شُرُفاتٌ رُفِعَتْ فى رُءوسِ رضوى وقدْسِ[1]

فإن لفظة « مشمخر » لا يحسُنُ استعمالها فى الخُطب والمكاتباتِ ، ولا بأس بها هاهنا فى الشعر . وقدْ وردَتْ فى خُطَبِ الشّيخ الخطيبِ بن نباتَةَ ، كقوله فى خطبةٍ يذكرُ فيها أهوالَ يومَ القيامةِ ، فقال : « اقْمطرَّ[2] وَبالُهَا ، واشمخرَّ نـكالُهَا ، فما طابَتْ ، ولا سَاغَتْ » .

ومن هذا الأسلُوبِ لفظةُ « الـكَنَهْوَر » فى وصف السّحاب ، كقول أبى الطيّب[3] :

يَا ليتَ باكيةً شجَانى دَمْعُها نظرتْ إليكَ كما نَظَرْتُ فتَعْذُرَا

وَتَرَى الفَضِيلَةَ لا تَرُدُّ فضيلةً الشَّمْسُ تُشْرِقُ والسَّحَابُ كَنَهْوَرَا[4]

فلفظةُ « الـكَنَهور » لا تُعَابُ نَظْماً ، وتُعَابُ نـثْرًا .

وكذلكَ يَجْرِى الأمْرُ فى لَفْظَةِ « العِرْمِس » وهى اسمُ النَّاقةِ الشّديدةِ .

---

(١) شرفات القصر : ما أشرف من بنائه ، ورضوى جبل ، وقدس جبل بنجد ، يشبه القصر فى ضخامته وارتفاعه بهذين الجبلين .

(٢) اقمطر : اشتد .

(٣) ديوان المتنبي ٢/١٧١ من قصيدة يمدح بها أبا الفضل محمد بن العميد ، ومطلعها :

باد هــواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أوجرى

(٤) الـكنهور : العظيم المتـكاثف .

فإنَّ هذه اللفظةَ يَسُوغُ استعمالُهَا فى الشِّعر ، ولا يُعابُ مُستعمِلها ، كقولِ أبى الطيِّب أيضاً :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِي ... تَعْجِزُ عَنْهُ العَرَامِسُ الذُّلُلُ[1]

فإنَّه جَمَع هذه اللفظة ، ولا بأسَ بها ، ولو استعمِلتْ فى الكلامِ المنثورِ لما طابتْ ولا ساغتْ . وقدْ جاءتْ مُوحدةً فى شِعْرِ أبِى تمَّام[2] كقوله :

هِىَ العِرْمِسُ الْوَجْنَاء وابْنُ مُلِمَّةٍ ... وَجَأْشٌ على مايُحْدِثُ الدَّهْرُ خَافِضُ[3]

وكذلكَ وَرَد قولُه أيضاً :

* يا مُوضِعَ الشَّدَنِيَّةِ الوَجْنَاء *[4]

فإن « الشَّدَنِيَّة » لا تُعابُ شعرًا ، وتُعَابُ لو وردتْ فى كتابٍ أو خطبةٍ .

وهكذا يَجْرِى الحكمُ فى أمثالِ هذهِ الألفاظِ المُشار إليها .

وعلى هذا فاعلمْ أن كلَّ ما يَسُوغُ استعمالُه فى الكلامِ المنثورِ من الألفاظِ يسُوغَ استعمالُه فى الكلامِ المنظومِ ، وليسَ كلُّ ما يَسُوغَ استعمالُه فى الكلامِ المنظومِ يسُوغُ استعمالُه فى الكلام المنثور .

---

(١) ديوان المتنبي ٣/٢١١ ، والمهمه: ما بعد من الأرض واتسع ، جبته: قطعته ، العرامس: النوق الصلاب الشديدة ، الذلل : المذللة بالعمل؛ والبيت من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار ، ومطلعها

أبعد نيل المليحة البخل ... فى البعد مالا تكلف الإبل

(٢) ديوان أبي تمام ١٨٤ من قصيدة يمدح بها دينار بن عبد الله ، ومطلعها :

مهاة النقا لولا الشوى والمآبض ... وإن محض الإعراض لى منك ماحض

(٣) فى الأصل «وحاش» ، وفى الديوان «هى الحرة الوجناء» والوجناء العظيمة الوجنتين .

(٤) صدر مطلع القصيدة وعجزه * ومصارع الإدلاج والإسراء * والإيضاع ضرب من السير أو التسيير ، والشدنية الناقة الكريمة ، نسبة إلى شدن بلد مشهور بالإبل الكرام .

وذلكَ شيء استنبطتُه ، واطَّلعتُ عليهِ ، لكثرةِ ممارستي لهذا الفنِّ ، ولأنَّ الذوقَ الذي عندي دلَّني عليه ! فمنْ شاء أن يقلِّدني فيه ، وإلّا فليُدمِنِ النَّظر حتى يطَّلِعَ على ما اطَّلعتُ عليه . والأذهانُ في مثلِ هذا المقامِ تتفاوَتُ !

وقدْ رأيتُ جماعةً من مدَّعِي هذهِ الصِّناعةِ يعتقدُونَ أن الكلامَ الفصيحَ هو الذي يعزُّ فَهْمهُ ، ويَبْعُد مُتناوَلُه ، وإذا رأَوْا كلاماً وَحْشيًّا غامضَ الألفاظِ يُعجَبُونَ بهِ ، ويصفُونَه بالفصاحةِ ، وهو بالضِّدِّ من ذلكَ ، لِأنَّ الفصاحة هي الظُّهورُ والبيانُ ، لا الغموضُ والخفاء .

وسأبيِّن لك ما تعتمد عليهِ في هذا الموضعِ ، فأقول : الألفاظُ تنقسِمُ في الاستعمالِ إلى جزْلةٍ ورقيقة ، ولكلٍّ منهما موضعٌ يحْسُنُ استعماله فيه .

فالجزْلُ مِنْها يُستعملُ في وَصْفِ مواقفِ الحُروب ، وفي قوارع التَّهْديد والتَّخويف ، وأشباهِ ذلك .

وأمَّا الرقيق منها فإنَّه يُسْتَعْمَلُ في وَصْفِ الأشْواق ، وذِكْرِ أيَّامِ البِعاد ، وفي اسْتِجْلابِ المودّاتِ ، ومُلاينَاتِ الاستِعْطَاف ، وأشْباهِ ذلك .

ولستُ أعْني بالجزْلِ من الألفاظِ أنْ يكونَ وَحْشيًّا متوعِّراً ، عليهِ عَنْجهِيَّة البداوةِ ، بل أعْنِي بالجزْلِ أن يكونَ مَتيناً على عُذوبته في الفم ، ولذَاذتِه في السَّمع .

وكذلك لَسْتُ أعْني بالرَّقيق أن يكونَ ركيكاً سَفْسَفاً[1] وإنَّما هُوَ اللطيفُ ، الرقيقُ الحاشية ، الناعمُ الملْمس ، كقول أبي تمام[2] :

نَاعِماتِ الأطرَافِ لو أنها تُلْـ ـبَسُ أغْنَتْ عن الملاءِ الرِّقَاقِ

---

(١) السفسف والسفساف الرديء من كل شيء .

(٢) ديوان أبي تمام ، من قصيدة يمدح بها إسماعيل بن شهاب ويشكره ؛ ومطلعها :

أيها البرق بت بأعلى البراق واغد فيها بوابل غيداق

والبراق أرض ذات حجارة ورمل وطين ، والغيداق المنسكب .

وسأضربُ ، لك مثالاً للجزل من الألفاظ والرقيق ، فأقول :

انظرْ إلى قوارع القُرآنِ عند ذكر الحسَابِ ، والعذابِ ، والميزانِ ، والصِّراط ، وعند ذكْرِ الموتِ ، ومُفارقةِ الدُّنيا . وما جرَى هذا المجرى ، فإنّك لا ترى شيئاً من ذَلك وحشيَّ الألفاظِ ، ولا متوعِّراً .

ثمَّ انظرْ إلى ذكر الرحمةِ والرأفةِ والمغفرةِ ، والملاطفَاتِ فى خطابِ الأنبياء وخطابِ المُنيبِيينَ ، والتَّائبينَ من العبادِ ، وما جرَى هذا المجرى فإنك لا ترَى شيئاً من ذلك ضَعيفَ الألفاظِ ، ولا سَفْسَفاً .

فمثالُ الأولِ ، وهو الجزلُ من الألفاظِ قولُه تعالى : « ونُفِخَ فى الصُّورِ فَصَعِق مَنْ فِى السَّموَاتِ وَمَنْ فِى الأرْضِ إلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ ثمَّ نُفِخَ فيهِ أُخْرَى فإذا هُمْ قيامٌ يَنظرُونَ * وأشرقَتِ الأرضُ بنُورِ رَبِّها ووُضِعَ الكِتَابُ وَجِيءَ بالنَّبيينَ والشهداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحقِّ وهُمْ لا يُظلَمُونْ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُون * وسِيقَ الَّذِينَ كَفرُوا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً حتَّى إذا جَاءوها فُتِحَتْ أَبوَابُها وَقَالَ لهُمْ خزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَتلُونَ عَلَيكُمْ آياتِ ربِّكُمْ ويُنذِرُونَكُمْ لِقاءَ يومِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ على الكافِرينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبوابَ جهنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبِّرِين * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُمْ إلى الجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إذَا جَاءوهَا وَفُتِحَتْ أَبوَابُها وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيكُمْ طِبتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الحمْدُ لِلهِ الَّذِى صَدَقَنَا

وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ * (١)

فتأمل هذه الآيات المضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله، وذكر النار والجنة، وانظر هل فيها لفظة إلا وهي سهلة مستعذبة على ما بها من الجزالة ؟ .

وكذلك وَرَدَ قوله تعالى : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * (٢)

وأما مثال الثاني ، وهو الرقيقُ من الألفاظ ، فقولُهُ تعالىَ فى مخاطبة النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « والضُّحَى * واللَّيلِ إِذَا سَجَى * ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) * . . . إلى آخرِ السُّورة .

وكذلكَ قولُهُ تعالى فى ترغيبِ المسألة « وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ (٤) »

وهكذا ترَى سَبيلَ القرآنِ الكريمِ فى كِلاَ هذَيْن الحالين من الجزالةِ والرِّقة

---

(١) سورة الزمر : الآيات ٦٩ — ٧٤ .
(٢) سورة الأنعام : الآية ٩٤ .
(٣) سورة الضحى : الآيات ١—٣
(٤) سورة البقرة : الآية ١٨٦ .

وكذلك كلامُ العرب الأُوَلِ فى الزَّمن القديم ، ممّا ورد عنها نثراً ، ويكفى من ذلك كلامُ قَبيصَةَ بن نَعيم لمَّا قدِم على امرىء القَيْسِ فى أشياخ بنى أسَدٍ ، يسألونَهَ العفوَ عن دَم أبيه ، فقال له :

« إنك فى المحل والقَدْرِ من المعرفةِ بتصرُّفِ الدَّهر ، وما تحدِثهُ أيَّامُه ، وتَنتَقِلُ به أحواله ، بحيثُ لا تحتاجُ إلى تذكيرِ من واعظِ ، ولا تبصيرِ من مجرِّب . ولكَ من سُؤْدُدِ مَنْصِبِكَ ، وشرف أعراقِكَ ، وكَرَم أصْلِكَ فى العربِ مَحْتِدٌ[١] ، يحتملُ ما حُمِّلَ عليهِ من إقالةِ العَثْرة ، ورجوعٍ عن الهَفْوَة . ولا تتجاوَزُ الهِمَمُ إلى غايةٍ إلاَّ رجعتْ إليكَ ، فوجدتْ عندكَ من فضيلةِ الرَّأىِ وبَصيرةِ الفَهْمِ ، وكَرَم الصَّفْح ما يَطولُ رَغباتِها ، ويَستَغرِقُ طَلِباتِها . وقدْ كانَ الذى كانَ من الخَطْبِ الجليلِ الذى عمَّتْ رَزِيَّتُهُ نِزَارًا والْيَمن ، ولمْ تُخْصَصْ بذلكَ كِنْدَةُ دُونَنَا ، للشَّرفِ البارعِ الذى كانَ لِحُجْر . ولو كانَ يُفْدَى هَالِكٌ بالأنفس الباقيةِ بعدَه لما بَخِلتْ كَرَائمنا بها على مِثْله ، ولكنَّه مَضَى به سبيلٌ لا يرجع أُخرَاه على أُولاَه ، ولا يَلحَقُ أقصاه أدْناه . فأَحمَدُ الحالاتِ فى ذلكَ أن تعرِف الواجبَ عليكَ فى إحْدَى خِلالٍ ثلاث :

إمَّا أنْ اخترْتَ من بنى أسَدٍ أشرفَها بيتاً ، وَأعلاهَا فى بناء المكرماتِ صوتاً ، فقُدْناهُ إليك بِنِسْعَةٍ[٢] تَذهَب مع شَفَراتِ حُسَامِك بباقِى قَصَرَتِهِ[٣] ،

---

(١) المحتد الأصل والطبع .

(٢) النسع بالكسر سير ينسج عريضاً على هيئة أعنة النعال تشد به الرحال ، والقطعة منه نسعة

(٣) القصرة أصل العنق .

فنقول : رَجُلٌ امتُحِنَ بهالكٍ عزيزٍ ، فلمْ يَسْتَلَّ سَخيمتَهُ[1] إلا تمكينُهُ من الانتقامِ .

أو فِدَاءٌ بما يَرُوحُ على بَنِي أسدٍ من نَعَمِها ، فهى ألوفٌ تجاوزَ الحسْبة ، فكان ذلكَ فداءً رَجعَتْ بهِ القُضُبُ إلى أجْفانِها ، لم يُرَدِّدْها تَسْليطُ الإحَنِ عَلَى البُرَآء .

وإمَّا أن وَادعْتَنا إلى أن تضعَ الحوامِلُ ، فتُسدلَ الأزرُ ، وتُعقَدُ الخُمُرُ فَوقَ الرَّاياتِ » .

فبكى امرؤ القيس ساعة ، ثمَّ رفعَ رأسَه ، فقَال :

« لقد علمتِ العربُ أنه لا كُفْءَ لِحُجْرٍ فى دمٍ ، وأنى لنْ أعتاضَ جَمَلا ولاَ نَاقَةً ، فأكتسبَ بِهِ سُبَّةَ الأبَدِ ، وفتَّ العَضُد .

وأما النَّظِرَة فقد أوْجبَتْها الأجنَّةُ فى بطون أمَّهاتها ، ولن أكونَ لعطَبِها سبباً وستعرِفُونَ طَلائِعَ كِنْدَةَ من بعد ذلك تحمِلُ فى القلوبِ حَنَقاً[2] وفَوْقَ الأسِنَّةِ عَلَقاً[3] :

إذَا جالتِ الحرب فى مَأزِقٍ   تُصَافِحُ فيه المَنَايا النُّفُوسَا

أتقيمون أمْ تنصرِفُون ؟ »

قالوا : « بل ننصرِفُ بأسْوَأِ الاختِيَار ، وأبْلَى الاجْتِرَار ، بمكروهٍ وأذِيَّة ، وحرب وَبَلِيَّة » .

ثمَّ نهضُوا عنه ، وقبيصةُ يتمثَّل :

لعلَّكَ أنْ تَستَوخِمَ الوِرْدَ إنْ غَدَتْ   كَتَائِبُنَا فى مَأزِقِ الحَرْبِ تُمْطِرُ

---

(١) السخيمة الحقد .   (٢) الحنق الغيظ ، أو شدته .

(٣) العلق محركة الدم عامة ، أو الشديد الحمرة ، أو الغليظ ، أو الجامد .

فقال امرؤ القيس «: لا واللهِ ! ولكنْ أستعذِبُه ، فرُوَيدًا ينفرِجْ لك دجاها من فُرسانِ كِندةَ وكتائبِ حِميَر ، ولقد كانَ ذِكرُ غير هذا بِي أولَى ، إذْ كنتَ نازلًا بَرَبْعِي ، ولكنَّكَ قلتَ فأجبت » فقال امرؤُ القيس : هو ذاك[1] !

فلتنظرْ إلى هذا الكلامِ من الرَّجُلين قبيصة وامرئِ القيس حتى يَدَع المتعمِّقُونَ تعمُّقَهم فى استعمال الوَحْشِيِّ من الألفاظِ ، فإن هذا الكلامَ قدْ كانَ فى الزمن القديمِ قبلَ الإسلام بما شاءَ الله . وكذلكَ كلامُ كلِّ فصيحٍ من العرب مشهور ، وما عدَاهُ فليس بشيء .

وهذا المشارُ إليه هاهُنا هو مِنْ جَزْلِ كلامِهِمْ ، وعلى ما تراهُ من السَّلامةِ والعُذُوبة .

وإذا تصفَّحتَ أشعارَهُمْ أيضًا وجدْتَ الوَحْشِيَّ من الألفاظِ قليلاً بالنّسبةِ إلى المُسَلْسَلِ فى الفمِ والسَّمْعِ ، ألا تَرى إلى هذهِ الأبيات الواردةِ للسَّمَوْءَلِ بنِ عادِياَ ، وَهِى[2] :

إذَا المَرْءُ لَمْ يَدْنسْ من اللؤمِ عِرْضُهُ فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ
وَإنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا فَلَيْسَ إلى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ
تُعَيِّرُنَا أنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا إنَّ الكِرَامَ قَلِيلُ
وَمَا ضَرَّنَا أنَّا قَلِيلٌ وَجَارُنَا عَزِيزٌ وَجَارُ الأكْثَرِينَ ذَلِيلُ

---

(١) صححنا بعض ألفاظ هذا النص بمقابلته على رواية القلقشندى [انظر صبح الأعشى ٢/٢٠٨]
(٢) الأبيات فى ديوان الحماسة ١/٣٦ .

يُقرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لنا ... وتكرهُهُ آجالُهم فتطولُ

ومَا ماتَ منّا سَيِّدٌ حتفَ أنفِهِ (١) ... ولا طُلَّ منّا حيثُ كانَ قتيلُ

علونَا إلى خيرِ الظُّهورِ (٢) وحطّنا ... لوقتٍ إلى خيرِ البطونِ نُزولُ

فنحنُ كماءِ المُزْنِ ما في نِصابِنا ... كَهامٌ (٣) ولا فينا يُعَدُّ بخيلُ

إذا سيِّدٌ منّا خلا قامَ سيّدٌ ... قئولٌ لِمَا قالَ الكِرامُ فَعولُ

وأيّامُنا مشهورةٌ في عدوِّنا ... لها غُرَرٌ مشهورةٌ (٤) وحُجولُ

وأسيافُنا في كلِّ غربٍ ومَشرِقٍ ... بها من قِراعِ الدّارعِينَ (٥) فُلولُ

مُعوَّدةٌ ألا تُسَلَّ نِصالُها ... فتُغمَدَ حتّى يُستباحَ قتيلُ

فإذا نظرْنا إلى ما تضمَّنته من الجزالةِ خِلْناها زُبَراً من الحديد، وهي مع ذلك سهلةٌ مستعذَبةٌ، غيرُ فظّةٍ، ولا غليظةٍ.

وكذلك قد وَرَدَ للعرب في جانبِ الرقةِ من الأشعارِ ما يكادُ يَذوبُ رِقّتِه، كقولِ عُرْوَةَ بن أُذَيْنَة (٦):

---

(١) يقال «مات فلان حتف أنفه» إذا مات من غير قتل ولاضرب. والمعنى أنا لانموت، ولكن نقتل، ودم القتيل منا لا يذهب هدرا.

(٢) يشير إلى صريح نسبهم وخلوصه مما يحط بشرفهم.

(٣) كماء المزن أى ماء السحاب — يشبه صفاء أنسابهم بصفاء ماء المطر، والنصاب الأصل، والكهام الكليل الحد.

(٤) روايه ديوان الحماسة «معلومة». والحجول جمع حجل، وهو هنا البياض يكون في قوائم الفرس، والكلام على التشبيه.

(٥) القراع والمقارعة المضاربة، والدارعون أصحاب الدروع، والفلول جمع فل، وهو الثلم في حد السيف.

(٦) اسمه يحيى بن مالك أحد بني ليث بن بكر بن عبد مناة، وهو شاعر غزل مقدم من شعراء المدينة، ومعدود في الفقهاء والمحدثين، روى عنه مالك بن أنس. والأبيات في ديوان الحماسة ٢/٦٣ وفي أمالي القالي ١/١٥٦.

إِنَّ الَّتِي زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَّهَا ... خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوًى لَهَا
بَيْضَاءُ بَاكَرَهَا النَّعِيمُ فَصَاغَهَا ... بِلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا[1] وَأَجَلَّهَا
حَجَبَتْ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي : ... مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقَلَّهَا
وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ ... شَفَعَ الضَّمِيرُ إِلَى الفُؤَادِ[2] فَسَلَّهَا

وكذلك وَرَدَ قَوْلُ الآخرِ[3] :

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالعِيسُ تَهْوِي[4] ... بِنَا بَيْنَ الْمُنِيفَةِ فَالضِّمَارِ[5]
تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ ... فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ[6]
أَلَا يَا حَبَّذَا نَفَحَاتُ نَجْدٍ ... وَرَيَّا رَوْضِهِ غِبَّ الْقِطَارِ[7]
وَأَهْلُكَ إِذْ يَحُلُّ الحَيُّ نَجْدًا ... وَأَنتَ عَلَى زَمَانِكَ غَيْرُ زَارِ[8]
شُهُورٌ يَنْقَضِينَ وَمَا شَعَرْنَا ... بِأَنْصَافٍ لَهُنَّ وَلَا سِرَارِ[9]
فَأَمَّا لَيْلُهُنَّ فَخَيْرُ لَيْلٍ ... وَأَطْيَبُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّهَارِ

---

(١) رواية الأمالى « بلباقة فأرقها »

(٢) الوساوس خطرات النفس — والمعنى أن النفس إذا حدثتني بالسلو عنها كان ضميرى الشفيع إلى إخراج وساوس السلو من نفسى . ورواية الأمالى « شفع الضمير لها إلى فسلها » .

(٣) الأبيات الخمسة الأولى فى آمالى القالى ١/٣٢ وفى حماسة أبى تمام ٢/٦٥ وهى غير منسوبة فيهما .

(٤) رواية الأمالى « تخدى »

(٥) المنيفة ماء لبنى تميم ، والضمار اسم موضع ، قال التبريزى : وكان حق العطف فى قوله « فالضمار » أن يكون بالواو ، لأن « بين » لا تدخل إلا بين شيئين متباينين ، إلا إذا أريد بين أجزاء المنيفة .

(٦) الشميم مصدر ، أراد به المشموم ، والعرار وردة ناعمة صفراء طيبة الرائحة .

(٧) القطار جمع قطر ، والنفح تضوع الرياح بالنسيم الطيب .

(٨) زرى عليه عابه — والمعنى ومحبوب إلى أيضاً منها زمان أهلك حين كانوا نازلين بنجد ، وأنت راض منه لمساعدته إياك بما تهواه وتريده .

(٩) سرار الشهر آخره .

وَمِمَّا تَرْقُصُ الأسماعُ لهُ ، ويرِنُ على صَفَحاتِ القلوبِ قولُ يَزِيدَ بن الطَّثْرِيةِ في مَحْبُوبتهِ مِنْ جَرْمٍ :

بِنَفْسِيَ مَنْ لَوْ مَرَّ بَرْدُ بَنَانِهِ ‏ ‏ عَلى كَبِدِي كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلُهْ
وَمَنْ هَابَنِي فِي كلِّ شَيْءٍ وَهِبْتُهُ ‏ ‏ فَلاَ هُوَ يُعْطِينِي وَلاَ أنا سَائِلُهْ

وإذا كانَ هذا قولَ ساكنٍ فى الفلاةِ لا يَرى إلا شِيحَةً أو قَيْصُومَةً ، ولا يأكلُ إلاَّ ضَبًّا أوْ يَرْبُوعاً ، فما بالُ قومٍ سَكَنُوا الحَضَرَ ، وَوَجَدُوا رِقَّةَ العيشِ يتعاطَوْنَ وَحْشِيَّ الألفاظِ وَشَظَفَ العِبارَات ؟ ولا يَخْلُدُ إلى ذَلِكَ إلَّا إمَّا جَاهِلٌ بأسرارِ الفصاحةِ ، وإمَّا عاجزٌ عن سُلُوكِ طَرِيقها ، فإنَّ كلَّ أحدٍ ممَّن شدَا شيئاً من علمِ الأدبِ يُمْكِنه أنْ يأتِيَ بالوَحْشِيِّ من الكلامِ ، ذَلِكَ أنَّه يلتقطه من كتُبِ اللُّغةِ ، أو يتلقَّفُه منْ أرْبَابِها . وأمَّا الفصيحَ المتَّصِفُ بصفةِ الملاحةِ فإنه لا يقدِرُ عليه ، ولو قدَرَ عليه لَما عَلِمَ أيْنَ يَضَعُ يَاءَ فى تأليفه وسَبْكِه .

فإنْ مارَى فى ذلك مُمَارٍ فلينظرْ إلى أشْعارِ علماءِ الأدبِ ممَّن كانَ مُشاراً إليه ، حتَّى يعلمَ صحَّةَ ما ذكرْتُه : هذَا ابنُ دُرَيْد[1] قدْ قِيلَ إنَّه أشعرُ علماءِ الأدَبِ ، وإذا نَظَرْتَ إلَى شِعْرِه وَجَدْتَه بالنسبة إلى شِعْرِ الشُّعراءِ المجيدين منحطًّا مع أنَّ أولئكَ الشعراءَ لمْ يعرفُوا من علمِ الأدَبِ عُشْرَ مِعْشَارِ ما عَلِمَه هَذا العباسُ بنُ الأحنفِ[2] قد كانَ من أوائلِ الشُّعراء المجيدين ، وشعرُه

---

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى ، ولد بالبصرة سنة ٢٢٣ هـ ، وكان نابغة فى اللغة والأدب والأنساب ، وبرع فى الشعر ، حتى قيل فيه أشعر العلماء وأعلم الشعراء ، وله عدة تصانيف منها كتاب « الجمهرة » فى اللغة ، توفى سنة ٣٢١ هـ .

(٢) العباس بن الأحنف من بنى عدى بن حنيفة ، وهو شاعر غزل مطبوع ، وله مذهب فى الشعر جيد ، ولمعانيه عذوبة ، وكان من شعراء بنى العباس ، وقدمه المبرد على نظرائه ، وأطنب فى وصفه ، ولم يتجاوز الغزل إلى غيره من أغراض الشعر ، توفى سنة ١٩٢ هـ

كمرِّ نسيمٍ على عَذَبَاتِ أغصانٍ ، وكَلُؤلؤاتِ طَلٍّ على طَرَرِ رَيْحَانٍ ، وليسَ فيهِ لفظةٌ واحدةٌ غريبةٌ يُحتَاجُ إلى استخراجها من كُتُبِ اللُّغةِ ، فمن ذلكَ قولُه :

وَإِنِّى لَيُرْضِينِى قَليلُ نَوَالِكُمْ ... وَإِنْ كانَ لا أَرْضَى لكم بِقَلِيلِ
بِحُرْمَةِ مَا قَدْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ... مِن الوُدِّ إلاَّ عُدْتُمُ بجميلِ

وهكذا وَرَدَ قولُه فى « فوز » الَّتِي كَانَ يُشَبِّبُ بها فى شعرِه :

يَا فَوزُ يَا مُنْيَةَ عَبَّاسِ ... قَلبِى يُفَدِّى قَلْبَكَ القَاسِى
أَسَأْتُ إِذْ أَحْسَنْتُ ظَنِّى بِكُمْ ... والحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بالنَّاسِ
يُقْلِقِنِى شَوْقِى فَآتِيكُمُ ... وَالقَلْبُ مَمْلُوءٌ من اليَاسِ

وهلْ أعذبُ من هذِه الأبياتِ ، وأَعْلَقَ بالخاطرِ ، وأَسْرَى فى السَّمعِ ؟ ولمثلها تخفُّ رواجحُ الأوزانِ ، وعلى مِثلِها تَسْهَرُ الأجفانَ ، وعنْ مِثْلِها تتأخرُ السَّوابقَ عندَ الرِّهان . ولمْ أجْرِهَا بِلِسَانِي يوماً من الأيَّامِ إلا ذَكَرْتُ قولَ أبى الطيِّبِ المتنبِّى[1] :

إذا شاءَ أنْ يَلْهُو بِلِحْيَةِ أَحْمَقٍ ... أَرَاهُ غُبَارِى ثمَّ قَالَ لهُ الحَقِ[2]

ومن الَّذى يستطيعُ أن يَسْلُكَ هذهِ الطريقَ التى هى سهلةٌ وعْرةٌ ، قريبة بعيدة !

وهذا أبو العَتَاهِية[3] كان فى عزَّةِ الدولةِ العباسيَّة . وشعراء العربِ

---

(١) ديوان المتنبي ٢/٣١٤ من قصيدة مطلعها :
لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى ... وللحب مالم يبق منى وما بقى
(٢) أسكن الواو من الفعل « يلهو » وهو منصوب ضرورة .
(٣) هو إسماعيل بن القاسم ، نشأ بالكوفة يعالج الشعر مع إلمام بمذاهب المتكلمين والفلاسفة ، ويغلب على شعره الزهد والسهولة ، وقد توفى سنة ٢١١ هـ

إذ ذاك موجودُونَ كثيراً ، وكانتْ مدائحهُ فى المهدىّ بنِ المنصورِ ، وَإذَا تأمّلتَ شعرَهُ وجدته كالماءِ الجارِى : رِقّةَ ألفاظٍ ، ولطافة سَبْكٍ ، وليسَ بركيكٍ ولا وَاهٍ .

وكذلك أبو نُواس ، وبهذا قُدِّم على شعراءِ عصْره ، وناهيكَ بعَصْره ، وما جَمَعَه من فُحولِ الشُّعراءِ ، ويكفِى منهم مُسْلمُ بنُ الوَليد[1] الذى كانَ فارسَ الشِّعر ، وله الأسلوبُ الغريبُ العجيبُ غيرَ أنّه كانَ يتَعَنْجَهُ فى أكثرِ ألفاظِه

ويحكَى أنَّ أبا نواس جلسَ يوماً إلى بعضِ التجار ببغدادَ هوَ وجماعةٌ من الشُّعراء ، فاستَسْقَى ماءً ، فلما شَربَ قال :

* عَذُبَ المـــاء وطابَا *

ثم قال أجيزُوه ، فأخذَ أولئكَ الشعراء يتردَّدُون فى إجازته ، وإذا هُمْ بأبى العَتاهِية فقال : ما شأنكمْ مجتمعين ؟ فقالُوا : هو كَيْتَ ، وكَيْتَ ، وقد قالَ أبو نواس :

* عَذُبَ المـاء وَطَاباَ *

فقالَ أبو العتاهية :

* حَبّذَا المـــاء شَرَاباَ *

فعجِبوا لقولِه على الفَوْر من غير تلبُّثٍ .

وكلُّ شعرِ أبى العتاهيةِ كذلكَ سَهْلُ الألفاظ ، وسأوردُ منه هاهنا شيئاً يُسْتَدلُّ به على سلاسَةِ طبعِه ، وتَرْوِيقِ خاطِره .

فمِنْ ذلك قصيدتُه التى يمدح فِيها المَهْدِىَّ ، ويشبِّب فيها بجاريَته «عُتْبة» :

---

(١) هو صريع الغوانى مسلم بن الوليد الأنصارى ، تأدب فى الكوفة ؛ ونبه شأنه فى الشعر ، حتى صار من متقدمى عصره ، وهو من متكلفى البديع ، وقد توفى بجرجان سنة ٢٠٨ ه .

ألاَ مَا لِسَيِّدَتِى مَالَهَا   تُدِلُّ فَأَحْمِل إِدْلاَلَهَا
ألاَ إِنَّ جَارِيَةً للإما   م قد سَكَنَ الحُسْنُ سِرْبَالَهَا
لَقَدْ أتعبَ اللهُ قَلْبِى بِهَا   وأتْعَبَ فى اللَّوْمِ عُذَّالَهَا
كَأَنَّ بِعَيْنِىَّ فى حَيْثُمَا   سَلَكْتُ مِن الأَرْضِ تِمْثَالَهَا

فلما وَصَل إلى المديحِ قَال من جملته :

أَتَتْهُ الخلافَةُ منقادَةً   إليهِ تُجَرِّرُ أذيالَهَا
فلَمْ تكُ تَصْلُحُ إلاَّ لهُ   ولم يَكُ يَصْلُحُ إلاَّ لَهَا
وَلوْ رَامَهَا أحدٌ غيرُهُ   لزُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَهَا
ولولَمْ تُطِعْهُ بَنَاتُ القُلُوبِ (١)   لَمَا قَبِلَ اللهُ أعمَالَهَا

ويحكَى أنَّ بَشَّارًا (٢) كانَ شاهداً عند إنشادِ أبى العتَاهية هذه الأبيات ، فلمَّا سمِعَ المديحَ قال : انظُرُوا إلى أمير المؤمنين ، هل طَارَ عن أعْوَاده ؟ يُرِيدُ هَلْ زَالَ عن سِرِيرِهِ طَرَباً بهذا المديحِ ؟

ولعمرى إنَّ الأمر كما قال بَشار ، وخيرُ القولِ ما أسكرَ السَّامعَ ، حتَّى ينقلهُ عن حَالَتِه سَوَاء كانَ فى مديحٍ أو غيرهِ .

وقدْ أشرتُ إلى ذلكَ فيما يأتى من هذا الكتابِ عند ذكرِ (الاستعارة) فليُؤْخَذْ من هناك

(١) بنات القلوب : حباتها ، والمعنى من لم يخلص للخليفة لا يتقبل الله عمله .

(٢) هو أبو معاذ بشار بن برد العقيلى ولاء ، الفارسى أصلا ، أخـذ العربية عن أعراب البصرة ، ونبـغ فى الشعر ، لشدة ذكائه ، وسعه خياله ، وحسن ابتـكاره . وكان هجاء ماجناً مات مقتولا سنة ١٦٧ هـ

واعلمْ أنَّ هذهِ الأبيات المشارَ إليها هاهنا من رقيقِ الشِّعْر غزَلا ومَديحاً ، وقدْ أذْعنَ لمديحِها الشُّعراء من أهلِ ذلكَ العصْر . ومعَ هذا فإنَّك تراهَا من السَّلاسَةِ واللَّطافةِ على أقصى الغَاياتِ .

وهذَا هُوَ الكلامُ الذى يسمَّى « السَّهل الممتنع » فترَاهُ يُطْمِعك ، ثم إذَا حاولت مماثلته راغَ عَنْكَ كما يَرُوغُ الثَّعْلَب .

وهكذَا ينبغِى أنْ يكونَ من خَاضَ فى كتابةٍ أو شعر ، فإنَّ خيرَ الكلامِ ما دَخَلَ الأذُنْ بِغَيْرِ إذْن !

وأمَّا البداوةُ والعنْجهيَّة فى الألفاظِ فتلكَ أُمَّةٌ قد خلَتْ ، ومعَ أنها قَدْ خلَتْ وكانتْ فى زمنِ العربِ العاربة فإنَّها قد عِيبَتْ على مُسْتَعْمِلها فى ذلكَ الوقتِ ، فكيفَ الآن وقد غلَبَ على الناسِ رِقَّةُ الْحَضَر ؟

وَبَعْدَ هَذَا فاْعْلَمْ أنَّ الألفاظَ تَجْرِى منَ السَّمع مجرَى الأشْخَاصِ من البصَر .

فالألفاظَ الجزْلةُ تتَخيَّلُ فى السَّمْعَ كأشخاصٍ عليها مهابةٌ ووقارٌ .

والألفاظُ الرقيقةَ تُتخيَّل كأشخاصٍ ذَوِى دَمَاثةٍ ، ولِينِ أخلاقٍ ، ولَطَافةِ مِزَاج .

ولهذَا ترَى ألفاظ أبى تمَّامٍ كأنها رجالٌ قد ركبُوا خيولَهُمْ ، واستَلأَمُوا سِلاحَهُم ، وتأهبُوا للطِّراد . وترَى ألفاظَ البُحْتُرِى كأنَّها نساءٌ حِسَانٌ عليهنَّ غلائلُ مُصَبَّغَات ، وقد تحلَّيْنَ بأصنافِ الْحُلِىِّ .

وإذا أنعمتَ نظرَكَ فيما ذكرتُه هاهنا وجدتني قد دللتُكَ على الطريقِ، وضربتُ لك أمثالا مُناسِبة.

واعلم أنّهُ يجبُ على النّاظمِ والناثرِ أن يجتنبا ما يضيقُ به مجالُ الكلامِ في بعضِ الحروفِ كالثاء والذّالِ والخاء والشينِ والصّادِ والطّاء والظّاءِ والغين. فإنّ في الحروف الباقيةِ مندُوحةً عن استعمالِ مالا يَحْسُنُ من هذهِ الأحرُفِ المُشارِ إليها.

والناظمُ في ذلكَ أشدُّ ملامةً، لأنّه يتعرّضُ لأنْ ينظِمَ قصيدةً ذاتَ أبياتٍ متعدّدةٍ، فيأتِي في أكثرِها بالبَشِعِ الكريهِ الذى يمجُّه السّمعُ، لعدَمِ استعمالِه، كما فعل أبُو تمامٍ في قصيدتِه الثائيّة التى مطلعُها:

* قِفْ بالطّلولِ الدّارِسَاتِ عُلاثَا *[1]

وكما فعلَ أبُو الطيّبِ المتنبيّ في قصيدتِهِ الشّينيّة التى مطلعُها:

* مَبِيتِي من دِمَشْقَ عَلَى فِراشٍ *[2]

وكما فعل ابنُ هانئٍ المغربىّ[3] في قصيدتِهِ الخائيّة التى مطلعُها:

* سَرَى وَجَنَاحُ اللّيلِ أقتمُ أفتخُ *

---

(١) ديوان أبي تمام ٦٣؛ وعجز البيت: * أضحت حبال قطينهن رثاثا *

(٢) ديوان المتنبي ٢/٢٠٧ وعجز البيت: * حشاه لى بحر حشاى حاش *

(٣) هو أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدى الأندلسي، أشهر شعراء الأندلس، والملقب بمتنبي المغرب؛ نشأ في أشبيلية وأتهم بسوء العقيدة، فهرب إلى عدوة المغرب، وكانت في قبضة الفاطميين الأولين، فمدح المعز قبل فتح مصر، وفي أثنائه. ولما فتحت مصر وذهب المعز إليها تأهب للحاق به، فمات في الطريق سنة ٣٦٢ هـ، ولم يناهز الأربعين. ويمتاز شعره بالتغريب، وفخامة اللفظ، والأساليب البدوية، وكثرة التشبيهات والمجاز.

والناظمُ لا يُعابُ إذا لم ينظمْ هذه الأحرفَ فى شِعرِه ، بل يُعابُ إذا نَظَمها ، وجاءت كريهةً مستبشعةً .

وأمَّا الناثرُ فإنَّه أقربُ حالاً من الناظمِ ، لأنَّ غايةَ ما يأتِى به سَجْعتان ، أو ثلاثٌ ، أو أربعٌ على حرفٍ من هذه الأحْرف ، وما يَنْدَمُ فى ذلك ما يَرُوق ، إذا كانَ بهذه العِدَةِ اليسيرة .

فإنْ كلِّفتَ أيُّها الشَّاعر أن تنظمَ شيئاً على هذه الحروفِ ، فَقلْ هذه الحروفُ هى مَقاتِلُ الفَصاحَة ، وعُذْرِى واضحٌ فى تَرْكِها ! فإنّ واضعَ اللُّغَةِ لم يَضَعْ عليْها ألفاظاً تَعذُبُ فى الفَم ، ولا تلَذُّ فى السَّمع ، والّذى هو بهذه الصِّفةِ منْها فإنّما هُوَ قليلٌ جدًّا ، وَلاَ يَصاغُ منه إلا مقاطيعُ أبياتٍ من الشِّعر ، وأمَّا القصائدُ المقصَّدةُ فلا تُصاغَ مِنه ، وَإنْ صِيغَتْ جاءَ أكثرُها بَشِعاً كَريهاً .

على أنّ هذه الحُروفَ متفاوتةٌ فى كراهةِ الاستعْمالِ ، وأشدُّها كراهية أربعةُ أحرفٍ ، وهى : الخاء ، والصَّاد ، والظَّاء ، والغَيْن . وأمَّا الثَّاء ، والذّال والشِّينُ ، والطَّاء ، فإن الأمْرَ فيهنَّ أقربُ حالاً .

وهذَا موضعٌ ينبغِى لصاحِب الصِّنَاعةِ أن يُنعِمَ نظرهُ فيهِ . وفيماَ أشرْنا إليْه كفايةٌ للمتعلِّم ، فليعرِفْه ، وليقفْ عندَه ا

[المبتذل من الألفاظ]

ومنْ أوْصافِ الكلِمة أن لا تكونَ مبتذلَةً بيْن العامّةِ .

وذلِكَ ينقسِمُ قِسْمَيْن :

الأول : ما كانَ مِنَ الألفاظِ دَالاًّ على مَعْنًى وُضِعَ له فى أصْل اللغةِ ، فغيَّرتْهُ العامةَ ، وجعلتْهُ دَالا على معنًى آخر ، وهو ضَرْبان :

الأول: ما يُستكرَهُ ذِكرُهُ، كقولِ أبى الطيِّب[1]:

أذاقَ الغوانى حُسْنُهُ ما أذَقْنَنى وعَفَّ فجازاهُنَّ عَنى بالصَّرْمِ[2]

فإن [معنى] لفظةَ «الصَّرْم» فى وضع اللغةِ هو القطع. يُقال «صَرَمَهُ» إذا قطعه، فغيَّرتها العامةُ، وجعلتها دالَّةً على المحلِّ المخصوص من الحيوانِ دُونَ غَيرِهِ. فأبدلُوا السِّين صادًا. ومِنْ أجلِ ذلكَ استُكرِهَ استعمالُ هذه اللفظةِ وما جرَى مجرَاها لـكنَّ المسكروهَ منها ما يُستَعملُ على صيغةِ الاسميَّةِ، كما جاءتْ فى هـذا البيتِ. وأمَّا إذا استُعملتْ على صيغةِ الفِعْلِ كقولِنا «صَرَمَه» و«صرمْتُهُ» و«نصرِّمه» فإنها لا تـكونُ كريهةً، لأنَّ استعمالَ العامَّةِ لا يدْخلُ فى ذلك.

وهذا الضَّربُ المُشَارُ إليه لا يعابُ البدَوِىُّ على استعمالِه، كما يُعابُ المحتضِر، لأنَّ البدوىَّ لم تتغيَّر الألفاظُ فى زَمَنِه، ولا تصرَّفتِ العامَّةُ فيها كما تصرَّفتْ فى زمنِ المُحْتَضِرَة من الشُّعراء. فمنْ أجلِ ذلكَ عِيبَ استعمالُ لفظةِ «الصَّرْم» وما جرَى مجراها على الشاعِرِ المحتضِر، ولم يُعَبْ على الشاعِرِ المُتَبدِّىْ ألا ترى إلى قولِ أبى صَخْرٍ الهُذَلىِّ[3]:

قَدْ كانَ صَرْمٌ فى المماتِ لنَا فعجِلْتَ قبْلَ الموْتِ بالصَّرْمِ[4]

---

(١) ديوان المتنبى ٤/٥٥ من قصيدة يمدح بها الحسين بن إسحاق التنوخى، ومطلعها:

ملام النوى فى ظلمها غاية الظلم لعل بها مثل الذى بى من الظلم

(٢) رواية الديوان «وعف فجازهن عنى بالصرم» وقد أسكن «الغوانى» ضرورة لأنها مفعول «ذاق»

(٣) اسمه عبد الله بن سلم السهمى، أحد بنى هذيل بن مدركة، وهو شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأموية، وكان مواليا لبنى مروان، متعصباً لهم، وله فى عبد الملك مدائح، وقد كان حبسه ابن الزبير إلى أن شفع له رجال من قريش، فأطلقه بعد سنة، فلما ولى عبد الملك وحج لقيه أبو صخر، فأدناه عبد الملك وقربه، فمدحه ونال جائزته.

(٤) من أبيات ثمانية فى ديوان الحماسة ٢/٦٢

فإنَّ هذا لا يُعابُ على أبى صَخْرٍ كما عِيبَ على المُتَنَبِّى قولُه فى البيتِ المقدَّم ذِكْرُه .

وقدْ صَنَّف الشيخ أبو منصورِ بنُ أحمدَ البغدادىُّ المعروفَ بابْنِ الجوَالِيقى كتاباً فى هذا الفنِّ ، ووسمه : « إِصْلاَحِ ما تَغلطَ فيه العامَّةُ » فمنه ما هذا سبيلُه ، وهو الذى أُنْكِرَ استعمالُه لـكَرَاهَتِهِ ، ولأنَّه ممَّا لم يُنقلْ عن العربِ فهذان عيبان .

وأما الضرْب الثانى :

وهو أنه وُضِع فى أصل اللغةِ لمعًى ، فجعلَتْه العامَّة دالا على غيره ، إلاَّ أنَّه ليس بمُسْتَقبحٍ ولا مُسْتكرهٍ .

وذلكَ كتسميتِهمْ الإنسانَ « ظريفاً » إذا كانَ دَمِثَ الأخلاقِ ، حَسَنَ الصُّورةِ أو اللِّباس ، أو ما هذا سبيلهُ « والظَّرْفُ » فى أصلِ اللغةِ مختصٌّ بالنُّطْق فقطْ .

وقد قيل فى صِفاتِ خَلْقِ الإنسانِ ما أذكُرُه هاهنا وهو : الصباحةُ فى الوجهِ ، الوَضَاءَةُ فى البشرَةِ ، الجمالُ فى الأنْفِ ، الحلاوةُ فى العينين ، الملاَحَة فى الفَمِ ، الظرْفُ فى اللسان ، الرَّشَاقَةُ فى القَدِّ ، اللَّبَاقَةُ فى الشمائِل ، كمال الحسْنِ فى الشَّعْرِ

فالظَّرْفُ إنَّما يتعلق بالنُّطْق خاصَّةَ ، فغيَّرتهُ العامَّة عن بابِه . ومِمَّن غَلطَ فى هذا الموضع أبو نُواسٍ حيثُ قَالَ :

اختَصَمَ الجودُ والجَمالُ   فِيكَ فَصَارا إلى جِدالِ

فقالَ هـذا يَمينهُ لي ... لِلعُرْفِ وَالبَذْلِ وَالنَّوالِ
وَقالَ هذاكَ وَجْهُهُ لي ... للظَّرْفِ والحُسْنِ وَالكَمالِ
فافـترَقا فيكَ عَنْ تَرَاضٍ ... كِلاهُما صَـادِقُ المَقالِ

وكذلك غلط أبو تمام فقال [١] :

لَكَ هضْبَةُ الحِلْمِ التِي لَوْ وَازَنَتْ ... أَجَأً إِذَنْ ثَقُلَتْ وَكانَ خَفيفَا
وَحَلاوَةُ الشِّيمِ التِي لَوْ مَازَجَتْ ... خُلُقَ الزَّمانِ الفَدْمِ عادَ ظَرِيفَا

فأبو نواس غلطَ هاهنا فى أنه وصفَ الوجهَ بالظَّرْف ، وهو من صفات النُّطق ، وأبو تمَّامٍ غلطَ فى أنه وصفَ الخُلُقَ بالظَّرْفِ ، وهُوَ من صفات النُّطق أيضاً ، إلَّا أنَّ هذا غلطٌ لا يوجبُ فى هذا اللفظةِ قبحاً ، لكنه جهل بمعرفةِ أصلِها فى وَضعِ اللغَة

القسم الثانى مما ابتذلته العامة ، وهو الذى لم تغيره عن وضعه :

وإنما أنكر استعماله لأنه مبتذل بينهم . لاَ لِأَنَّهُ مُسْتَقْبَحٌ ، ولا لِأَنّه مخالفٌ لما وُضِع له .

وفى هذا القِسْمِ نظرٌ عندى، لأنّهُ إن كانَ عبارةً عمَّا يكثرُ تداوُلُه بين العامّة فإنَّ من الكثير المتداولِ بينَهم ألفاظاً فصيحة ، كالسَّماءِ ، والأرض ، والنّار ، والماء ، والحجَر ، والطين ، وأشباهِ ذلك .

---

(١) ديوان أبي تمام ٣٠٩ من قصيدة فى مدح أبي سعيد محمد بن يوسف ، ومطلعها :
أطلالهم سلبت دماها الهيفا ... واستبدلت وحشاً بهن عكوفا

وقد نطقَ بها القرآنُ الكريمُ في مواضعَ كثيرةٍ منه . وجاءت في كلامِ الفصحاءِ نظمًا ونثرًا .

والذي ترجّح في نظري أن المرادَ بالمبتذلِ من هذا القِسم إنّما هو الألفاظُ السخيفةُ الضعيفةُ سواءٌ تداولَتْها العامّةُ أو الخاصّةُ . فمما جاء منه قولُ أبي الطيّب المتنبي(١) :

وَمَلْمُومَةٌ سَيْفِيَّةٌ رَبَعِيَّـــةٌ يَصِيحُ الحَصى فيها صِيَاحَ اللَّقَالِقِ(٢)

فإنّ لفظة « اللقالق » مبتذلةٌ بين العامّةِ جدًّا ، وكذلك قوله(٣) :

وَمِنَ الناسِ مَنْ تَجُوزُ إليهم شُعَراءٌ كأنّها الخَازِبَازُ(٤)

وهذا البيتُ مِنْ مُضحِكاتِ الأشعار ، وهو من جملةِ « البِرْسَام » الذي ذكرَه في شعره حيثُ قال(٥) :

إنَّ بَعضًا من القريضِ هُراءٌ لَيسَ شَيْئًا وَبَعضُهُ أَحْكَامُ(٦)

---

(١) ديوان المتنبي ٢/٣٢٥ من قصيدة مطلعها :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجرى السوابق

(٢) الملمومة الكتيبة المجتمعة ، وسيفية منسوبة إلى سيف الدولة ، وربعية منسوبة إلى ربيعة ، وهي قبيلة سيف الدولة ، واللقالق جمع لقلق ، وهو طائر كبير يسكن العمران في أرض العراق .

(٣) ديوان المتنبي ٢/١٨٣ من قصيدة في مدح أبي بكر علي بن صالح ، ومطلعها :

كفرندى فرند سيفي الجراز لذة العين عدة للبراز

(٤) رواية الديوان ✻ ومن الناس من يجوز عليه ✻ والخازباز حكاية صوت الذباب ، ويسمى الذباب « الخازباز » وقال الأصمعي هو نبت ، وقال قوم : الخازبازداء يأخذ الإبل في حلوقها والناس . والمعنى : أنت ناقد الكلام تعرف الشعر ، وغيرك يجوز عليه شعراء يهذون ، كأنهم طنين الذباب في هذيانهم .

(٥) ديوان المتنبي ٤/١٠١ من قصيدته التي مطلعها :

لا افتخار لمن لا يضام مدرك أو محارب لاينام

(٦) رواية الديوان « هذاء » موضع « هراء » والهذاء والهذيان مصدر هذى يهذى إذا قال قولا لافائدة له ؛ والأحكام جمع حكم بمعنى الحكمة .

فِيهِ ما يجْلُبُ البَرَاعَةَ والفَهْمَ ... وَفِيهِ مَا يَجْلُبُ البِرْسَامُ (١)

ومثلُ هذهِ الألفاظِ إذا وَرَدَتْ فى الكلامِ وَضعَتْ من قَدْره ، ولو كانَ مَعْنًى شَرِيفًا .

وهذا القسمُ من الألفاظِ المبتذَلة لا يكادُ يَخْلو مِنه شعرُ شاعرٍ ، لكنْ منهمْ المقِلُّ ومنهمُ المكثِرُ ، حتَّى أن العاربة قد استعملتْ هذا ، إلَّا أنَّه فى أشعارِها أقلُّ . فمِنْ ذلكَ قولَ النَّابغةِ الذُّبيانىِّ فى قصيدتِهِ الَّتى أولها :

* مِنْ آلِ ميَّةَ رائحٌ أوْ مُغتَدِ * (٢)

أوْ دميةٍ فى مَرْمَرٍ مَرْفُوعَةٍ ... بُنِيَتْ بِآجُرٍّ يُشَادُ بِقَرْمِدِ (٣)

فلفظهَ « آجُرّ » مبتذلةٌ جدا .

وإنْ شئتَ أن تعلم شيئاً من سرِّ الفصاحةِ التى تضمَّنها القرآنُ فانظرْ إلى هذا الموضعِ ، فإنّه لما جىء فيهِ بذكر « الآجُرّ » لم يذكَرْ بلفظِه ، ولا بِلفظِ « القِرْمِد » أيضاً ، ولا بلفظ « الطُّوب » الذى هُوَ لغةُ أهْلِ مِصْر ؛ فإنَّ هذه الأسماء مبتذلة ، لكنْ ذُكِرَ فى القرآنِ على وجهٍ آخَرَ ، وهو قوله تعالى : « وقَالَ فِرْعَوْنُ يا أيُّها المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكم مِنْ إلهٍ غَيْرِى فأَوْقِدْ لِى

---

(١) رواية الديوان « الفضل » موضع « الفهم » . والبرسام علة يهذى فيها .

(٢) ديوان النابغة بشرح الوزير أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسى ص ٢٧ وعجز البيت * عجلان ذا زاد وغير مزود *

(٣) صفحة ٣٠ من الديوان ، والدمية التمثال والصورة ، والمرمر الرخام الأبيض ، ويشاد يرفع بالشيد وهو الجص ، والقرمد خزف مطبوخ .

يَا هَامَانُ على الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صرحًا »[١] فعبّر عن الآجُرّ بالوَقُودِ على الطِّين .

ومنْ هذا القسْمِ المبتذَلِ قولُ الفرَزْدَقِ في قصيدته التي أولها :

عَزَفْتَ بِأَعْشَاش وَمَا كِدْتَ تَعْزِفُ[٢]

وَأَصْبَحَ مُبْيَضُّ الصَّقِيعِ كَأَنَّهُ على سَرَوَاتِ النِّيبِ قُطْنٌ مُنَدَّفُ[٣]

فقوله : « مُنَدَّف » من الألفاظِ العاميَّةِ ، ومن هذا القسم قول البحتري :

وجوهُ حُسَّادِكَ مسودَّةٌ أمْ صُبِغَتْ بعدي بالزَّاجِ

فلفظة : « الزَّاج » من أشدِّ ألفاظ العامَّة ابتذالا .

وقد استعمَل أبو نواس هذا النوعَ في شعره كثيراً كقوله[٤] :

يَا مَنْ جفانِي ومَلَّا نَسِيتَ أَهْلا وَسَهْلَا
وَمَاتَ مَرْحَبُ لَمَّا رَأَيْتَ مَالِيَ قَلَّا
إِنِّي أَظُنُّكَ فِيما فعلْتَ تَحكِي القِرِلَّى[٥]

---

(١) سورة القصص : الآية ٣٨ .

(٢) ديوان الفرزدق ٢/٥٥١ ، وهي إحدى نقائضه، وعجز البيت :

☆ وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف ☆ .

وفي الأصل « عرفت » و « تعرف » بالراء فيهما ، والصواب عن الديوان .

(٣) في الأصل « الضريب » موضع « الصقيع » و « البيت » موضع «النيب» والتصويب عن الديوان،وسروات النيب أسنمة الإبل ، يقول : وقع الثلج على أسنمتها كأنه قطن منيدف والصقيع الجليد .

(٤) ديوان أبي نواس ١٥٣ في عتاب عمرو الوراق .

(٥) القرلى كزمكي طائر ذو حزم لايرى إلا فرقا على وجه الماء على جانب يهوى بإحدى عينيه إلى قعر الماء طمعاً ، ويرفع الأخرى في الهواء حذراً ، ومنه المثل « أحزم من قرلى ، إن رأى خيراً تدلى ، وإن رأى شراً تولى» .

وكقوله (١) :

وَأَنْمرِ الجلدةِ صَيَّرْتُهُ فى النّاس زاغا وشِقِرَّاقا (٢)
مازِلْتُ أُجرى كَلْكَلى فَوْقَهُ حتَّى دَعا مِنْ تَحْتِهِ قاقا

وكقولِهِ :

وَمُلِحَّةٍ بالعَذْلِ تحسبُ أنّنى بالجهلِ أَتْرُكُ صُحْبَةَ الشُّطّار

وقد استعملَ لفظة « الشاطر » « والشاطرة » « والشُّطّار » « والشَّطَارَة » كثيراً ، وهى من الألفاظِ الّتى ابتذلَها العامّة حتى سَئِمَتْ من ابتِذالها .

وهذهِ الأمثلةُ تمنعُ الواقِفَ عليها من استعمالِ أشباهِها وأمثالِها

* * *

ومن أوصاف الكلمة أن لا تكون مشتركةً بين مَعْنَيَيْنِ أحدُهما يُكْرَه ذِكْرُ ، وإذا وَرَدَتْ وهى غيرُ مقصودٍ بها ذلك المعنى قَبُحَتْ . وذلِكَ إذا كانتْ مهملةً بغيرِ قَرينةٍ تميِّز معناها عن القُبْح .

فأمّا إذا جاءتْ ومعها قرينةٌ فإنّها لا تكونُ مَعيبة ، كقوله تعالى : « فالّذِينَ آمنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوه واتَّبَعُوا النُّورَ الّذى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُون (٣) » . ألاَ تَرَى أنّ لفظَةَ « التَعْزِير » مشتركَةٌ تُطلَقُ على التعظيم والإكرَام ، وعلى الضَرْبِ الّذى هو دُونَ الحَدِّ ، وذلِكَ نوعٌ من الهَوَانِ ، وهما مَعْنَيَان ضِدّان . فحيثُ وردَتْ فى هذه الآيةِ جاء مَعَها قَرَائِنُ من قبلها ومن بَعْدها ، خصَّصَتْ معناها بالحُسْن ، ومَيَّزَتْهُ عن القُبْح . ولو وردتْ

---

(١) ديوان أبى نواس ١٨٩ فى هجاء زنبور .

(٢) الأنمر مافيه نمرة أى نكتة بيضاء وأخرى سوداء ، والزاغ غراب صغير ، والشقراق بكسرتين وراء مشددة أو كقرطاس ويفتح طائر مرقط بخضرة وحمرة وبياض ، ويكون بأرض الحرم .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

مهملة بغير قرينةٍ ، وأُرِيدَ بها المعنى الحسن لَسَبَقَ إلى الوهمِ ما اشتملتْ عليه من المعنى القبيح .

مثالَ ذلك : لو قالَ قائلٌ : لَقِيتُ فلاناً فعزَّرْتُه ، لَسَبَقَ إلى الفهم أنَّه ضَرَبَه وأهانه . ولو قال : لَقِيت فلاناً فأكرمْتُه وعزَّرْتُه ، لزالَ ذلك اللَّبْس .

واعلمْ أنَّه قد جاء من الكلامِ ما معه قرِينةٌ فأوجبتْ قُبْحَه ، ولو لم تَجِيء معهُ لما استُقْبِح ، كقولِ الشَّرِيف الرَّضِيِّ :

أَعْزِزْ عَلَى بِأَنْ أَرَاكَ وَقَدْ خَلاَ ... عَنْ جَانِبَيْكَ مَقَاعِدُ العُوَّاد

وقد ذكر ابنُ سِنَانٍ الخفاجيُّ هذا البيت فى كتابه ، فقالَ : إنَّ إيرَادَ هذه اللفظةِ فى هذا الموضِعِ صَحِيح ، ألا أنَّه موافِقٌ لما يكرهُ ذكرُه فى مثلِ هـذا الشِّعرِ ، لا سِيَّما وقد أضافهُ إلى مَنْ يحتملُ إضافتَه إليه وهُمُ العُوَّاد ، ولو انفردَ لكانَ الأمرُ فيه سَهْلًا . فأما الإضافة إلى مَنْ ذكَره فيها قُبْحٌ لا خفاءَ به . هذا حكايةُ كلامِه[1] ، وهو مَرْضِيٌّ واقعٌ فى موقعه .

ولنذكرْ نحنُ ما عندنا فى ذلكَ فنقولُ : قدْ جاءت هذه اللفظةُ المعيبة فى الشِّعر فى القرآنِ الكريم ، فجاءت حسنة مرضيَة . وهى قوله تعالى : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ[2] » وكذلك

---

(١) انظر سر الفصاحة ٩٣ ونص عبارة ابن سنان : فإيراد «مقاعد» فى هذا البيت صحيح إلا أنه موافق لما يكره ذكره فى مثل هذا الشأن ؛ لاسيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليهم وهم العواد ، ولو انفرد كان الأمر فيه سهلا ، فأما إضافته إلى ما ذكره فنها قبح لا خفاء به .

(٢) سورة آل عمران : الآية : ١٢١ .

قوله تعالى : « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماء فوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيداً وَشُهُبًا *
وَأَنَّا كُنَّا نقعُدُ منها مقاعِدَ للسَّمعِ فَمَنْ يَسْتَمِـع الآنَ يَجِدْ لهُ شِهاباً رَصَدًا[1] »
ألاَ ترى أنّها فى هاتين الآيتين غيرُ مضافةٍ إلى مَنْ تَقْبُح إضافته إليه
كما جاءتْ فى الشّعر .

ولو قالَ الشاعِرُ بدلا من « مقاعد العُوَّاد » « مقاعد الزيارة » أوْ ما جَرَى
مجراه لذهَبَ ذلكَ القُبْح ، وزالتْ تلكَ الهُجْنَة . ولهذا جاءتْ هذه اللفظةُ فى
الآيتين على ما تراهُ من الحُسْن ، وجاءتْ على ما تَرَاهُ من القُبْحِ فى قول
الشَّريف الرَّضِيّ .

وعلى هذا وَرَد قولُ تأبَّط شَرًّا :

أَقُولُ لِلحْيَانٍ وَقَدْ صَفِرَتْ لَهُمْ وِطَابِى وَيَوْمِى ضَيِّقُ الجُحْرِ مُعوِرُ[2]

فإنّهُ أضافَ الجُحْرَ إلى اليَوْم ، فأزالَ عنهُ هُجْنَةَ الاشتباهِ ، لأنّ
« الجحر » يطلقُ على كل ثُقْبٍ كثقبِ الحيَّةِ واليَرْبوع ، وعلى المحلّ
المخصُوص من الحيوَانِ ، فإذا ورد مُهملا بغير قرينةٍ تخصِّصُه سبقَ إلى الوهم
ما يقبُحَ ذِكْرُهُ ، لاشتهارِهِ به دُونَ غيرِه .

ومِنْ هاهُنا وَرَدَ قولُ النبىّ صلّى الله عليه وسلم : « المؤمنُ لا يُلسَعُ
مِن جُحْرٍ مرَّتَيْن » وحيثُ قال : « يُلسَع » زال اللَّبْسُ ، لأنّ اللَّسْع
لا يكونُ إلا للحيَّةِ وغيرِها من ذوَاتِ السُّموم

---

(١) سورة الجن : الآيتان ٨و٩ .

(٢) ديوان الحماسة ١/٢٦ ، ولحيان بطن من هذيل ، وصفرت خلت ، والوطاب جمع وطب وهو سقاء اللبن ، وقوله «ضيق الجحر» مثل لضيق المنفذ ، والمعور المنكشف العورة .

وأمَّا ما وَرَدَ مُهْمَلًا بغيرِ قرينةٍ فقولُ أبي تمَّام[١] :

أَعْطَيْتَ لي دِيَةَ القتيلِ وَلَيسَ لي عَقْلٌ ولا حَقٌّ عَلَيْكَ قَدِيمُ[٢]

فقولُه : « ليسَ لي عَقْل » يظنُّ أنَّه من « عَقَلَ الشيْءَ » إذا علِمَه . وَلَوْ قال « ليسَ لِي عَلَيكَ عَقْلٌ » لزالَ اللَّبْس .

فيجبُ إذاً على صاحبِ هذه الصِّناعةِ أن يُرَاعِيَ في كلامه مِثْلَ هذا الموضِع ، وهُو من جُمْلَةِ الألْفاظِ المُشْتَركةِ الَّتي يُحْتَاج فِي إيرادِها إلى قرينةٍ تخصِّصها ضَرُورَةً .

[عدد حروف الكلمة]

ومن أوصافِ الكلمةِ أن تكونَ مؤلَّفة من أقلِّ الأوزانِ تركيباً . وَهَذَا مما ذكرَهُ ابنُ سنانٍ في كتابِه ، ثمَّ مثَّله بقولِ أبي الطيِّب المُتَنبِّي[٣] :

إنَّ الكِرَامَ بِلاَ كِرَامٍ مِنْهُمُ مِثْلُ القلوبِ بِلاَ سُوَيْدَاوَاتِها[٤]

وقال : إن لفظةَ « سُوَيْدَاوَاتِهَا » طويلة ، فلهذا قَبُحت[٥] .

وليسَ الأمر كما ذكرَهُ ، فإنَّ قُبْحَ هذه اللفظةِ لم يكنْ بسببِ طُولِها ،

---

(١) ديوان أبي تمام ٣٠١ من قصيدة يمدح بها أبا الحسين محمد بن الهيثم ، ومطلعها :

أسقى طلو لهم أجش هزيم وغدت عليهم نضرة ونعيم

(٢) رواية الديوان « أعطيتني » موضع « أعطيت لي » والعقل الدية .

(٣) ديوان المتنبي ١/ ٢٣٠ وهو من قصيدة في مدح أبي أيوب أحمد بن عمران ومطلعها :

سرب محاسنه حرمت ذواتها داني الصفات بعيد موصوفاتها

(٤) سويداء القلب حبته ، وجمعه سويداوات . يقول : الكرام من الجيل إذا لم يكن فيها فرسان من هؤلاء الممدوحين كالقلب إذا لم يكن فيه سويداء .

(٥) عبارة ابن سنان : فسويداواتها كلمة طويلة جداً ، فلذلك لا أختارها ، وانظر سر الفصاحة ٩٥-٩٧ .

وإنَّما هوَ لأنَّها فى نفسِها قبيحةٌ ، وقدْ كانتْ - وهى مفردةٌ - حسنةً . فلمَّا جُمِعَتْ قَبُحَتْ ، لا بِسَبَبِ الطُّولِ .

والدَّليلُ على ذَلِكَ أَنَّهُ قدْ وَرَدَ فى القرآنِ الكريمِ ألفاظٌ طِوَالٌ ، وهى معَ ذلكَ حسنةٌ ، كقولِهِ تعالَى : « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ[1] » فإنَّ هذه اللفظةَ تسعةُ أَحْرفٍ وكَقولِهِ تعالَى : « لَيَسْتَخلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ[2] » فإنَّ هذه اللفظةَ عَشَرَةُ أَحْرُفٍ ، وَكِلْتاهُمَا حسنةٌ رائقةٌ .

ولو كانَ الطُّولُ مما يُوجِبُ قبحًا لقَبُحَتْ هاتانِ اللفظتانِ ، وليسَ كذلك .

ألاَ تَرَى أنَّه لو أسقطَ من لفظة « سويداواتها » . الهاء والألفَ اللَّتَيْنِ هما عِوَضٌ عن الإضافةِ لبقيَ منها ثمانيةُ أحْرف ؟ ، ومعَ هذا فإنَّها قبيحةٌ . ولفظة « لَيَسْتَخْلِفنَّهُمْ » عشرةُ أحْرف ، وهِىَ أطْوَل منها بحرفين ، ومعَ هذا فإنَّها حسنةٌ رائقةٌ

والأصلُ فى هذا البابِ ما أذكرُهُ : وهوَ أنَّ الأصولَ من الألفاظِ لا تحسُنُ إلا فِى الثلاثىِّ ، وفى بعضِ الرُّباعىِّ ، كقولِنا « عذْب » و « عَسْجد » . فإنَّ هاتين اللفظتَيْن إحداهما ثلاثيَّةٌ والأخرَى رُباعيةٌ . وأما الخماسىُّ من الأصُولِ فإنَّه قبيحٌ ، ولا يكاد يُوجَدُ منه شىءٌ حَسَنٌ ، كقولِنا « جَحْمَرِش » . و « صَهْصَلِق » ، وما جرَى مجراها .

وكانَ ينبغِى على ما ذكره ابنُ سنانٍ أن تكونَ هاتانِ اللفظتان حَسَنَتَيْن ،

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٣٧ . (٢) سورة النور : الآية ٥٥ .

واللفظتان الواردتان فى القرآن قبيحتين . لأن تلك تسعة أحرف وعشرة ، وهاتان خمسة وخمسة . ونرى الأمر بالضد مما ذكره . وهذا لا يعتبر فيه طول ولا قصر ، وإنما يعتبر نظم تأليف الحروف بعضها مع بعض . وقد تقدم الكلام على ذلك ولهذا لا يوجد فى القرآن من الخماسى الأصول شىء إلا ما كان اسم نبى عرب اسمه ، ولم يكن فى الأصل عربيا ، نحو « إبراهيم » و « إسماعيل » .

ومما يدخل فى هذا الباب أن تجتنب الألفاظ المؤلفة من حروف يثقل النطق بها ، سواء كانت طويلة أو قصيرة . ومثال ذلك قول امرئ القيس فى قصيدته اللامية ، التى هى من جملة القصائد السبع الطوال[1] :

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى الْعُلَا   تَضِلُّ الْمَدَارَى فِى مُثَنًّى وَمُرْسَلِ[2]

فلفظة « مستشزرات » مما يقبح استعمالها ، لأنها تثقل على اللسان ، ويشق النطق بها ، وإن لم تكن طويلة ، لأنا لو قلنا « مستنكرات » أو « مستنفرات » على وزن « مستشزرات » لما كان فى هاتين اللفظتين من ثقل ولا كراهة .

ولربما اعترض بعض الجهال فى هذا الموضع ، وقال : إن كراهة هذه اللفظة إنما هو لطولها

وليس الأمر كذلك ، فإنا لو حذفنا منها الألف والتاء ، وقلنا

---

(١) هى المشهورة باسم (المعلقات) .

(٢) الغدائر جمع الغديرة ، وهى الخصلة من الشعر ، والاستشزار الارتفاع ، والمدارى جمع مدرى وهى المشط — ويروى « تضل العقاص » والعقاص جمع عقيصة ، وهى الخصلة المجموعة من الشعر .

« مُسْتَشْزِر » لكانَ ذلِكَ ثقيلا ، وسببُه أنَّ الشِّين قبلها تاء وبعدَها زَائٌ ، فثقُلَ النطقُ بها ، وإلاَّ فلوْ جعلْنا عِوَضاً من الزَّاى راءً ، ومن الرَّاء فَاءً ، فقلنا « مُسْتَشْرِف » لز الَ ذَلك الثقَل

ولقدْ رآنى بعضُ الناسِ وأنا أعِيبُ على امْرِئِ القيسِ هذه اللَّفظَةَ المُشارَ إليها ، فأكبرَ ذلكَ ، لوُقوفِه مع شُهرة التَّقْليد فى أن امرَأ القيس أشْعَر الشعَراء ، فعجبْتَ من ارْتِبَاطِه بِمِثْلِ هذه الشُّبْهة الضَّعيفة ، وقلتُ له : لا يمنَعُ إحسانُ امرئْ القيْسِ من استقباحِ مالَه من القبْح ، ومثالُ هذا كمثالِ غَزَال المسْكِ ، فإنَّه يَخْرُجُ منه المسْكُ والبعْرُ ، ولا يَمْنعَ طيبُ ما يخْرُجُ من مِسكه مِنْ خُبْثِ ما يَخْرُج من بعْره ، ولا تكونُ لَذَاذَةَ ذلك الطِّيب حامِيةَ للخَبْثِ من الاسْتكْرَاه ، فأسكت الرَّجُلُ عند ذلكَ .

وحضر عندى فى بعض الأيَّامِ رجلٌ من اليهودِ ، وكنتُ إذْ ذَاكَ بالدِّيار المِصْريَّة ، وكانَ لليهُودِ فى هذا الرَّجل اعتقادٌ ، لمكان علمِه فى دِينِهمْ وغيره ، وكانَ لعَمْرى كذلك ، فجرَى ذِكرُ اللُّغاتِ ، وأنَّ اللغةَ العربيَّة هى سيِّدةُ اللغاتِ ، وأنَّها أشرفُهُنَّ مكاناً ، وأحسنُهُنَّ وضعاً . فقالَ ذلكَ الرَّجل : كيفَ لا تكونُ كذلِكَ . وقد جاءتْ آخراً ، فنفَتْ القَبيحَ من اللغاتِ قبلْها ، وأخذَتْ الحَسَنَ . ثمَّ إنَّ واضِعَها تصرَّف فى جميعِ اللُّغات السَّالِفة ، فاختَصَر ما اختصَر ، وخفَّفَ ما خفَّف ، فمِنْ ذلِكَ اسمُ الجمَلِ ، فإنَّه عندنا فى اللِّسانِ العِبْرانىِّ « كوميل » مِثالاً عَلَى وَزْنِ « فُوعِيل » فجاءَ واضِعُ اللغة العربيَّة ، وحذفَ منها الثَّقيل المُستَبْشَع ، وقال « جَمَل » ، فصارَ خفيفاً حَسَناً . وكذلكَ

عمل فى كذا وكذا ، وذكرَ أشياءَ كثيرةً ، ولقدْ صَدَقَ فى الّذى ذكَرَه وهو كلامُ عالمٍ به .

[خفة الحركات]

ومِنْ أوصافِ الكلمة أنْ تكون مَبْنِيَّةً مِنْ حركاتٍ خفيفةٍ ، ليخفَّ النطقُ بها . وهذا الوصفُ يترتَّبُ على ما قَبْلَهُ مِنْ تأليفِ الكلمةِ ، ولهذا إذا توالى حركتانِ خفيفتان فى كلمةٍ واحدةٍ لم تستثقل ، وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة ، فإنه إذا توالى منها حركتان فى كلمة واحدة اسْتُثْقِلَتْ .

ومنْ أجل ذلكَ اسْتُثْقِلَتْ الضمةَ على الواوِ ، والكسرةَ على الياءِ ، لأنَّ الضَّمَّةَ من جِنْسِ الواو ، والكسرةَ من جنسِ الياءِ ، فتكون عِنْد ذَلِكَ كأنَّها حركتانِ ثقيلتان .

ولْنُمَثِّلْ لكَ مِثالاً لتهتدِىَ به فى هذا الموضع ، وهوَ أنّا نقول : إذا أتينا بلفظةٍ مؤلفة من ثلاثةِ أحرف وهى — ج ز ع — فإذا جعلنا الجيمَ مفتوحة ، فقلنا « الجَزَع » أو مكسورةً ، فقلنا « الِجزع » كان ذلك أحسن من أن لو جعلنا الجيم مضمومة فقلنا « الجزع » ، وكذلك إذَا والَيْنَا حركةَ الفتح فقُلنا « الجَزَع » كانَ ذلكَ أحسنَ مِنْ موالاةِ حركةِ الضم عند قولنا « الجُزُع » ومِنَ المَعْلُومِ أنَّ هذِ اللفظةَ لمْ يكُنْ اختلافُ حركاتها مغيِّرًا لِمخارِجِ حُرُوفِها ، حتّى يُنْسَبَ ذلكَ إلى اختلافِ تأليفِ المخارجِ ، بل وَجَدْناهَا تارةً تكتسِى حُسْناً ، وتارةً يُسْلَبُ ذلك الحسْنَ عنها ، فعلِمْنَا أنَّ ذلك حادِثٌ عن اختلافِ تأليفِ حرَكاتها .

واعلمْ أنه قدْ توالتْ حركةُ الضمِّ فى بعضِ الألفاظِ . ولم يحدثْ فيها كراهة ولا ثِقلاً ، كقولِه تعالَى : « وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ[1] » وكقوله تعالى : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ[2] » . وكقوله تعالى : « وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ[3] » فحركة الضمِّ فى هذهِ الألفاظِ متواليةٌ ، وليسَ بِها من ثِقلٍ ولاَ كَرَاهَة .

وكذلكَ وَرَدَ قولُ أبى تمّام[4] :

نَفَسٌ يَحُثُّهُ[5] نَفَسُ ودُمُوعٌ لَيسَ تَحْتَبِسُ
وَمَغَانٍ للكرَى دُثُرٌ عُطُلٌ من عَهْدِهِ دُرُسُ[6]
نَهِرَتْ ما كنتُ أكتمهُ ناطِقاتٌ بالهوَى خُرُسُ

فانظر كيفَ جاءتْ هذه الألفاظُ الأربعةُ مضمومات كلُّها ، وهىَ معَ ذلِكَ حَسَنَةٌ لا ثِقلَ بِها ، ولا يَنبُو السَّمْعُ عَنها ؟

وهذا لا يَنقُضُ ما أشرنَا إليْهِ ، لأنَّ الغالبَ أنْ يكونَ توَالِي حركةِ الضَّمِّ مُستثقلاً ، فإذا شَذّ عنْ ذلكَ شيءٌ يسيرٌ ، لاَ يَنقضُ الأصْلَ المقِيسَ عليْه .

---

(١) سورة القمر : الآية ٣٦ .
(٢) سورة القمر : الآية ٤٧ .
(٣) سورة القمر : الآية ٥٢ .
(٤) ديوان أبي تمام ٤٤٨ وهى أبيات فى النسيب .
(٥) ـ ثه يحثه على الخروج .
(٦) المغانى المنازل ، والكرى النعاس ، والدثر البالية ، والعطل الخالية ، والدرس الممحوة.

القسم الثانى

فى الألفاظ المركبة

قد قدّمنا القولَ فى شرح أحوالِ اللفظةِ المفردَةِ، وما يختصُّ بها. وأمّا إذا صارتْ مركبةً، فإنّ لتركيبها حُكماً آخرَ. وذلكَ أنّه يحدُثُ عنه من فوائدِ التأليفاتِ والامتزاجاتِ ما يخيّلُ للسّامع أنّ هذهِ الألفاظَ ليسَتْ تلكَ التى كانت مفردة.

ومِثالُ ذلكَ كَمَنْ أخذَ لآلِئَ ليستْ من ذواتِ القِيمِ الغاليةِ. فألّفها، وأحْسَنَ الوضعَ فى تأليفها، فخيِّل للناظِرِ بِحُسنْ تأليفهِ، وإتقانِ صَنْعَتِه، أنّها ليست تِلكَ الّتى كانتْ مَنْثُورةً مبدّدَةً

وفى عكسِ ذلِكَ منْ يَأخُذ لآلِئَ من ذَوَاتِ القِيمِ الغالِيَةِ، فيفسِدُ تأليفَها. فإنّه يضَعُ مِنْ حُسْنِها، وكذلِكَ يجرِى حُكمُ الألفاظِ العاليةِ مع فَسادِ التأليفِ. وهذا موضعٌ شَريفٌ يَنْبغِى الالتفاتُ إليه، والعِنايةُ به.

واعلمْ أنّ صناعةَ تأليفِ الألفاظِ تنقسِمُ إلى ثمانيةِ أنواعٍ هى:

السجع، ويختصُّ بالكلامِ المنثُور.

والتصريعُ ، ويختصُ بالـكلامِ المنظومِ ، وهوَ داخلٌ فى باب السَّجْعِ ، لأنَّه فى الـكلامِ المنظومِ كالسَّجْعِ فى الـكَلاَمِ المنثور .

والتجنيسُ ، وَهُوَ يعمُّ القِسْمَيْنِ جَمِيعاً .

والتَّرْصيع ، وهو يعمُّ القسمَيْنِ أيضاً جميعاً .

ولزُومُ مالا يلزَمُ : وهو يعمُّ القسْمَيْنِ أيضاً .

والموازنَةَ : وتختصُ بالـكلامِ المنثور .

واختلافُ صِيَغِ الألْفَاظِ ، وهو يعمُّ القِسمَيْنِ جميعاً .

وتـكريرُ الحروف ، وهو يعمُّ القسمَيْن جميعاً .

النوع الأول : السجع

وحدُّه أنْ يقَالَ : تواطؤ الفَوَاصِلَ فى الـكلامِ المنثُورِ على حَرْف واحِدٍ .

وقد ذمَّه بعضُ أصحابِنَا من أربابِ هذهِ الصناعةِ ، ولاَ أرَى لذلكَ وجْهاً سِوَى عَجْزهم أنْ يأتوا بِهِ ، وإلاَّ فلوْ كانَ مذموماً لمَا وَرَدَ فى القرآنِ الـكريمِ ، فإنَّه قد أتِى مِنه بالـكثير ، حتَّى أنَّه ليُؤْتَى بالسُّورَةِ جميعاً مسجوعةً ، كسُورة الرَّحْمٰنُ ، وسُورَةِ القَمَر ، وغيرهما . وبالجملة فلمْ تَخْلُ منه سُورَةٌ من السُّورِ .

فمِن ذَلكَ قولُه تعالَى : « إنَّ اللهَ لَعَنَ الـكَافِرِينَ وأعدَّ لهُمْ سَعيراً * خالِدِينَ فِيهَا أَبدًا لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا[1] » .

---

(١) سورة الأحزاب : الآيتان ٦٤ ، ٦٥ .

وكقولِهِ تعالَى فى سُورةِ (طـه) : « طه * ما أنزلنا عَلَيْكَ القرآنَ لِتَشْقَى * إلا تذكرةً لِمَن يَخْشَى * تنزيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرضَ وَالسَّمواتِ العُلا * الرَّحْمنُ على العرشِ استوَى * لهُ ما فِى السَّمواتِ و ما فى الأرضِ ومَا بَيْنَهُمَا وما تحتَ الثرَى * وإنْ تجهرْ بالقولِ فإنَّهُ يَعلَمُ السِّرَّ وأخفَى * اللهُ لاَ إلهَ إلا هُوَ لَهُ الأسماءُ الحُسْنَى (١) » .

وكذلك قَولُهُ تعالى فى سُورَة (ق) : « بل كذَّبُوا بِالحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فهُمْ فى أمرٍ مَرِيجٍ * أفلَمْ يَنظُرُوا إلى السَّماءِ فَوقَهُمْ كَيفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ * والأرضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » (٢) .

وكقولِهِ تعالى : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا » (٣) . وأمثالُ ذَلِكَ كثيرةٌ .

وقد وَرَدَ على هذا الأسلوبِ من كلامِ النَّبىِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ شىءٌ كثيرٌ أيضاً

فمِنْ ذلك ما رَوَاهُ ابنُ مَسْعُودٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ ، قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم : « استَحْيُوا مِنَ اللهِ حقَّ الحَيَاءِ » قُلْنَا : إنَّا لَنَستَحيي من اللهِ يا رسولَ اللهِ ! قال : « ليس ذلك ! ولكنَّ الاستحياءَ مِنَ اللهِ أَنْ

---

(١) سورة طه : الآيات ١ ــ ٨ .
(٢) سورة ق : الآيات ٥ ــ ٧ .
(٣) سورة العاديات : الآيات ١ ــ ٥ .

تَحفظَ الرَّأسَ وَمَا وَعَى ، والبَطْنَ وَمَا حوَى ، وتَذكُرَ الْمَوْتَ والْبِلى ، ومَن أرادَ الآخرَةَ ترَكَ زِينَةَ الحياةِ الدُّنيا » .

ومن ذلك ما رَوَاهُ عبدُ اللهِ بنُ سَلَّام ، فقال : لَمَّا قَدِمَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلَّم ، جِئتُ فى الناس لأنظُرَ إليْه ، فلمَّا تَبَيَّنتُ وَجْهَه علمْتُ أنَّه ليسَ بوجْهِ كَذَّابٍ ، فكانَ أوَّلَ شَيْءٍ تكلَّمَ به أن قَالَ : « أيُّها النَّاسُ أفشُوا السَّلاَم ، وَأطْعِمُوا الطَّعام ، وَصَلُّوا بالليلِ والناسُ نيام ، تدْخلوا الجنةَ بسَلام » .

فإنْ قيل : إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال لبعضهمْ منكراً عليهِ وقد كلَّمه بكلامٍ مَسْجُوع : « أَسَجْعًا كسجعِ الكهَّان » ؟ ولولاَ أنَّ السَّجعَ مكرُوهٌ لما أنكره النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ؟ .

فالجوابُ عَنْ ذَلِكَ أنَّا نقول : لو كَرِهَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم السَّجعَ مُطْلَقاً لقال : أَسَجْعًا ؟ ثمَّ سكَتَ ، وكَانَ المعنَى يدلُّ على إنكارِ هذا الفِعْلِ لِمَ كانَ ، فلما قال : « أسجعاً كسجع الكهَّان » صار المعنى معلَّقاً على أمر ، وهو إنكار الفعل لِمَ كان على هذا الوجه .

فعلم أنَّه إنَّما ذمَّ مِنَ السَّجْع ما كانَ مِثْلَ سَجْعِ الكُهَّانِ لا غيْر ، وأنَّه لم يذمَّ السجعَ على الإطلاقِ . وقد وَرَدَ فى القرآنِ الكريمِ ، وهو صلَّى الله عليه وسلَّمَ قد نَطَقَ بهِ فى كثير من كلامه ، حتَّى أنّه غيرَّ الكلمةَ عن وَجْهِها اتباعًا لَهَا بِأخَواتِها مِنْ أجْلِ السَّجْعِ ، فقالَ لابنِ ابْنَتِهِ عَلَيْهِمَا السلامُ : « أُعيذه من الهَامَّة والسَّامَّةِ ، وكلِّ عَيْنٍ لاَمَّة » وإنَّمَا أرَادَ « مُلِمَّة » لأنَّ الأصلَ فِيهَا مِنَ « ألَمَّ » فهو « مُلِمّ » .

وكذلكَ قولهُ صلَّى الله عليه وسلَّم « ارْجِعْن مأزُورات غَيْرَ مأجُورَاتٍ ». وإنَّما أرادَ « مَوزُورات » من الوِزْرِ ، فقال : « مَأزُورَاتٍ » لمكان « مَأجُورَاتٍ » طلبًا للتَّوَازُنِ والسجعِ ، وهذا مما يدلُّك على فضيلةِ السَّجْعِ .

على أنَّ هذا الحديثَ النبويَّ الذِي يتضمنُ إنكار سَجْع الكُهَّان عندي فيه نظر ، فإنَّ الوهمَ يَسبِقُ إلى إنكارِه ، يُقَالُ : فما سَجْعُ الكُهَّانِ الَّذى يتعلق الإنكارُ به ، ونَهى عنه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ؟

والجوابُ عن ذلك أن النَّهيَ لَمْ يكنْ عن السَّجْعِ نَفْسِهِ ، وإنَّما النهيُ عن حُكْمِ الكاهِنِ الواردِ باللَّفظِ المسجُوع ألاترَى أنَّه لمَّا أمرَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى الجَنِينِ بغُرَّة عبدٍ أو أَمَةٍ ، قال الرجلُ : أأَدِى مَنْ لا شَرِبَ وَلاَ أكل ، ولا نَطَقَ ولا استَهَل ، ومثل ذلك يطل ؟ فقالَ رسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم « أسجعاً كسجعِ الكُهَّانِ » أى أتتبَعُ سَجْعًا كَسَجْعِ الكُهَّانِ ؟

وكذلك كانَ الكَهنة كُلُّهمْ فإنَّهُمْ كَانُوا إذا سُئِلُوا عن أمرٍ جاءوا بالكَلاَمِ مَسْجُوعًا ، كما فَعَلَ الكاهنُ فى قصَّةِ هند بنت عُتْبَة ، فإنَّه قال لمَّا امتُحِنَ قبل السؤال عن قصَّتها : « ثَمَرَة فى كَمَرَة » . فقِيلَ له نُرِيدُ أبْيَنَ مِنْ هذا ! فقال : « حَبَّة بُرٍّ فِى إحْلِيلِ مُهْرٍ » والحكايةُ مشهورةٌ ، فلهذا اختصرناها هُنا .

وكذلكَ قال سَطِيح[1] ، فإنَّه قَالَ : « عبدُ المَسِيح ، جاءَ إلى سَطِيح ، وهو

---

(١) سطيح أحد كهان العرب ، وهو ابن ربيعة بن مسعود ابن مازن بن ذئب .

مُوف على الضَّريح ، لِرُؤيا المؤبذان ، وارتِجاسِ الإيوَان » وأتمَّ الكلامَ إلى آخره مَسْجُوعًا . والحكايةُ مشهورةٌ أيضاً ، فلهذا اختصرناها .

فالسَّجعُ إذاً ليسَ بمَنْهيٍّ عنه ، وإنما المنهيُّ عنه هو الحكمُ المتبوعُ في قول الكاهِنِ ، فقالَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : « أسجعاً كسجعِ الكهّان » ؟ أي أحُكماً كحكمِ الكهّان ، وإلاَّ فالسَّجعَ الذي أتى به ذلك الرَّجُلُ لا بأسَ بِه ، لأنه قال : « أأدِي مَنْ لا شَرِبَ ولا أكل ، ولا نطقَ[1] ، ولا استهلّ ، ومثلَ ذلِكَ يُطَلّ[2] » ؟ وهذا كلامٌ حَسَنٌ من حيثُ السَّجع ، وليس بمنكرٍ لنفسِهِ ، وإنَّما المُنكرُ هو الحكمُ الذي تضمنه في امتناعِ الكاهن أن يَدِي الجنينَ بغرّةِ عبدٍ أو أمَةٍ[3] .

واعلم أنَّ الأصلَ في السَّجع إنما هوَ الاعتدالُ في مقاطعِ الكلام ، والاعتدالُ مطلوبٌ في جميعِ الأشياء ، والنفسُ تميلُ إليه بالطَّبع .

ومع هذا فليسَ الوقوفَ في السَّجعِ عند الاعتدالِ فقط ، ولا عندَ تواطؤ الفواصلِ على حرفٍ واحدٍ - إذْ لو كانَ ذلكَ هو المراد من السَّجع لكان كلُّ أديبٍ من الأدباء سَجّاعًا ، وما مِنْ أحدٍ منهمْ - ولوْ شدَا شيئاً يسيراً من الأدبِ - إلاّ ويمكنه أن يؤلِّفَ ألفاظاً مسجوعةً ، ويأتِيَ بها في كلامه . بلْ ينبغي أنْ

---

(١) رواية البيان « ولا صاح واستهل » .

(٢) يطل أي يهدر دمه .

(٣) قال عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي : لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا الإبانة لهذا الوزن لما كان عليه بأس ، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطال حق ، فتشادق في الكلام وانظر البيان والتبين ١/٢٨٧ .

تـكونَ الألفاظُ المسجوعة حلوةً حارَّةً طنَّانةً رنَّانةً ، لا غَثَّةً ولا باردةً وأعني بقولي : « غثّة باردة » أن صاحبها يَصرفُ نظرَه إلى السَّجع نفسِه من غير نظرٍ إلى مُفرداتِ الألفاظِ المسجُوعةِ ، وما يُشتَرطُ لها من الحسْنِ ، ولا إلى تركيبها ، وما يشترَطَ له من الحسُن ، وهو في الَّذي يأتِي به من الألفاظِ المسجُوعةِ كمَنْ ينقشُ أثواباً من الـكرْسُف[1] ، أو ينظمُ عِقداً من الخَزف الملوّن .

وهذا مقامٌ تزِلّ عنه الأقدام ، ولا يستطيعُه إلا الواحدُ منْ أربابِ هذا الفنّ بَعْدَ الواحِد ، ومنْ أجْل ذلكَ كانَ أربابُه قليلاً .

فإذا صُفِّيَ الـكلامُ المسجوع من الغثاثة والبَرْد فإنَّ وراء ذلكَ مطلوباً آخرَ ، وهو أنْ يكونَ اللفظُ فيه تابعاً للمعنى ، لا أنْ يكونَ المعنى فيه تابعاً لِلفظ ، فإنّه يجيء عند ذلك كظاهرٍ مُموّه ، على باطنٍ مُشوّه ، ويكونُ مثلُه كغِمْدٍ من ذهبٍ على نَصْلٍ من خَشب .

وكذلِكَ يجرِي الحـكمُ في الأنواعِ الباقيةِ الآتي ذكرُها من التَّجنِيس والترْصِيع ، وغيرها .

وسأبيِّنُ لك في هذا مثالاً تتَّبِعه ، فأقول : إذا صَوَّرْتَ في نفسِك معنًى من المعاني ، ثمَّ أردتَ أن تصُوغَه بلفظٍ مسجُوع ، ولم يُوَاتك ذلك إلا بزيادةٍ في ذَلك اللفظِ ، أوْ نقصانٍ منه ، ولا يكون محتاجاً إلى الزِّيادة ولا إلى النَّقصان ، وإنَّما تفعلُ ذلكَ لأنَّ المعنى الذى قصدْتَه يحتاجُ إلى لفظٍ يدلُّ عليه ، وإذا دللْتَ بذلك اللفظِ لا يكونَ مسجوعاً إلاَّ أن تَضِيفَ إليه شيئاً آخر ، أو تنقصَ منه ،

---

(١) الـكرسف القطن .

فإذا فعلتَ ذلك فإنّه هو الّذى يُذَمُّ من السَّجع، ويُستَقبَحُ، لِما فيه من التكلُّف والتعسُّف.

وأما إذا كانَ محمولاً على الطبْعِ غيرَ متكلَّف فإنّه يجىء فى غايةِ الحُسْن ، وهوَ أعلىٰ درجاتِ الـكلام ، وإذا تهَّيأَ للـكاتِب أن يأتىَ به فى كتابتِه كلِّها على هذه الشَّرِيطَة فإنّه يكونُ قد مَلَكَ رقابَ الـكَلِم ، يستعْبِدُ كرائِمَها ، ويسترِقُّ عقائِلَها وفى مثلِ ذلك فليتنافسْ ، وعن مقامِه فليتقاعَسْ ، ولصَاحِبهُ أوْلَى بقولِ أبى الطيِّب المتنبى [١] :

أَنتَ الوحِيدُ إذا ركِبْتَ طَرِيقَةً ... وَمَنِ الرَّدِيفُ وَقَدْ رَكِبْتَ غَضَنْفَرَا [٢]

فإن قيل : فإذا كانَ السَّجع أعلى درجاتِ الـكلام على ما ذهبْتَ إليه فـكانَ ينبغِى أن يأتىَ القرآنُ كلُّه مَسْجُوعاً ، وليسَ الأمرُ كذلِكَ ، بل منه المسجوعُ ، ومِنْه غيرُ المسْجُوع ؟

قلتُ فى الجوابُ : إنَّ أكثَر القرآنِ مَسْجوعٌ ، حتَّى أن السُّورةَ لَتأتى جميعُها مسجوعة . وما مَنَعَ أن يأتىَ القرآنُ كلُّه مسجوعاً إلاَّ أنَّه سلكَ بِهِ مسلكَ الإيجازِ والاختصار ، والسَّجْعُ لا يُوَاتى فى كل موضعٍ من الـكلام على حدِّ الإيجازِ والاختصارِ ، فتُرِكَ استعمالُه فى جميع القرآنِ لهذا السَّبب .

وها هنا وجهٌ آخرُ هو أقوَى من الأوّل ، ولذلك ثبَتَ أن المسجوعَ من الـكلامِ أفضَلُ من غيرِ المسجُوع ، وإنَّما تضمَّن القرآنُ غيرَ المسجُوعِ لِأنَّ

---

(١) من قصيدة يمدح بها أبا الفضل محمد بن العميد ، ومطلعها :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا ... وبكاك إن لم يجر دمعك أوجرى

(٢) الديوان ١٦٧/٢ وروايته « ارتكبت » موضع « ركبت » يقول : أنت فى كل أمر تفعله فرد لايقدر أحد أن يتبعك فيه ، كراكب الأسد لايقدر أحد أن يتبعه ، ولا أن يكون رديفاً له .

ورودَ غيرِ المسجوعِ مُعْجِزًا أبلغَ فى بابِ الإعجاز من وُرُودِ المسجُوعِ . وَمِنَ أجْلِ ذلك تضمَّن القرآنُ القِسْمين جميعاً .

واعلمْ أنَّ للسجعِ سرًّا هو خَلاَصَتُه المطلوبة ، فإنْ عُرِّىَ الـكلامُ المسجُوع منه فلا يعتدُّ به أصْلاً .

وهذا شىءٌ لم ينبِّهْ عليه أحدٌ غيرى ، وسأبيِّنُهُ هاهُنا ، وأقولُ فيه قولاً هو أبْيَنُ ممَّا تقدَّم ، وأمثِّلُ لك مثالاً إذا حَذَوْتَهُ أمِنْتَ الطَّاعِنَ والعَائِبَ ، وقِيلَ فى كلامِكَ : ليبلَغِ الشاهدُ الغائِبَ .

والذى أقولُه فى ذلك هُو أنْ تـكونَ كُلُّ واحدةٍ من السَّجْعَتَيْن المُزْدَوَجَتَيْنِ مُشتملةً على معنًى غيرِ المعنَى الَّذى اشتملتْ عليهِ أُخْتُها ، فَإنْ كانَ المعني فِيهما سواءً فذلك هو التطْويلُ بعيْنِه ، لأنَّ (التَّطْويل) إنَّما هُوَ الدلالةَ على المعنَى بألفاظٍ يمكنُ الدلالةُ عليه بِدُونِها . وإذا وَرَدَتْ سجْعتان تدلانِ على معنًى واحد كانتْ إحداهُما كافيةَ فى الدِّلالةِ عليْه ، وجلُّ كلامِ الناسِ المسجْوع جارٍ عليه

وإذا تأمَّلتَ كتابةَ المفْلِقِينَ ممَّنْ تقدَّم ، كالصَّابى وابنِ العَمِيد وابنِ عبَّاد ، وفلان وفلان ، فإنَّك ترى أكثرَ المسجوعِ مِنْه كذلِك ، والأقلَّ منه على ما أشرتُ إليه .

ولقد تصفَّحْتَ المقامات الحرِيرِيَّة والخطبَ النُّباتيَّة على رامِ الناسِ بهما وإكْبابِهم عليهما ، فوجدتُ الأكثرَ من السَّجعِ فِيهما على الأسلوبِ الذى أنكرْتُهُ .

فالـكلامُ المسجُوعُ إذاً يحتاجُ إلى أربعِ شَرَائِط :

الأولى : اختيارُ مُفرداتِ الألفاظ على الوجهِ الذى أشرتُ إليه فيما تقدَّم .

الثانية : اختيارُ التركيبِ على الوجْه الَّذى أشرتُ إليه أيضاً فيما تقدَّم .

الثالثة : أنْ يكونَ اللفظُ فى الكلامِ المسجوع تابعاً للمعْني ، لا المعنى تابعاً للفظ.

الرابعة : أن تكونَ كلُّ واحدةٍ من الفِقْرتيْنِ المسْجُوعَتيْنِ دالّة على معنى غيرِ المعنى الذى دلتْ عليه أختُها .

فهذهِ أربعُ شرائِطُ لا بُدَّ منها .

وسأوردُ هاهُنا من كلامِى أمثلةً يُحذَى حَذْوها ، فإنِّى لما سلكتُ هذهِ الطريق ، وأتيتُ بكلامِى مسجوعاً توخيت أن تكونَ كلُّ سجعةٍ منه مختصَّةً بمعنًى غير المعنى الّذى تضَّمنته أختها ، ولم أُخِل بذلك فى مكاتَباتِى كلِّها ، وإذا تأمَّلْتها علمتَ صحَّةَ ما قد ذكرتُه .

فمن ذلك ما كتبته فى صدر كتاب عن بعض الملوك إلى دار الخلافة ، وهو :

الخادمُ واقفٌ موقفَ راجٍ هائب ، لازمٍ بكتابهِ هذا وَقارَ حاضرٍ عن شَخْص غائِب ، مُوجِّه وجهَه إلى ذلك الجنَابِ الّذى تُقْسَمُ فيه أرزاقُ العِباد ، ويتأدَّبُ به الزَّمان تأدُّبَ ذوِى الاستعباد ، وتستمدُّ الملوكُ من خِدمته شرفَ الجدُود ، كما تستغنِى بنسبها إليه عن شرفِ الأَجدَاد ، ولو ملَكَ الخادمُ نفْسَه لقَصَرَها على خدمةِ قَصْرِهِ ، وأخطاها مِن النّظر إليه ببرد العَيْش الّذى عُمرها محسوبٌ من عُمْرِه ، وهذا القولُ يقُولُه وكل ماجِدٍ فيه حاسِدٍ ، وبتأْمِيله راكعٌ ساجِد . والديوانُ العزيزُ محسُود الاقتراب ، وهو موطن

الرَّغَبات الذى الاغترابُ إليه ليسَ بالاغتراب ، وما ينافِسُ فى القرْب من أبوابه الكريمة إلا ذَوُو الهِمَم الكريمة ، وقد وَدَّتْ الكواكبُ بأسْرِها أن تكونَ له مُنادِمة فضلا عن ندْمانىْ جَذِيمة »[1]

ومن ذلك ما كتبته من كتاب يتضمن العناية ببعض الناس ، وهو :

« الكريمُ مَنْ أوجَبَ لسائلِهِ حقًّا ، وَجَعَل كواذِبَ آمالهِ صِدقا ، وكان خَرقُ العطايا مِنه خُلُقا ، ولم يرَ بَيْنَ ذِمَّتِهِ وبَيْن رَحِمِه فرْقا . وكلُّ ذلك موجودٌ فى كرم مولانا أجْراهُ اللهُ من فضْلِهِ على وتِيرة ، وجعَل هِمَمِه على تمامِ كل نقص قديرَة ، وأوْطَأهُ من كلِّ مجدٍ سريراً كما بوَّأهُ من كلِّ قلبٍ سَريرَة ، ولا زالتْ يدهُ بالمكارمِ جَدِيرة ، ومن الأيَّامِ مُجيرة ، ولِضَرَائرِها من البحارِ والسَّحاب مُعيرَة ، ولا برِحَتْ تَستَولِدُ عقائِمَ المعانى . وتَستجدُّ أبنيَتها ، حتى تشهدَ الناس منها فى كلِّ يوم عَقيقَةً أو وَكِيرَة[2] ، ومن صِفَاتِ كرَمهِ أنه يسْبِكُ الأموالَ مآثِرَ ، ويتَّخِذُها عند السُّؤالِ ذخائِر ،

---

(١) ندِيماً جذيمة ، يضرب بهما المثل فى طول الصحبة ، كما يضرب بالفرقدين وابنى شمام — جبلان فى ديار بنى تميم — ونخلتى حلوان ، وكان جذيمة الوضاح الملك لا ينادم أحداً ذهابا بنفسه وكان يقول : أنا أعظم من أن أنادم أحداً إلا الفرقدين ، وكان يشرب كأساً ويصب لكل منهما كأساً . فلما أتاه مالك وعقيل بابن أخته عمرو صاحب الطوق الذى استهوته الجن ، قال لهما : ما حاجتكما ؟ قالا : منادمتك ! فنادمهما أربعين سنة ، كانا يحادثانه ، وما أعادا عليه حديثاً قط ، حتى فرق بينهما الدهر ، وفيهما يقول الشاعر :

ألم تعلما أن قد تفرق قبلنا نديما صفاء مالك وعقيل

ويقول متمم بن نويرة فى أخيه مالك وهو من الأمثال السائرة :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

(٢) العقيقة الشاة التى تذبح عند حلق شعر المولود ، أو الطعام الذى يدعى إليه حينئذ . والوكيرة طعام يعمل لفراغ البنيان .

فهى تَفْنَى لَدَيْهم بالإنفاقِ ، وذِكْرُها على مُرُورِ الأيَّامِ بَاق ، وَمَنْ أَرْبَحَ منه صَفْقَةً وقد باعَ صَامِتاً بناطِق ، وما هو مُعَرَّضٌ لحوادثِ السَّرقات بما لا تَصِلُ إليه يدُ سارِق ؟ ومثْلُه مَنْ عرَف الدُّنيا ، فرغِبَ عن اقتنائها ، وجدَّ فى ابتناء المحامدِ بهَدْمِ بنائِها ، وعَلِمَ أنَّ مالَها ليسَ عِنْدَ الضَّنِين بِهِ إلا أحْجارا ، وأنْ غِناه منها لا يزيدُهُ إلا افتقارا ، فهوَ لمالِهِ عبْدٌ يخدُمُه ولا يَسْتخدِمُه ، وأُمٌّ ترْضِعُه بسعيها ولا تفطِمُه » :

ومنه ما كتبته فى جواب كتاب يتضمن إباق غلام ، وهو أول كتاب ورد من المكتوب عنه إلى المكتوب إليه ، فقلت :

« وأما الإشارةُ الكريمةُ فى أمرِ الغلام الآبق عن الخدمةِ فقد يَفِرُّ المُهْرُ من عَلِيقِهِ ، ويطيرُ الفَرَاشُ إلى حرِيقه ، وغيرُ بَعِيدٍ أنْ يَنْبُوَ به مضْجَعُهُ ، أو يَكْبُوَ به مَطْمَعُه ، فيرْجِع وقد حَمِدَ من رُجوعه ما ذمَّه من ذهابِهِ ، وعَلِمَ أنَّ الغنيمةَ كلَّ الغنيمةِ فى إيابه ، فما كلُّ شجرةٍ تحلو لِذَائِقِها ، ولا كلُّ دارٍ ترحِّبُ بِطَارِقِها ، وَمَنْ أَبَقَ عَنْ مَوْلاهُ مُغاضِبا ، وجانب مَحلَّ إحسانه الَّذى لم يكنْ لهُ مُجانِباً ، فإنَّه يجدُ من مفارقةِ الإحسانِ ما يجِدُه من مفارقةِ مَعاهد الأوْطان . وهل أضلُّ سَعْيًا مِمَّن دفَع فى صَدْرِ العَافِيَة ، وغَدَا يَسْأَلُ عن الأسْقامِ ، وألقى الثروةَ من يَدِهِ ومضَى فى طلب الإعْدَام ؟ ومعَ هذا فإنّ الخادمَ يشكرُه على ذنْبِ الإباق الَّذى أقْدَمَ على اجْتِراحِه ، وليسَ ذلك إلا لأنَّه صار سبباً لافتتاحِ بابِ المكاتبةِ الَّذِى لم يطمعْ فى افتِتاحِه ، ولا جزاءَ له عندَه إلَّا السَّعى فى إعادةِ إلى الخدمةَ

التى تقلّبَ فِى إِنَشَابِهَا ، وهى أبرُّ به من أُمّه التى تقلّبَ فى أحْشَائِها ، ومن فضلها أنَّها تَلقاهُ من حِلمِها بوسيلةِ الشَّافع ، ومِنْ كَرَمِها بالوجهِ الضَّاحك والفضلِ الواسع » .

فانظرْ أيُّها المتأملُ إلى هذهِ الأسجاعِ جميعِها ، وأَعْطِها حقَّ النظرِ ، حتى تعلم أنَّ كلَّ واحدةٍ مِنْها تختصُّ بمعنى ليسَ فى أُختها التى تليها . وكذلكَ فليكنِ السَّجعُ ، وإلَّا فلاَ !

[من سجع الصابى]

وسأوردُ هاهُنا من كلامِ الصَّابى ما ستراه .

فمنْ ذلك تحميدٌ فى كتاب ، فقال[١] :

« الحمدُ لله الَّذِى لا تدرِكهُ الأعْيُنُ بألحاظِها ، ولا تحُدُّه الألسُنُ بألفاظِها ، ولا تُخْلِقُه العُصُورُ بمُرُورِهَا ، ولا تهْرِمُهُ الدُّهورُ بِكُرُورِها[٢] » .

ثم انتَهى إلى الصَّلاةِ على النبِّى صلَّى اللهُ عليه وسلم ، فقال : « لمْ يرَ للكفرِ[٣] أثراً إلَّا طمسَهُ ومحاه ، ولا رَسْماً إلَّا أزالَه وعفَّاه » .

ولا فرقَ بَيْنَ مُرور العُصُور وكُرُورِ الدُّهُور . وكذلك لا فرْقَ بين مَحْوِ الأثر وعفاء الرَّسْم .

---

(١) المختار من رسائل أبى إسحاق الصابى ١٣/١ .
(٢) اختصر ابن الأثير كلاما كثيراً ، وفى المختار « الفاعل لا عن مادة استمدها ، الصانع لا بآلة استعملها ، الذى لاتدركه الأعين ... الخ .
(٣) المختار ١٧/١ ، وفيه « . . ولا يرى للكفر أثرا . . الخ » .

ومن كلامه أيضا في كتاب ، وهو [1] :

« وقد علمت [2] أن الدولة العباسية لم تزل على سالف الأيام ، ومتعاقب [3] الأعوام تعتل طورا وتصح أطوارا ، وتلتاث [4] مرة ، وتستقل مرارا ، من حيث أصلها راسخ لا يتزعزع ، وبنيانها ثابت لا يتضعضع » .

وهذه الأسجاع كلها متساوية المعانى ، فإن الاعتلال ، والالتياث ، والطور ، والمرة ، والرسوخ ، والثبات ، كل ذلك سواء .

وكذلك ورد له في جملة كتاب كتبه عن عز الدولة بن بويه جوابا عن كتاب وصله من ابو أمير عبد الكريم بن الطبع لله ، فقال :

« وصلنى كتابه مفتتحا من الاعتزاء إلى إمارة المؤمنين ، والتقلد لأمور المسلمين بما أعراقه الزكية مجوزة لاستمراره ، وأرومته العلية مسوغة لاستقراره ، له ولكل نجيب أخذ بحظه من نسبه ، وضارب بسهم في منصبه ، إذ كان ذلك جاريا على الأصول المعهودة فيه ، والأسباب العاقدة له من إجماع المؤمنين كافة ، فإن تعذر اجتماعهم مع انبساطهم في الأرض ، وانتشارهم في الطول والعرض ، فلا بد من اتفاق أشراف كل قطر وأفاضله ، وأعيان كل صقع وأماثله » .

---

(١) المختار من رسائل أبي اسحاق الصابي ١/٢١٦ .

(٢) حذف ابن الأثير بعض العبارات ، وفي المختار « وقد علمت وعلم غيرك بعيان ماأدركته الأعمار ، وسماع مانقلته الأخبار ، أن الدولة العباسية التي رفع الله عماد الحق بها ، وخفض منار الباطل . . الخ .

(٣) في الأصل « معاقب » والصواب عن المختار .

(٤) تلتاث تختلط .

وهذا الـكلام كلُّه متماثلُ المعانِي فى أسجَاعِه ، فإن إمارَةَ المؤمنين ، والتقلُّد لأمورِ المسلمين سواءٌ فى المعني . وكذلك الأعْرَاقُ والأُرُومة ، والتجويز والتَّسْويغ ، والأشرافُ والأفاضل ، والأعيانُ والأماثل ، والقُطْر والصُّقْع ، كلُّ ذلك سواء .

وعلى هذا جاء كلامه فى كتاب آخر ، فقال :

« يسافِرُ رَأْيُه وهوَ دانٍ لم ينْزَحْ ، ويَسير تدبيرُهُ وهو ثاوٍ لمْ يَبْرَحْ » .

وكلاَ هٰذَيْن سواءٌ أيضاً . وما أحْسَنَ هذَا المعنَى لو قال : « يُسَافِرُ رأيُه وهو دان لم يبرحُ ، ويُثْخِنُ الجِراحَ فى عَدُوِّه وسيفُه فى الغِمْدِ لم يَجْرَحْ » . فإنَّه لو قالَ مثلَ هذا سَلِمَ من هُجنَةِ التّـكْرار .

وأمثالُ ذلِكَ فى كلامِ الصَّابى كثِير ، وعلى مِنْوَالِه نَسَجَ الصاحبُ بن عبَّاد

[من سجع الصاحب بن عباد]

فمن ذلك ماذكره فى وصف مهزومين ، فقال :

« طارُوا وَاقِين بظهورِهِمْ صُدُورَهُمْ ، وبأصْلابِهم نُحورَهُمْ » .

وكلا المعْنيَيْنِ سواء .

وكذلك قوله فى هذا الكتاب يصف ضيق مجال الحرب :

« مكانٌ ضَنْكٌ على الفارِس والرَّاجِل ، ضَيِّقٌ على الرَّامِح والنَّابِل[1] » .

ومن كلامه فى كتاب وهو :

« لا تتوجَّهُ هِمَّته إلى أعظَمِ مَرْغُوبٍ إلاَّ طَاعَ وَدَان ، ولا تمتدُّ عزيمتُه إلى أفخَمِ مطلوبٍ إلا كانَ واستَكَان »

(١) الرامح ذو الرمح ، والنابل الذى يرمى بالنبل .

وَكلُّ هذا الذى ذكرَهُ شيءٌ واحد .

وله من كتاب ، وهو :

« وَصَل كتابُه جامعاً من الفوائدِ أَشَدَّها للشكرِ استِحقاقا ، وأَتَمَّها للحمدِ استِغرَاقا وتعرّفتُ من إحسانِ الله فيما وَفّره مِنْ سلامته ، وهَنَّأه من كرامتهِ ، أنفسَ موهُوب ومَطلُوب ، وأحْمَدَ مَرقُوبٍ ومخطُوب » .

وهذَا كلُّه متماثلُ المعانِى ، متشابه الألفاظِ .

وفيما أوْرَدْتُه هاهنا مُقنِع .

فأَنعِمْ نظرَكَ أيُّها الواقفُ على هذا الكتابِ فيما بيَّنْتُه لك ، ووضعْتَ يدكَ عليه ، حتَّى تعلمَ كيْفَ تأْتِى بالمعانِى فى الألفاظِ المسْجُوعة . واللهُ الموفِّقُ للصَّواب .

فإنْ قِيل : إنَّكَ اشترطتَ أَن تكونَ كلُّ واحدةٍ من الفِقْرَتيْن فى الكلامِ المسْجُوع دالَّةً على معنًى غيرِ المعنى الّذى دلَّتْ عليه أختَها ، وإنَّما اشترطتَ هذه الشَّرِيطةَ فِراراً من أن يكونَ المعنيانِ شيئاً واحداً ، ونرَى قدْ وَرَدَ فى القرآنِ الكريم لفظتانِ بمعنًى واحدٍ فى آخرِ إحْدى الفِقْرَتيْنِ المسجُوعتين كقولِه تعالى : «واذْكُرْ فى الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّه كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا[1]» . وَكلُّ رسولٍ نَبِىٌّ ؟!

قلتُ فى الجوابِ : ليسَ هذا كالذى اشترطتُه أنا فى اختصاص كل

(١) سورة مريم : الآية ٥٤ .

فِقْرَةٍ بمعنًى غير المعنى الّذى اختصّتْ به أُختُها ، وَإنّما هذا هُوَ إيرادُ لَفظتَيْنِ فى آخرِ إحْدى الفِقْرتَيْن بمعنًى واحد . وهذا لا بأسَ به ، لِمكَانَ طَلَبِ السَّجع .

ألاَ ترى أنَّ أكثرَ هذه السُّورةِ التى هى سُورَةُ مَرْيَمَ عليها السلامُ مسجُوعٌ على حرف الياء ، وهَذَا يجوزُ لصاحبِ السَّجْعِ أن يأتِىَ به ، وهو بخلافِ ما ذكرتُه أنا ؟

ألاَ تَرَى أن النبىَّ صلَّى الله عليه وسلّم قدْ غيَّر اللفظةَ عن وَضْعِها طلباً للسَّجْع ، فقالَ « مَأْزُورات » وإنَّما هِىَ « مَوزُورَات » ؟ وقال : « العَيْنُ اللاَّمَّة » وإنَّما هى « المُلِمَّة » ؟ إلاّ أنّه ليسَ فى ذلك زيادةُ معنًى ، بل يُفْهَمُ من لفظة « مأزُورات » أنها قائمةٌ مقامَ « موْزُوات » ، وكذلك يُفْهَمُ مِنْ لفظة « لاَمَّة » أنها بمعنَى « مُلِمَّة » ؟

فالسَّجعُ قدْ أُجيزَ معهُ تغيِيرُ وَضعِ اللفظةِ ، وأُجيزَ معهُ أن يُورَدَ لفظتان بمعنًى واحدٍ فى آخرِ إحْدى الفِقْرَتين . ومعَ هَذا فلمْ يُجزْ فى استعمالِه أن يُورَدَ فِقْرتَانِ بمعنًى واحدٍ ، لأنّه تطويلٌ مَحْضٌ لا فائدةَ فيه .

وَبيْن الذى ذكرتَهُ أنتَ وبيْنَ الّذى ذكرْتُهُ أنا فرقٌ ظَاهِر .

والّذى قدّمتُه من الأمثلةِ المسجُوعةِ للصَّابى والصاحبِ بنِ عبَّاد ربّما كانتْ يسيرة أُتَّهَمُ فيها بالتعصُّب ، ويُقَالُ إنِّى انتقطتُها التقاطاً من جُمْلَةِ رسائِلِهما !

وقدْ خرجْتُ من عُهْدةِ هذهِ التهمَةِ ، وذاكَ أنِّى وجدتُ للصَّابى تقليداً بنقابةِ الأشرافِ الْعَلَويِّين ببَغْداد ، وكنتُ أنشأْتُ تقليداً بنقابةِ الأشْرَافِ الْعَلَوِيِّين

بالمَوْصِل ، وقدْ أوْرَدْتُ التَّقْلِيدين هاهنا ، ليتأمَّلَهما الناظرُ فى كتابِى هذا ، ويَحْكُمَ بَيْنَهما إنْ كانَ عارفاً ، أوْ يسأل عنهما العارفَ إن كانَ مُقلِّداً .

[تقليد الصابى] .

وقد أوردْتُ تقليدَ الصَّابِى أوّلا ، لأنَّه المُقدَّمُ زماناً وفضْلاً ، وهو :

« هذا ما عَهِدَ أميرُ المؤمنينَ إلى مُحَمَّدِ بنِ الحُسَيْنِ بن مُوسَى العَلوىّ الموسَوىّ حِينَ وَصَلَتْه به الأنساب ، وتأكَّدتْ لهُ الأسْباب ، وظهرتْ دلائِلُ عقله ولَبابَتِهِ ، وَوَضَحَتْ مَخايلُ فضلِه ونَجابَتِهِ . ومهَّد له بهاء الدَّولةِ وضياء المِلَّة أبو نصرِ بنُ عَضُدِ الدَّوله وتاجِ المِلَّة ، مولى أميرِ المؤمنِين ، ما مكَّن له عِندَ أميرِ المؤمنين من المَحَلّ المكِين ، ووصَفَهُ به مِنَ الحِلْمِ الرَّزِين ، وأشارَ به فيهِ من رَفْعِ المنزلةِ ، وتقديمِ المَرْتَبَة ، والتأْهِيلِ لولايةِ الأعمال ، والحَملِ للأعباء الثِّقال ، وحَيْثُ رَغَّبَه فيهِ مسابقةُ الحُسين أبيه فى الخدمةِ والنَّصِيحة ، والمواقِفِ المحمودةِ ، والمقاماتِ المَشْهودَة ، التى طابَتْ بها أخبارُه ، وحسُنَتْ فيها آثارُه . وكانَ محمدٌ متخلِّقاً بخَلائِقِه ، وذاهِباً فى طَرائقِه ، عِلْماً وديانة ، ووَرَعاً وصِيَانة ، وعِفَّةً وأمانة ، وشهامةً وصَرَامةً ، بالحظ الجزيل من الفَضْلِ الجميل ، والأدبِ الجَزْل ، والتوجُّه فى الأهْل ، والإيفاءِ بالمناقبِ على لِدَاتِه وأترَابِه ، والإبْرَارِ على قرائِبه وأضْرَابِه ، فقلَّدَه ما كانَ داخلاً فى أعمالِ أبيه مِنْ نِقابَةِ نُقباءِ الطّالِبيِّينَ أجمعين بمدينةِ السَّلام ، وسائرِ الأعمال والأمصارِ ، شَرْقاً وغَرْباً ، وبُعْداً وقُرْباً . واختصَّه ذلكَ جَذباً بصنعِه ، وإنافَةً بقَدْرِه ، وقضاءً لحقِّ رَحِمِه ، وتَرْفيهاً لأبيه ، وإسْعافاً لهُ ، بإيثارِه فيهِ

أمْرَ المؤمنينَ ، واستخلافَهُ عليْهِ من النَّظَرِ فى المظالمِ ، وتسْيِيرِ الحجيجِ فى المواسمِ . واللهُ يُعْقِبُ أميرَ المؤمنينَ فيما أَمَرَ ودبَّرَ حُسْنَ العاقبةِ فيما قَضَى وأمضَى . وما توفيقُ أميرِ المؤمنينَ إلاَّ باللهِ ، عليْهِ يَتوكلُ ، وإليْهِ يُنِيب .

وأمَرَهُ بتَقْوى اللهِ الَّتِي هى شِعَارُ المؤمنينَ ، وسَنَاءُ الصَّالحينَ ، وعصمةُ عبادِ اللهِ أجمعينَ ، وأن يَعْتقِدَها سِرًّا وَجَهْراً ، ويَعْتَمِدَها قولاً وفِعْلاً ، ويأخُذَ بها ويُعْطِي ، ويُسرَّ بها ويَنْوِى ، ويأتِيَ ويَذَر ، ويُوردَ ويُصْدر ، فإنَّها السببُ المتِينُ ، والمَعْقِلُ الحصِينُ ، والزَّادُ النَّافع يومَ الحساب ، والمَسْلَكُ المُفْضِي إلى دارِ الثَّواب . وقَدْ حَضَّ اللهُ أو لياءَهُ عليْها ، وهَدَاهُمْ فى مُحكمِ كتابِهِ إليها ، فقال عزَّ مِنْ قائلٍ : « يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مع الصَّادِقِينَ[1] » .

وأمَرَهُ بتلاوةِ كتابِ اللهِ مواظباً ، وتصفُّحِهِ مُدَاوماً مُلازِمًا ، والرجوعِ إلى أحكامِهِ فيما أحلَّ وحرَّم ، ونقَضَ وأبْرَم ، وأثابَ وعاقَب ، وباعَدَ وقارَب . فقدْ صحَّح اللهُ برهانَه وحُجَّتَه ، وأوضَحَ مِنْهاجَهُ ومَحَجَّتَه ، وجعلَهُ نجماً فى الظُّلُماتِ طالعًا ، ونوراً فى المُشْكلاتِ ساطِعاً ، فمَنْ أخذَ به نَجَا وسَلِم ، ومن عدَلَ عنْهُ هَوَى ونَدِم . قالَ اللهُ تعالى : « وإنَّهُ لَكِتابٌ عزيزٌ * لاَ يأتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يدَيْهِ ولاَ مِنْ خَلْفِهِ تنزيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد[2] » .

وأمرَهُ بتنزِيهِ نفسِه عمَّا تدعُو إليْه الشُّبُهات ، وتَطلعُ إليه التَّبِعات ، وأنْ يَضْبِطَها ضبطَ الحليمِ ، ويكفَّها كفَّ الحكيم ، ويجعلَ عقلَه سُلطاناً عليها ،

---

(١) سورة التوبة : الآية ١١٩ (٢) سورة فصلت : الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

ونميزه آمراً ناهياً لها ، ولا يجعلَ لها عُذرًا إلى صَبوةٍ ولا هَفوة ، ولا يطلقَ منها عِنانًا عند نَزوةٍ ولا فَوزَة ، فإنها أمَّارة بالسُّوء ، منصبَّة إلى الغى ، فمن رَفضَها نجا ، ومن اتَّبعَها هَوَى . فالحازمُ متَّهِمٌ عند تحرُّكِ وَطرِهِ وَأَرَبِه ، واهتياجِ غَيظِه ، ولا بِدْعَ أَنْ يَخضُها بالشَّكيمِ ، وَيَعُرُّكَها عَرْكَ الأديم ، ويقُودَها إلى مصالحِها بالخَزائِمِ ، وَيَفتقِدَها من مُقارَفةِ المآثِمِ والمحارِمِ ، كيما يعزَّ بتَذْليلها وتأديبها ، ويجلَّ برِياَضِها وتقويمها ، والمفرِّطُ تطمح به إذا طَمحتْ ، ويجمَحُ معها إذا جَمَحَتْ ، ولا يلبثُ أن تُورِدَه حيثُ لا يُصْدِر ، وتلجئه إلَى أنْ يعتَذِر ، وتقيمُهُ مقامَ النَّادِمِ الواجِمِ ، وَتَنكُب به سبيلَ الرَّاشِد السَّالم .

وأحقُّ مَن تحلى بالمحاسِنِ ، وتصدَّى لاكتسابِ المحامِدِ منْ ضرَبَ بمثلِ سَهمِه فى نسبِ أميرِ المؤمنينَ الشَّريف ، ومَنْصِبه المنيف ، واجتمعَ معهُ فى ذُؤَابة العِترَةِ الطَّاهِرة ، واستظلَّ بأوراقِ الدَّوحة الفَاخِرة ، فذلكَ الذى تتضاعفُ بِهِ المآثرُ إن آثرَها ، والمثالبُ إنْ أسفَّ إليها . ولا سِيَّما من كان مندوباً بالسِّياسةِ ، ومرشَّحًا للتقليد على أهله ، إذْ ليسَ يَفِي بالصَّلاح لمنْ وَلِيَ عليه ، ولا يَفِي بإصلاحِ ما بيْن جَنْبَيْهِ . ومِنْ أعظمِ الهُجْنَةِ عليه أنْ يأمُرَ ولا يأْتَمِر ، ويزْجُرَ ولا يزْدَجِر ، قال اللهُ تعالَى ذِكْرُه : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أفلاَ تَعْقِلُون (١) » .

وأمَرَهُ أن يتصفَّحَ أحوالَ مَنْ وَلِيَ عليهم ، من استقراءِ مذاهِبهمْ ، والبحثِ عنْ بواطِنهم ودَخائِلهم ، وأنْ يعرفَ لمن تقدَّمتْ قدَمُه منهم وتظاهرَ فضلُه

(١) سورة البقرة : الآية ٤٤ .

فيهم منزلته ، ويوفيه حقه وزينته ، وينتهى فى إكرام جماعتهم إلى الحدود التى توجبها أنسابهم وأقدارهم ، وتقتضيها مواقعهم وأخطارهم ، فإنَّ ذلك يلزمه لشيئين :

أحدُها يخصُّه ، وهو النسبَ الذى بينه وبينهم .

والآخرُ يعمُّ والمسلمينَ جميعاً ، وهو قولُ الله جلَّ ذِكْره : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عليهِ أجرًا إلاَّ المودَّةَ فِى القُرْبَى »(١) . فالمودَّةُ لهم الإعظامُ لأكابرِهم ، والاشتمالُ على أصاغرِهم واجبٌ متضاعفُ الوجوبِ عليه ، متأكِّد اللزومِ له ، ومَنْ كَان منهُم فى دونِ تلك الطّبقةِ من أحداثٍ لم يَحْتَنِكوا عليه ، وجذعان لمْ يَقرَحُوا ، ومُجْرِين إلَى ما يُزْرى بأنسابِهم ، ويغضُّ من أحسابهم عَذَلَهم ، وأنَّبَهُمْ ، ونهاهَم ، ووعظَهُم ، فإن نزعُو وأقلعُوا فذَاكَ المرادُ بهمْ ، والمقصدُ فيهم ، وإنْ أصرُّوا وتتابعُوا أنالَهُمْ من العقوبةِ بقدرِ ما يكفُّ ويرْدَع ، فإنْ نَفَع وإلاَّ تجاوَزَ إلى ما يلذعُ ويُوجِع ، من غير تطرُّقٍ لأعْراضِهِمْ ، ولا امتهانٍ لأحسَابِهِمْ ، فإنَّ الغرضَ منهم الصيانةُ لا الإهَانة ، والإدالةُ لاَ الإذالة . وإذا وجبتْ عليهم الحقوقُ ، أو تعلقَتْ بهم دواعِى الخُصوم فادَّهم إلى الإغفاء بمـا يصحُّ منها وَيجب ، والخُروج إلى سنن الحقّ فيا يَشْتَبه وَيلْتَبِس . ومتَى لزِمَتْهم الحدودُ أقامَها عليهم بحسبِ ما أمره اللهُ تعالى فيها ، بعد أنْ تَثْبُتَ الجرائمُ وتصحّ ، وتَبِينَ وتَتَضِح ، وتتَجرَّد عن الشك ، وتنْجَلِيَ من الظَّنِّ والتُّهَمَة ، فإنَّ الذى يُستحبُّ فى حُدودِ الله عزَّ وجلَّ أن تُدرَأَ معَ نُقْصانِ

(١) سورة الشورى : الآية ٢٣ .

اليقين والصحة ، وأنْ تمضى عليهمْ مَعَ قِيامِ الدّليل والبيِّنة . قال اللهُ عزَّ وجلَّ « وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ»[1] .

وأمرَهُ بحياطةِ أهلِ النسبِ الأطهرِ ، والشَّرَفِ الأفخر عَنْ أنْ يدّعِيَهُ الأدعِياء ، أو يَدْخل فيه الدُّخلاء ، ومن انتمى إليه كاذباً ، أو انتحله باطِلاً ، ولم يُوجَدْ له بيتٌ فى الشَّجرة ، ولا مِصْداقٌ عند النَّسابِينَ المَهَرَة ، أوْقَعَ بِهِ كَذِبُهُ وفِسْقُه ، وَشَهَرَهُ شُهْرَةً ينكَشِفُ بها غِشُّه ولبسه ، ويزَع بها غيرَهُ ممَّن تُسوِّل له ذَلِك نَفْسُهُ

وأنْ يُحْصِنَ الفُرُوجَ عن مُناكَحَةِ من ليسَ كفْؤاً لها فى شَرَفِها وفَخْرِها ، حتَّى لا يطمعَ فى المرأةِ الحسيبةِ النَسِيبةِ إلاَّ من كانَ مِثْلاً لها مُساوِياً ، ونَظِيراً مُوَازِياً ، فقد قالَ اللهُ تعالَى : « إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »[2]

وأمرَهُ بمراعاةِ مُتَبَتِّلِي أهلِهِ ومتهجِّديِهِمْ ، وصُلَحَائهم وَمُجَاوِرِيهم، وأرَامِلِهِمْ وأصَاغِرِهِمْ ، حتى تَسْتَدَّ الخَلّةُ من أحْوَالِهِمْ ، وتدِرَّ الموادُّ عليهم ، وتتعادَلَ أقساطُهُمْ فيما يَصِلُ إليهم من وُجوه أموالِهِمْ ؛ وأن يزوِّج الأيامَى ، ويُرَبِّى اليتامَى ، وليلزمْهم المكاتبَ ، فيتلقَّنوا القرآن ، ويعرفوا فَرائضَ الإسلام والإيمان ، ويتأدَّبوا بالآدابِ اللائقةِ بذَوى الأحْسَاب ، فإنَّ شرفَ الأعراقِ محتاجٌ إلى شرف الأخلاقِ ، ولا حَمْدَ لِمنْ شرَّفَهُ حَسَبُه ، وسَخُفَ

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٩ .
(٢) سورة الأحزاب : الآية ٣٣ .

أدبُه ، إذ كانَ لم يكتسبِ الفخر الحاصِل بفضلِ سَعْيٍ ، ولا طَلَب ولا اجتهادٍ ، بل بِصُنْعِ الله تعالى ، ومَزيدِ المنّةِ عليه ، وبِحَسبِ ذلكَ لزومُ مايلزمُه مِنْ شُكرِه سبحانَه على هذهِ العطيَّة ، والاعتدادِ بما فيها من المزيَّة ، وإعمالِ النَّفس فى حيازةِ الفضائِل والمناقبِ ، والترفُّعِ عن الرَّذائِل والمثالب .

وأمَرَهُ بإجمالِ النِّيابةِ عن شيخه الحُسَيْنِ بنِ مُوسى فيما أمرَهُ أميرُ المؤمنينَ باستخلافه عليه من النَّظرِ ، والأخذِ للمظلومِ من الظالم ، وأن يجلسَ للمترافِعِين إليه جلوساً عامًّا ، ويتأمَّلَ كلامَهم تأمُّلاً تامًّا ، فما كانَ مِنها متعلِّقاً بالحاكم ردَّه إليه ليحملَ الخصُومَ عَلَيْهِ . وما كَانَ مِنْ طريقةِ الغَشْمِ والظُّلْمِ والتَّغلُّبِ والغَصْبِ قَبَضَ عَنْه اليدَ المُبْطلة ، وثَبَّتَ فيه اليدَ المستحقَّة ، وتحرَّى فى قضاياهُ أن تكُونَ مُوافقة للعدْلِ ، ومُجانبةً للخذْل ، فإنْ عادةَ الحكَّام وصاحب المظالِم واحدة ، وهىَ إقامَةُ الحقِّ ونُصرَتُه ، وَإبانَتُه وَإثارتُه ، وإنما يختلفُ سَبيلاهما فى النَّظر إذا كانَ الحاكمُ يعمَلُ بما ثبَتَ عنده وظهرَ ، وصاحبُ المظالِم يفحصُ عمَّا غمَضَ واستَتَرَ ، وليسَ لهُ مع ذلِكَ أن يردَّ للحاكم حكومة ، ولا يحلَّ له قضيَّة ، ولا يتعقَّب ما يُنفِذُه ويمضيه ، ولا يَتتَبَّع ما يحكمُ به ويَقْضِيه ، والله يَهْدِيه ويوفِّقهُ ، ويُسدِّده ويُرْشدُه .

وأمرَهُ أن يُسَيِّرَ حجيجَ بيتِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلى مَقصِدِهِمْ ، ويَحْمِيَهمْ فى مَبْدأَتِهِمْ وَعَوْدَتِهم ، ويُرتِّبَهُمْ فى مَسِيرِهِم وَمَسْلَكِهِمْ ، ويرعاهُمْ فى لَيلِهم وَنهارِهِمْ ، حتَّى لا تنالَهم شِدَّة ، ولا تصلَ إليهم مَضَرَّة ، وأنْ يُرِيحَهم فى المنازل ، ويُورِدَهُم المنَاهِل ، ويُنَاوِب بينهمْ فى النَّهَل والعَلَل ، ويمكِّنَهُمْ من الارتواء

والاكتفاء، مجتهدًا فى الصيانة لهم، ومُعَذِّرًا فى الذب عنهم، ومتلوِّمًا على متأخرهم ومتخلفيهم، ومنهضًا لضعيفهم ومهيضهم. فإنهم حجاج بيت الله الحرام، وزوار قبر رسوله صلى الله عليه وسلم؛ قد هجروا الأهل والأوطان، وفارقوا الجيرة والإخوان، وتجشموا المغارم الثقال، وتسنموا السهولة والجبال، يلبون دعاء الله، ويطيعون أمره، ويؤدون فرضه، ويرجون ثوابه وحقيق على المسلم أن يحرسهم متبرعًا، ويحوطهم متطوعًا. فكيف من تولى ذلك وضمنه، وتقلده واعتقبه؟ قال الله تعالى: «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا»(١)

وأمره أن يراعى أمور المساجد بمدينة السلام وأطرافها وأقطارها وأكنافها، وأن يجبى أموال وقفها، ويستقصى جميع حقوقها، وأن يلم شعثها، ويسد خللها مما يتحصل من هذه الوجوه قبله، لا يزيل رسمًا جرى، ولا ينقض عادة كانت لها. وأن يكتب اسم أمير المؤمنين على ما يعمره منها، ويذكر اسمه بعده، بأن عمارتها جرت على يده، وصلاح أداه قول أمير المؤمنين فى ذلك، تنويهًا باسمه، وإشادة لذكر وأن يولى ذلك من قبله من حسنت أمانته، وظهرت عفته وصيانته، فقد قال الله جل من قائل: «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين»(٢)

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٨.

وأمره أن يستخلف على ما يرى استخلافه عليه من هذه الأعمال فى الأمصار الدانية والنائية ، والبلاد القريبة والبعيدة من يثق به من صلحاء الرجال ذوى الوفاء والاستقلال ، وأن يعهد إليهم مثل ما عهد إليه ، ويعتمد عليهم مثل ما اعتمد عليه ، ويستقصى فى ذلك آثارهم ، ويتعرف أخبارهم ، فمن وجده محموداً قربه ، ومن وجده مذموماً صرفه ولم يمهله ، واعتاض من ترجى الأمانة عنده ، وتكون الثقة معهودة منه ، وأن يختار لكتابته وحجابته والتصرف فيما قرب منه وبعد عنه من يزينه ولا يشينه ، وينصح له ولا يغشه ، ويجمله ولا يهجنه ، من الطبقة المعروفة باللطف ، المتصونة عن النطف[1] ، ويجعل لهم من الأرزاق الكافية والأجرة الوافية ما يصدهم عن المكاسب الذميمة ، والمآكل الوخيمة . فليس تجب عليهم الحجة إلا مع إعطاء الحاجة . قال الله تعالى : « وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ »[2] .

وأمره أن يكتب لمن تقوم بينته عنده ، وتنكشف له حجته إلى أصحاب المعارف بالشد على يده ، واتصال حقه إليه ، وحسم الطمع الكاذب فيه ، وقبض اليد الظالمة عنه ، إذ هم مندوبون للتصرف بين أمره ونهيه ، والوقوف عند رسمه وحده .

---

(١) يقال نطف أى اتهم بريبة وتلطخ بعيب ونسد ، ويقال نطف فلانا قذفه بفجور أو لطخه بعيب .

(٢) سورة النجم : الآيات ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .

وهذا عهدُ أميرِ المؤمنينَ إليكَ ، وحجَّتُه لكَ وعليكَ ، قد أبانَ منه سَبيلَكَ ، وأوضحَ دَليلَكَ ، وهداكَ رُشْدَكَ . وَجَعَلَكَ على بَيِّنَةٍ من أمرِكَ فاعملْ به ، ولا تخالفه . وانتهِ إليه ، ولا تُجاوزه ، وإنْ عَرَضَ لك عارض يُعجزُكَ الوفاءُ بِهِ ، ويَشْتَبِهُ عليكَ الخروجُ مِنْه أَنْهَيْتَهُ إلى أمير المؤمنين مُبادِرًا ، وكنتَ إلى ما يأمُرُكَ به صائراً ، إن شاءَ الله تعالى » .

[التقليد بأسلوب ابن الأثير]

وأما التقليد الّذى أنشأتُه أنا فقدْ أوْرَدْتُه بعدَ هذا التقليد ، وهو :

« أمّا بَعْدُ ، فإنَّ كلَّ كلامٍ لا يُبْدأُ فيه بحمدِ اللهِ فهو أجْذَم ، وكلّ كتابٍ لا يُرْقَمُ باسْمِه فليسَ بمُعْلَم . وعلى هذا فإنَّ حَمْدَهُ يَتنزَّلُ من الكلام منزلةَ الأعضاء من الأجسامِ ، واسمهَ يتنزَّلُ من الكتابِ منزلةَ الرُّقومِ من الثِّياب ، وقدْ جمعْنَا فى كتابِنا هذا بينَ التَّسْميةِ والتَّحْميد ، وجعلنا إحداهُما مفتاحًا للتَّيمُّن ، والآخرَ سبباً للمَزيد ، ثم رَدَفْناهما بالصَّلاةِ على سيِّدنا محمدٍ الَّذِى أيدهُ اللهُ بالقرآنِ المجيدِ ، وجعلَ شهادتَه قبل كلِّ شهيد ، وعلى آله وصَحْبِه الَّذين هُدُوا إلى الطَّيِّب من القولِ وَهَدَوا إلى صِراطِ الحَميد .

ومما يقترنُ بهذهِ الصلاةِ فى ثَوابِها ، ويجىءُ على أعقابِها النَّظرُ فى أمر الأُسْرةِ النبويَّةِ التى وَصَلَ وُدَّها بودِّه ، وجعلَها إحْدَى الثَّقلَين المخلَّفين من بعدِه[1] ، وقد تقادَمَ الآن زمانُها ، وتشعَّبتْ أغصانُها ، وأُبِيَ مالَها فى الرِّقاب من عُهْدة الأمانةِ ، ولمْ توضعْ فيما وَضعَ الله تعالى وَرَسولُه صلّى الله عليه وسلم من المكانة ، وأوْلى الناس بها من أضْمر وَلاءَها حقًّا ، وأوْجبَ

(١) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى آخر عمره : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي » قالوا : وسماهما ثقلين إعظاماً لقدرهما ، لأن العرب تقول لكل شىء نفيس مصون ثقل ، وأصله فى بيض النعام المصون ، ويقال للسيد العزيز ثقل .

أَنْ يَرِدَ معها الحوضَ حِينَ يُقَالُ لِوارِدِهِ سُحْقًا ، وكانَ بمنْ تحتَ يدهِ منها بارًّا رَفِيقاً ، حتى لا يسأله بِرًّا ولا رِفقاً . ونحن نَرجُو أن نفوزَ بفَضِيلَةِ هذه الحَسَنَةِ ، وأن يسبقَ إليها سَبْقَ المتقرِّبِ فى الجُمُعَةِ بِبَدَنَةٍ .

ومن أهمْ أمورِها أن يَختارَ لها زعيمٌ يرأفُ بها رأفةَ الوالدِ بولدِه ، ويقومُ بأمرِها قيامَ الرَّأسِ بجَسَدِهِ ، حتّى تأتلفَ أُصُولُها كلُّها فى مَغرِسِها ، ولا يحكم عليها منْ ليسَ من أنفسِها . وقد اخترْنا لها مَنْ وُفِّقْنا فى اختيارِه ، وأخذْنا فيه ببيانِ الرَّأى وحَزْمِه ، لا بِشُبْهةِ الهوَى واغترارِه ، ولوْ لمْ يكنْ من القومِ الّذين وُلُّوها لـكانَ استحقاقُهُ لها بيّناً ، والتعويلُ عليه متعيّناً ، فكيف وقدمُه فيها قديمةُ الميلادِ ، وَوِرَاثتُه إيّاها عن سيادةِ الجدودِ وسُؤْدُدِ الأجْدادِ ، وهو أنتَ أيُّها السَّيِّد الأجلْ الشريفُ الحسيبُ النسيبُ : « فلان بن فلان الحُسَينيّ » ولو شِئْنا لأسنَدْنا هذه النسبةَ كابراً عن كابرٍ ، ونَضَدْناها آخراً بعدَ أوَّلٍ عَنْ أوَّلٍ قَبلَ آخرٍ ، حتّى وصلنا هذا الفرْعَ بشجرتِهِ الطيِّبةِ ، وهذا القَطْرَ بسحابتِهِ الصَّيِّبة وشرفُ الأنسابِ أصدَقُه ما كانَ الدهرُ به شهيداً ، وأجدُّه ما كان قديماً ، وأخلَقُه ما كانَ جديداً ، وما تولّى الروح الأمينُ مدحَه قرآناً أكرمُ مما تولى الشعراء مدحَهُ قصيداً ، ولا فضْل للمعْتَزى إلى هذا النسبِ حتى تلحقَ البنوّةَ بالأبوّةِ ، ويضيفَ درجةَ الفضيلةِ إلى مَحْتِدِ النبُوّةِ ، وحينئذٍ يُقَالُ : ما أقربَ الشبَه على قِدَمِ عَهْدِه ، وهذا ماء الوِرْدِ بعد ذهاب وَرْده .

وأنتَ ذلكَ الرَّجُلُ الَّذى تردَّدَ الشَّرَفُ فى مَناسِبه ، تردُّدَ القمرِ فى منَازله ، وزَهَا المجدَ بمناقبه زَهْوَ الرَّوْض فى خمائله ، فَلآلِيه حَسَبكَ تُغْنِيكَ عن سُؤال مَنْ ومَا ، وتَملأ بودِّكَ وحمدِك قلباً وَفَمًا . والحسبُ ما حفظتْ أواخرُه أوائله ، وأوضحتْ الليالى والأيامُ دَلائله ، وأقرَّتْ به الأعداء فما رَدَّتْ فضائلَه . وهذه هِىَ المآثِرُ التى إذَا نَظِمَتْ غاراتِ الشعراء عليها من الشعر ، وإذَا نـثِرَتْ وُجِدَتْ فى مُحكمِ الذكرِ ، وأنتَ صاحِبها وابنُ صاحِبها ، ومنْ لم يرِثْها عن أباعدِها بل عَنْ أقاربِها ، ولوجانبْتَ رياسَتَها مُصَانعاً ، ومَشَيْتَ بها الضرَّاء متواضِعاً ، لَدَلَّ عليك وصْفُها ، وعُرِفَ منك عَرْفُها . ولوْ قلدناكَ أَمْرَ هذه الأسرةِ الطَّاهرةِ التىَ هى أسرتُك ، وأمَّرناكَ عليْها ، وَإمْرتُها إمْرتُك ، فتوَلَّهَا توَلِّىَ مَنْ خفَضَ لها جناحَه ، وأفاضَ عليها سَماحَه ، وأنضَى فيها غَدوَّه ورَوَاحَه ، حتَّى يقال إنَّكَ الراعِى الَّذى تناوَلَ ثُلَّتَهُ ، فأراحَ حَسيرَها ، وجَبَرَ كسِيرها ، وارتادَ لها خِصْبًا ، وأوْرَدَها رفهاً لاغِبًّا ، وأذكى فى كَلاءتها عيْناً وقلْبًا .

ومِنْ حقِّها عليكَ أن تنظرَ إلى ذاتِ شِمالها ، وَذَاتِ يَمينها ، وتتصفحَ احوالَهَا فى أمرِ دُنياهَا وَدِينها ، فأولُ ذَلِكَ أن تعلمها كتابَ اللهِ تعالى الَّذى فى تعليمِهِ نَهجُ الصَّواب ، وفى تلاوتِه مُضاعفةَ حسناتِ الثّواب ، وقد مُثِّل قارئُه بالبيْتِ العامرِ ، وتاركُه بالبيتِ الخَراب . وهو كتابٌ امتازَ عن الـكتبِ بنُجُومِ التَّنزيل ، وتولّى الله حِفظَهَ من التحريف والتَّبديل ، وافْتتحَهُ بالسَّبْعِ المثَانى التى لم يُنزِل مثلَها فى التَّوراةِ ولا فى الإنجيل . وهو الموصوفُ بأنه

النور المستضاء به فى غَيابةِ الظلماء ، والحبلُ الممدودُ من الأرضِ إلى السماء ، والبحرُ الذى لا يستخرجَ لؤلؤهُ ومرجانَه إلا الراسخونَ من العلماء .

وكذلكَ فَخُذْ هذه الأسرةَ بتعليمِ الفضائلِ التى تتفاوتُ بِها القِيمَ ، وَسُسْها برياضةِ الآدابِ وتهذيبِ الشِّيم ، ولا تتركها فوضى لايتّسم أحدها بِسِمةِ القَدْرِ المُنيف ، ولا يرجع إلى حسبٍ تليدٍ ، ولا إلى سَمْى طريف ، وتكون غايةُ ما عندَهمِن الفضيلةِ أنْ يُقال فلانٌ الشريف

ومِن حِفْظِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلّم فيها أنْ تُوفىَ فَضْلَ مكانِها ، وتخالِفَ بين شأنِ غيرها من المسلِمينَ وَبيْنَ شأنِها ، فلا تبتذلْ بمجالس الوُلاة فى انتزاعِ ظُلامة ، ولا فى إقامَةِ حدٍّ يُسْلَبُ معه رداء الكرامة ، وأنتَ تتولّى ذلكَ مِنْها ، فما وجَبَ عليها من حقٍّ فَخُذها باقتضائه ، وأمضِ فيها حُكْم الله الّذِى أمَرَ بإمْضائِه . وليكنْ ذلِكَ على وَجْه الرِّفق الذى يُسْلس له القِيَاد ، ويَتوَطأُ لهُ المهاد ، وإنْ أمكَنكَ افتداء شىء من هذه الظُّلاماتِ التى تتوجَّه عليها فَسَاد ، وقدْ أتمَّ الله فضلَها بمنعِ كرائِمِها إلاَّ مِنْ كفءٍ لا دناءَةَ فى عُنصره ، ولا غضاضَةَ فى مخبره ، وهو الّذى إنْ فاتَه شرفُ النُّبوَّةِ فى مَغرِسِه فلم يَفُتْه شرفُ النَّباهة فى مَعْشره ، وإذا تبايَنتِ الأقْدارُ فلا فَرْقَ بين المَناكِحُ المَخْطُوبة ، وبَيْن الأسلابِ المسْلوبَة .

فاحفظْ لأسرتك حُرمة هذهِ المنزلةِ ، واجعلْها فى كتابِ الوصايا التى وُصِّيتَ بها مكان البسْملة .

وكما أمرناكَ بالنظرِ فى صَوْنِ أقدارِها ، فكذلكَ نأمُرُك بالنَّظر فى حفظ

مادّة دِرْهمِها ودِينارِها . وقد عَلِمْتَ أنَّ لها أوقافا وَقَفَها قومٌ لحظوا بأَجْرِها واسْمِها ، وسَتَحظَى أنتَ بالعدلِ فى قسْمِها ، فأَجْرِ على كلٍّ منها رِزْقَه ، وأَعطِ كلَّ ذى حقٍّ حقّه

وفى الناسِ طائفةٌ أدعياء يرومون إلحاقَ الرأسِ بالذنَب ، والنَّبعِ بالْغَربِ(١) . ويلحقون أباً لغيرِ ابن ، وابناً لِغيرِ أَب . كلُّ ذلكَ رغبةً فى سُحْت(٢) يأكلونَه ، لا فى نسبٍ يُوصلونه . فنقبْ عن حالِ هؤلاء تنقيباً ، واجعلْ النَّسيبَ نسيباً ، والغريبَ غريباً ، حتى تَخْلُصَ السُّلالَةَ من طرائِقها ، وَتَبْقَى الشجرةُ قائمةَ على أعْرَاقِها . ومن علمتَ كذبَه فازجُرْهُ بأليمِ الازْدجار ، وأَعلِمْه بأنه قد تَبوَّأَ مَقْعَدَهُ من النَّار ، وشَهِّره فى الناسِ حتى يَنتهىَ وينتهىَ غيرُه بذلك الاشتهار .

وهَاهُنَا وصيةٌ هى أهمُّ من هذه الوصيَّةِ أمراً ، وأعظمُ أجْرا ، وأجدرُ بأنْ تكونَ هى الأولَى ، وتكونَ هذهِ الأخرَى ، وهى الأَخْذُ على ألسنةِ السُّفهاءِ من الخوضِ فيما شَجَرَ بين آلِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابِه ، وإظهار العصبيَّة التى تُزَحْزِحُ الحقَّ عن نِصَابه ، وتُرْجعه على أعقابه ، وليسَ مُسْتَنَدَها إلا مقالاتِ ذوِى الجَهْل . ورُبَّما نشأَ منها فتنةٌ ، والفِتْنَةُ أشدُّ من القَتْل . فوكلْ بهؤلاءِ عزْبًا قاطِعاً ، ونَهياً قامِعاً ، وكُنْ فى ذلك شارعاً لِمَا كانَ اللهُ شارِعًا . فأولئكَ الساداتُ هم النجومُ الذين بأيِّهم كانَ الاقتداء

---

(١) النبع شجر للقسى وللسهام ينبت فى قلة الجبل ، والنابت منه فى السفح الشريان ، وفى الحضيض الشوحط ، ويقال أصابه سهم غرب أى لا يدرى راميه .

(٢) السحت هو كل حرام قبيح الذكر ، أو ما خبث من المكاسب وحرم ، فلزم عنه العار .

كانَ بِهِ الاهْتِدَاء ، وقُصارى المحْسِنِ فى هذَا الزَّمَان أَن يَتَعَلَّقَ منها سَبَبًا ، ويأخذ عنهم دِينًا أو أَدَبًا ، ولا يبلُغُ مدَّ أحدِهم ولا نصِيفه[1] ، ولو أنفقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا .

ونحنُ نعلمُ أنّك واقفٌ على سُنن اقتصادِك ، وأنَّ هذه الوصيَّةَ هى محضُ اعتقادِك ، والمُنْصِفُ فى هذا المقامِ من رَمَقَهُ بنظرٍ جَلِيٍّ ، ووَفَى أبا بكرٍ وعُمَرَ رَضِى اللهُ عنهما حقَّهما ، وإنْ كانَ مِنْ نَسْلِ عَلِيٍّ ، فكلٌّ قد ذكرَه رسول صلَى الله عليه وسلم بفضْله ، وهَؤُلاء من صَحابتِهِ ، وهذَا مِنْ أَهْلِه ونعوذُ باللهِ من الأهواءِ الزَّائغَة ، والأقوالِ التى ليستْ بسائغَة . ولا حُجَّةَ إلاَّ بالحقِّ ، ولله الحجَّةُ البالِغَة .

وقدْ جعلْناَ لَك فى مالِناَ عطاءً دَارًّا تَستَعِينُ به على لَوازِم النَّفقاتِ ، وتخرِجُ نافِلَتَهُ فى وقايةِ عِرْضِكَ التى هى محسوبةٌ من الصَّدقاتِ ، فإنَّ مَنْ سادَ قوماً يفتقرُ إلى تحمُّل أثقالهمْ ، والإفَاضَةِ من حاله على أحوالِهم ، وهذا برٌّ يكونُ مِنَّا أصلُه ، ومنك فرْعُه ، وثوابٌ يكونُ لكَ قصدُه ، ولنا شرْعُه ، وصاحبُ الإحسَانِ من سَنَّ سبيلَ الإحسان ، ولم نرضَ أنْ أرَيْناكَ مكانَه حتى أمدَدْناكَ فيه بالإمكان ، فأَعْطِ مَالَنا ، وتعلَّم من سُنَّةِ أفضَالِنَا ، ولدولتنا بذلك ثوبُ جمالٍ كلما لُبِسَ زادَ جِدَّةً ، وعُمْرُ ذِكْرٍ كلَّما مضتْ عليه مُدد الأيامِ طالَ مُدَّة ، ولا مُلْكَ فى الدُّنيا لمنْ لمْ يجعلْ ملكَهُ حديثًا حسنًا ، ويشتر المحامدَ فيجعلهَ لهاثمَنًا .

---

(١) المد المدى ، يقال قدر مد البصر أى مداه ، والنصيف هو النصف أحد شق الشىء .

ومنْ عرَفَ قدرَ الثَّناء جدَّ في تحصيله ، ولو أنفق الكثير في قليله ، فكمْ من دولةٍ أُعْدِمَتْ منه فدرَسَتْ آثارُ معالِمِها ، ولو كانتْ منه مُثْرِيَةً لما ذهبَتْ مع بقاءِ مكارِمها »

وإذْ ذكرنا هذا فلنخْتِمْه بما يكونُ قلادةً لصاحِبِ هذا التَّقليد ، وهو أنْ نجرِّدَ العنايةَ بوجاهتِه ، حتَّى يلبسَ تقدُّمًا بذلك التجريد ، وفَحْوَى ذلِكَ أنْ يعلمَ الناسُ مالَه في الدَّولةِ من منزلةِ الكرامةِ ، ويعرفوا أنه فيها ابنُ جَلاَ[1] ، غيرُ محتاجٍ إلى وَضعِ العِمامَة ، ونحنُ نأمُر نوَابنَا وَوُلاَتَنَا وأصْحابنا أنْ يُوفُوهُ حقَّ أبوَّته الشريفةِ ، وفضيلتِه التي رَدَفَتْها فأضْحَت وهي لها رَدِيفةً ، وأن يُعْطوه ما شاء من إعلاءِ شَأْنِهِ ، ويُمْضُوا فعْلَ يدِه وقوْلَ لِسَانِه . إنْ شَاء الله تعالى .

***

وقدْ وجدتْ للصَّابي أيضًا تقليداً أنشأهُ لفخرِ الدَّولة أبي الحسَنِ بنِ رُكْنِ الدَّولة أبي عليٍّ بن بُوَيه عَنِ الخليفةِ الطَّائع رحمه الله ، وهو مثبَتٌ هاهُنا على صُورته ، وكانَ عُرِضَ عليَّ تقليد كُتِبَ للمَلِكِ الناصر صلاحِ الدين يوسفَ بنِ أيُّوب من الخليفةِ المستَضِيءِ بالله رحمه الله ، في سنةِ إحدى وسَبْعين وخمسْمائة ، فوجدتُ فيه كلامًا نازلا بالمرَّة ، وسألني بعضُ الإخْوان بمدينةِ دِمشْقَ أنْ أعارِضَه ، فعارضتُه بتقليدٍ في معناه ، وهو مثبت هاهنا أيضًا . وكِلاَ التقايدَيْن باسم ملكٍ كبيرٍ ، وفيهما يظهرُ ما يظهرُ من فصاحةٍ وبلاغة .

---

(١) ابن جلا الواضح الأمر ، وفي خطبة الحجاج المشهورة في أهل العراق :

انا ابن جـلا وطلاع الثنايا — متى أضع العمامـة تعرفوني

[تقليد آخر للصابى]

فأما التقليدُ الذى أنشأهُ الصَّابى فهو :

هذا ما عَهِد عبدُ اللهِ عبدُ الكريمِ الطائعُ لِله أميرُ المؤمنين إلى فَخرِ الدَّولة أبى الحسَنِ بن رُكن الدولةِ أبى علىٍّ مولى أميرِ المؤمنين ، حينَ عرَفَ غِناه وَبلاَه ، واستصَحّ دينَه ويَقينه ، ورَعى قديمَه ، وحديثه واستَنْجَبَ عُوده ونِجارَه ، وأثنى عِزُّ الدولةِ أبو منصور بنُ معزِّ الدولة أبى الحُسَيْن مولى أمير المؤمنينَ عليه ، وأشارَ بالمزيدِ فى الصنيعة إليْه ، وأعلمَ أَمِير المؤمنينَ اقتداءَه به فى كل مذهب ذهبَ فيه من الخدمة ، وغرضٍ رَمَى إليه من النَصِيحة ، دخُولا فى زمرةِ الأولياءِ المنصورة ، وخروجًا عن جماعةِ الأعداءِ المَدْحُورة ، وتصرُّفًا على موجباتِ البَيْعَةِ التى هى بعزِّ الدولة أبى منصورٍ مَنُوطَة ، وعلى سائر من يتلُوه ويَتْبَعُه مأخوذة مَشْرُوطة ، فقلّده الصَّلاة وأعمال الحربِ والمعاون والأحداث والخرَاج والأعْشَار والضِّياعَ والجهبذة[1] والصَّدقاتِ والجوالى[2] ، وسائر وُجُوهِ الجبَايَاتِ والعرضِ والعطاء ، والنفقة فى الأولياء والمظالمِ وأسْوَاقِ الرَّقيق والعيارِ فى دُورِ الضَّرب والطرز والحِسْبَةِ بكُورِ همذان ، واستَرَاباذا ، والدِّينورَ ، وتُورِيزَ ، والأمَغارِين ، وأعمال أذرَبيجان ، وأرَّان ، والسحانين ، ومُوقَان[3] ، واثقا منه باستقبال استدامتِها ، والاستزادة بالشكر منها[4] ، والتجنب لغَمْطِها وَجُحُودِها ،

(١) الجهبذة : الخبرة ، والجهبذ هو النقاد الخبير .

(٢) الجوالى : جمع جالية ، وهى جزية أهل الذمة ، وأصلها أن الإمام عمر رضى الله عنه جلى أهل الذمة عن جزيرة العرب ، فسموا جالية ، ثم لزمهم هذا الاسم أين حلوا ، واطلق على الجزية المأخوذة منهم .

(٣) الذى فى المختار ٩٩ « بكور همذان واستراباذ والدينور وقرماسين والأيغارين وأعمال اذربيجان والسحانين وموقان » .

(٤) الذى فى المختار ٦ « واثقاً منه باستبقاء النعمة واستدامتها ، والاستدامة بالشكر منها » .

والتنكب لإيحاشها وتنفيرها ، والتعمد لما يمكن له الحظوة والزلفى ، وحرس عليه الأثرة والقربى ، بما يظهره ويضمره من الوفاء الصحيح ، والولاء الصريح ، والغيب الأمين ، والصدر السليم ، والمقاطعة لكل من قطع العصمة ، وفارق الجملة ، والمواصلة لكل من حمى البيضة ، وأخلص النية ، والسكون تحت ظل أمير المؤمنين وذمته ، مع عز الدولة أبى منصور وفى حوزته . والله جل اسمه يعرف لأمير المؤمنين حسن العقبى فيما أبرم ونقض ، وسداد الرأى فيمن رفع وخفض ، ويجعل عزائمه مقرونه بالسلامة ، محجوبة عن موارد الندامة ، وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل .

أمره بتقوى الله التى هى العصمة المتينة ، والجنة الحصينة ، والطود الأرفع ، والمعاذ الأمنع ، والجانب الأعز ، والملجأ الأحرز ، وأن يستشعرها سرا وجهرا ، ويستعملها قولا وفعلا ، ويتخذها ذخرا ، دافعا لنوائب القدر ، وكهفا حاميا من حوادث الغير ، فإنها أوجب الوسائل ، وأقرب الذرائع ، وأعودها على العبد بمصالحه ، وأدعاها إلى كل مناجحه ، وأولاها بالاستمرار على هدايته ، والنجاة من غوايته ، والسلامة فى دنياه حين توبق موبقاتها ، وتردى مردياتها ، وفى آخرته حين تروع رائعاتها ، وتخيف مخيفاتها .

وأن يتأدب بأدب الله فى التواضع والإخبات والسكينة ، وصدق اللهجة إذا نطق ، وغض الطرف إذا رمق ، وكظم الغيظ إذا أحفظ ، وضبط اللسان إذا أغضب ، وكف اليد عن المآثم ، وصون النفس عن المحارم

وأنْ يذكرَ الموتَ الذى هو نازل به ، والموقفَ الَّذى هو صائرٌ إليه ، ويعلمَ أنّه مسئولٌ عمّا اكتسبَ ، مجزىٌّ عمّا تزمّل واحتقبَ[1] ، ويتزوَّد مِنْ هذا الممرِّ لذلك المقرِّ ، ويستكثر منْ أعمالِ البرِّ لتنفعَه ، ومن مساعِى الخيْر لِتُنْقِذه ، ويأمرَ بالصَّالحاتِ قبلَ أنْ يأمُرَ بها ، ويزْدجِر عن السَّيئاتِ قبل أن يَزْجُرَ عنها ، ويبتدئْ بإصْلاح نفسِه قبل إصْلاح رعيَّته ، فلا يبعثهم على ما يأتِى ضِدّه ، ولا ينهاهُم عما يقترفُ مثْله . ويجعل ربَّهُ رقيباً عليه فى خَلَواتِه ، ومُرُوءته مانعًا له من شَهَواتِه ، فإنَّ أحقَّ من غلب سلطان الشهوة ، وأَولَى من صَرَع لِغذَاء الحْمِيَة منْ ملكَ أزمَّة الأُمور ، واقتدرَ على سياسة الجُمْهُور ، وكان مطاعًا فيما يرَى ، مُتَّبعًا فيما يَشَا ، يَلِى على الناسِ ولا يلُون عليه ، ويقتصُّ مِنهم ، ولا يقتصُّون منه، فإذا اطَّلع الله مِنْه على نَقاءِ جَيْبه ، وطهارةِ ذَيْله ، وصحَّةِ سريرته ، واستقامة سِيرته ، أعانَه على حفظِ ما استحفظَه ، وأنهضَه بِثقْل ما حمَّلَه ، وجعلَ له مخلصًا من الشبهة ، ومخرجًا من الحيْرة ، فقد قالَ الله تعالى : « وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْه مِنْ حَيْثُ لا يحتَسِبْ »[2] . وقالَ عزَّ مِنْ قائل : « يأَيُّها الَّذِينَ آمنوا اتَّقُوا الله حَقَّ تقَاتِه ولا تَمُوتُنَّ إلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمون »[3] وقال : « اتَّقوا الله وكُونُوا مَعَ الصَّادِقينَ »[4] إلى آيٍ كثيرةٍ حضَّنا بها على أكرمِ الخلُقُ ، وأسلمِ الطُّرُق ، فالسَّعيدُ من نَصَبها إزاءَ ناظره ، والشَّقيُّ من نَبذها

---

(١) احتقب : ارتكب .
(١) سورة الطلاق : الآية ٣ .
(٢) سورة آل عمران :الآية ١٠٢
(٣) سورة التوبة : الآية ١١٩

وراءَ ظهره ، وَأَشْقَى منهما من بَعَثَ عليها ، وهو صادف عنها ، وأهابَ إليها ، وهو بعيدٌ منها ، ولهُ ولأمثاله يقولُ اللهُ تعالى جلَّ ذِكْرُه : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُون »[١]

وَأَمَره أَنْ يتَّخذ كتابَ الله إماماً مُتَّبعًا وطَرِيقاً مُتوَقَّما ، ويكثرَ مِنْ تلاوَته إذَا خلا بِذِكْره ، ويملأ بتأميلِه أرجاءَ صدرِه ، فيذهبُ مَعَهُ فيما أباحَ وحَظَر ، ويَقْتدِي به إذا نَهى وَأَمَر ، ويستبينُ بِبَيَانه إذَا استغْلَقَتْ دونَه المُعْضلات ، ويستضيء بمصابيحه ، إذا عظُمَتْ عليه المشكلات ، فإنَّه عروة الإسْلامِ الوُثْقى ، ومحجَّتُه الوُسْطَى ، ودليلُه المُقْنع ، وبُرْهَانُه المُرْشِد ، والكاشِفُ لِظُلَمِ الخَطوب ، والشافِي من مرضِ القُلوب ، والهادِي لمن ضلَّ والمتلافِي لمن زَلَّ ، فَمَنْ نحاهُ فقد فَازَ وَسَلِم ، ومن لَهَا عَنْه فقد خابَ وَنَدِم ، قال الله تعالى : « وإنَّه لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ من بَيْنِ يدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »[٢] .

وأَمَره أن يحافظَ على الصَلواتِ ، ويَدْخُل فيها فى حقائقِ الأَوقات ، قائماً على حُدُودها ، متَّبعاً رُسُومها ، جامعاً فيها بين نِيَّتِه ولَفْظه ، متوقِّما لمطامحِ مَنْهوِه ولحظِهِ ، مُنقَطِعاً إليها عن كُلِّ قاطعٍ لها ، مشغولاً بها عَنْ كُلِّ شَاغِلٍ عنها ، مُتثبِّتا فى ركوعِها وسُجودِها ، مستوفيا عَدد مَفْرُوضها ومَسْنُونها ، موفِّراً عليها ذِهْنه ، صَارِفاً إليها هَمَّه ، عالماً بأنَّه واقفٌ بين يدى خالقِه ورازقِه ،

---

(١) سورة البقرة : الآية ٤٤ .

(٢) سورة فصلت : الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

ومُحْيِيه ومُمِيتِه ، ومُعاقِبِه ومُثِيبه ، لا تُسْتَرَدُّونَهُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور . فإذا قَضَاها على هذه السبيلِ ، مُنْذُ تكبيرة الإحرام إلى خاتمةِ التسليم أتبعها بدعاء يرتفعُ بارتفاعِها ، ويُسْتَمع باستماعِها ، لا يتعدَّى فيه مسائلَ الأبرار ورَغائبَ الأخيار ، من استصفاحٍ واستغفار واستقالةٍ واسترحامٍ واستدعاء لمصالحِ الدينِ و الدُّنيا ، وعَوَائِدِ الآخرةِ والأُولَى ، فقدْ قال الله تعالى : « إنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ على الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً »[1] . وقال تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ »[2]

وأمرُهُ بالسَّعْيِ في أيامِ الجمع إلى المساجِد الجامعة ، وفي الأعيادِ إلى المصلَّياتِ الضَّاحية ، بعد التَّقدم في فَرْشِها وكُسْوَتِها ، وجَمْع القُوَّامِ و المؤذِّنين والمكبِّرين فيها ، واستِدْعاء النَّاسِ إليها ، وحضِّهم عليها ، آخذين الأُهْبَة ، متنظِّفين في البِزَّة ، مؤدِّين لفريضةِ الطَّهارة ، وبَالِغِينَ في ذلكَ أقصى الاستِقْصَاء ، مُعتقدِينَ خشيةَ الله وخِيفَته . مدَّرعين تقواهُ ومراقبَتَه ، مُكثِرِين من دُعائِه عزَّ وجلَّ وسؤالِه ، مصلِّين على مُحمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وَعَلَى آله ، بقلوبٍ على اليقينِ موقُوفة ، وهِمَمٍ إلَى الدِّينِ مَصْرُوفَة ، وألْسُنٍ بالتقديس والتَّسبيحِ فَصِيحة ، وآمالٍ في المغفرةِ والرَّحمةِ فسيحة ، فإنَّ هذه المصلَّيات والمتعبَّدات بيوتُ الله الذى فضَّلها ، ومناسكُه التي شرَّفها ، وفيها يُتْلَى القرآنُ الكريمُ ويتعوَّذُ العائذُون ، ويتعبَّد المتعبدون ، ويتهجّد المتهجّدون . وحقيقٌ على المسلمينَ أجمعينَ مِنْ وَالٍ

---

(١) سورة النساء : الآية ١٠٣ .
(٢) سورة العنكبوت : الآية ٤٥

وَمَوْلًى عليه أنْ يصُونَها ويعْمُرَها، ويُواصِلَها ولا يَهْجُرَها ، وأنْ يُقِيمَ الدَّعوة على منابرها لأَميرِ المؤمنينَ ، ثمَّ لنفسِه على الرَّسم الجارِى فيها ، قال الله تعالى فى هذه الصَّلاة : « يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذَا نُودِى لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا البَيْع (١) » . وقالَ فى عِمارةِ المسَاجِد : « إنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إلاَّ اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِين » (٢) .

وأمَرهُ أن يُراعِىَ أحوالَ مَن يَليهِ من طبقاتِ جُنْد أميرِ المؤمنينَ ومَوَاليه ، ويطلقَ لهم الأرزاقَ ، فى أوقاتِ الوجوبِ والاستِحقاق ، وأن يُحْسِنَ فى مُعاملتهم ويُجْمِلَ فى استِخْدامِهِمْ ، ويتصرَّفَ فى سياستهم بين رفق من غير ضَعْف ، وخُشونةٍ فى غيرِ عُنْف ، مُثِيباً لمُحْسِنهم ما زادَ بالإثابَة فى حُسْن الأثرِ ، وسَلِمَ معها من دواعِى الأَشَر ، ومتغمِّداً لمسيئهمْ ما كانَ التَّغَمُّد له نافعاً ، وفيه ناجعاً ، فإنْ تكرَّرتْ زلَّاتُه ، وتتابعتْ عَثَراتُه ، تناولتْه من عُقُوبته ما يكونُ له مُصلحاً ، ولغيرِه واعظاً وأن يختصَّ أكابرَهم وأَمَاثِلَهم وأهلَ الرأىِ والخطرِ منهم بالمشاوَرَةِ فى المُلِمِّ ، والاطِّلاعِ على بعضِ المُهِمّ ، مُسْتخلصاً مخايِلَ صُدُورهِمْ بالبسْطِ والإدْناء ، ومُستَشْحِذًا بصائرَهمْ بالإكرامِ والاحْتباء ، فإنَّ فى مشاورة هذه الطبقةِ استدلالا على مواقع الصَّواب ، وتحرُّزاً عن غلط الاستبْداد ، وأخذاً بمجامع الحزامة ، وأمناً من مُفارقة الاستقامة . وقد حَضَّ اللهُ على الشورى

---

(١) سورة الجمعة : الآية ٩ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٨ .

حيثُ قال لرسُوله عليه الصلاةَ والسلام « وشاوِرهُمْ في الأمرِ فإذا عَزمْتَ فتوَكلْ على الله »(١)

وأمرَهُ بأن يَصمُدَ بما يتَّصل بنواحيه من ثُغور المسلمين ورِباطِ المُرابطين ، ويَقْسِمَ لها قسمًا وافراً من عِنايته ، ويصرفَ لها طرفًا بل شَطراً من رِعايته ، ويختارَ لها أهلَ الجَلَد والشِّدَةِ ، وذوِى البأسِ والنَّجدة ، ممن عَجَمتْه الخُطوب ، وعركتْه الحُروب ، واكتسبَ دُرْبَةً بِخَدْعِ المُتنَازِلين ، وتَجرِبةً بمكايِدِ المُتقَارِعين ، وأن يَستظهِرَ بكشفِ عَدَدِهِمْ واعتبارِ عُدَدِهِمْ ، وانتخابِ خَيْلِهِمْ ، واستجادةِ أسلحتهمْ غيرَ مُجَمِّرٍ(٢) بعثًا إذا بعَثَه ، ولامُستكرِهَه إذا وجَّهه ، بلْ يُناوبُ بينَ رجاله مُناوبةً تُريحُهم ولا تُمِدُّهم ، وتُرَفِّهُهُمْ ولا تَئُودُهُمْ ، فإنَّ في ذلك من فائدةِ الإجمام ، والعَدْل في الاستِخْدَام زينا ، فليُسَوِّ بينَ رجالِ النوب فيما عادَ عليهم بعزِّ الظَّفر والنَّصر ، وبُعدِ الصِّيت والذِّكر ، وإحرازِ النَّفْع والأجْر ، ما يحقَّ أن يكونَ الولاة به عَاملين ، وللنَّاسِ عليه حَاملين ، وأن يكرِّرَ في أسماعهم ، ويثبِّتَ في قلوبهم مواعيدَ الله تعالَى لمن صَبَرَ ورَابَط ، وسَامَحَ بالنَّفسِ ، من حيثُ لا يقدمُون على تورُّط غرَّه ، ولا يُحْجِمُون عن انتهازِ فُرْصَة ، ولا ينكُصُون عن تورُّد معركة ، ولا يُلقُون بأيدِيهمْ إلى التهْلكَة ، فقدْ أخذَ اللهُ ذلك على خلقِه ، والمرءُ أمينٌ على دينِه

وأنْ يرُيحَ العَمَلَةَ فيما يحتاجُ إليه من راتِب نفقاتِ هذه الثغور وحادثِها ،

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

(٢) التجمير : حبس الجيش في أرض العدو .

وبناء حُصونها ومعاقِلها ، واستطراقِ طُرُقها ومسالكها ، وإفاضةِ الأقوات والمألوفة فِيها للمترتبين بها ، والمتردِّدين إليها ، والحاملين لها .

وأنْ يبذلَ أمانَه لمن طَلبه ، ويَعرِضَه على مَن لم يَطلُبه ، ويَفِي بالعهدِ إذا عاهَد ، وبالعقد إذا عاقَد ، غيرَ مُخفِر ذِمَّة ، ولا جارحٍ أمانَة ، فقدْ أمرَ اللهُ تعالى بالوفاءِ ، فقال عزَّ وجلَّ « يأيُّها الذِينَ آمَنُوا أوْفُوا بِالْعُقُودِ »[1] ونَهى عن النَّكثِ ، فقال عَزَّ مِنْ قائل : « فَمَنْ نكثَ فَإنما ينكثُ عَلَى على نفسِه »[2] .

وأَمَرَه أن يَعرِض مَنْ فى حُبُوس عمله على جرائمهم ، فمن كان إقرارُه واجباً أقرَّه ، ومَن كان إطلاقُه سائغاً أطلقَه ، وأنْ ينظرَ فى الشُّرطَةِ والأحْداثِ نظَر عدْل وإنصاف ، ويختار لَها من يَخافُ اللهَ ويتَّقيه ، ولا يحابِيَ ولا يراقبَ فيه ، ويتقدَّمَ إليهم بِقَمعِ الجهَّال ، ورَدْع الضُّلال ، وتَتَبعُّ الأشرار ، وطلب الزُّعار[3] ، مستدلِّين على أماكنهمْ ، متوغِّلين إلى مَكامِنهم ، متولجِين عليهم فى مظانِّهم ، متوثِّقين ممَّن يجدُونه منهم ، منفِّذِين أحكامَ الله تعالَى فيهم ، بِحَسَبِ الَّذى يَتَبيَّنُ من أمرهم ، ويصِحُّ من فعلهم ، فى كبيرةٍ ارتكبُوها ، وعظيمةٍ احْتَقَبُوها[4] ، ومُهجةٍ إنْ أغاظُوها واستهلكُوها ، وحُرمةٍ إنْ استباحُوها وانتهكوها . فمن استحقَّ حدًّا من حُدُودِ اللهِ المعلومة أقامُوه عليه ، غيرَ

(١) سورة المائدة : ١ الآية .
(٢) سورة الفتح : الآية ١٠ .
(٣) الزعار : ذوو الشراسة وسوء الخلق .
(٤) احتقبوها : ارتكبوها .

محتفين منه ، وأحلّوه به غيرَ مقصّرين عنه ، بعد أن لا يكونَ عليهم فى الّذى يأتونه حجّة ، ولا يعترضُهم فى وجوبه شبْهة ، فإنَّ الواجبَ فى الحدودِ أن تقامَ بالبيِّنات ، وأنْ تُدْرَأَ بالشُّبُهات . فأَوْلَى ما توخاه رُعاةُ الرَّعايا فيها أن لا يُقْدِمُوا عليها مع نُقصان ، ولا يتوقَّفُوا عنها مع قيام الدّليل ، ومن وَجَبَ عليه القتلُ احتاطَ بما يُحتاطُ بِهِ على مثلِهِ من الحبْس الحصين ، والتوثُّق الشديد ، وكتبَ إلى أمير المؤمنين بِخَبره ، وشرح جِنايته وثُبُوتها بإقرارِ يكونُ منه ، أوْ بشهادةٍ تقعُ عليه ، ولينتظرْ من جَوابه ما يكونُ عملُه بِحَسَبه ، فإنَّ أميرَ المؤمنين لا يُطْلِقُ سَفْكَ دم مسلمٍ أو مُعاهَد إلّا ما أحاط به عِلمًا ، وأتْقَنَهُ فَهْمًا ، وكانَ ما يُمْضِيه فيه عن بَصِيرةٍ لا يخالجها شكٌّ ، ولا يشُوبها رَيْب

ومَنْ ألمَّ بصَغيرةٍ من الصغائرِ ، وبسِيرةٍ من الجَرائر من حيثُ لم يُعْرَفْ له مثلُها ، ولم يتقدّمْ له أُختُها ، وعظَه ، وزَجَره ، ونَهاهُ ، وحذَّرَه ، واستَتابه ، وأقالَهُ ، ما لمْ يكنْ عليه خَصْمٌ فى ذلِكَ يطالبُ بقِصاص منه ، وجزاء له ، فإنْ عاد تناوَلَه من التقويمِ والتّهذيبِ ، والتعزيرِ والتأديب ، بما يرَى أن قد كَفَى فيما اجْتَرم ، ووفَى بما قدَّم ، فقدْ قال الله تعالَى : « وَمَنْ يتعدَّ حدودَ الله فأولئكَ همُ الظّالمون[1] » .

وأمرهُ أن يعطّل ما فى أعمالِه من الحاناتِ والمواخيرِ ، وأن يطهِّرَها من القبائحِ والمناكيرِ ، ويمْنَعَ من يجمعُ أهلَ الخَنَا فيها ، ويؤلّفُ شملَهم بها ، فإنَّه شَمْلٌ يصلحُه التشتيتُ ، وجمعٌ يحفَظُه التّفريق ، وما زالتْ هذه المواطنُ الذميمةُ

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٩ .

والمطارحُ الدَّنيَّة داعيةٌ من يأوِى إليها ، ويعكفُ عليها إلى تَرْك الصَّلوات ، وإهمال المُفْتَرَضَاتِ ، وركوبِ المنكراتِ ، واقترافِ المحظورات ، وَهِيَ بيُوتُ الشيطانِ التى فى عِمارتها لله معصيةٌ ، وفى إخْرَابها للخير مجلبة ، والله يقولُ لنا مَعْشَرَ المؤمنين : « كُنتُمْ خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ »[١] ويقولُ عزَّ مِن قائل لغيرِنا من المذمومين « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ سَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا »[٢] .

وَأَمَرَهُ أن يُوَلِّيَ الحمايةَ فى هذه الأعمالِ أهلَ الكفايةِ من الرِّجال ، وأن يضمَّ إليهم كلَّ من خفَّ رِكابُه ، وَأَسرَع عند الصَّريخ ، مرتبًا لهم فى المسَالحِ[٣] ، وَسادًّا بهم ثغر المسالك ، وأن يُوصِيَهم بالتيقُّظ ، ويأخذَهم بالتحفُّظ ، ويُزِيح عِلَلهم فى علوفة خيلهم ، والمقرَّر من أزْوَادِهم وَمِيَرِهم ، حتى لا تنقلَ لهم عن البلادِ وطاءة ، ولا يدعُوهم إلى تحنقّهم وثلمهم حاجة ، وأن يحوطُوا السابلةَ بادئةً وعائدةً ، ويُبَذْرِقُوا[٤] القوافلَ صادرةً وواردة ، ويحرُسُوا الطريقَ ليلا ونهاراً ، ويتقصَّوْها رواحًا وغُدُوًّا ، وينصبُوا لأهل العبثِ الأرْصَاد ، ويتكمَّنوا لهم بكل وَاد ، ويتفرَّقوا عليهم حيثُ يكونُ التفرُّق مضيقًا لِفضائهم ، ومؤدِّيًا إلى انفِضاضِهم ، ويجتمعُوا حيث يكُون الاجتماعُ مطفِئًا

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠ . (٢) سورة مريم : الآية ٥٩ .

(٣) المسالح : الثغور واحدها مسلحة ،والمرقب يكون فيه أرصاد يرقبون العدو لئلا يطرقهم على غفلة .

(٤) يبذرقوا : البذرقة الخفارة ، فارسية معربة معناها والمبذرق الخفير .

لحُرَمِهِم ، وصادِعًا لرؤيتهم ؛ ولا يُخلُوا هذهِ السُّبلَ من حماةٍ لها ، وسيّارةٍ فيها ، يتردّدُون فى جوَادّها ، ويتعسّفُون فى عَوَادِيها ، حتى تسكونَ الدماءُ محقونة ، والأموالُ مَصُونة ، والفتنُ محسُومة ، والغاراتُ مأمونة . ومن حصَل فى أيديهم من لصٍّ خاتلٍ ، وصُعلوكٍ خاربٍ ، ومُخيفٍ لسبيلٍ ، ومُنتهِكٍ لحريمٍ ، امتثلَ فى أمرِه أمرَ أميرِ المؤمنين الموافقِ لقولِ الله عزَّ وجلَّ : « إِنَّمَا جزاءُ الَّذِينَ يُحَارِبونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ويَسْعَونَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أن يُقَتَّلوا أَوْ يُصَلَّبوا أَوْ تقَطعَ أَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ »[1]

وأمرَهُ بوضع الرَّصَدِ على من يجتازُ فى أعمالِه من أُبَّاقِ العبِيد ، والاحتياطِ عليهم ، وعلى ما يكونُ مَعَهُم ، والبحثِ عن الأماكِن التى فارَقُوها ، والطرقِ التى استطرقُوها ، ومواليهم الَّذِين أَبَقُوا[2] مِنْهُمْ ، ونَشَزُوا عنهم ، وأن يردُّوهم عليهِمْ قَهْرًا ، ويعيدُوهُمْ إليهم صغرا ، وأنْ يَنشُدوا الضَّالةَ ما أمكنَ أن تنْشَدَ ، ويحفَظُوها على ربِّها بما جازَ أن تُحفَظ ، ويتجنبُوا الامتطاءَ لِظُهورِها ، والانتفاعَ بأوبارِها ، وألبانِ ما يجزُّ ويُحلَب ، وأن يعرفُوا اللُّقَطَة ، ويتبعُوا أثرَها ، ويُشيعُوا خبرَها ، فإذا حضر صاحبُها ، وعُلِم أنَّه مُستَوجِبُها سُلِّمَتْ إليه ، ولم يُعترَضْ فيها عَلَيْه ، والله عزَّ وجلَّ يقول : « إِنَّ اللهَ يأمُرُكُمْ أن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِها »[3] ويقولِ رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم « ضالَّةُ المؤمنِ حَرَقُ النَّار[4] ».

---

(١) سورة المائدة : الآية ٣٣ .

(٢) فى الأصل « أنفوا » والصواب عن المختار ١٠٨ .

(٣) سورة النساء : الآية ٥٨ .

(٤) قاله النبي صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن ضوال الإبل ، فنهاه عن أخذها ؛ وحذره النار إن تعرض لها .

وأمرَهُ أن يُوصِيَ عمّاله بالشدِّ على يد الحكّام ، وتنفيذِ ما يصدرُ عنهمْ من الأحكام ، وأنْ يحضرُوا مجالسهم حضورَ المُوَقّرين لها ، الذابِّين عنها ، للقيمينَ لرسومِ الهيْبة ، وحدودِ الطّاعةِ فيها ، ومن خرجَ عن ذلك من ذِى عقلٍ ضَعيفٍ ، وحُلْم سَخيف ، نالُوه بما يردَعُه ، وأحلّوا به ما يَزَعُه[1] ، ومتى تقاعسَ مُتقاعِس عن حضورٍ مع خَصْمٍ يَسْتدعيه ، وأمرٍ يوجّبه الحاكمُ إليه فيه[2] ، أو التَوى مُلتوٍ بحقٍّ يحصُل عليه ، ودَيْنٍ يستقرُّ فى ذِمّته ، قادُوه إلى ذلك بأزمّةِ الصَّغار ، وخزائم[3] الاضطرار ، وأنْ يُحْبَسُوا ويُطْلقُوا بأقوالِهم ، ويثبِّتوا الأيدىَ فى الأملاكِ والفرُوج ، وينزعُوا بقضاياهم ، فإنّهم أمناء الله فى فصلِ ما يَقْضَون ، وبتِّ ما يبتّون[4] ، وعن كتابه وسُنّة نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم يوردون ويُصْدِرُون . وقد قال الله عزَّ وجلَّ : « يا داوُدُ إنَّا جَعلْناكَ خَلِيفَةً فى الأرضِ فاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بالحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ الله إنَّ الذينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله لهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يوْمَ الحِسَاب[5] » .

وأن يتوخَّى بمثل هذه المعاملةِ عمّالَ الخَراج فى استيفاء حُقُوقِ ما استَعمِلُوا عليه ، واستِنْظَافِ بقاياهم فيه ، والرِّيَاضَةِ لمن تسُوء طاعتُه من معامليهم ، وإحضارهم طائِعينَ أو كارِهينَ بين أيديهم ، فمِنْ آدابِ الله تعالى للعبدِ الذى يحقُّ عليه أن يتّخذَها ، ويجعلها للرِّضا عنه سبباً قولُه تعالى : « وتَعَاوَنُوا

(١) فى الأصل « ما ينزعه » .

(٢) فى الأصل « بأمر يوجبه الحكم إليه » .

(٣) فى الأصل « وحزائم » بالحاء المهملة وهو تصحيف ، والخزائم جمع خزامة ، وأصل الخزامة حلقة من شعر تجعل فى وترة أنف البعير يشدبها الزمام .

(٤) فى المختار « ما يفصلون » .

(٥) سورة (ص) : الآية ٢٦ .

عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ[1] » .

وأمرَه أن يجلسَ للرعيّة جلوساً عامًّا ، وينظرَ فى مظالِمها نظراً تامًّا ، يساوى فى الحقِّ بين خاصِّها وعامِّها ، ويوازى فى المجالِس بين عَزيزها وذليلِها ، ويُنصفَ المظلومَ من ظالِمه ، والمغصوبَ من غاصبِه ، بعد الفحصِ والتأمُّل ، والبحثِ والتبيُّن ، حتّى لا يحكمَ إلاّ بعدلٍ ، ولا ينطقَ إلا بفصْلٍ ، ولا يُثَبِّتَ يداً إلاّ فيما وجبَ تثبيتُها فيه ، ولا يقبِضهَا إلاّ عمَّا وجبَ قبضُها عنه ، وأنْ يُسَهِّلَ الإذْنَ لجماعتهمْ ، ويرْفعَ الحجابَ بينَه وبينَهمْ ، ويُولِيهمْ من حصانةِ الكَنَفَ ، ولِينِ المُنْعطَف ، والاشْتِمال والعناية ، والصَّونِ والرِّعاية ، ما تتعادلُ به أقسامُهم ، وتتوازَى منه أقساطُهُمْ ، وَلا يَصِل الركينُ منهم إلى استضامَةِ ما تأخّر عنه ، وَلا ذَو السُّلطان إلى هَضيمةِ من حَلَّ دونَه ، وَأنْ يدعُوَهُم إلى أحسنِ العاداتِ والخلائق ، ويحضَّهم على أحمدِ المذاهبِ والطَّرائق ، ويَحْمِلَ عنهم كَلّه ، ويمدّ عليهمْ ظلَّه ، ولا يَسُومَهمْ عَسْفاً ، ولا يُلحقَ بهم حَيْفاً ، ولا يكلِّفهم شَطَطاً ، ولا يَجشِّمهمْ مُضْلِعًا ، ولا يَثْلِمَ لهمْ معيشة ، ولا يُدَاخِلَهم فى جريمة[2] ، ولا يأخذَ بَريئاً بسقيم ، ولا حاضِرًا بِعديم[3] ، فإنَّ اللهَ عزَّوجلَّ يَنْهى أنْ تَزِرَ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ، ويرفَعَ عن هذهِ الرعيَّة ما عسى أن يكونَ سُنَّ عليها من سُنَّةٍ ظالمة ، وسُلِكَ بها من مَحَجَةٍ جائرة ، ويَستَقْرِىَ آثارَ الوُلاةِ قبلَه عليها ، فيما رجوهُ من خيرٍ أو شرٍّ إليها ، فيقرّ من ذلك ما طابَ وحَسُن ،

---

(١) سورة المائدة : الآية ٢ .

(٢) رواية المختار « ولا يداخلهم فى حرفة » .

(٣) رواية المختار « ولا حاضراً بغائب » .

ويُزيل ما خبث وقُبح ، فإنَّ مَنْ غَرسَ الخيرَ يحظى بمعسُول ثمره ، ومن زرَع الشرَّ يصلَى بمَمْرُور رَيْعِه ، والله تعالى يَقُول : « والْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخرُجُ نَبَاتُه بإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَـكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْـكُرُونَ »[١]

وأمَرَهُ بأنْ يصُونَ مالَ الخَرَاجِ ، وأثمانَ الغلاّت ، ووجوهَ الجبايَاتِ موفّراً ، ويَزِيدُ ذلكَ مُثمَّرًا بما يستعملُه من الإنْصافِ لأهلِها ، وإجْرائهمْ على صحيح الرُّسُومِ فيها . فإنَّه مالُ الله الذي به قُوَّةُ عبادِه ، وحمايةُ بلادِه ، ودُرُورُ حَلَبِه ، واتِّصالُ مَدَدِه ، وبهِ يُحاطُ الحريم ، ويُدْفَعُ العَظِيم ، ويُحْمَى الذّمار ، ويُذَادُ الأشْرار . وأن يجعلَ افتتاحه إيَّاهُ بحسبِ إدْرَاكِ أَصْنافه ، وعندَ حضُور مَوَاقِيتِه وأحْيانه ، غيرَ متسلِّفٍ شيئاً قبلَها ، ولا مؤخِّراً لها عنْها . وأنْ يخصَّ أهلَ الطاعةِ والسّلامةِ بالتّرفيهِ لهم ، وأهلَ الاستصْعابِ والامْتناع بالتّشديد عليهم ، لئلا يقعَ إرهاقٌ لِمُذْعِنٍ ، أوْ إهمالٌ لطامِـعٍ . وعلى المتولِّى لذلكَ أن يضَع كُلاًّ من الأمْرَيْن موضعَه ، ويُوقِعَه مَوْقعَه ، متجنِّبا إخْلالَ الغلظةِ فيمن لا يسـتحقُّها ، وإعطاءَ الفُسْحة مَنْ ليسَ أهلها ، والله تعالَى يقولُ : « وأنْ لَيْسَ لِلإنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى[٢] » .

وأمَرَهُ أنْ يتخيَّر عُمَّاله على الخَرَاجِ والأعشارِ وَالضِّياع وَالجَهْبَذةِ وَالصَّدقَاتِ وَالْجَوالى من أهل الظَّلَف[٣] والنزاهة ، وَالضّبط

(١) سورة الأعراف : الآية ٥٨ .
(٢) سورة النجم : الآيات ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .
(٣) الظلف : منع النفس وكفها عما لا يحسن .

والصيانة ، والجزالة والشهامة ، وأنْ يَسْتَظْهر مع ذلكَ عليهمْ بوصيَّة تعيها أسماعهم ، وعُهُودٍ يقلدُهَا أعناقَهم ، بأن لا يضيعُوا حقًّا ، ولا يأكلوا سُحْتا ، ولا يستعملوا ظُلْما ، ولا يُقارِفُوا غَشْماً[1] ، وأَنْ يُقِيموا العمارات ، ويحتاطُوا [على الغلات][2] ويتحرَّزوا من إتواء[3] حق لازم ، أو تعطيل رَسْم عادل ، مؤدِّين فى جميع ذلك الأمانة ، مجتنبين للخيانة ، وأنْ يأخذُوا جهابذَتهمْ باستيفاء وزن المال على تمامه ، واستجادة نقده على عياره ، واستعمال الصحَّة فى قبض ما يقبضُون ، وإطلاق ما يُطلقون ، وأن يُوعِزُوا إلى سُعاة الصدقات فى أخْذِ الفرائض من سائمة مواشِى المسلمين ، دون عاملَتها ، وكذلك الواجب فيها ، وأن لا يجمعُوا فيها متفرِّقاً ، ولا يفرِّقوا مجتمعًا ، ولا يُدْخِلوا فيها خارجا عنها ، ولا يضيفُوا إليها ما ليسَ منها من فحل إبلٍ ، وأكولة راعٍ ، أو عقيلة مال ، فإذا اجْتَبَوْها على حقِّها ، واستوفوْها على رسمها ، أخرجُوها فى سبيلها ، وقسَّموها على أهلِها الذين ذكرهم الله عزَّ وجلَّ فى كتابه العزيز إلّا المؤلَّفة قلوبُهم الذين ذكرَهُم الله عزَّ وجلَّ فى كتابه الكريم ، وسقط سَهْمُهُم[4] ، فإنَّ الله تعالى يقول: « إنّما الصَّدَقاتُ للفُقَراء والمساكين وَالْعامِلِينَ عَلَيْها والمؤلَّفَة قُلُوبُهُمْ وفى الرِّقابِ وَالغارِمِينَ وَفِى سَبيلِ الله وابْنِ السَّبيل فَرِيضةً من اللهِ واللهُ عليمٌ حَكيمٌ »[5]

وإلى جُبَاة أهل الذِّمَّة أن يأخذُوا منهم الجزيةَ فى المُحَرَّم من كلِّ سنة بِحَسَب منازلهم فى الأحوال ، وذات أيديهم فى الأموال ، وعلى الطَّبقات

---

(١) الغشم : الظلم . (٢) زيادة عن المختار . (٣) الإتواء : الإهلاك .

(٤) المؤلفة قلوبهم قوم من سادات العرب أمر الله نبيه فى أول الإسلام بتألفهم أى بمقاربتهم وإعطائهم ليرغبوا من وراءهم فى الإسلام ، فلا تحملهم الحمية مع ضعف نياتهم أن يكونوا ألبا مع الكفار على المسلمين ، فلما دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وظهر أهل دين الله على جميع أهل الملل سقط سهمهم ، كما فى نص هذا العهد .

(٥) سورة التوبة : الآية ٦٠ .

المطبَّقة فيها ، والحدودِ المعْهودة لها ، وَأن لا يأخذُوها من النّساء ، ولا ممّنْ لم يبلغِ الُحلُمُ من الرِّجال ، ولا من ذِى سِنٍّ عالية ، ولا ذى عِلّة بادية ، ولا فقيرٍ مُعْدِمٍ ، ولا مترهِّب مُتَبَتِّل

وَأنْ يُرَاعى جماعةَ هؤلاء العُمَّال مراعاةً يُسِرُّها ويُظْهِرُها ، وَيلاحظهم ملاحظةً يُخفيها وَيُبْديها ، لئلّا يَزُولُوا عن الحقِّ الواجب ، أو يَعْدلُوا عن السَّنَن اللّاحِب [١]، فقد قال الله تعالى : « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولا » [٢] .

وَأمره بأنْ يَندبَ لِعَرْض الرجال وَإعطائِهم ، وَحفظِ جرَاياتهم وأوقات إطعامهم مَنْ يعرفُه بالثقة فى مُتَصَرَّفه ، وَالأمانةِ فيما يَجْرِى على يده ، وَالبُعْد عن الإسفاف إلى الدَّنيَّة ، والاتِّباع للدناءة ، وَأنْ يَبْعَثَه على ضبط الرِّجال ، وَشِيَاتِ الخيْل ، وَتحْديد العَرْض بعد الاستحْقاقِ ، وإيقاع الاحتياطِ فى الإنفاق ، فمنْ صحَّ عرضُهم ، وَلم يَبْق فى نفسِه شىء منهم من شكٍّ يعرِضُ له ، أوريبةٍ يتوهَّمها ، أطلَقَ أموالهم موفورة ، وحصَّلها فى أيْديهم غيرَ مثلومة ، وأن يرُدَّ على بيت المال أرزاق من سقط بالوفاة والإخلال ، ناسبًا ذلك إلى جهته ، مُورداً له حقيقته ، وأن يطالبَ الرِّجال بإحضار الخيل المختارة ، والآلاتِ المستكملة ، على ما توجبه مبالغ أرزاقهم وبحسب منازلهم ومراتبهم ، فإنْ أخَّر أحدُهم شيئاً من ذلك ، قاصَّه به من رزقه ، وألْزمه مِثْلَ قيمته ، فإنَّ المقصر فيه خائنٌ لأمير المؤمنين ، ومخالفٌ لربِّ

(١) السَّنن اللاحب . الطريق الواضح .
(٢) سورة الإسراء : الآية ٣٤

العالمين ، إذ يقولُ سُبْحانَه : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ »[1] .

وأمرهُ أنْ يعتمدَ فى أسواقِ الرَّقيق ودُور الضَّربِ والطرز والحِسبة على من تجتمعُ فيه آلاتُ هذه الولاياتِ من ثقةٍ ودرايةٍ ، وعلمٍ وكتابة ، ومعرفةٍ ورواية ، وتجربةٍ وحُنْكَة ، وحَصَانةٍ ومُسْكَة ، فإنَّها أحوالٌ تضارعُ الحِكَمَ وتناسبُه ، وتدانيهِ وتقاربُه . وأنْ يتقدَّمَ إلى وُلاةِ أسواقِ الرَّقيقِ بالتحفُّظِ فيمنْ يُطلِقُون بيْعَه ، ويُمضُون أمرَه ، والتحرُّزِ من وُقوعِ تخوُّنٍ فيه ، أوْ إهمالٍ له ، إذْ كان ذلك عائدًا بتحصينِ الفُرُوج ، وتطهيرِ الأنساب ، وأنْ يُبعِدُوا عنه أهلَ الرِّيبة ، ويقرِّبوا أهل العفَّة ، ولا يُمضُوا بيعًا على شُبْهة ، ولا عَقْدًا على تُهَمَة .

وإلى وُلاة العيار بتخليصِ عَيْنِ الدِّرهم والدِّينار ، ليكونا مضروبَيْن على البراءةِ من الغش ، والنَّزاهةِ من المَشِّ[2] وبحسب الإمام المقدَّر بمدينةِ السَّلام ، وحِراسةِ السكك من أنْ تتداولَها الأيدى المدغلة[3] ، وتتناقلَها الجهاتُ الظنينة[4] ، وإثبات اسم أمير المؤمنين على ما يُضرَبُ ذهبًا وفضةً ، وإجراء ذلك على الرَّسم والسُّنَّة

وإلى وُلاةِ الطّرز[5] أن يُجرُوا الاستعمالَ فى جميع المناسجِ على أتمِّ النِّيقَة[6]

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٠   (٢) المش : هو أخذ المال شيئاً بعد شىء .

(٣) المدغلة : من الدغل وهو الفساد ، وفى الأصل « المزغلة » بالزاى .

(٤) الظنينة المتهمة ، وفى الأصل « المبينة » .

(٥) الطرز : الموضع الذى تنسج فيه الثياب الجيدة ، والنمط ، وثوب ينسج للسلطان .

(٦) النيقة : التجويد والمبالغة .

وأسلم الطريقة، وأحكم الصَّنعة، وأثبت[1] الصِّحَّة، وأنْ يكتبُوا اسْمَ أمير المؤمنينَ على طرزِ الكُسَا والفُرُشُ والأعْلام والبُنُودِ .

وَإلى وُلاةِ الحِسْبَة بتصفُّح أحوالِ العوامِّ فى حِرَفِهمْ وَمتاجرهمْ، وَمجتمع أسواقِهم وَمعاملاتهم، وَأن يعايرُوا المَوَازينَ وَالمكَايِيلَ وَيفرزُوها على التَّعديل وَالتَّكميل، وَمن اطّلعوا منه على حيلةٍ أو تلبيسٍ، أوْ غيلة أو تدْليس، أوْ بَخْسٍ ما يوفيه، وَاسْتِفْضَال فيما يستَوْفيه، نالُوه بغليظِ العقوبة وَعظمها، وَخَصُّوه بِوَجيعها وَأليمها، وَاقِفينَ فى ذلك عند الحدِّ الذى يَرَوْنهُ لذنْبه، مُجَازيًا، وَفى تأديبه كافيًا، فقد قال الله تعالى: « وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ »[2] .

هذا عهدُ أميرِ المؤمنين إليك، وَحجَّتُهُ عليك، وَقدْ وَقفَكَ على سَواء السَّبيل، وَأرْشدكَ إلى وَاضِح الدليل، وَأوْسَعَك تعليماً وَتفهيمًا، وَلَمْ يَأْلُكَ جُهْدًا فيما عصَمكَ، وَعصَمَ على يدِك، ولم يدخِرْك مُمْكِنًا فيما أصْلَح بِكَ وَأصْلحك، وَلا تركَ لك عُذْرًا فى غَلط تَغْلطه، وَلا طريقًا إلى تورُّطٍ تتورَّطه، بالقائك فى الأوَامِر وَالزَّوَاجر إلى حيثُ يلزم الأئمــة أن يندبوا الناسَ إليه، ويحثُّوهم عليه، مقيما لك على مُنْجيات المسالك، صارفا لك عن مُرْدِيات المهالك، مريداً فيكَ ما يُسَلِّمُك فى دينك وَدنياك، ويعود بالحظِّ عليكَ فى آخرتك وأولاك، فإنَّ اعتدلْتَ وَعدَلْت فقدْ فُزْت وَغنمت، وإنْ تحانفْتَ وأعْوَججْتَ فقدْ

---

(١) فى الأصل « وأفضل » والصواب عن المختار ١١٢ .
(٢) سورة المطففين : الآيات ١ و ٢ و ٣ .

فسدت وندمت ، وَالأوْلَى بِك عندَ أمير المؤمنين من مَغرِسك الزّاكى ، وَمَنْبَتِك النَّامى ، وَعُودِك الأنجب ، وعُنصُرك الأطْيَب ، أن تـكونَ لظنّه محقّقًا ، وَلمخيِّلته فيك مُصَدِّقًا ، وَأَنْ تستزيده بالاثر الجميل قربًا وثوابًا يوم الدِّين وَزُلْفى عند أمير المؤمنين ، وثناءً حسنًا من المسلمين .

فَخُذْ ما نَبَذَ إليك أميرُ المؤمنينَ من معاذيره ، وَأمْسِكْ بيدِكَ على ما أُعْطى من مواثيقه ، واجعلْ عهدَه مثالاً تحتذيه ، وإمَامًا تقتَضيه ، واستعِنْ بالله يُعِنْك ، وَاستهْدِهِ يَهْدِكَ ، وَأَخْلِص إليه فى طاعتِه يُخْلِص لك الحظّ فى مَئُونتك وَمهما أَشْـكل عليك من خَطْب ، أو أعضَلَ عليك من صَعْب ، أوْ بهَرَكَ من باهر ، أو بهظَكَ من باهِظ ، فاكتبْ إلى أميرِ المؤمنين [به] مُنْهِيًا ، وكن إلى ما يَرِدُ من جوابه متطلعًا إن شاء الله تعالى ، وَالسَّلام عليكَ وَرحمةُ الله وَبركاتُه

[التقليد بأسلوب ابن الأثير]

وَأما التقليدُ الَّذى أنشأتُه أنا فهو هذا :

« أمَّا بعدُ ، فإنّ أمير المؤمنين يبدأُ بحمدِ اللهِ الّذى يكونُ لِـكُلِّ خُطْبَةٍ قِيَادا ، ولـكلِّ أمرٍ مِهادًا ، ويستزيدُه من نِعَمِه التى جَعَلت التقوى له زَادًا ، وحمَّلته عِبْءَ الخلافة ، فلم يَضْعُفْ عنه طَوْقًا ، ولم يألُ فيه اجتهاداً ، وصغّرتْ لديه أمر الدنيا فما تسوَّرت له مِحْرابا ، ولا عرَضَتْ عليه جيادًا ، وحقَّقتْ فيه قولَ الله تعالى : « تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُون عُلُوًّا

فى الأرضِ ولاَ فسادًا[1] » . ثم يصلّى على مَنْ أنزلت الملائكةُ لنصره إمدادًا وأسرِى به إلى السماء حتى ارتقى سبعًا شِدادًا ، وتجلّى له ربُّه فلم يُزِغْ منه بصرًا ولا أكْذبَ فؤادًا . ثم بِمنْ بعده على أسْرته الطاهرةِ التى زكت أوراقًا وأعواداً ، وورِثت النُّور المبين تِلادًا ، ووُصفتْ بأنَّها أحَدُ الثَّقَلين هداية وإرشاداً ، وخصوصاً عمّه العباس المدعُوّ له بأن يحفظ نفسًا وأولادا ، وأن تَبقى كلمةَ الخلافةِ فيهمْ خالدةً لا تخاف دَرَكا ولا تخْشى نفَادا . وإذا استوفى القلمُ مدادَه من هذه الحَمْدَلَة ، وأسندَ القولَ فيها عن فصاحته المُرسَلَة ، فإنَّه يأخذ فى إنشاء هذا التقليدِ الذى جعله حليفًا لقرطاسِه ، واستدامَ سجودهُ على صفحته حتَّى لم يكد يرفعُ من رَاسِه . وليسَ ذلك إلا لإفاضَتِه فى وصفِ المناقبِ التى كثرتْ ، فحَسُنَ لها مقامَ الإكثارِ ، واشتبه التطويلُ فيها بالاختصار وهى التى لا يَفتقرُ واصِفُها إلى القولِ المُعاد . ولا يستوْعر سلوك أطوادِه ومن العجبِ وجُود السَّهل فى سُلوكِ الأطواد . وتلك مناقبك أيها الملكُ الناصرُ الأجلُّ السيد الكبيرُ العالِمُ العادلُ المجاهدُ المرابطُ صلاحُ الدين أبو المظفر يوسفُ بنُ أيوب ، والديوانُ العزيزُ يتلوها عليك تحدثًا بشكرك ، ويُباهِى بك أولياءَه تنويهاً بذكرِك ، ويقولُ أنت الذى نستكفى فتكونُ للدولة سهمها الصَّائب ، وشهابها الثَّاقب ، وكنزَها الذى تذهبُ الكنوزُ وليس بذاهب ، وما ضرَّها وقد حضرتَ فى نصرتِها إذا كان غيرُك هو الغائب ، فاشكر إذاً مساعيك التى أهَّلتكَ لما أهَّلتك ، وفضَّلتك على الأولياء بما فضَّلتك ، ولئن

---

(١) سورة القصص : الآية ٨٣ .

شوركت في الولاء بعقيدة الإضمار ، فلم تُشارَكْ في عزمك الذي انتصرَ للدولة فكانَ له بَسْطةُ الانتصار ، وفرقٌ بين مَنْ أمدَّ بقلبه وبينَ من أمَدّ بيدِه في درجاتِ الإمداد ، وما جعلَ الله القاعِدينَ كالّذين قالوا : لَوْ أمرتنا لَضَرَبْنَا أكبادَهَا إلى بَرْكِ الغِمادِ[1] .

وقد كفاكَ من المساعي أنكَ كَفَيتَ الخلافةَ أمرَ مُنَازِعيها ، وطمَسْتَ على الدّعوةِ الكاذبةِ التي كانتْ تدّعيها ، ولقد مَضَى عَلَيها زَمَنٌ ومِحْرَابُ حقها محفوفٌ من الباطِل بمحرابين ، ورأتْ ما رآهُ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم من السّوارين اللذَيْن أولهما كذابين ، فبمصر منهما واحدٌ تاهَ بمجرى أنهارِها من تحتِه ، ودعا الناسَ إلى عبادة طاغُوته وجبته ، ولعبَ بالدّين حتى لَمْ يَدْر يومَ جُمعته من يومِ أحَدِه ولا يَوْم سَبْتِه ، وأعانَه على ذلك قومٌ رَمَى الله بَصائِرَهُمْ بالعَمَى والصَّمَمِ ، واتَّخَذُوه صَنَمًا بينهم ، ولم تكن الضلالةُ هناكَ إلا بِعِجْلٍ أو صَنَم ، فقُمتَ أنتَ في وجهِ باطلِه ، حتّى قعد ، وجعلْتَ في جيده حَبْلاً من مَسَدٍ ، وقلتَ ليده تَبَّتْ ، فأصبحَ وهو لا يسعَى بقدم ولا يبطش بيد ، وكذلِكَ فعلْت بالآخرِ الذي نَجَمَتْ بِاليَمنِ ناجمتُه ، وسامَتْ فيه سَائمَتَه ، فوضع بَنِيَّةً موضعَ الكعبةِ اليمانية ، وقالَ هذا ذُوالخلصة الثّانية[2] ، فأيُّ مقاميك يعترفُ الإسلامُ بِسَبقِه ، أم أيُّهما يقومُ بأداء حقه ؟

وهاهنا فليصبحِ القلمُ للسَّيف من الحسَّاد ، وليقصُرْ مكانتَه عَنْ مكانته

---

(١) قال صاحب القاموس : وبرك الغماد بالكسر ويفتح موضع باليمن ، أو وراء مكة بخمس ليال ، أو أقصى معمور الأرض .

(٢) ذو الخلصة محركة بفتحتين وبضمتين بيت كان يدعى الكعبة اليمانية لخثعم كان فيه صنم اسمه الخلصة .

وقد كانَ له من الأنداد ، ولمْ يَحظ بهذهِ المزِّيةِ إلا لأنَّه أصبحَ لكَ صاحبًا ، وفخرَ بكَ حتى طال فخراً عمَّا عزَّ جانباً ، وقضى بولايتِك فكانَ بها قاضيا ، لمَّا كانَ جدُّهُ قاضبًا .

وقد قلَّدكَ أميرُ المؤمنين البِلَادَ المصريَّة واليَمَنيَّةَ غَوْرًا ونَجْدًا ، وما اشتملتْ عليه رعيَّةً وجُنْدًا ، وما انتهتْ إليه أطرافها برًّا وبحرًا ، وما يُسْتَنْقَذُ من مجاورِيها مسالمةً وقَهرًا ، وأضافَ إليها بلادَ الشَّام ، وما تحتوِى عليه من المُدن الممدَّنة ، والمراكز المحصَّنة ، مستثنياً منها ما هو بيدِ نورِ الدِّين إسماعيلَ بن نور الدِّين محمودِ رحمه الله ، وهو « حَلَب » وأعمالُها ، فقد مضَى أَبوه عن آثارٍ فى الإسلام ترفعُ ذِكْرَهُ فى الذاكرين ، وتخلفه فى عقبهِ فى الغابرين ، وولدُه هذا قد هَذَّبَتْه الفِطْرة فى القولِ والعملِ ، وليست هذه الرَّبْوَةُ إلاَّ من ذلك الْجَبَل . فليكنْ لهُ مِنْكَ جارٌ يدنو منه وِدَادًا كما دنا أَرْضاً ، ويصبحُ وهو له كالبُنْيانِ يشدُّ بعضُه بَعْضًا .

والَّذى قدَّمناه من الثناء عَلَيْكَ ربمَّا تجاوَزَ بكَ درجَة الاقتصادِ ، والفتك عن فضيلة الازدياد ، فإيَّاكَ أنْ تنظرَ سَعْيَكَ بالإعجَاب ، وتقول هذهِ بلادٌ أنا فتحتها بعد أن أَضرَبَ عنها كثيرٌ من الأَضْرَاب ، ولكن اعْلَمْ أن الأرضَ لله ولرسولِه ، ثم لخليفته من بعدِه ، ولا منَّةَ للعبدِ بإسلامه ، بل المنَّةُ لله بهدايةِ عبده ، وكَمْ سَلَفَ مِنْ قَبلكَ من لَوْ رام ما رُمْتَه لدنا شَاسِعُه ، وأجابَ مانِعُه ، لكنْ ذخره الله لك لتحظَى فى الآخرةِ بمفازِه ، وفى الدُّنيا برقم طِرَازِه ،

فألقِ بيدكَ عند هذا القولِ إلقاء التَّسليم ، وقُلْ : لا علمَ لنا إلَّا ما علمتنا إنَّك أنْتَ العليمُ الحكيم .

وقدْ قرَنَ تقليدَكَ هذا بِخِلْعةٍ تكونُ لك فى الاسم شِعارًا ، وفى الوَسْم فَخارًا ، وتناسِبُ محلَّ قلبِك وبصرِك ، وخيرُ ملابِس الأولياء ما ناسبَ قلوبًا وأبصارًا ، ومن جُملتها طَوْقٌ يوضَعُ فى عنقك موضعَ العهدِ والمِيثاقِ ، ويُشِيرُ إليكَ بأنَّ الإنعامَ قد أطافَ بكَ إطاقةَ الأطواقِ بالأعناقِ ، ثم إنَّكَ خوطِبْتَ بالمُلْك ، وذلِكَ خطابٌ يقضى لصدرِك بالانشراح ، ولأَمَلِك بالانفساح ، وتُؤْمَرُ معه بمدِّيدك إلى العليا لا بضمِّها إلى الجناح .

وهذه الثلاثةُ المشارُ إليها هى التى تكملُ بها أقسام السِّيادة ، وهى التى لامزِيدَ عليها فى الإحسانِ ، فيقال إنَّها الحُسني وزيادة ، فإذا صارتْ إليك فانصبْ لها يوماً يكونُ فى الأيام كريمَ الأنساب ، واجعلْه لها عيدًا ، وقلْ هـذا عيدُ الخِلْعةِ والتقليدِ والخطابِ .

هذا ولكَ عند أميرِ المؤمنينَ مكانةٌ تَجْعلُك لديه حاضرًا وأنت ناء عن الحضور ، وتَضِنُّ أن تكونَ مشتركةً بينك وبين غيرِك ، والضِّنَّةُ من شِيَم الغَيُور . وهذه المكانةَ قد عرَّفتْك نفسَها وما كنتَ تعرفُها ، وما نَقُول إلَّا أنَّها لك صاحبة وأنْتَ يوسُفُها ، فاحرِسْها عليكَ حراسةً تَقْضى بتقديمها ، واعملْ لها فإنَّ الأعمال بخواتيمِها .

واعلمْ أنك قد تقلَّدتَ أمرًا تعين به نُهَى الحلوم ، ولا ينفكُّ صاحبُه عن عُهْدَةِ اللُّوم ، وكثيرًا ما يرَى حسناتِه يوم القيامةِ وهى مقتسمةٌ بأيدى

الخصوم ، ولا ينجُو من ذلك إلاّ من أخذَ أُهْبَةَ الحِذَار ، وأشفَقَ من شهادةِ الأسماع والأبصار ، وعلم أنَّ الولايةَ ميزانٌ إحدى كفَّتيه في الجنةِ والأخرى في النَّار قال النبيُّ صلّى الله عليه وسلَّم : « يا أبا ذرٍّ ، إنى أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي ، لا تأمرنَّ على اثنين ، ولا تولَّين مالَ يتيم » فانظرْ إلى هذا القول النبويِّ نظَرَ من لم يُخدعْ بحديث الحرْص والآمال ، ومثِّل الدُّنيا وقد سيقَتْ إليك بِحَذَافيرها ، أليس مصيرُها إلى الزوال ؟ والسعيدُ إذا جاءتْه قضَى بها أرَبَ الأرْواح لا أرَبَ الجُسوم ، واتَّخذ منها — وهى السُّمُّ — دواءً ، وقد تُتَّخذ الأدويةُ من السُّموم . وما الاغتباط بما يختلِفُ على تلاشيه المساءُ والصَّباح ، وهو كماءٍ أنزلناهُ من السَّماء ، فاختلَط بهِ نباتُ الأرضِ ، فأصبحَ هشيماً تذرُوه الرياح .

واللهُ يعصِمُ أميرَ المؤمنين وولاةَ أمرهِ من تبَاعاتِها التى لابَسَتْهم ولابَسُوها ، وأحصَاها اللهُ عليهمْ ونَسُوها ، ولك أنتَ من هذا الدُّعاءِ حظٌّ على قدر محلِّك من العنايةِ التى جذبت بِضَبْعِك[1] ، ومحلِّك من الولايةِ التى بسطتْ من ذِرَاعك . فخُذْ هذا الأمرَ الذى تقلَّدتَه أخْذَ من لم يتعقَّبْه بالنِّسيان ، وكُنْ فى رعايته مِمَّن إذا نامتْ عيناهُ كان قلبه يَقْظانَ .

ومِلاَكُ ذلك كلِّه فى إسْباغ العدْل الذى جعله اللهُ ثالثَ الحديثِ والكتابِ ، وأغنَى بثوابِه وحدَه عن أعمالِ النوّاب ، وقدَّرَ يوماً منه بعبادةِ ستِّين عامًا فى الحساب ، ولم يأمرْ به آمرٌ إلاّ زِيدَ قُوَّةً فى أمرِه ، وتحصَّنَ به من عدُوِّه ومن دهرِه ، ثم يُجاءُ بِهِ يوم القيامةِ وفى يديه كتاباً أمان ، ويجلسُ على مِنبرٍ

---

(١) الضبع العضد كلها ، وأوسطها بلحمها ، أو ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاه .

من نور عن يمين الرحمن . ومع هذا فإنّ مركبه صعبٌ لا يستوى على ظهرِه إلاّ مَنْ أمسك عِنَانَ نفسِه قبل إمساكِ عنانِه ، وغلبت لمّةُ ملَكه على لمّةِ شيطانِه ، ومن أوْكد فُرُوضِه أن يَمْحِيَ السُّنَنَ السيئةَ التى طالتْ مُدد أيَّامها ، وَيَئِسَ الرَّعايا من رفع ظلاماتها ، فلمْ يجعلُوا أمدًا لانحسارِ ظلامِها . وتلك السُّنن هى المكوسُ التى أنشأتها الهممُ الحقيرة ، ولا غِنَى للأيدى الغنيّةِ إذا كانتْ ذاتَ نفوسٍ فقيرة . وكلمَّا زيدت الأموالُ الحاصلةَ منها قدرًا زادها اللهُ مَحقًا ، وقد استمرَّتْ عليها العوائدَ حتى ألحقَها الظالمونَ بالحُقوقِ الواجبةِ ، فسَّموْها حَقًّا ، ولولا أنَّ صاحبَها أعظمُ الناس جُرْما لما أغلظ فى عقابه ، ومُثِّلَتْ توبة المَرْأةِ الغامديَّةِ بمتابِهِ ، وهلْ أشقَى مَّمن يكون السوادُ الأعظم له خَصْما ويُصْبِحُ وهو مطالَبٌ بهم بما يعلَم ، وبما لمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمًا ؟ وأنت مأمورٌ بأن تأتى هذه الظلاماتِ فَتَمْحِيَ على إبطالها ، وتُلْحِقَ أسماءها فى المحو بأفعالها ، حتى لا يبْقَى لها فى العيانِ صُوَرٌ منظورة ، ولا فى الألسنةِ أحاديثُ مذكورة . فإذا فعلْتَ ذلك كنتَ قد أزلْتَ عن الماضِى سنَّةَ سُوء سَنَّتها يداه ، وعن الآتِى متابعة ظُلْمٍ وجدَه نهجاً مسلوكا ، فجَرَى على مداه ، فبادِرْ إلى ما أمِرْتَ به مبادرةَ من لم يَضِقْ به ذَرْعًا ، ونظَر إلى الحياةِ الدُّنيا بعينه فرآها فى الآخرة متاعا . واحْمد الله تعالى على أن قيَّضَ للإمام هُدًى يقفُ بك على هُدَاك ، ويأخذ بحُجْزَتِكَ عن خُطواتِ الشَّيطان ، الّذى هو أعدى عِدَاك . وهذه البلادُ المنوطة بطَرفك تشتملُ على أطرافٍ متباعدة ، وتفتقرُ فى سياستِها إلى أيدٍ متساعدة . ولهذا يكثرُ بها قضاةُ الأحكام ، وأولو تدبيراتِ السُّيوف والأقلام ،

وكلٌّ مِن هؤلاء ينبغى أن يقفَ على باب الاختبار ، ويسلّط عليه شاهدًا عَدْلِ من أمانةِ الدرهم والدينار ، فما أضلَّ الناسَ شىء كَحُبِّ المالِ الذى نُوزِقَتْ من أجْلِهِ الأديان ، وهُجِرتْ بسببه الأولادُ والإخْوان . وكثيرًا ما نرى الرجل الصائمَ القائمَ وهو عابدٌ له عبادة الأوثان فإذا استعنْتَ بأحدٍ منهم على شىء من أمرِك فاضربْ عليه بالأرصاد ، ولا تَرْضَ بما عرفتَه من مَبْدإ حاله فإنَّ الأحوالَ تنتقِلُ مُنْتَقَل الأجساد ، وإيَّاك أن تُخْدَع بصلاحِ الظاهرِ كما خُدِعَ عُمر بنُ الخطّابِ — رضى الله عنه — بالرَّبيع بن زياد ، وكذلك أؤْمُرْ هؤلاء على اختلافِ طبقاتهم بأن يأمَروا بالمعروفِ مراقبين ، وينْهوْا عن المنكر محاسِبين ، ويعلَمُوا أن ذلك من دَأْب حِزْب الله الّذين جعلهم الله الغالبين . وليبدءوا أوّلاً بأنفسِهم ، فيعدِلُوا بها عن هواها ، ويأمُروها بما يأمرونَ به سِواها ، ولا يكونُوا ممن هَدَى إلى طريق البرِّ وهو عنه حائد ، وانتصبَ لطلب المرضى وهو محتاجٌ إلى طبيبٍ وعائد ، فما تنزل بركاتُ السماء إلاَّ على من خافَ مقامَ ربِّه ، وألزمَ التّقوى أعمالَ يدِه ولسانه وقلبه ، وإذا صَلَحت الولاة صلَحَت الرعيَّة بصلاحهم ، وهم لهمْ بمنزلةِ المصابيحِ ، ولا يستضىء كلُّ قومٍ إلاَّ بمصباحهم ، ومما يُؤْمَرُون به أنْ يكونُوا لمن تحتَ أيديهم إخوانًا فى الاصطحاب ، وجيرانًا فى الاقتراب ، وأعوانًا فى توزُّع الحمْلِ الذى يثْقل على الرقاب ، فالمسْلِمُ أخو المسلمِ ، وإن كانَ عليه أميرًا ، وأوْلى الناسِ باستعمال الرِّفق من كانَ فضلُ الله عليهِ كثيرا ، وليست الولايةُ لِمنْ يستجدّ بها كثرةَ الأفيف ، ويتولاَّها بالوطءِ العنيف ، ولكنّها

لمن يُمَالُ على جوانبه ، ويؤكل من أطايبه ، ولمنْ إذا غَضِبَ لم يُرَ للغضبِ عنده أثر ، وإذا أُلحِفَ فى سؤالِهِ لم يَلْوَ الإلحافَ بخلق الضّجر ، وإذا حضر الخصومُ بين يديه عدل بَيْنهم فى قسْمة القولِ والنظر ، فذلك الذى يكون فى أصحابِ اليمين ، والذى يُدْعى بالحفيظ العليم ، والقويِّ الأمين .

ومن سعادةِ المرءِ أن تكونَ وُلاتُه متأدِّبين بآدابِه ، وجارينَ على نهج صوابه ، وإذا تطايرتُ الكتبُ يوم القيامةِ كانوا حسناتٍ مُثْبَتَة فى كتابه .

وبعدَ هذه الوصيَّة فإنَّ هاهُنا حسنةً هى للحسناتِ كالأُمِّ الولُود ، ولطالما أغنتْ عن صاحِبها إغناءَ الجنود ، وتيقَّظت لنصرِهِ والعيونُ رُقُود ، وهى التى تَسْبَغُ لها الآلاء ، ولا يتخطَّاها البلاء .

ولأميرِ المؤمنين بها عنايةٌ تبعثُها الرحمةُ الموضوعةُ فى قلبِه ، والرغبةُ فى المغفرة لما تقدم وتأخَّر من ذنبِه ، وتلكَ هِيَ الصَّدقةُ التى فضَّل الله بها بعضَ عبادِهِ لمزِيةِ أفضالها ، وجعلها سبباً إلى التعويض عنها بعشر أمثالها ، وهو يأمُرك أن تتفقَّد أحوالَ الفقراءِ الَّذين قُدِرَتْ عليهم مادَّة الأَرزاق ، وألبسهم التعفُّف ثوبَ الغِنِى وهم فى ضيقٍ من الإملاق ، فأولئك أولياء اللهِ الذين مَسَّتْهُم الضرَّاء فصَبرُوا ، وكثرت الدُّنيا فى يد غيرِهم فما نظرُوا إليها إذ نظرُوا ، وينبغِى أن يهيِّءَ لهمْ من أمرِهم مِرْفقا ، ويضرِب بينهمْ وبين الفقْرِ مَوْبِقًا .

وما أطلْنا لك القولَ فى هذه الوصيَّةِ إلاَّ إعلامًا بأنَّها من المهمِّ الذى يُسْتَقْبلُ ولا يُسْتَدْبر ، ويُسْتَكثَرُ منه ولا يُسْتكثَرُ ، وهذا يُعَدُّ من جهادِ النفس فى بذلِ المالِ ، ويتلوهُ جهادُ العدوِّ الكافرِ فى مواقفِ القتالِ ، وأميرُ المؤمنين يعرِّفك

من ثوابِه ما تجعلُ السيفَ فى ملازمتِه أخاً ، وتسخو له بنفسك إن كانَ أحد بنفسِه سَخَا ، ومن صفاتِه أنه العمل المحبُوُّ بفضل الكرامةِ الّذى يُنمى أجره بعد صاحِبه إلى يوم القيامةِ ، وبه تُمتَحنُ طاعةُ الخالقِ على المخلوقِ ، وكل الأعمال عاطلةَ لاخلوق لها وهو المختصّ دونها برَتبةُ الخَلُوق ، ولولاَ فضله لما كان محسوبًا بشطرِ الإيمانِ ، ولمَا جعل الله الجنةَ له ثمناً وليست لغيرِهِ من الأثمان . وقد علمتَ أنَّ العدُوَّ وهو جارُكَ الأدنَى ، والّذى يبلغُك وتبلغُه عيناً وأذُناً ، ولا تكونُ للإسلامِ نِعْم الجارُ حتَّى تكونَ له بِئس الجار ، ولا عُذرَ لك فى تركِ جهادِه بنفسِكَ وما لك إذا قامَتْ لغيرِكَ الأعْذار . وأميرُ المؤمنين لا يرضَى منك بأن تلقَاهُ مكافحاً ، أو تطرُقَ أرضَه مُمَاسياً أو مصابحًا ، بل يريدُ أن تقصِدَ البلادَ التى فى يدِه قَصْد المستنقذِ لا قصد المُغِير ، وأن تحكُمَ فيها بحكمِ اللهِ الذى قضاهُ على لِسَانِ سعْدٍ فى بَنِى قُرَيْظَة والنَّضِير ، وعلى الخصوصِ البيت المقدّس ، فإنَّه تلادُ الإسلام القديم ، وأخو البيتِ الحرام فى شَرَفِ التعظيم والذى توجَّهت إليه الوجوهُ من قبلُ بالسُّجود والتسليم ، وقد أصبَح وهو يشكُو طولَ المدَّة فى أسْر رقبته ، وأصبحتْ كلمةُ التَّوحِيد وهى تشكُو طولَ الوحشةِ فى غُرْبتها عنه وغُرْبته ، فانهضْ إليه نهضةً توغل فى قَرْحه ، وتبدلِ صَعْب قيادِه بِسَمْحه ، وإن كان لَهُ عام حُدِيبيَة فأتبعه بعام فتحِه ، وهذه الاستزادةُ إنما تكونُ بعد سدادِ ما فى اليد من ثغر كانَ مهمَلا فحميت مواردَه ، أو مُستَهدَمًا فرفعتَ قواعِدَه ، ومن أهمِّها ما كانَ حاضِرَ البحرِ فإنَّه عورة مكشوفة ، وخُطَّةٌ مَخُوفَة ، والعدوُّ قريبٌ منه على بُعْدِه ، وكثيراً ما يأتيه فجاءةً حتى يُسْبَقَ بَرْقُهُ برَعْده ، فينبغى أن يرتِّب بهذه الثغورِ رابطةٌ تكثر

شجاعتُها ، وتقلُّ أقرانُها ، ويكونُ قتالُها لأنْ تكونَ كلمةُ اللهِ هى العُليا ، لا لأن يُرى مكانها ، وحينئذٍ يصبح كلٌّ منها ولهُ من الرِّجال أسوار ، ويعلم أهله أنّ بناء السَّيف أمنعُ من بناء الأحجار ، ومع هذا لا بدَّ لها من أسطول يكثر عددُه ، ويقوَى مددُه ، فإنَّه العدَّةُ التى تستعينُ بها على كشفِ الغمّاء ، والاستكثارِ من سبايا العبيد والإماء ، وجَيْشُه أخو الجيش السُّليمانى ، فذاكَ يسيرُ على مَتْنِ الريح ، وهذا على متنِ الماء ، ومن صفاتِ خَيله أنها جَمَعَتْ بين العَوْم والمِطارِ[1] ، وتساوتْ أقدارُ خَلقها على اختلافِ مدة الأعمار ، فإذا أُشرِعَتْ قيل جبالٌ مَتلفِّعة بِقطع من الغُيوم ، وإذا نُظِرِ إلى أشكالها قيل إنها أهِلّةٌ غير أنها تهتدِى فى مَسيرِها بالنُّجُوم ، ومثلُ هذه الخيلِ ينبغِى أن يُغالَى فى جيادها . ويُستكثَرَ من قيادِها ، وليؤمَّرْ عليها أميرٌ يلقَى البَحْر بمثله من سَعَةِ صدْرِه ، ويسلُكُ طرقه سلوكَ من لم تَقْتُلْه بجهلها ، ولكن قتلها بِخُبْرِه ، وكذلك فليكنْ ممّن أفنتَ الأيامَ تجارِبُه ، وزحمتْها مناكبُهُ ، وممّن يذلُّ الصعبُ إذا هو سَاسَه وإن لانَ جانبُه ، وهذا هو الرجلُ يُرأسُ على القومِ فلا يجدُ هِزَّةَ بالرِّياسة ، وإن كان فى السَّاقةِ[2] ففى السَّاقةِ ، أو كانَ فى الحراسةِ ففى الحراسة ، ولقد أفلحتْ عِصابةٌ اعتصبَتْ من ورائِه ، وأيقنَتْ بالنَّصر من رايته كما أيقنَتْ بالنَّصر من رأيه واعلم أنه قد أخلَّ من الجهادِ برُكنٍ يقدَحُ فى عمله ، وهو تمامه الذى يأتِى فى آخرِه ، كما أنَّ صِدْقَ النيَّة تأتى فى أوَّله ، وذلك هو قَسْمُ الغنائمِ ، فإنَّ الأيدَى قد تناولتْهُ بالإجْحاف ، وخلطتْ جهادَها فيه بغلوِّها فلم ترْجِع بالكفاف . واللهُ قد جعلَ الظلمَ فى تعدِّى حدودِه المحدودة ، وجعلَ الاستئثار بالمغنَمِ من أشراطِ السَّاعة الموعودةِ . ونحنُ نعوذُ به أن يكونَ زمانُنا هذا زمانَه ،

---

(١) العوم سير الإبل ، والمطار سرعة سير الخيل .

(٢) ساقة الجيش مؤخرته .

وبأسه شرّباسٍ ، ولم يَستَخلِفنا على حفظ أركان دينه ثم نهمله إهمالَ مضيِّع ، ولا إهمال ناسٍ .

والذى نأمرك به أن تجرى هـذا الأمرَ على المنصوص من حكمه ، وتُبرِئ ذمّتك مما يكون غيرُك الفائزَ بفوائده وأنتَ المطالبَ بإثمه ، وفى أرزاق المجاهدين بالدّيار المصريّة والشاميّة ما يُغنيهم عن هذه الإكلة التى تكون غداً أنكالاً وجحيمًا ، وطعاماً ذا غصّةٍ وعذاباً أليما .

فتصفّحْ ماسطرنا لك فى هذه الأساطير التى هى عزائمُ مُبرَماتٌ ، بل آياتٌ محكماتٌ ، وتحبَّبْ إلى الله وإلى أمير المؤمنين باقتفاء كلماتها ، وابنِ لك منها مجداً يَبقَى فى عَقِبك إذا أُصيبَتِ البيوتُ فى أعقابها . وهذا التقليدُ ينطقُ عليكَ بأنه لَمْ يَألُ فى الوصايا التى أوصاها ، وأنّه لم يغادرْ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها . ثُمَّ أنه قد ختم بدعواتٍ دعا بها أميرُ المؤمنين عند ختامه ، وسأل فيها خيرةَ الله التى تتنزّل من كل أمرٍ بمنزلة نظامه ، ثم قال : « اللهمَّ إنى أشهدُكَ على مَنْ قلّدته شهادةً تكونَ عليه رقيبةً ، وله حسيبة ؛ فإنى لم آمره إلا بأوامر الحقّ التى فيها موعظةٌ وذكرى ، وهى لمن تبعها هُدًى ورحمة وبُشرى ، وإذا أخذ بها بَلَجَ بحُجَّته يوم يُسألُ عن الحُجَجِ ، ولم يختلج دُونَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحوض فى جُملةِ من يختلج ، وقيل لاحرجَ عليكَ ولا إثم إذْ نجوتَ من وَرَطاتِ الإثم والحَرج ، والسلام » .

[ثناء على الصابى ، ومنزلته من فن الكتابة]

وهذا الذى ذكرتُه من كلامى وكلامِ الصّابى فى هـذه التقاليد الأربعة لم أقصدْ به الوضْعَ من الرّجُل ، وإنّما ذكرتُ ماذكرتُه لبيان موضع السَّجْع الذى يَثبُتُ على المَحَكّ

ولا شكَّ أن هذا الوصفَ المشارَ إليه فى فِقَرِ الأسْجاع لم يكنْ مقصوداً فى الزّمن القديم، إمّا المكان عُسْرِهِ، أو لأ لم؟ يُتنَبّه له.

وكيف أضَعُ من الصّابِى وعِلْمُ الكتابة قد رفعهُ وهو إمامُ هذا الفنِّ، والواحدُ فيه؟ . ولقد اعتبرْتُ مُكاتباتِه، فوجدْتُه قد أجادَ فى السُّلطانِيّاتِ كلَّ الإجادَة. وأحْسَنَ كلَّ الإحسانِ. ولوْ لَمْ يكنْ له سِوَى كتابه الذى كتبَهُ عن عزِّ الدولةِ بَخْتِيَار ابنِ بُوَيْه[1] إلى سبكتكين[2] عند خُروجِه عليه، ومجاهرته إيَّاه بالعِصيان، لاستحق به فضيلةَ التّقدّم، كيف ولهُ من السُّلطانيات ما أَتَى فيه بكلِّ عجيبة؟ لكنه فى الإخوانيَّات مقصِّر، وكذلك فى كُتُبِ التّعازى.

وعندِى فيه رَأىٌ لم يَرَهُ أحدٌ غيرى، ولى فِيه قَولٌ لم يقلْه أحدٌ سِوَاى: وذاك أن عقل الرَّجُل فى كتابتِهِ زائدٌ على فَصَاحته وبلاغته، وسأبيِّنُ ذلك فأقول: لينظرِ الناظرُ فى هذين التقليدَيْن اللّذين أوْرَدْتُهما له. فإنه يرى وصايا وشروطاً واستدراكاتٍ وأوامرَ ما بَيْن أصل وفرعٍ، وكلٍّ وجُزْءٍ، وقليل وكثيرٍ، ولا نَرى ذلك فى كلامِ غيره من الكتّاب، إلا أنه عبَّرعن تلك الوصايا والأوامر والشُّروط والاستدراكاتِ بعبارة فى بعضها مافيهِ من الضَّعفِ والرِّكة وقد قيلَ: إن زيادةَ العلمِ على المنطقِ هُجْنَة، وزيادةَ المَنطقِ على العلم خُدْعَة.

ومع هذا فإنِى أقرُّ للرجلِ بالتقدُّم، وأشهدُ له بالفضل.

---

(١) هو أبومنصور بختيار الملقب عزالدولة بن معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه الديلمى، ولى مملكة أبيه يوم موته، وتزوج الإمام الطائع ابنته «شاه زمان» على صداق مبلغه مائة ألف دينار، وكان عزالدولة ملكا سريا، شديد القوى، يمسك الثور العظيم بقرنيه فيصرعه. وكانت بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة منافسات فى الممالك أدت إلى التنازع والمحاربة، فالتقيا يوم الأربعاء ثامن عشر شوال سنة ٣٦٧هـ فقتل عز الدولة، وحمل رأسه فى طست ووضع بين يدى عضد الدولة، فلما رآه وضع منديله على عينيه وبكى، رحمهما الله.

(٢) نص الكتاب فى المختار من رسائل الصابي ١/٢٢٧.

[أقسام السجع]

وإذا فرغتُ مما أردتُ تحقيقَه فى هذا الموضعِ فإنى أرجعُ إلى ما كنتُ بصددِ ذِكْرِه من الكلامِ على السَّجع ، وقد تقدَّم من ذلك ما تقدَّم ؛ وبَقِى ما أنا ذاكرُه هاهنا ، وهو أنَّ السَّجْعَ قد ينقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ :

الأول : أن يكونَ الفصْلان متساويَيْن ، لا يزيدُ أحدُهما على الآخرِ ، كقولِه تعالى : « فأمَّا اليَتِيمَ فلا تَقْهَرْ * وأما السَّائِلَ فلا تَنْهَرْ »[1] . وقوله تعالى : « والعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فالمُورِيَاتِ قَدْحًا * فالمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا »[2] .

ألا ترى كيفَ جاءتَ هذه الفصولُ متساويةَ الأجزاء ، حتَّى كأنها أُفرِغَتْ فى قالبٍ واحد ؟ وأمثال ذلك فى القرآنِ الكريمِ كثيرةٌ ، وهو أشرفُ السَّجع منزلةً ، للاعتدال الذى فيه .

القسم الثانى : أن يكونَ الفصْل الثانى أطوَل من الأَولَ ، لا طُولاً يخرجُ به عن الاعتدالِ خروجاً كثيرا ، فإنه يَقبح عند ذلك ، ويُستكرَه ، ويعدُّ عيباً ، فممَّا جاء من ذلك قولُه تعالى : « بلْ كَذَّبُوا بالسَّاعَةِ واعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بالسَّاعَةِ سَعِيراً * إذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيرًا * وَإذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً »[3] .

---

(١) سورة الضحى : الآيتان ٩ و١٠ .
(٢) سورة العاديات : الآيات ١ — ٥ .
(٣) سورة الفرقان : الآيات ١١ و١٢ و١٣ .

ألا ترى أنَّ الفصل الأوّل ثمان لفظاتٍ ، والفصلَ الثانى والثالث تسع تسع

ومِنْ ذلكَ قوله تعالَى فى سورةِ مَرْيم : « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا[1] »

وأمثالُ هذا فى القرآنِ كثيرة .

ويُستثنَى من هذا القسمِ ما كان من السَّجع على ثلاثِ فِقَر ، فإنَّ الفقرتين الأولَيَيْن يُحسبَان فى عِدَّةٍ واحدة ، ثم باقى الثلاثة ، فينبغى أن تكونَ طويلةً طولاً يزيدُ عليهما ، فإذا كانتِ الأُولى والثانيةُ أربَع لفظاتٍ أربع لفظاتٍ تكونُ الثالثةُ عَشرَ لفظات ، أو إحدى عَشرة .

مثالُ ذلك ما ذكرتُه فى وصفِ صَدِيقٍ ، فقلتُ : « الصَّدِيقُ مَنْ لم يَعتَضْ عنك بخَالِفٍ ، ولم يعامِلْك معاملةَ حَالِفٍ ، وإذا بلَّغته أُذُنه وشَايةً أقامَ عليها حدَّ سارقٍ أو قاذِفٍ » .

فالأولى والثانيةُ هاهنا أربعُ لفظاتٍ أربع لفظاتٍ ، لأنَّ الأُولى : « لم يعتَضْ عنك بخَالِفٍ » والثانيةِ « ولم يعاملْك معاملةَ حالِفٍ » وجاءتِ الثالثةُ عشر لفظاتٍ ، وهكذا يَنْبَغِى أن يُستعمل ما كان من هذا القَبِيل .

وإن زادت الأولى والثانيةُ عن هذه العِدَّة فتزادُ الثالثةُ بالحسابِ ، وكذلك إذا نقصَت الأُولى والثانيةُ عن هذه العدّة . فافهمْ ذلِكَ ، وقِسْ عليْه .

---

(١) سورة مريم : الآيات ٨٨و٨٩و٩٠ .

إلاّ أنّه لا ينبغى أن تجعلَه قياسًا مطّردًا فى السجَعات الثلاثِ أينَ وَقَعتْ من الكلام ، بل تعلّمْ أنَّ الجوازَ يعمُّ الجانبيْن من التَّساوى فى السجَعات الثلاث ، ومن زيادةِ السجعةِ الثالثَة .

ألا ترَى أنّه قد ورد ثلاثُ سجعاتٍ متساويات فى القرآنِ الكريم كقوله تعالى : « وأصحابُ اليَمينِ ما أصحابُ اليَمين * فى سِدْرٍ مَخضُودٍ * وطَلْحٍ مَنضُودٍ * وظِلٍّ مَمْدُودٍ »[1] .

فهذه السجعاتُ كلُّها من لفظتين لفظتين ، ولو جعلت الثالثة منها خمسَ لفظاتٍ أو ستًّا لما كانَ ذلك مَعيبًا .

القسم الثالث : أن يكونَ الفصلُ الآخِرِ أقْصَر من الأوّل ، وهو عندى عَيْب فاحِشٌ . وسببُ ذلك أن السَّجع يكونُ قد استوفَى أمدَه من الفصلِ الأوّل بحكمِ طُوله ، ثم يَجِئُ الفصلُ الثانى قصيرًا عن الأوّل ، فيكونُ كالشىء المبْتُورِ ، فيبقَى الإنسان عند سماعِه كمَن يريدُ الانتهاءَ إلى غايةٍ فيعْثُر دُونَها .

* * *

وإذَا انتهينا إلى هاهنا وبيَّنَّا أقسامَ السَّجع ولُبَّه وقُشُوره فنقُول فيه قولا كُليًّا ، وهو أن السجَع على اختلافِ أقسامِه ضربان :

أحدهما : يسمَّى (السَّجع القصير) وهو أن تكونَ كلُّ واحدةٍ من السَّجْعتين مؤلَّفَةً من ألفاظٍ قليلة ، وكلما قلّت الألفاظ كانَ أحْسَن ، لِقُربِ الفواصِلِ المسجوعةِ من سَمْع السَّامع

(١) سورة الواقعة : الآيات ٢٧و٢٨و٢٩و٣٠ .

وهذا الضربُ أوْعَر السجع مذهبًا ، وأبعدُه متناولاً ، ولا يكادُ استعمالُه يقع إلاَّ نادرًا .

والضرب الآخر : يسمى (السَّجع الطويل) وهو ضدُّ الأول ، لأَنه أسهلُ متناوَلا . وإنَّما كان القصيرُ من السجعِ أوعرَ مَسْلَكاً من الطويل لأنَّ المعنى إذا صيغ بألفاظٍ قصيرةٍ عَزَّ مواتاةُ السَّجع فيه ، لِقِصَر تلك الألفاظ ، وضيقِ المجالِ فى استجلابه ، وأما الطويلُ فإنَّ الألفاظ تطولُ فيه ، ويُستجلبُ له السجع من حيثُ وليس كما يقال ، وكان ذلك سهلاً .

وكلُّ واحدٍ من هذين الضربين تتفاوتُ درجاتُه فى عِدَة ألفاظ :

أما السَّجْعُ القصيرُ فأحسنُه ما كان مُؤلفاً من لفظتين لفظتين ، كقوله تعالى : « والمُرْسَلاَتِ عُرْفًا * فالعَاصِفَاتِ عَصْفًا[1] » وقولِه تعالى : « يأيُّها المُدثِّرْ * قمْ فأَنذرْ * وربَّكَ فكَبِّرْ * وثيابَكَ فطهِّرْ * والرُّجْزَ فاهجُرْ »[2] .

ومنه ما يكونُ مؤلَّفًا من ثلاثةِ ألفاظٍ وأربعةٍ وخمسةٍ ، وكذلك إلى العشرة ، وما زادَ على ذلك فهو من السَّجع الطويل ، فممَّا جاء منه قولُه تعالى : « والنَّجْمِ إذَا هَوَى*مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى *وما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى »[3] وقولِه تعالى : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَر * وَإِنْ يرَوْا آيةً يُعْرِضُوا وَيَقولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرّ * وكَذَّبوا واتَّبَعُوا أهْوَاءَهُمْ وكُلُّ أمرٍ مُسْتَقِرّ »[4] .

---

(١) سورة المرسلات : الآيتان ١و٢

(٢) سورة المدثر . الآيات ١ — ٥ .

(٣) سورة النجم : الآيات ١و٢و٣ .

(٤) سورة القمر : الآيات ١و٢و٣ .

وأما السجعُ الطويلُ فإنَّ درجاتِه تتفاوتَ أيضاً فى الطُّول .

فمنه ما يَقرُبُ من السَّجع القصير ، وهو أنْ يكونَ تأليفه مِنْ إحْدى عَشْرَةَ لفظة إلى اثنتى عشرةَ لفظة ، وأكثره خمس عشرة لفظة ، كقوله تعالى : « وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنْسَانَ منَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُور * ولَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ »[1] فالأولى إحدى عشرة لفظة ، والثانية ثلاث عشرة لفظة ، وكذلك قوله تعالى : « لقد جاءَكمْ رسولٌ من أنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عليْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيكُمْ بِالمؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيم * فإنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِىَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم »[2] .

ومن السجعِ الطويلِ ما يكُون تأليفه من العِشْرِينَ لفظة فما حَولها كقوله تعالى : « إِذْ يرِيكَهُمُ اللهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ ولَكِنَّ الله سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بذاتِ الصُّدُور * وإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأُمور »[3]

ومن السَّجع الطويلِ أيضاً ما يزيدُ على هذه العدَّة المذكورةِ ، وهو غيرُ مضبوط .

---

(١) سورة هود : الآيتان ٩و١٠ .

(٢) سورة التوبة : الآيتان ١٢٨و١٢٩ .

(٣) سورة الأنفال : الآيتان ٤٣و٤٤ .

[التصريع فى الشعر]

واعلمْ أنَّ (التَّصريع) فى الشِّعر بمنزلة السَّجعِ فى الفصلين من الـكلام المنثُور ، وفائِدتُه فى الشِّعر أنه قبلَ كمَال البيتِ الأوَّلِ من القصيدةُ تُعْلَمُ قافيتها ، وشُبِّهُ البيْتُ المُصرَّع ببابٍ له مصراعانِ مُتشاَ كِلان ، وقد فَعَلَ ذَلِكَ القدماء والمُحْدَثُون ، وفيه دِلالةٌ على سَعَة القُدرَة فى أفانينِ الـكلامِ .

فأمَّا إذا كَثُرَ التَّصريعُ فى القصيدةِ فلسْتُ أراهُ مُخْتارًا إلاَّ أنَّ هذه الأَصناف من التَّصريعِ والتّرصيع والتَّجْنِيس وغيرها إنَّما يحسُنُ منهاْ فى الـكلام ما قلَّ وَجَرَى مجرَى الْغُرَّةِ من الوجْهِ ، أو كانَ كالطِّرازِ من الثَّوب .

فأمَّا إذَا تواترَتْ وكثُرتْ فإنَّها لا تـكُون مَرْضِيَّةً ، لما فيها من أماراتِ الـكُلْفة[1] .

وهو عندى[2] ينقسمُ إلى سبعِ مراتب ، وذلك شىءٌ لم يذكره على هذا الوجه أحدٌ غيرى !

فالمرتبةُ الأولى : ـ وهىَ أعلَى التَّصريع درجةً ـ أن يكونَ كلُّ مصراعٍ من البَيْتِ مستقلا بنفسِه فى فهمِ معناه ، غيرَ محتاجٍ إلى صَاحِبه الَّذى يَلِيه ويُسمَّى « التصريع الـكامل » وذلك كقولِ امرئْ القَيْس :

أَفَاطِمُ مهلاً بَعْضَ هـذا التدلُّلِ   وإن كنتِ قد أَزْمَعْتِ هَجْراً فَأَجْمِلِي

---

(١) نقل ابن الأثير فى كلامه عن (التصريع) رأى ابن سنان الخفاجى ، قال « فى سر الفصاحة ٢٢٢ » : فأما إذا تكرر التصريع فى القصيدة فلست أراه مختاراً ، وهو عندى يجرى مجرى تكرر الترصيع والتجنيس والطباق وغير ذلك . . وإن هذه الأشياء إنما يحسن منها ما قل وجرى منها مجرى اللمعة واللمحة ، وأما إذا تواتر وتـكرر ، فليس ذلك عندى مرضياً . .

(٢) يقصد التصريع .

فإنَّ كلَّ مصراعٍ من هذا البَيْتِ مفهومُ المعنى بنفسِه، غيرُ محتاجٍ إلى ما يليه، وعلَيْه وَرَدَ قولُ المتنبيِّ:

إذَا كانَ مدحٌ فالنسيبُ المقدَّمُ ... أَكُلُّ فَصِيحٍ قالَ شِعرًا مُتَيَّمُ[1]

المرتبةُ الثانيةُ: أنْ يكوِّن المصراعُ الأولُ مستقلاًّ بنفسه، غيرَ محتاجٍ إلى الَّذى يليه، فإذَا جاء الذى يليهِ كانَ مرتبطاً بِه، كقولِ امرئْ القيس:

قِفَانَبْكِ من ذِكْرَى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فالمصراعُ الأوَّل غيرُ محتاجٍ إلى الثَّانى فى فهم معناه، لـكنْ لمَّا جاء الثَّانى صار مرتبطاً به، وكذلك وَرَدَ قَوْلُ أَبِى تَمَّامٍ:

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ تُرْوِى الظِّمَاء الْحَوَائِمُ ... وأَنْ يَنْظِمَ الشَّمْلَ الْمُبَدَّدَ نَاظِمُ[2]

وعليه وَرَدَ قولُ الْمُتَنَبِّى:

الرَّأْيُ قبلَ شجاعةِ الشُّجْعَانِ ... هُوَ أَوَّلٌ وَهِىَ المحلُّ الثَّانِى[3]

المرتبةُ الثالثة: أن يكونَ الشاعِرُ مُخَيَّرًا فى وضعِ كلِّ مصراعٍ موضِعَ صَاحِبِه، ويسـمَّى «التصريع الموجَّه» وذلِكَ كقولِ ابْنِ الحجَّاجِ البَغْدَادِى[4]:

---

(١) ديوان المتنبى ٣/٣٥٠ وهو مطلع قصيدة يمدح بها سيف الدولة.

(٢) ديوان أبي تمام ٢٨٥، وهو مطلع قصيدة يمدح بها أحمد بن أبي دواد.

(٣) ديوان المتنبى ٤/١٧٤ وهو مطلع قصيدة فى مدح سيف الدولة.

(٤) هو أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن الحجاج، ذكره الثعالبى فى يتيمة الدهر، قال: وقد اتفق من رأيته وسمعت به من أهل البصيرة فى الأدب وحسن المعرفة بالشعر على أنه فرد زمانه فى فنه الذى شهر به، وأنه لم يسبق الى طريقته، ولم يلحق شأوه فى نمطه، ولم ير كاقتداره على ما يورده من المعانى التى تقع فى طرزه، مع سلاسة الألفاظ وعذوبتها، وانتظامها فى سلك الملاحة والبلاغة، وإن كانت مفصحة عن السخافة.. ولـكنه على علاته تتفكه الفضلاء بثمار شعره، وتستملح الـكبراء ببنات طبعه، وتستخف الأدباء أرواح نظمه، ويحتمل المحتشمون فرط رفثه وقذعه، ومنهم من يغلو فى الميل إلى مايضحك ويمتع من نوادره.

مِنْ شُرُوطِ الصَّبُوحِ فِي الْمِهْرَجَانِ ... خِفَّةُ الشُّرْبِ مَعْ خُلُوِّ الْمَكَانِ[1]

فإنَّ هذا البيتَ يُجْعل مصراعُه الأولُ ثانياً ، ومصراعُه الثَّانِي أولاً ، وهذهِ المرتبةُ كالثانيةِ فى الجَوْدَةِ .

المرتبةُ الرابعة : أنْ يكونَ المصراع الأولُ غيرَ مستقِلٍّ بنفسِه . ولا يفْهَمُ معناه إلَّا بالثَّانِي ، ويُسَمَّى « التصريع الناقص » ، وليسَ بِمَرْضيٍّ ولا حَسَنٍ ، فمَّا وَرَدَ منه قولُ المتنبيِّ :

مَغَانِي الشِّعْبِ طِيباً فِي المَغَانِي ... بِمَنزلةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ[2]

فإنَّ المصراعَ الأوَّل لا يستقِلُّ بنفسِه فى فهمِ معناه دونَ أن يُذْكر المصرَاعُ الثانِي .

المرتبةُ الخامسة : أنْ يكونَ التصريعُ فى البيتِ بلفظة واحدةٍ وسطاً وقافيةً ، ويسمَّى « التصريعُ المكرَّر » ، وهو ينقسم قِسْمَيْن ، أحدهما أقربُ حالاً من الآخر :

فالأول : أن يكونَ بلفظةٍ حقيقيةٍ لا مجازَ فِيها ، وهو أنزَلُ الدَّرجتين كقول عَبيد بْنِ الأبْرص[3] :

فكلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَئُوبُ ... وغَائِبُ المَوْتِ لا يَئُوبُ

---

(١) يتيمة الدهر ٣/٦٥ ، ورواية الثعالبى للشطر الثانى «خفة الشغل مع خلو المكان» .

(٢) ديوان المتنبى ٤/٢٥١ وهو مطلع لقصيدة يمدح بها عضد الدولة وولديه أبا الفوارس وأبا دلف ، ويذكر طريقه بشعب بوان ، وهو موضع كثير الشجر والمياه يعد من جنان الدنيا .

(٣) أحد شعراء الجاهلية ، وهو معدود عند بعض الرواة من أصحاب المعلقات ومطلع معلقته :

أقفر من أهله ملحوب ... فالقطبيات فالذنوب

القسمُ الآخر: أن يكونَ التصريعُ بلفظةٍ مجازيَّةٍ يختلفُ المعنى فيها، كقول أبي تمّام:

فتًى كان شرباً لِلعُفاةِ ومُرتعىً فأصبحَ لِلهِنديَّةِ البيضِ مَرتَعا(١)

المرتبةُ السادسة: أنْ يذكرَ المصراعُ الأولُ، ويكونُ معلّقا على صفةٍ يأتِي ذِكرُها في أوّلِ المصراعِ الثّاني، ويسمّى «التصريع المعلّق» فمّا وَرَدَ منه قولُ امرئ القيس:

أَلاَ أيُّها الليلُ الطويلُ أَلا انجَلِ بِصبحٍ وَمَا الإصْبَاحُ مِنكَ بِأمْثَلِ

فإنَّ المصراعَ الأولَ معلّق على قوله: «بِصُبْحٍ»، وهذا مَعيبٌ جِداً، وعليه وَرَدَ قَولُ المتنبّي:

قَدْ عَلِمَ البَيْنُ مِنَّا البَيْنَ أَجفَانَا تَدْمَى وأَلَّفَ فِي ذا القَلبِ أَحزَانَا(٢)

فإنَّ المصراعَ الأوّل معلّق على قوله: «تدْمي».

المرتَبَةُ السَّابعة: أنْ يكونَ التصريعُ في البَيْتِ مخالفاً لقَافِيَتِه، ويسمّى «التّصريع المشْطور» وهو أَنزَلُ درجاتِ التَّصريع وأقبحُها، فمِنْ ذلك قولُ أبي نُوَاس:

أَقِلْنِي قَدْ نَدِمْتُ على ذُنُوبٍ وبِالإقْرَارِ عُذْتُ مِنَ الجُحُودِ(٣)

---

(١) ديوان أبي تمام ٣٧٤ من قصيدة يرثي بها أبا نصر محمد بن حميد الطائي، ومطلعها:

أصم بك الناعي وإن كان أسمعا وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

والعفاة: السائلون، والمرتعى موضع الرعي، والهندية السيوف، والمرتع المسرح.

(٢) ديوان المتنبي ٤/٢٢٠ وهو مطلع قصيدة في مدح أبي سهل سعيد بن عبد الله، ومعناه أن الفراق قد علم أجفاننا الفراق، فما تلتقي سهراً، وجعل الفراق يؤلف الحزن.

(٣) ديوان أبي نواس ١٠٩ وهو أحد بيتين كتب بهما إلى الفضل بن الربيع، والبيت الآخر:

وإن تصفح فإحسان جديد سبقت به إلى شكر جديد

وفي الأصل «الذنوب» و«عن» موضع «من»

فصرَّع بحرف البَاءِ فى وسطِ البيت ، ثمَّ قَفَّاه بحرف الدَّالِ ، وهذا لا يكادُ يُستَعْمَلُ إلاَّ قليلاً نادِرًا(١) .

النوع الثانى

فى التجنيس

اعلمْ أنَّ التَّجْنِيس غرَّةٌ شَادِخَة فى وَجْه الـكلام ، وقد تصرَّف العلماء من أربابِ هذه الصناعةِ فيهِ ، فغرَّبوا وشرَّقوا ، لا سِيَّما المُحْدَثِين منهم ، وصنَّف الناسُ فيه كتباً كثيرةً ، وجعلوهُ أبواباً متعدِّدة ، واختلفُوا فى ذلك ، وأدخلوا بَعْضَ تلك الأبوابِ فى بعضٍ ، فمنْهُمْ عبدُ الله بنُ المعتزّ ، وأبو علىٍّ الحاتِمىّ ، والقاضِى أبو الحسَن(٢) الجُرْجانِى ، وقُدامَةُ بنُ جَعْفرٍ الـكاتب ، وغيرهم

وإنَّما سُمِّىَ هذا النَّوعُ من الـكلام مُجانساً لأنَّ حروفَ ألفاظِه يكونَ تركيبُها من جنسٍ واحد .

وحقيقتُه أن يكونَ اللفظُ واحداً والمعنى مختلفاً .

وعلى هذَا فإنَّه هو اللفظُ المشترَك ، وما عداهُ فليس من التجنيس الحقيقىِّ فى شىء ، إلاَّ أنَّه قد خرج من ذلك ما يُسَمَّى تجنيساً ، وتلك تسميةٌ بالمشَابَهةِ ، لا لأنَّها دالَّةٌ على حقيقةِ المسمَّى بعيْنِه .

وعلَى هذا فإنِّى نظرتُ فى التجْنِيس وما شُبِّهَ به فأُجْرِىَ مجراهُ ، فوجدتُه

(١) هذا عيب من عيوب القوافى سماه قدامة بن جعفر (التجميع) وعرفه بأن تكون قافية المصراع الأول من البيت على روى متهيىء لأن تكون قافية آخر البيت بحسبه ، فتأتي بخلافه .

(٢) فى الأصل «أبو الحسين» . وهو القاضى على بن عبد العزيز الجرجاني صاحب «الوساطة بين المتنبى وخصومه» .

ينقسم إلى سبعةِ أقسام ، واحدٌ منها يدُلُّ على حقيقةِ التّجنيس ، لأنَّ لفظهُ واحدٌ لا يختلفُ ، وستةُ أقسامٍ مُشبَّهةٌ .

[التجنيس الحقيقى]

فأما القسمُ الأوّل: فهوأنْ تتساوَى حروفُ ألفاظه فى تركيبها ووزنِها ، كقولِهِ تعالى : « ويومَ تقومُ السَّاعَةُ يُقسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَالَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ »[1] وليسَ فى القرآنِ الـكريم سِوَى هذه الآية ، فاعرِفْها .

ويُرْوَى فى الأخبارِ النبويَّة أن الصحابةَ نازَعُوا جَرِيرَ بنَ عبدِ الله البَجَلِىَّ زِمَامَه ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : « خَلُّوا بَيْنَ جَرِيرٍ وَالْجَرِيرِ » أىْ : دَعُوا زِمَامَه .

ومما جاء منهُ فى الشعر قولُ أبى تمام :

فَأَصْبَحَتْ غُرَرُ الأَيَّامِ مُشْرِقَةً بِالنَّصْرِ تَضْحَكُ عَنْ أَيَّامِكَ الغُرَرِ

« فالغُرَرُ » الأُولى استعارة من غُرَرِ الوجْه ، « والغُرَر » الثانية مأخوذة من غُرَّةِ الشىء أكرمُه ، فاللفظُ إذاً واحدٌ والمعنى مختلفٌ . وكذلكَ قولُه :

مِنَ الْقَوْمِ جَعْدٌ أَبْيَضُ الْوَجْهِ وَالنَّدى وَلَيْسَ بنَانٌ يُجْتَدَى مِنْهُ بِالْجَعْدِ[2]

فالجعْدُ : السَّيِّد ، والبَنَانُ الجَعْد : ضِدّ السَّبط[3] ، فأحدُهما يوصَفُ به السخِىُّ والآخرُ يوصَفُ به البَخِيل . وكذلك قوله :

---

(١) سورة الروم : الآية ٥٥ .

(٢) ديوان أبى تمام ١٣١ من قصيدة يمدح بها حفص بن عمر الأزدى ، ومطلعها :

عفت أربع الحلات للأربع الملد لـكل هضيم الـكشح مجدولة القد

(٣) فى الأصل « البنسيط » والسبط المرسل .

بِكُلِّ فَتًى ضَرْبٍ يُعَرِّضُ لِلْقَنَا   مُحَيًّا مُحَلًّى حَلْيُهُ الطَّعْنُ والضَّرْبُ[١]

فالضَّرْبُ: الرجُل الخفيفُ، والضَّرْب بالسَّيف: فى الحرب، وكذلك قولُه:

عدَاكَ حَرُّ الثُّغُور المستَضَامةِ عَنْ   بَرْدِ الثُّغُورِ وعَنْ سَلْسَالِها الْخَصِبِ[٢]

فالثُّغور جمع ثغر، وهو واحد الأسنان، وهو أيضاً البَلَدُ الذى على تُخُوم العدوِّ. ثم قال فى هذه القصيدة:

كم أحرزَتْ قُضُبُ الهندىِّ مُصْلَتَةً   تَهْتَزُّ مِنْ قُضُبٍ تهتزُّ فى كُثُبِ

بِيضٌ إذا انتُضِيَتْ مِنْ حُجْبِها رَجَعَتْ   أحقَّ بِالبِيضِ أبْداناً مِنَ الحُجُبِ

فالقُضب: السُّيوف، والقضب: القُدُود على حكم الاستعارة، وكذلك البِيضُ: السُّيوف، والبِيضُ: النِّساء. وهَذا من النادرِ الذى لا يتعلَّق به أحدٌ. وكذلك قَوْلُه:

إذَا الْخَيْلُ جَابَتْ قَسْطَلَ الْحَرْبِ صَدَّعُوا

صُدُورَ الْعَوَالِي فِي صُدُورِ الْكَتَائِبِ[٣]

فلفظُ «الصدور» فى هذا البيت واحدٌ والمعنى مختلف. وكذلك قولُه:

عَامِى وَعَامُ العِيسِ بين وَدِيقَةٍ   مَسْجُورَةٍ وَتَنُوفَةٍ صَيْهُودِ

---

(١) ديوان أبي تمام ٣٣ وهو من قصيدة يمدح بها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، ومطلعها:

لقد أخذت من دار ماوية الحقب   أنحل المغانى للبلى هى أم نهب

والحقب الدهور، والنحل العطاء بلا عوض، والمغانى المنازل.

(٢) ديوان أبى تمام ١٠ من قصيدته التى يمدح بها المعتصم ويذكر فتح عمورية، والتى مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

(٣) ديوان أبى تمام ٤٢ من قصيدة يمدح بها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى مطلعها:

على مثلها من أربع وملاعب   أذيلت مصونات الدموع السواكب

ومعنى جابت قطعت، والقسطل الغبار، وصدعوا شققوا، والعوالى الرماح، والكتائب الجيوش.

حتّى أُغادِرَ كلَّ يومٍ بالفَلا ... لِلطَّيْرِ عِيداً مِنْ بَنَاتِ العِيد[١]

فالعِيدُ: فحلٌ من فحولِ الإبل، والعيدُ: اليومُ المعروفُ من الأيام.

وقدْ أكثر أبو تمّام من التَّجنيس فى شعرِه، فمِنْهُ ما أغْرب فيه فأحْسنَ، كالَّذِى ذكرتُه، ومنه ما أتَى بِه كريهاً مُسْتثْقَلاً، كقوله:

ويوم أرْشَقَ والهيجاء قد رَشَقَتْ ... من المنيَّةِ رَشْقاً وابلاً قَصِفا[٢]

وكقوله:

يا مُضْغِناً خَالِداً لَكَ الثُّكْلُ إنْ ... خَلَّدَ حِقْداً عَلَيْكَ فِى خَلَدِه[٣]

وكقوله:

وَأَهْلُ مُوقَانَ إذْ مَاقُوا فَلاَ وَزَرٌ ... أنجاهُمُ مِنكَ فِي الهَيْجا وَلاَ سَنَدُ[٤]

وكقوله:

مَهْلاً بَنِي مَالكٍ لا تَجْلِبُنَّ إلَى ... حَيِّ الأَرَاقِمِ دُؤْلُول ابنة الرَّقِم[٥]

(١) ديوان أبى تمام ٨٢ من قصيدة مطلعها:

أرأيت أى سوالف وخدود ... عنت لنا بين اللوى وبرود

والعيس النوق، والوديقة شدة الحر، والمسجورة الموقدة، والتنوفة الفلاة البعيدة الأطراف، والصيهود الفلاة لا ينال ماؤها، وبنات العيد النوق

(٢) ديوان أبى تمام ٢٠٢ من قصيدة فى مدح أبى دلف، ومطلعها:

أما الرسوم فقد أذكرن ماسلفا ... فلا تكفن عن شانيك أو يكفا

وأرشق اسم جبل، والوابل المطر الكثير.

(٣) ديوان أبى تمام ٩٤ من قصيدة مطلعها:

مالكثيب الحمى إلى عقده ... مابال جرعائه إلى عقده

والمضغن الحاقد، والثكل الفقد، والخلد القلب والنفس.

(٤) ديوان أبى تمام ٩٩ من قصيدة مطلعها:

يا بعد غاية دمع العين إن بعدوا ... هى الصبابة طول الدهر والسهد

ماقوا حمقوا، والوزر الملجأ، والهيجاء الحرب

(٥) ديوان أبى تمام ٢٦٩ من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق، ومطلعها:

سلم على الربع من سلمى بذى سلم ... عليه وسم من الأيام والقدم

وحى الأراقم بنو تغلب، والدؤلول والرقم من أسماء الداهية.

ثم قال فيها :

من الرُّدَيْنِيَّةِ اللَّائِي إذا عَسَلَتْ ... تشمُّ بَوَّ الصِّغار الأَنْفَ ذَا الشَّمَمِ (١)

وكقوله :

قَرَّتْ بِقُرَّانَ عَيْنُ الدِّين واشْتَتَرَتْ ... بِالأَشْتَرَيْنِ عُيونُ الشِّرْكِ فَاصْطُلِمَا (٢)

ولهُ من هذا الغثِّ البارِدِ المتكلّف شيءٌ كثيرٌ لا حاجةَ إلى استقصائه ، بلْ قدْ أوْرَدْنَا مِنه قليلاً يُستدَلُّ به على أمثالِه .

ومن الحَسَنِ في هذا البابِ قولُ أبي نُواس :

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إذَا احْتَدَمَ الْوَغَى ... وَالْفَضْلُ فَضْلٌ وَالرَّبِيعُ رَبِيعُ (٣)

وكذلك قولُه :

فَقُلْ لِأَبِي الْعَبَّاسِ إنْ كُنتُ مُذْنِباً ... فَأَنْتَ أَحَقُّ النَّاسِ بِالأَخْذِ بِالْفَضْلِ

فَلَا تَجْحَدُونِي وُدَّ عِشْرِينَ حِجَّةً ... وَلَا تُفْسِدُوا مَا كَانَ مِنكُمْ مِنَ الْفَضْلِ (٤)

---

(١) الردينية الرماح ، وعسلت اشتد اهتزازها ، والبو ولد الناقة ، أو جلد يحشى تبنا فيقرب من أمه إذا فقدته فتشمه فتدر ، والشمم ارتفاع الأنف .

(٢) ديوان أبي تمام ٣٠٢ من قصيدة في مدح إسحاق بن إبراهيم المصعبي مطلعها :

أصغى إلى البين مغتراً فلا جرماً ... إن النوى أسأرت في عقله لمما

وقران محل ، واشترت انفقت ، واصطلم قطع من أصله .

(٣) ديوان أبي نواس ٩٦ .

(٤) ديوان أبي نواس ١١٠ وقبل البيتين :

أأسلمتني ياجعفر بن أبي الفضل ... فمن لي إذا أسلمتني يا أبا الفضل

وأي فتى في الناس أرجو مقامه ... إذا أنت لم تفعل وأنت أخو الفضل

وأبو الفضل الربيع بن يونس وزير المنصور ، والفضل في قافية البيت الأول الكرم ، والفضل في الثاني ابن الربيع ، وفي الثالث السماحة ، وفي الرابع ضد النقص .

وعلى هذا النهجِ وَرَدَ قولُ البُحْتُرِيِّ :

إِذَا الْعَيْنُ رَاحَتْ وَهِيَ عَيْنٌ عَلَى الْجَوَى ... فَلَيْسَ بِسِرٍّ مَا تُسِرُّ الْأَضَالِعُ(١)

فالعينُ : الجاسوس ، والعين : معروفةٌ . وكذلك ورد قولُ بَعْضهم :

وَتَرَى سَوَابِقَ دَمْعِها فتواكفتْ ... سَاقٌ تُجَاوِبُ فَوْقَ سَاقٍ سَاقَا

فالساق : ساق الشجرة ، والساقُ : القُمْرِيُّ من الطُّيور .

وعلى هذا الأسلوبِ جاء قولُ بعضِ المتأخِّرين ، وهو الشاعرُ المعروفُ بالمَعَرِّي في قصيدة قصدَ بها التَّجْنيس في كثير من أبياتها ، فمِنْ ذلك ما أَوْرَدَ في مطلعها :

لَوْ زَارَنَا طَيْفُ ذَاتِ الخالِ أَحْيَانَا ... وَنَحْنُ فِي حُفَرِ الأَجْداثِ أَحْيَانَا

ثم قالَ في أبياتها :

تَقُولُ أَنْتَ امْرُؤٌ جافٍ مغالطة ... فقُلْتُ لا هَوَّمَتْ أَجْفَانُ أَجْفَانَا

وكذا قال في آخرها :

لَمْ يَبْقَ يُرْكَ إِنْسَاناً يُلاذُ بِهِ ... فلا بَرِحْتَ لعين الدَّهرِ إِنْسَانَا

ورأيت الغانِميَّ قد ذكر في كتابه باباً وسمَّاه (ردّ الأعجازِ على الصُّدور) خارجاً عن باب التَّجنيس ، وهو ضربٌ مِنه ، وقِسْمٌ من جُملة أقسامه كالَّذي نحنُ بصددِ ذكره هاهُنا ، فممَّا أوردَهُ الغانميُّ من الأمثلةِ في ذلك قولُ بعضهم :

ونَشْرِي بجميل الصُّنْـ ... ـعِ ذِكْرًا طيِّبَ النَّشْرِ

---

(١) ديوان البحترى ١/٤٥ من قصيدة في مدح الفتح بن خاقان مطلعها :

أَلَمَّتْ وهل إلمامها لك نافع ... وزارت خيالا والعيون هواجع

وفي الأصل « الهوى » موضع « الجوى » .

وَنَفْرِى بِسُيُوفِ الْهِنْـ ـدِ مَنْ أَسْرَفَ فِى النَّفْرِ
وَنَجْرِى فِى شِرَى الْحَمْدِ عَلَى شَاكِلَةِ الْبَحْرِ

وكَذلِكَ قولُ بعضِهم فى الشيب :

يا بياضاً أَذْرَى دُمُوعِىَ حَتَّى عَادَ مِنْها سَوَادُ عَيْنِى بَيَاضَا

وكذلك قولُ البُحْتُرِىِّ[1] :

وأغرَّ فى الزمنِ البَهِيمِ مُحَجَّلِ قَدْ رُحْتُ مِنْهُ على أغرَّ مُحَجَّلِ
كَالْهَيْكَلِ المبْنِىِّ إلاَّ أَنَّهُ فِى الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِى هَيْكَلِ

وَلَيْسَ الأَخْذُ على المعانِى فى ذلك مناقشةً على الأسماءِ ، وإنما المناقشةُ على أنْ يَنْصِبَ نَفْسَه لإيرادِ عِلْم البيانِ ، وتفصِيل أبوابِه ، ويكونُ أحدُ الأبوابِ التى ذكرنَاهَا داخِلاً فى الآخر ، فيذهَبُ عليه ذَلك ويخفَى عنه ، وهو أشهر من فَلَقِ الصّباح .

وربَّما جَهِل بعضُ الناس ، فأدخَلَ فى التجنيس ما ليسَ منه ، نظراً إلى مساواة اللفظ دونَ اختلافِ المعنى ، فمنْ ذلِكَ قولُ أبى تمّام[2] :

أظنُّ الدمعَ فى خدى سَيبْقِى رُسُوماً مِنْ بُكائِى فى الرُّسُومِ

وهذا ليس من التجنيس فى شىء ، إذ حدُّ التجنِيس هو اتفاقُ اللفظِ

---

(١) ديوان البحترى ٢/٢١٧ من قصيدة يمدح بها محمد بن على بن عيسى القمى الكاتب ، ومطلعها :

أهلا بذلكم الخيال المقبل فعل الذى نهواه أو لم يفعل

(٢) ديوان أبى تمام ٢٨٨ من قصيدة يمدح بها بعض بنى عبد الكريم الطائيين، ومطلعها :

أرامة كنت مألف كل ريم لو استمتعت بالأنس المقيم

واختلافُ المعنَى ، وهذا البيتُ المُشَارُ إليْه هو اتّفاقُ اللفظِ والمعنى معاً .

وهذا ممَّا ينبغِي أن يُنَبَّه عليه ليُعْرَفَ

ومِنْ علماءِ البيانِ مَن جعلَ له اسماً سَمَّاهُ به وَهُوَ (الترديد) أىْ أنَّ اللفظةَ الواحدةَ رُدِّدَتْ فيه . وحيثُ نَبَّهْتُ عليه هاهنا فلا أحتاجُ أَن أَعقِد له باباً أُفرِدُه بالذِّكرِ فيه .

[ما يشبه بالتجنيس]

وأما الأقسامُ السِّتَّة المشْبِهةُ بالتَّجنيس :

فالقسمُ الأوَّل منها : أنْ تكونَ الحروفَ متساويةً فى تركيبها ، مختلفة فى وَزنِها ، فمَّا جاءَ من ذلك قولُ النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم : « اللهمَّ كما حَسَّنْتَ خَلْقِى حَسِّنْ خُلُقِى » ألاَ تَرَى أنَّ هاتين اللفظتين متساوِيتَانِ فى التركيبِ مختلفتانِ فى الوَزْن ، لأنَّ تركيبَ الخَلْق والخُلُق مِنْ ثلاثةِ أَحْرف ، وهى الخاء واللّامُ والقافُ ، إلاَّ أنهما قد اختَلَفَا فى الوزنْ ، إذْ وَزْنُ « الخَلْق » فَعْل بفتح الفاء ، ووزن « الخُلُق » فُعُل بضَمِّ الفاء .

ومِنْ هذا القسم قولُ بعضهم « لا تُنَال غُرَرُ المعالى إلاَّ برُكوبِ الغَرَر واهتِبَال الغُرر » وقال البحترى :

وفَرَّ الحائنُ المغرورُ يرْجُو أماناً أىَّ ساعة ما أَمَانِ
يهَابُ الالتِفَاتَ وَقَدْ تهيَّا لِلحظَةِ طَرْفِهِ طرَفُ السِّنَانِ [1]

(١) ديوان البحترى ١/٩٣ من قصيدة يمدح بها المعتز بالله ومطلعها :
زويدك إن شأنك غير شانى وقصرك لست طاعة من نهانى
وفى الأصل « الحائن » موضع « الخائن » ، ورواية الديوان « للفتة طرفه » موضع « للحظة طرفه » .

وكذلك وَرَدَ قولُ الآخر :

قَدْ ذُبْتُ بَيْنَ حُشَاشَةٍ وَذِمَاءِ ما بَيْنَ حرِّ هَوًى وَحَرِّ هَوَاءِ

القسم الثانى : من المشبَّه بالتجنيس وَهُوَ أنْ تَكُونَ الألفاظُ مُتَسَاوِيَةً فى الوَزْنِ مُخْتَلِفَةً فى التركيبِ بحرفٍ واحد لا غيرُ ، وإنْ زادَ على ذلك خرَج من بابِ التجنيس .

فمَّا جاء منه قولُه تعالى : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَة »[1] فإنَّ هاتين اللفظتين على وزنٍ واحدٍ ، إلَّا أنَّ تركيبهما مختلفٌ فى حَرفٍ واحد .

وكذلك قولُه تعالى : « وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَينأَوْنَ عَنْه »[2] .

وكذلكَ قوله تعالَى : « ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تفْرَحُونَ فِى الأَرْضَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُون »[3]

وعلى نحوٍ من هذا وَرَدَ قولُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم : « الخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الخَيْر » وقال بعضُهم : « لاَ تُنَالُ المكارِمُ إلاَّ بالمكارِهِ »

وقالَ أبو تمَّام :

يمدُّون من أيدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بأسْيَافٍ قَوَاضٍ قَواضِبِ[4]

---

(١) سورة القيامة : الآيتان ٢٢ و ٢٣ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٢٦ .

(٣) سورة غافر : الآية ٤٥ .

(٤) ديوان أبى تمام ٤٢ من قصيدة يمدح بها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى ، ومطلعها :

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

وفى الأصل « قواضم » موضع « قواضب » وهو تحريف .

وقال البحتريّ :

مِنْ كُلِّ سَاجِي الطَّرْفِ أَغْيَدَ أَجْيَدٍ ... وَمُهَفْهَفِ الكَشْحَيْنِ أَحْوَى أَحْوَرِ [1]

وكذلك قوله :

شَوَاجِرُ أرماحٍ تقطّع بينهم ... شَوَاجِرَ أَرْحَامٍ مَلُومٌ قُطُوعُها [2]

القسم الثالث : من المشبَّه بالتجنيس : وَهُوَ أن تكونَ الألفاظُ مختلفةً في الوزنِ والتركيبِ بحرفٍ واحدٍ ، كقوله تعالى : « والْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ » [3] .

وقوله تعالى : « وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً » [4] .

وكذلك وَرَدَ قوله صلّى الله عليه وسلّم : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » .

ودخلَ ثَعْلَب صاحب كتاب « الفصيح » على أحْمَدَ بْنِ حَنْبَل رحمه اللهُ تعالى ومجلسُه غاصٌّ ، فجلسَ إلى جانبه ، ثمَّ أقبل عليه وقال : « أخافُ أنْ أكونَ ضيَّقتُ عليكَ على أنَّه لا يَضِيقُ مجلسٌ بمتحابَّين ، ولا تَسعُ الدُّنيا بأسْرها متباغِضَيْن » فقالَ له أحمد : « الصديقُ لا يُحاسِبُ ، والعدوُّ لا يُحْتَسَبُ له . »

---

(١) ديوان البحترى ١٩/١ وهو ثانى أبيات قصيدة فى مدح المتوكل مطلعها :

إن الظباء وغداة سفح محجر ... هيجن حرجوى وفرط تذكر

(٢) ديوان البحترى ٣/١ من قصيدة فى مدح المتوكل ومطلعها :

منى النفس فى أسماء لو تستطيعها ... بها وجدها من غادة وولوعها

ويقال شجره بالرمح أى طعنه ؛ وشواجر الأرحام روابطها ، وهى رواية الديوان ، وفى الأصل « شواجن » . وعلى رواية الديوان لا يكون فى البيت محل شاهد على هذا القسم .

(٣) سورة القيامة : الآيتان ٢٩و٣٠ . (٤) سورة الكهف : الآية ١٠٤ .

وهذا كلامٌ حسنٌ من كِلَا الرَّجلين . والتجنيسُ فى كلامِ أحمدَ رحمهُ الله فى قولِه : « يحاسب » و « يحتسبُ له » .

وقد جاءنى شىءٌ من ذلك عليه خِفَّةُ الطَّبع لا ثِقَلُ التَّطبُّع

فمنه ما ذكرتُه فى فصلٍ من كتابٍ إلى ديوانِ الخلافةِ يتضمَّن ذكرَ الجهاد فقلتُ :

« وخيلُ اللهُ قد اشتاقَتْ أنْ يُقالَ لها اركَبى ، وسُيُوفُه قد تطلَّعتْ أن يُقال لها اضربِى ، ومواطنُ الجهادِ قد بَعُدَ عهدُها باستسقاءِ شآبِيبِ النُّحور ، وإنْباتِ رَبِيع الذِّبابِ والنُّسور ، وما ذاكَ إلا لأنَّ العدوَّ إذا طلبَ تقمَّص ثوبَ إذلاله ، وتنصَّل من صِحَّةِ نِصَاله ، واعتصَمَ بمعاقلِهِ التى لا فرقَ بينها وبينَ عِقَاله » .

ومن ذلك ما ذكرتُه فى وصفِ كريم ، فقلت :

« وقدْ جعَل اللهُ حَرَمَهُ مَلْقَى الجِفَان ، ومُلْتَقَى الأَجْفَان ، فهو حِمًى لمَنْ جَنَى عليه زمانُه ، وجارٌ لمن بَعُدَ عنه جيرانُه »

ومن ذلك ما ذكرتُه فى فصل من كتاب إلى ديوانِ الخلافةِ ، وهو :

« ولقدِ استبان الخادمُ من بَرَكةِ طاعتهِ ما يَعْمَى عنه غيرُه فما يَراه ، ووجَد من أثَره فى صلاح دُنياه ما استدلَّ به على صَلاحِ أُخراه ، فهو المركَبُ المُنجِّى والعملُ المرجُوُّ لا المرجى . والمعنى المرادُ بهدايةِ الصِّراطِ المستقيم ، وتأويلُ قوله تعالى : « فليحذرِ الذِين يُخالِفُونَ عَنْ أمْرِهِ أنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَليم . »[1]

---

(١) سورة النور : الآية ٦٣ .

ومن ذلك ماذكرتُه فى أثناء كتابٍ إلى بعض الإخوانِ ، وذلك وَصْفُ بعضِ المنعمين ، فقلت :

« نحنُ من حُسْنِ شِيَمِه وفواضِلِ إحسانِه بين هِنْدٍ وَهُنَيْدَة ، ومِنْ يُمْنِ نَقيبَتِهِ وأمانة غَيْبِه بَيْنَ أمِّ مَعْبَدٍ وأبى عُبيدة » .

ومن ذلك ما ذكرتُه فى مطلعِ كتابٍ إلى بعضِ الإخوان فقلتُ :

« الكتبُ وإنْ عدَّها قومٌ عَرَضاً من الأعراض ، وتَقالَوْها حتَّى قالُوا هِيَ سوادٌ فى بياض ، فإنَّ لها عند الإخوانِ وجهاً وَسِيماً ، ومحلًّا كريماً ، وهى حَمائِمُ القلوب إذا فارقَ حَمِيمٌ حَمِيما . ومن أحسنها كتابُ سيدنا . . . » .

ثمَّ مضيْتُ على هذا النهج إلى آخر الكتاب .

ومن هذا القسم قول أبى تمام :

أيامَ تُدْمِي عَيْنَـه تلك الدُّمى فيهـا وتقْمِر لُبَّهُ الأقمارُ(١)

وكذلك قوله :

بِيضٌ فَهُنَّ إذا رُمِقْنَ سَوَافِراً صُوَرٌ وهنَّ إذَا رُمِقْنَ صِوارُ(٢)

وكذلك قوله :

بَدْرٌ أطالت فيك بَادِرَةَ النَّوىَ وَلَعاً وَشَمْسٌ أُولِعَتْ بِشِماسِ(٣)

---

(١) ديوان أبى تمام ١٤٥ من قصيدة فى مدح أبى سعيد الثغرى ، ومطلعها :

لا أنت أنت ولا الديار ديار خف الهوى وتولت الأوطار

ومعنى تقمر تغلب ، واللب العقل .

(٢) من القصيدة السابقة ، ومعنى رمقن أطيل النظر إليهن ، والسوافر المكشوفات ، والصوار قطيع بقر الوحش .

(٣) ديوان أبى تمام ١٧٣ من قصيدة فى مدح أحمد بن المعتصم ، ومطلعها :

ما فى وقوفك ساعة من باس تقضى ذمام الأربع الأدراس

ورواية الديوان « خطأ » موضع « ولعاً » والبادرة الخطأ ، والنوى الفراق ، والشماس العصيان .

وكذلك قوله :

كَادُوا النبوَّةَ والهدَى فتقطَّعَتْ أعناقُهُمْ فِى ذَلِكِ المِضَمارِ
جَهِلُوا فلمْ يستكثِرُوا من طاعةٍ معروفةٍ بعمارةِ الأعمارِ[١]

وكذلك قوله :

إنَّ الرماحَ إذا غُرِسْنَ بمشهدٍ فجنَى العوالِى فى ذَرَاهُ مَعَالِى[٢]

وكذلك قوله :

إذا أَحْسَنَ الأقوامُ أَنْ يتطاولُوا بلا نعمةٍ أحسنْتَ أَنْ تتطوّلا[٣]

وكذلك قوله :

أىُّ رَبْعٍ يكذّبُ الدهر عنهُ وهو مُلْقًى عَلَى طريقِ الليالِى
بَيْنَ حالٍ جنتْ عليه وحَوْلٍ فهو نِضْوُ الأحْوَالِ والأحْوَالِ ،
شدَّ ما استنزَلَتْكَ عن دَمْعِكَ الأظْعَانُ حتّى استهلَّ صوبُ العَزَالِى
أىُّ حُسْنٍ فى الذاهِبِينَ تولّى وجَمَالٍ على ظهورِ الجِمَالِ !

---

(١) ديوان أبى تمام ١٥٤ من قصيدة يمدح فيها المعتصم ويذكر إحراق الأفشين ، ومطلعها :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

(٢) ديوان أبى تمام ٢٦٤ من قصيدة يمدح فيها المعتصم ويذكر أخذ بابك ، ومطلعها :

آلت أمور الشرك شر مآل وأقر بعد تخمط وصيال

والتخمط التكبر ، والصيال التسلط ، والجنى الثمر ، والعوالى الرماح ، وذراه ظله .

(٣) ديوان أبى تمام ٢٥٢ من قصيدة فى مدح محمد بن عبد الملك الزيات ، ومطلعها :

لهان علينا أن نقول وتفعلا ونذكر بعض الفضل منك فتفضلا

ورواية الديوان « بلامنة » موضع « بلانعمة ».

ودَلاَلٍ مُخَيِّم فى ذُرَا الخـ ... يمِ وَحِجْلٍ معصَّمٍ فِى الحِجَالِ[1]

فالبيت الثانى والخامسُ هما المقصودانِ بالتَّمثيل هاهنا ، والأبياتُ الباقيةُ جاءت تبعاً .

وممّا جاء من ذلك قولُ علىّ بن جبَلة[2] :

وكَمْ لكَ مِنْ يَوْمٍ رَفَعْتَ بِنَاءَهُ ... بِذَاتِ جُفُون أوْ بذَاتِ جفَانِ

وكذلك قول محمّد بن وهيب الحميرىّ :

قَسَمْتَ صُرُوفَ الدهرِ بأساً ونائِلاً ... فمالُكَ مَوْتُورٌ وَسَيْفُكَ وَاتِر

وهذا من المليحِ النادرِ .

ومن هذا القسمِ قولُ البُحْتُرى :

جَدِيرٌ بأن تنشَقَّ عن ضوءِ وَجْهِهِ ... ضبَابَةُ نَقْعٍ تَحْتَهَا الْمَوْتُ نَاقِعُ[3]

وكذلك قوله :

نسيمُ الرَّوضِ فى ريحِ شَمَالٍ ... وصَوْبُ الْمُزْنِ فى رَاحٍ شَمُولِ[4]

---

(١) رويت هذه الأبيات فى الديوان (ص ٤٠٨) على النحو الآتى :

شدما استنزلتك من ربعك الأظـ ... ـعان حتى استهل دمع الغزال
أى حسن فى الذاهبين تولى ... وجمال على ظهور الجمال
ودلال مخيم فى ذرا الخيـ ... م وحجل معذب فى الحجال
ومهامن مها الخدور وآجا ... ل ظباء يسرعن فى الآجال
عادك الزور ليلة الرمل من رمـ ... لة بين الحمى وبين المطال
ثم فازارك الخيال ولكنـ ... ك بالفكر زرت طيف الخيال

والأظعان الهوادج فيها نساء ، واستهل سكب ، الذرى فناء الدار ، والخيم جمع خيمة ، والحجل الخلخال ، والحجال جمع حجلة وهى موضع يزين بالثياب والستور للعروس ، والعزالى جمع عزلاء وهو مصب الماء من الراوية .

(٢) على بن جبلة هو المشهور بالعكوك ، ولد سنة ١٦٠ هـ وتوفى سنة ٢١٣ هـ ، وكان ضريراً مسرفا فى المدح مغالياً فى معانيه

(٣) ديوان البحترى ١/٤٦ من قصيدة مطلعها :

ألمت وهل إلمامها لك نافع ... وزارت خيالا والعيون هواجع

(٤) ديوان البحترى ١/٣٠ من قصيدة مطلعها :

أ كنت معنفى يوم الرحيل ... وقد لجت دموعى فى الهمول

وذمَّ أعرابى رجلاً فقال : « كانَ إذا سألَ ألحفَ ، وإذا سُئِل سَوَّف ، يَحسُد على الفضلِ ، ويزهَدُ فى الإفضال » .

القسم الرابع : من المشبَّه بالتجنيس : ويسمّى (المعكوس) .

وذلك ضربان : أحدُهما عكسُ الألفاظِ ، والآخر عكسُ الحروف .

فالأول : كقول بعضِهم : « عاداتُ السَّاداتِ ساداتُ العَادات »

وكقول الآخر : « شِيَمُ الأَحْرار أحْرارُ الشِّيَم » .

ومن هذا النوع مِمَّا وَرَدَ شعراً قولُ الأضبطِ بْنُ قُرَيْع[1] من شعراء الجاهليَّة :

قد يجمعُ المالَ غيرُ آكِلِه ويأكلُ المالَ غيرُ مَنْ جَمَعَهْ
وَيقطَعُ الثوبَ غيرُ لابِسه ويلبسُ الثوبَ غيرُ من قطَعَهْ[2]

وكذلك وَرَدَ قولُ أبى الطَّيب المتنبِّى :

فلاَ مَجْدَ فِى الدُّنْيَا لمنْ قَلَّ مالُه ولا مَالَ فى الدُّنيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُه[3]

وكذلك قولُ الشريف الرَّضِى مِنْ أبياتٍ يذمُّ فيها الزمان :

أسَفَّ بِمنْ يطيرُ إلى المعالى وطارَ بِمَنْ يُسِفُّ إلى الدَّنايَا

---

(١) هو من بنى عوف بن كعب بن سعد ، رهط الزبرقان بن بدر ، وكان قومه أساءوا مجاورته ، فانتقل عنهم إلى آخرين ، فأساءوا مجاورته ، فانتقل عنهم الى آخرين ، فأساءوا مجاورته ، فرجع إلى قومه ، وقال : بكل واد بنو سعد ، قال ابن قتيبة : وهو قديم ، وكان أغار على بنى الحارث بن كعب ، فقتل منهم وأسر وجدع ، ثم بنى أطما ، وبنت الملوك حوله ذلك الأطم مدينة صنعاء

(٢) من أبيات مطلعها :

يا قوم من عاذرى من الخدعة والمسى والصبح لا فلاح معه

وانظر الشعر والشعراء ١/٣٤٣ .

(٣) ديوان المتنبى ٢/٢٣ من قصيدة فى مدح كافور مطلعها :

أود من الأيام مالا توده وأشكو إليها بيننا وهى جنده

وكذلك قول الآخر :

إنَّ الليـــالىَ للأنامِ مَناهِلٌ * تُطوَى وتُنْشَرُ بَيْنَها الأعْمارُ
فقصارُهنَّ من الهُمومِ طَوِيلَةٌ وطِوَالُهُنَّ من السُّرُورِ قِصارُ

وأحسنُ من هذا كلّه وألطفُه قولُ ابن الزَّقاقِ الأندلسىّ :

غَيَّرَتْنا يَـدُ الزَّما نِ فقد شِبْتُ والْتَحَى
فاستحالَ الضُّحَى دُجًى واستَحَالَ الدُّجى ضُحَى

وهـذا الضربُ من التجنيس له حلاوة ، وعليه رَوْنَق ، وقد سمَّاه قدامةُ بنُ جعفرِ الـكاتب (التبديل) وذلك اسمٌ مناسبٌ لمسَّاه ، لأنَّ مؤلفَ الـكلامِ يأتى بما كان مقدَّما فى جزء كلامه الأول مؤخّراً فى الثانى ، وبما كانَ مؤخّراً فى الأول مقدَّمًا فى الثانِى ، ومثَّله قدامةُ بقولِ بعضهم : « اشْـكُرْ لِمَنْ أنْعَمَ عليك ، وأنْعِمْ عَلَى مَنْ شَـكَرَك(١) »

ومن هذا القسمِ قولُه تعالى : « يُخْرِجُ الْحَىَّ من المَيِّتِ ويُخْرِجُ الميتَ مِنَ الْحَىِّ(٢) » .

وكذلك وَرَدَ قولُ النبىِّ صلى الله عليه وسلم : « جَارُ الدار أحقُّ بدار الجار » .

وكتب علىُّ بنُ أبى طالبٍ — رضى الله عنه — إلى عبدِ الله بن عباسٍ — رضى الله عنه — كتابا فقال : « أما بعد ، فإنَّ الإنسانَ يسرُّه دَرْكُ ما لمْ يكُنْ

---

(١) كتاب « جواهر الألفاظ » لقدامة بن جعفر : ص ٣ و ٤ واسمه عنده « عكس اللفظ » أو « عكس ما نظم من بناء » .
(٢) سورة آل عمران : الآية ٢٧ .

لِيَفُوتَه ، ويَسُوؤُهُ فَوْتُ ما لمْ يكنْ لِيُدرِكَه ، فلا تَكنْ بما نِلتَ من دُنياكَ فَرِحًا ، ولا بما فاتك منها تَرِحًا ، ولا تَكنْ مِمّن يرجُو الآخرةَ بغير عمل ، ويؤخِّر التوبةَ بطولِ أَمَل ، وكأنْ قَد ، والسلام » .

ورُوِيَ عن أبى تمّام أنّه لما قصدَ عبدَ الله بنَ طاهِرِ بنِ الُحسين بخراسان ، وامْتدحَه بقصيدتِه المشهورةَ التى مطلَعُها :

* أَهُنَّ عَوَادِى يُوسُفٍ وَصَوَاحِبُه [1] *

أنكر عليه أبو سَعِيدٍ الضّرِيرُ وأُبو الْعَمَيْثَلِ هذا الابتداءَ ، وقالا : « لِمَ لا يقولُ ما يُفْهَم » ؟ فقال : « لِمَ لا يَفْهَمَانِ ما يُقَال » ؟ ! فاستُحْسِنَ منه هذا الجواب على الْفَوْر . وهو من التجنيس المشارِ إليه .

وقد جاءنى شىءٌ منه .

كقولى فى فصل مِن كتاب يتضمن فتحا ، وهو :

« فكمْ كان فى افتراعِ عُذْرَةِ الحِصْن من افتراعِ عُذْرَةِ حَصَان ، وكمْ حِيزَ به من سِنانٍ لَحَظٍ اسْتَرَقّه لحُظُ سِنانٍ » .

وكذلك قولى فى صدر كتاب إلى ديوان الخلافة وهو :

« الخادمُ يبلغُ خدمتَه إلى ذلك الجنابِ الذى تَمطُرُه الشفاهُ قُبَلًا ، وتَوسِمُه العُفَاةُ أملا ، وترى الخَوَلَ به مُلوكًا والملوكَ خَوَلًا ، وطاعتُه هى محكُّ الأعمالِ التى أُشير إليها بقولِه تعالى : « لِيَبْلُوَكُم أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا [2] » .

---

(١) صدر بيت وتمامه * نعزماً نقدماً أدرك السؤل صاحبه *
وانظر ديوان أبى تمام ٤٣ .

(٢) سورة الملك : الآية ٢ .

وكذلك ورد قولى أيضا ، وهو فصل من تقليد وزير ، فقلت :

« وقد صدّق الله لهجةَ المُثنِي عليك أنْ يقول إنّك الرجُل الذى تُضرَبُ به الأمثال ، والمهذّبُ الذى لا يقالُ معه أىّ الرجال ، وإذا وَازَرْتَ مَملكةً فقد حُظِيَتْ منك بِشَدِّ أَزْرِها ، وسَدِّ ثَغرِها ، وأصبحت وأنتَ صَدْرٌ لقلبها ، وقلبٌ لصَدْرِها ، فهى مُزْدانةٌ منكَ بالفضلِ المتين ، مُعانَةٌ بالقوىِّ الأمين »

وأما الضرب الثانى من هذا القسم — وهو عكسُ الحروفِ — فهو كقول بعضهم :

أهْدَيْتُ شيئًا يَقِلُّ لَوْلاَ ... أُحْدُوثَةُ الفَالِ والتَّبرُّكْ
كُرْسِى تفاءَلْتُ فِيه لَمَّا ... رأيتُ مَقْلُوبَهُ « يَسُرُّكْ »

وكذلك قولُ الآخر :

كيفَ السُّرُور بإقبالٍ وآخرُهُ ... إذَا تأمّلْتَهُ مقلوبُ « إقبالِ » (١)

وأجوَدُ مِنْ هذا كله قولُ الآخر :

جَاذَبْتُها وَالرِّيحُ تجذِبُ مَقْرَباً ... مِنْ فوقِ خَدٍّ مثلِ قَلْبِ العَقْرَبِ
وَطَفِقْتُ أَلْثِمُ ثَغرها فتمنَّعتْ ... وتحجَّبتْ عنى بقلبِ « العَقْرَبِ »

وإذا قُلِبَ لفظُ « عقْرب » صار « بُرْقُعاً » .

وهذا الضَّربُ نادرُ الاستعمالِ ، لأنه قلَّ ما يقعُ كلمةٌ تُقلَبُ حُروفُها فيجىء معناها صواباً .

---

(١) مقلوب « إقبال » هو كلمة « لابقاء » .

القسم الخامس: من المشبه بالتجنيس ، ويسمى (المجنَّب) وذاكَ أنْ يَجْمَعَ مؤلِّفُ الكلامِ بين كلمتين إحداهما كالتَّبَعِ للاخرى والجنيبةِ لها ، كقولِ بعضِهم :

أبا العبَّاسِ لا تحسبْ بأنِّى ... لشىءٍ من حُلَى الأشعارِ عارِى

فَلِى طبعٌ كسَلْسَالٍ مَعِينٍ ... زُلَالٍ مِنْ ذُرَا الأحجارِ جارِى

وهذا القسمُ عندى فيه نَظَرٌ، لأنَّه بلزومِ مالا يلزم أوْلى منه بالتَّجنيس . ألا ترَى أنَّ التجنيسَ هو اتفاقُ اللفظِ واختلافُ المعنى . وها هنا لم يتفق إلاَّ جُزْءٌ من اللَّفظ ، وهو أقلّه ، وأمَّا اللزومُ فى الكلامِ المنثورِ فهو تساوِى الحروفِ التى قبلَ الفواصِلِ المسْجوعة ، وهذا هو كذلك ، لأنَّ العَيْنَ والراء تساوَيَا فى البيتِ الأوَّل فى قوله « الأشعار » و « عار » ، والجيم والراء فى البيتِ الثانى فى قوله « الأحجار » و « جار » .

القسم السادس : من المشبَّه بالتجنيس : وهو ما يساوى وَزْنُه تركيبَه ، غيرَ أنَّ حروفَه تتقدَّمُ وتتأخَّر ، وذلك كقول أبى تمَّام

بِيضُ الصَّفائِحِ لا سُودُ الصَّحائفِ فِى ... مُتُونِهِنَّ جلاءُ الشكِّ والرِّيَبِ (١)

فالصفائحُ والصَّحائف مما تقدَّمت حروفُه وتأخَّرت :

وقد ورد فى الكلام المنثور كقوله صلَّى الله عليه وسلم فى فضيلةِ تلاوةِ

---

(١) ديوان أبى تمام ٧ من قصيدة يمدح بها المعتصم ويذكر فتح عمورية ، ومطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

وبيض الصفائح يراد بها السيوف .

القرآنِ الكريم : « يقالُ لصاحبِ القرآن اقرأْ وارق ورَتِّل كما كنتَ تُرَتِّلُ فى الدُّنيا ، فإنَّ منزلتَكَ عندَ آخر آيةٍ تَقْرأُ »

فقوله صلى الله عليه وسلم « اقرأ » و « ارق » من التجنيس المُشارِ إليه فى هذا القسم .

النوع الثالث

فى الترصيع

وهو مأخوذ من ترصِيع العِقْد ، وذاكَ أنْ يكونَ فى أحدِ جانبى العِقْد من اللآلِىء مثلُ ما فى الجانب الآخَر ، وكذلك نجعلُ هذا فى الألفاظِ المنثورة من الأسجاعِ ، وهو أنْ تكونَ كلُّ لفظةٍ من ألفاظِ الفصلِ الأوَّل مساويةً لكلٍّ لفظةٍ من ألفاظ الفصل الثانى فى الوزْن والقافية .

وهذا لا يُوجَدُ فى كتابِ الله تعالى ، لما هو عليه من زيادةِ التكلُّف

فأمَّا قول مَنْ ذهبَ إلى أنَّ فى كتاب اللهِ منه شيئاً ومثَّله بقولِه تعالى : « إنَّ الأبْرَارَ لَفِى نَعِيم * وإنَّ الفُجَّارَ لَفِى جَحِيم[1] » فليسَ الأمرُ كما وقعَ له ، فإنَّ لفظة « لفى » قدْ وردتْ فى الفِقْرَتَيْن معاً ، وهَذا يخالفُ شَرطَ التَّرصيع الذى شَرَطناه ، لكنَّه قريبٌ منه .

وأما الشِّعر فإنِّى كنتُ أقولُ إنه لا يَتَّزِن على هذه الشريطة ، ولم أجِدْه فى أشعار العربِ ، لما فيه من تعمُّق الصَّنعة ، وتعسُّفِ الكُلْفة ، وإذا جِىءَ به فى الشِّعر لم يكنْ عليه مَحْضُ الطَّلاوة التى تكونُ إذا جِىءَ به

(١) سورة الانفطار : الآيتان ١٣ ، ١٤

فى الـكلامِ المنثور ، ثمّ إنى عثرتُ عليه فى شعرِ المُحْدَثين ، ولـكنّه قليلٌ جداً . فِمنْ ذلك قولُ بعضِهم :

فـكارمٌ أوليتَهـا متبرِّعًا   وجَرَائمٌ ألغيْتَها مُتوَرِّعًا

فـ « مكارم » بإزاء « جرائم » و « أوليتها » بإزاء « ألغيتها » و « متبرعا » بإزاء « متورعا »

وقد أجازَ بعضُهم أن يكونَ أحدُ ألفاظِ الفصلِ الأول مخالفاً لما يقابلُه من الفصل الثانى ، وهذا ليسَ بشىء ، لمخالفتِه حقيقة الترصيع .

فمَّا جاءَ من هذا النوعِ منثورًا قولُ الحريرىِّ فى مقاماته « فهوَ يطبعُ الأسجاعَ بجواهرِ لفظِه ، ويَقْرعُ الأَسماعَ بزواجرِ وعظِه » فإنَّه جَعَل ألفاظَ الفصلِ الأول مساويةً لألفاظِ الفصلِ الثَّانى وزناً وقافيةً ، فجعل « يطبع » بإزاء « يقرع » و « الأسجاع » بإزاءِ « الأسمـاع » و « جواهر » بإزاء « زواجر » و « لفظه » بإزاء « وعظه » .

وممَّا جاءنِى فى هذا النوعِ :

ما ذكرته فى جواب كتاب إلى بعض الإخوان ، وهو :

« قد أعذتُ الجوابَ ، ولم أستعِرْ له نظْما ملفّقاً ، ولا جلبْتُ إليه حُسْنًا منمّقًا ، بل أخرجتُه على رِسْلِه ، وغَنِيتُ بِصِقَالِ حُسْنه عن صَقْله ، فجاء كما تراهُ غير مَمْشُوطٍ ولا مخطُوط ، فهو يرفُلُ فى أثواب بِذْلَته ، وقد حَوَى الجمَال بِجُمْلته ، والحسْنُ ما وشَّتْهُ فِطرةُ التصوير ، لا ما حَشَتْه فِكرةُ التَّزوير » ، والترصيعُ فى قولى « وشَّتْهُ فطرة التصوير » و « حشته فكرة التَّزوير » .

وكذلك ورد قولي في فصل من الكلام يتضمن تنقيف الأولاد .

فقلتُ : « مَن قوَّم أَوَدَ أولادِه ، ضرَّمَ كَمَدَ حُسَّادِه » فهذه الألفاظ متكافئةٌ في ترصيعها ، فـ « قوَّم » بإزاء « ضرَّم » و « أَوَدَ » بإزاء « كَمَدَ » و « أولاده » بإزاء « حسَّاده » .

وكذلك قولُ بعضهم في الأمثال المولَّدة التي لم تَرِدْ عن العربِ ، وهو : « مَنْ أطاعَ غَضَبَه أضاعَ أدبَه » ، فـ « أطاع » بإزاء « أضاع » و « غضبه » بإزاء « أدبه » .

وقد وَرَد هذا الضَّربُ كثيراً في الخُطب التي أنشأها الشيخ الخطيبُ عَبْد الرَّحيم بن نُباتة رحمه الله ، فمِنْ ذلك قولُه في أول خُطْبة : « الحمدُ لله عاقِدِ أزِمَّة الأمُور بعزائم أمره ، وحاصِد أئمة الغرور بقواصِم مَكرِه ، ومُوفِّق عَبيده لمغانِم ذِكْره ، ومحقِّق مواعيده بلوازمِ شُكره »

فالألفاظُ التي جاءتْ في الفصلين الأوَّلين متساوية وزناً وقافيةً ، والتي جاءتْ في الفصلين الآخرين فيها تَخالُف في الوزنِ ، فإن « مواعيد » تخالفُ وزن « عبيد » ، ولا تخالف قافيتها التي هي الدال .

ومن ذلك قولُه أيضا في جملة خطبة « أولئك الذين أَفَلُوا فنَجَمْتُمْ ورَحَلُوا فأَقَمْتُم ، وأبادَهم الموتُ كما علمتم ، وأنتم الطامعونَ في البقاءِ بعدَهم كما زعمتُم ، كلاَّ والله ما أُشْخِصُوا لتَقرُّوا ، ولا نُغِّصُوا لِتُسَرُّوا ، ولابد أن تمرُّوا حيثُ مرُّوا ، فلا تثِقوا بخدع الدُّنيا ولا تَغترُّوا » .

وهذا الكلام فيه أيضاً ما في الذى قبلَه من صِحَّة الوزنِ والقافيةِ وصحَّة القافيةِ دونَ الوزن .

وكذلك قولُهُ أيضاً في خطبةٍ أخرى : « أيُّها الناسُ أَسِيمُوا القلوبَ

فى رياض الحِكم ، وأدِيمُوا النَّحيبَ على ابيضاض اللِّمم ، وأطيلوا الاعتبارَ بانتقاص النِّعم ، وأجِيلُوا الأفكارَ فى انقراض الأُمم » .

وأمّا ماوردَ فى الشِّعر على مخالفةِ بعضِ الألفاظِ بعضاً فكقول ذى الرُّمَّة :

كحلاء فى بَرَجٍ صَفْراء فى دَعَجٍ   كأنَّها فضةٌ قد مسَّها ذَهَبُ [1]

وصدرُ هذا البيتِ مرصَّع ، وعجزُه خالٍ من الترصيع ، وعذرُ الشاعِر فى ذلك واضحٌ ، لأنه مقيَّد بالوقوفِ مع الوزنِ والقافيةِ ألا تَرَى أنَّ ذا الرُّمَّة بنَى قصيدتَه على حرفِ الباءِ ، ولو رصَّعَ هذا البيتَ الترصيعَ الحقيقىَّ لكان يلزمُهُ أن يأتِىَ بألفاظِه على حرفين حرفين : أحدهما الباء ، أو كانَ يُقسِّم البيتَ نِصْفَين ويماثلُ بين ألفاظِ هذا النِّصف وهذا النِّصفْ ، وذلك ممَّا يعسُر وقوعُه فى الشِّعر .

وأربابُ هذه الصناعةِ قدْ قسّموا الترصيعَ إلى هذين القِسْمَين المذكورَين ، وهذه القسمَةُ لا أراها صواباً ، لأن حقيقةَ الترصيعِ موجودةٌ فى القسم الأوَّل دونَ الثَّانى .

ومما جاء من هذا القسمِ الثَّانى قولُ الخنساء :

حَامِى الحَقِيقَةِ محْمودُ الخليقةِ مَهْـ   ـدِىُّ الطَّرِيقَـةِ نفَّاعٌ وضَرَّارُ [2]

---

(١) من قصيدة له مطلعها :

ما بال عينك منها الماء ينسكب   كأنه من كلى مفرية سرب

ورواية الديوان « دعج » موضع « برج » و « نعج » موضع « دعج » .

(٢) من قصيدة الخنساء فى رثاء أخيها صخر التى مطلعها :

ماهاج حزنك أم بالعين عوار   أم ذرفت أم خلت من أهلها الدار

وقد سقط البيت من ديوانها ، واستدركه الأب لويس شيخو اليسوعى فى كتابه « أنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء » ص ٨١ ، وقد استشهد به أبو هلال العسكرى للترصيع الجيد ، وأتبعه ببيت الخنساء الذى يليه :

جمال سامية وراد طامية   للمجد نامية تعنيه أسفار

وقال : هذا البيت ردىء ، لتبرؤ بعض ألفاظه من بعض . وانظر الصناعتين ٣٧٨ .

وكذلكَ قولُ الآخر[١] :

سُودٌ ذَوَائِبُها بيضٌ تَرَائِبُها   مَحْضٌ ضَرَائِبُها صِيغتْ مِنَ الكَرَمِ

النوع الرابع

فى لزوم ما لا يلزم

وهو من أشق هذه الصناعةِ مذهباً، وأبعدها مسلكاً، وذاكَ لأنَّ مؤلِّفه يلتزمُ مالا يلزمُه، فإن اللازم فى هذا الموضعِ وما جَرى مجراه إنَّما هو السَّجع الَّذى هو تساوى أجزاء الفواصِل من الكلامِ المنثورِ فى قوافِيها، وهذا فيه زيادةٌ على ذلك، وهو أن تكونَ الحروفُ الَّتى قبلَ الفاصلةِ حرفاً واحداً.

وهو فى الشِّعرِ أن تتساوَى الحروفُ التى قبلَ رويِّ الأبياتِ الشِّعْرِية.

وقد جمعَ أبو العلاء أحمدُ بنُ عبد الله بن سليمان[٢] فى ذلك كتاباً وسمَّاه كتاب «اللُّزُوم[٣]» فأتى فيه بالجيِّد الذى يُحْمد، والرَّدِىء الَّذى يُذَمّ.

وسأذكر فى كِتابى هذا فى هذا الموضعِ أمثلةً من المنثورِ والمنظُوم يُهتَدَى بها.

فمن ذلك ما ذكرته فى جملة كتاب فى فصل يتضمن ذم جبان، فقلت :

«إذا نَزَلَ به خَطْبٌ ملكَهُ الفَرَق، وإذا ضَلَّ فى أمرٍ لمْ يُؤمِنْ إلاّ إذا أدركَهُ الغَرَق»

---

(١) هو أبو صخر الهذلى.   (٢) هو أبو العلاء المعرى.

(٣) هذا اختصار لاسم الكتاب، كما يسميه بعضهم «اللزوميات» والحقيقة أن اسمه كما سماه مؤلفه «لزوم مالا يلزم» قال أبو العلاء فى خطبته : وجمعت ذلك كله فى كتاب لقبته «لزوم مالا يلزم» ومعنى هذا اللقب أن القافية تلزم لها لوازم لا يفتقر إليها حشو البيت ... الخ — لزوم مالا يلزم : ج ١ ص ٣.

ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب إلى بعض الإخوان ، فقلت :

« الخادمُ يُهدِى من دُعائه وثنائِه ما يَسْلُكُ أَحَدَهُما سماءً والآخَرَ أرْضاً ، ويصُونُ أَحَدَهما نفسًا والآخَرَ عِرْضاً ، وأَعْجَبُ ما فيهما أنَّهما تَوْأَمان ، غيرَ أَنَّ هذا مُسْتَنتَجٌ من ضميرِ القلبِ وهـذا مِنْ نُطْقِ اللِّسان » .

فاللزومُ هاهُنا في الرَّاء والضادِ .

وكذلك ورد قولي في جملة كتاب إلى ديوان الخلافة ، فقلت :

« وَقَدْ عُلِمَ من شِيَمَ الدِّيوان العزيزِ أَنَّهُ يُسرُّ بامتداد الأيدى إلى بابِه ، وإذَا أَغَبَّ أحدُها في المسألةِ نهاهُ عن إغبابِه ، حتَّى لا يخلوَ حَرَمُهُ الكريمُ من المطافِ ، ولا يده الكريمةُ مِنَ الإسعاف » .

فاللزومُ هاهُنا في لفظتي « بابه » و « إغبابه » .

ومن ذلك ما كتبته في جملة كتاب إلى ديوان الخلافة أيضا ، وهو :

« ومهما شُدَّ به عَضُدُ الخادِمِ من الإنعام فإنَّه قوةٌ لليد التي خَوَّلَتْه ، ولا يَقْوَى تصعُّد السُّحب إلا بكثرةِ غَيْثِها الَّذى أَنزلَتْه ، وغيرُ خافٍ أن عبيدَ الدولةِ لها كالعَمَدِ من طِرَافِها[1] ، ومركَزُ الدائرةِ مِنْ أَطْرافِها ، ولا يُؤَيَّدُ السيفُ إلا بقائِمه ، ولا ينهضُ الجناحُ إلاّ بقوادِمِه » .

فاللزومُ في هذا الموضعِ في الرَّاء والفاء في قولي «طراف» و « أطراف » .

---

(١) الطراف البيت من أدم .

ومن ذلك ما كتبته في صدر كتاب إلى الملك الأفضل علي بن يوسف أهنيه بملك مصر في سنة خمس وتسعين وخمسمائة، فقلت :

« المملوكُ يهنئ مولانا بنعمةِ الله المُؤْذَنة باستخلاصه واجتبائه، وتمكينه حتى بلغ أشُدَّه، واستخرجَ كنزَ آبائِه، ولو أنصفَ لهنَّأ الأرض منه بِوَابلها، والأمة بكافِلِها، وخصوصاً أرض مِصر التى خُصَّت بشرفِ سُكناه، وغدَتْ بين بَحْرين من فَيْضِ البحرِ وفيضِ يُمْناه » .

وكلُّ هذه الفصُول المذكورةُ من هذه المكتوبات التى أنشأتُها لا كُلْفةَ على كلماتِ اللُّزوم فيها .

وقرأتُ فى كتابِ « الأغانى » لأبى الفرَج أنَّ لقيطَ بنَ زُرَارةَ تزوَّج بنتَ قَيْسِ بنِ خالدِ بن ذِى الجَدَّين، فحظِيَتْ عنده، وحَظِيَ عندَها، ثم قُتِلَ، فآمتْ بعدَه، وتزوّجتْ زوجاً غيره، فكانتْ كثيراً ما تذْكُر لَقيطاً، فلامَها على ذلك، فقالتْ : « إنَّه خرج فى يومِ دَجْن، وقد تطَّيبَ وشرب فطرَدَ البقَر فصَرع منها، ثمَّ أتانِي وبه نَضْحُ دَمٍ، فضَمَّني ضَمَّةً، وشَمَّنِي شَمَّة، فليتني مُتُّ ثَمَّة، فلمْ أرَ منظراً كانَ أحْسَنَ من لَقِيط » .

فقولها « ضمَّنى ضمَّة، وشمَّنى شَمَّة، فليتنى مُتُّ ثمَّة » من الكلامِ الحُلو فى بابِ اللُّزوم، ولا كُلْفةَ عليه .

وهكذا فليكنْ، فإنَّ الكُلفةَ وحَشَةٌ تذهبُ برونقِ الصَّنْعَة . وما ينبغِى لمؤلِّف الكلامِ أنْ يَستعمل هذا النوعَ حتى يَجِيء به متكلِّفا . ومثالُه فى هذا المقامِ كمنْ أخذَ موضُوعا رديئاً فأجاد فيه صَنعته، فإنَّه يكونُ عند ذلك قد راعَى الفرْع، وأهْمل الأصْلَ، فأضاعَ جودةَ الصَّنْعة فى رداءةِ الموضُوع .

وقد سلك ذَلِكَ أبُو العلاء المعرِّى أحمدُ بنُ عبد الله بن سُليمان . فممّا جاء منْ ذلك قوله فى حرف التَّاء مع الخَاء[(١)] :

بِنْتُ عن الدُّنيا ولا بِنْتَ لِى فِيهَا وَلاَ عِرْسٌ ولا أُخْتُ
وقد تحملتُ منَ الوِزْرِ مَا تَعْجِزُ أن تَحْمِلَهُ الْبُخْتُ[(٢)]
إن مَدَحُونى سَاءَنِى مَدْحُهُمْ وَخِلْتُ إِنِّى فِى الثَّرَى سُخْتُ

وله منْ ذلك الجيد كقوله :

لا تطلبنَّ بآلةٍ لكَ حاجةً قلمُ البليغ بغيرِ جَدٍّ مِغْزَلُ
سَكَنَ السِّماكانِ[(٣)] السماء كِلاَهُما هَذا لَهُ رُمْحٌ وَهَذا أعْزَلُ

وهذا بَيْنَ الاسترسال وَبَيْنَ الكُلْفَة .

وأمّا ما تكلف له تكلُّفاً ظاهراً — وإنْ أجاد — فقوله[(٤)] :

تُنَازِعُ فى الدُّنيا سِوَاكَ ومَالَهُ ولا لكَ شىءٌ فى الحقيقةِ فِيهَا
ولكنّها مِلْكٌ لِرَبٍّ مُقَدِّرٍ يُعِيرُ جُنُوبَ الأَرْضِ مرتدِ فِيهَا[(٥)]
ولَمْ تَحْظَ مِنْ ذاكَ النِّزَاعِ بطائلٍ مِن الأمرِ إلاّ أنْ تُعَدَّ سَفِيهَا

---

(١) لزوم مالا يلزم ١٤٠/١ .

(٢) البخت الإبل الخراسانية المولدة من عربية وفالج — والفالج الجمل الضخم ذو السنامين يحمل من السند للفحلة .

(٣) السماكان الأعزل والرامح نجمان نيران ، والأعزل لأنه لا سلاح معه ، أو لأنه إذا طلع لا يكون فى أيامه ريح ولا برد ، والرامح نجم يكون قدام الفكة يقدمه كوكب يقولون هو رمحه ، والفكة كواكب مستديرة خلف السماك الرامح .

(٤) لزوم مالا يلزم ٤١٠/٢ .

(٥) الجنوب جمع جنب وهو شق الشىء ، وارتدفه تبعه

فيا نفسُ لا تعظُمْ عليكِ خطوبُها ... فتَفِقوها مِثـلُ مُختلِفيها
تداعَوا إلى النزْرِ القليلِ فجالَدوا ... عليه وخَلّوْها لِمُفترِفيها
وما أمُّ صِلٍّ أو حَليلةُ ضَيْغَمٍ ... بأظلَمَ مِن دُنياكِ فاعتَرِفيها[1]
تلاقي الوفودَ القادميها بفرحةٍ ... وتَبكي على آثارِ مُنصرِفيها
وما هِيَ إلّا شوكةٌ ليسَ عِندَها ... وَجدِّكَ إرطـابٌ لِمُختَرِفيها[2]
كما نَبذَتْ للطيرِ والوحشُ رازِمٌ ... فألفَت شرُوراً بين مُختَطِفيها[3]
تناءَتْ عنِ الإنصافِ مَنْ ضيمَ لم يجِدْ ... سبيلاً إلى غاياتِ مُنتَصِفيها
فأطبِقْ فماً عنها وكفّاً ومُقلةً ... وقُلْ لِنَوى النّاسِ فاكَ لِفيها[4]

ومِنْ ذلك[5] :

أرى الدُّنيـا وما وُصِفَتْ ببِرٍّ ... إذا أغنَتْ فقيـراً أرهَقَتهُ[6]
إذا خُشِيَتْ لِشَرٍّ عجَّلَتْهُ ... وإنْ رُجِيَتْ لِخَيرٍ عوَّقَتهُ
حَياةٌ كالحِبالةِ ذاتُ مَكْرٍ ... ونفسُ المرءِ صَيْدٌ أعلَقَتهُ
فلا يُخـدَعْ بحيلتِها أريبٌ ... وإنْ هِيَ سَوَّرَتهُ ونطَّقَتهُ
أذاقَتهُ شَهِيّاً مِن جَناها ... وصَدَّتْ فاهُ عمّا ذوَّقَتهُ

---

(١) أم صل الحية، وحليلة الضيغم لبؤة الأسد أى زوجته ، وقوله فاعترفيها أى تعرفيها .

(٢) فى الديوان « شاكة » موضع « شوكة » والشاكة الكثيرة الشوك ، والإرطاب مصدر أرطب النخل حان أوان رطبه ، واخترف الثمار جناها .

(٣) الرازم البعير لايقوم هزالا، وإنما أنث الضمير والفعل لتأويله بمؤنث أو خبر عن العلم .

(٤) هذه كلمة تستعملها العرب عند الدعاء بالمكروه والشماتة به ، والمعنى : جعل الله فم الداهية مقابلا لفيك ، وأصل ذلك أن السباع إذا تهارشت صرفت أفواهها بعضها لبعض ، فكأنهم يدعون على من يقال له ذلك أن يكون مكابداً للدواهى .

(٥) لزوم مالا يلزم ٢/٤٠٠

(٦) فى الديوان « أوهقته » أى جعلت الوهق — وهو الحبل — فى عنقه .

وَقدْ وَرَدَ للعرب شىءٌ من ذَلِكَ إلا أنَّه قليلٌ ، فما جاءَ منه قولُ بعضِهم في أبياتِ الحماسة[1] :

إنَّ التِي زَعمَتْ فُؤادكَ مَلَّهَا ... خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هوًى لهَا

بَيْضاء باكَرَهَا النَّعِيمُ فَصَاغَهَا ... بِلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا وَأَجَلَّهَا

حَجَبَتْ تَحِيَّتَهَا فَقُلْت لِصَاحِبِي ... مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقَلَّهَا

وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ ... شَفَعَ الضَّمِيرُ إلى الْفُؤَادِ فَسَلَّهَا

وهذا من اللطافةِ على ما يَشْهَدُ لنفسه .

ومِمَّا يَجْرى هذا المجرَى قَوْلُ حجر بن حَيَّةَ الْعَبْسِيِّ من شُعَرَاء الحماسة أيضاً[2] :

وَلاَ أُدوِّمُ قِدْرِي بَعْدَمَا نَضِجَتْ ... بُخْلاً فَتَمْنَعُ مَا فِيهَا أَثَافِيهَا[3]

حَتَّى تُقَسَّمَ شَتَّى بَيْنَ مَا وَسِعَتْ ... وَلاَ يُؤنَّبُ تحتَ اللّيلِ عَافِيهَا[4]

ومما وردَ من ذلك أيضاً قولُ طرفةَ بنِ العبد البكريِّ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المالَ يَكسِبُ أَهلَهُ ... فُضُوحاً إذا لمْ يُعْطَ مِنه نَوَاسِبُهْ

أَرَى كلَّ مالٍ لا محالةَ ذاهِبًا ... وأَفضَلُهُ مَا وَرَّثَ الحمدَ كَاسِبُهْ

---

(١) مضى الكلام في هذا الشعر في ص ٢٤٦ من هذا الكتاب .

(٢) ديوان الحماسة ٢/٢٨٩ ، والواقع أنه لا التزام في هذا الشعر إلا في هذين البيتين وبعدها بيتان لا التزام فيهما وهما :

لاأحرم الجارة الدنيا إذا اقتربت ... ولا أقوم بها في الحى أخزيها

ولا أكلمها إلا علانية ... ولا أخبرها إلا أناديها

(٣) رواية الحماسة « لتمنع » موضع « فتمنع » . والأثافى الحجارة التى توضع عليها القدر والمعنى : لا أدع قدرى بعد نضجها على الأثافى بخلا بما فيها ، بل أنزلها عنها ، وأطعم منها الأضياف وكان من عادة البخيل أن يترك القدر منصوبة على الأثافى، ليرى غيره أن القدر لم تنضج .

(٤) لا يؤنب أى لا يلام ، والعافى هو طالب المعروف .

وكذلك قولُ الفرزدق :

وَغَيَّرَ لَوْنَ راحلتِى ولَوْنِى   تَرَدِّىْ المواجرَ واعْتِمامِى

أقولُ لها إذا ضجرتْ وغصَّتْ   بمُورِكَة الوراك معَ الزِّمَامِ

عَلاَمَ تلفّتينَ وأنتِ تحْتِى   وَخيْرُ النَّاسِ كلهم أمَامِى

وكذلك قولُه أيضاً :

منعَ الحياةَ من الرِّجالِ ونَفعَها   حَدَقٌ تُقلبها النساء مِرَاضُ

وكأنَّ أفئِدَةَ الرِّجالِ إذا رَأَوْا   حَدَقَ النِّساء لِنَبْلِها أغْرَاضُ

وإذا شئتَ أن تعلمَ مقاديرَ الكلامِ، وكان لك ذوقٌ صَحِيحٌ فانظرْ إلى هذا العربِّى فى كلامِه السَّهل الذى كأنه ماءٌ جارٍ، وانظرْ إلَى ما أوردْتُه لأبى العَلاءِ المعرِّىّ، فإنَّ أثرَ الكُلفةِ عليه بادٍ ظاهر.

وممن قصَّد مِنَ العربِ قصيدَهُ كلَّه على اللُّزوم كُثَيِّر عزَّة، وهى القصيدةُ الَّتى أوَّلها :

خَلِيلَىَّ هـذا رَبْعُ عَزَّةَ فَاعْقِلاَ   فَلو صَيْكُمَا ثُم احْلُلاَ حَيْثُ حَلَّتِ [1]

وهذه القصيدة تَزيدُ على عشرين بيتاً، وهى مع ذلك سهلةٌ ليِّنة، تكادُ تترقرقُ من لينها وسُهولتِها، وليسَ عليها من أثر الكُلفةِ شىءٌ. ولولا خَوْفُ الإطالةِ لأوْرَدْتُها بجُملتها

(١) رواية لزوم مالايلزم (١ / ١٧) «ثم ابكيا حيث حلت» وكذلك فى سر الفصاحة (٢١١) قال الخفاجى : وكان شيخنا — يقصد أبا العلاء — يذهب إلى أن قصيدة كثير التى أولها «خليلى . . .» قد لزم اللام فى جميعها، فلما سألناه عن البيت الذى يروى فيها، وهو :

أصاب الردى من كان يهوى لك الردى   وجن اللواتى قلن عـزة جنت

قال : هذا البيت ليس من هذه القصيدة .

وقد ذكرَ بعضُهم من هذا النوعِ ما وَرَد فى أبياتِ الحماسةِ [1] وهو :

وَفَيْشَةٍ ليستْ كهذِى الْفَيْشِ قَدْ مُلِئَتْ من ترَفٍ وَطَيْشِ [2]

إذَا بَدَتْ قلت أميرُ الجيْشِ مَن ذاقها يَعرِفُ طعْمَ العَيْشِ

وهذا لَيْس من بابِ اللزوم ، لأن اللزوم هو أن يَلْتزِمَ الناظمُ والنَّاثر مالا يلزمه ، كقولنا «شرق» و «فرق» مثلاً ، فإنه لوْ قِيل بدلاً من ذلك «شرق» و «حنق» لجازَ ذلك .

وفى هذهِ الأبياتِ لا يقعُ الأمرُ كذلك ، لأنه لو قيلِ « طيش » و « عرش » لمَا جاز . وهذَا يُقالُ له الرِّدْف فى الشعر وهو الياء والواوُ قبلَ حرفِ الرَّوِىِّ ، وَإذَا جِيءَ بذلك فى الشعر وفى الـكلام المنثورِ لا يُقال إنّه التزامُ مالا يلزم ، لأنَّ الملتزِمَ مالا يلزمُ له مندوحةٌ فى العُدُول إلى غيره ، وهاهنا لا مندوحةَ .

ومن لطيفِ ذلِكَ ما يُرْوَى لامرأةٍ من البصرةِ مَجَنَتْ بأبِى نُوَاس فقَالَتْ :

إنَّ حِرِى حَزَنْبَلٌ حَزَابِيَهْ إذَا قَعَدْتُ فوقَهُ نَبَا بِيَهْ [3]

كَالأرْنَبِ الجاثِمِ فَوْقَ الرَّابِيَهْ

وكذلِكَ ورَدَ قولُ أبى تمَّام ، وهو [4] :

خَدَمَ العُلاَ فَخَدَمْنَه وَهِىَ الّتى لاَ تَخْدُمُ الأقوامَ ما لم تُخْدَمِ

فإذَا ارْتَقى فى قُلَّةٍ مِنْ سُؤْدُدٍ قالتْ له الأُخرى بَلَغتَ تَقَدَّم

---

(١) ديوان الحماسة ٢/٢٧١ .

(٢) رواية الحماسة * قد ملئت من خرق وطيش *

(٣) الحزنبل المشرف ، والحزابية الغليظ .

(٤) ديوان أبى تمام ٣١٣ من قصيده يمدح بها أبا الحسين محمد بن الهيثم ؛ ومطلعها :

نثرت فريد مدامع لم تنظم والدمع يحمل بعض شجو المغرم

وعلى هذا الأسلوبِ قولُه أيضاً[1] :

ولو جرَّبتني[2] لوَجَدتَ خرْقاً ... يُصَافِي الأكرمِينَ ولا يُصادِي
جديراً أنْ يكرَّ الطَّرْفَ شَزْراً ... إلى بَعْضِ المواردِ وَهو صَادِ

ولهُ من أبياتٍ تتضمنُ مَرْثيَّةً[3] :

لقد فُجِعَتْ عَتَّـابُه وَزُهَيْرُه ... وَتغْلِبُهُ[4] أُخرى اللّيالى ووَائِلُهْ
وَمُبْتَدِرُ المعروفِ تَسْرى هِبَاتُهُ ... إليهمْ ولا تَسْرى إليهم[5] غوائِلُهْ
طَوَاهُ الرَّدَى طيَّ الرِّدَاء وَغُيِّبَتْ ... فَضَائِلُهُ عنْ قَوْمِهِ وَفَوَاضِلُهْ
طَوَى شيماً كانتْ تَرُوحُ وَتَغْتَدِى ... وَسَائِلَ مَنْ أعْيَتْ عليه وَسَائِلُهْ
فيَا عَارِضاً لِلعُرْفِ أقْلَعَ مُزْنُهُ ... وَيَا وَادِياً للجُودِ جَفَّتْ مَسَايِلُهْ
أَلَمْ ترَنى أنزَفتُ عَيني عَلَى أبى ... مُحَمَّدٍ النَّجْمِ المُغَيَّب[6] آفِلُهْ
وَأخضَلتُها فِيهِ كما لَوْ أتَيْتُهُ ... طَرِيدَ اللّيالِى أخضلتنى[7] نَوَافِلُهْ

وهذا من أحسنِ ما يجيء في هذا البابِ ، وليس بمتكلّفٍ كشعرِ أبى العلاء ، فإنَّ حُسْنَ هذا مطبوعٌ ، وحُسْنَ ذاكَ مصنوع .

(١) ديوان أبي تمام ٨١ من قصيدة يمدح بها أبا عبد الله احمد بن أبي داود ، ويعتذر إليه ومطلعها :

سقى عهد الحمى سبل العهاد ... وروض حاضر منه وباد

(٢) رواية الديوان « ولو كشفتنى » والخرق السخى ، ويصادى يعارض .

(٣) ديوان أبي تمام ٣٧٧ من قصيدة يرثى بها القاسم بن طوق ، ومطلعها :

جوى ساور الأحشاء والقلب واغله ... ودمع يضيم العين والجفن هامله

(٤) فى الأصل « وتطلبة » والصواب عن الديوان ؛ وفجعت أصيبت ، وعتاب وزهير وتغلب ووائل قبائل .

(٥) للبتدر المسرع ، الغوائل المهلكات .

(٦) فى الأصل « المشرق »

(٧) فى الأصل « أخلصتها » و « أخلصتنى » . ومعنى أخضلتها بللتها ، والنوافل العطايا .

وكذلك أقولُ في غيرِ اللّزوم من الأنواعِ المذكورةِ أوّلاً ، فإنّ الألفاظَ إذا صدرتْ فيها عن سُهولة خاطر وسلاسةِ طبع ، وكانتْ غير مُستَجْلَبةٍ ولا متكلّفة ، جاءتْ غير محتاجةٍ إلى التأنّق . ولا شكَّ أن صورةَ الخِلْقة غيرُ صُورَة التّخلّق .

فإن قيلَ ما الفرقُ بين المتكلّفِ من هذه الأنواع وغير المتكلّف ؟

قلتُ في الجوابِ :

أما المتكلّف فهو الذي يأتي بالفكْرةِ والرَّويّة ، وذلك أن يُنْضَى الخاطرُ في طَلَبه ، ويُبْعَثَ على تَتَبُّعه ، واقتصاص أثرِه ، وغيرُ المتكلّف يأتي مستريحاً من ذلك كلِّه ، وهو أن يكونَ الشاعرُ في نظم قصيدتِه ، أو الخطيبُ أو الكاتبُ في إنشاء خطبتِه أو كتابتِه ، فبَيْنَا هو كذلِكَ إذْ سَنَح له نوعٌ من هذه الأنواعِ بالاتّفاقِ ، لا بالسّعي والطّلب . ألا ترَى إلى قولِ أبي نواسٍ[1] في مثلِ هذا الموضع :

أتْرُكِ الأطلالَ لا تعبأْ بِها ... إنَّها مِنْ كلِّ بُؤْسٍ دانِيَهْ
وَانْعتِ الراحَ عَلَى تَحْرِيمِها ... إنَّما دُنْياكَ دارٌ فانِيَهْ
مِنْ عُقارٍ مَنْ رَآهَا قالَ لِي ... صِيدَتِ الشَّمْسُ لنَا فِي آنِيَهْ[2]

وعلى هذه السهولةِ واللطافةِ وردَ قولُه أيضاً :

كَمْ مِنْ غُلامٍ ذِي مَحاسِينِ ... أفسَدَهُ ناطِفُ ياسِينِ[3]

---

(١) ديوان أبي نواس ٣٥١ .
(٢) رواية الديوان « في باطية » والباطية الناجود ؛ وهو الخمر وإناؤها .
(٣) الناطف ضرب من الحلوى يصنع من الجوز واللوز والفستق .

وَهَذَا « ياسِينُ » كان يَبِيعُ الناطِفَ بِبغْدَادَ .

وحكى إبْرَاهِيم البَنْدَنِيجِيُّ قالَ : رأيتُ شيخاً ضعيفاً يبيع ناطِفاً ، فقُلْتُ له : يا شيخُ ، أمَا زِلْتَ فى هذِه الصِّنَاعة ؟ فقال : مُذْ كنتُ ، ولكنَّ الحالَ كانتْ واسعةً ، والسِّلْعة نافِقة ، وكنتُ مِمَّنْ يشَار إليَّ ، حتَّى قال أبو نُواسٍ فيَّ ، وأنشدَ هذا البيتَ .

فانظر أيها المتأملُ . ما أحْلَى لَفظَ أبِى نواس فِي لُزُومِه ، وما أعْرَاهُ عَن الكُلْفة !

وكذلكَ فلتكن الألفاظُ فى اللزُومِ وغيره .

[ما يلحق باللزوم]

واعلمْ أنَّه إذا صُغِّرَتِ الكلمةُ الأخيرةُ من الشِّعر أو من فواصلِ الكلامِ المنثورِ ، فإنَّ ذلك مُلْحَقٌ باللزُومِ ، ويكونُ التصغيرُ عِوَضاً عن تَسَاوِى الحروفِ التى قبل رَوِىِّ الأبياتِ الشعرِيَّة ، والحروفِ التى قبلَ الفاصِلة من النثر .

فمِن ذلك قولُ بعضهم :

عَزَّ عَلَى لَيْلَى بِذِى سُدَيْرِ ... سُوءُ مَبِيتِى لَيْلَةَ الغُمَيْرِ (١)

مُقَبَّضاً نَفْسِىَ فى طُمَيْرِ ... تَنْتَهِزُ الرِّعْدَةُ فى ظُهَيْرِى

يَهْفو إلىَّ الزَّوْرُ مِنْ صُدَيْرِى ... ظَمْآنَ فى رِيحٍ وَفِى مُطَيْرِ

وَازِرَ قُرٍّ لَيسَ بِالْغُرَيْرِ ... مِنْ لَدُ مَا ظُهْرٍ إِلَى سُحَيْرِ

حَتَّى بَدَتْ لِى جَبْهَةُ الْقُمَيْرِ ... لِأَرْبَعٍ خَلَوْنَ مِنْ شُهَيْرِ

---

(١) رواية لسان العرب (٦/ ٢١) « سوء مبيتى بلد الغمير » قال ابن منظور : يجوز أن يريد بذى سدر ، فصغر ، وقيل : ذو سدير موضع بعينه .

وهذا من محاسن الصَّنعة فى هذا الباب ، فاعرفه .

وأحسنُ منه مَا وردَ عن أبى نواسٍ وعَنْ عِنَانٍ جَارِيةِ النَّطَّافِ ، وله معها حكاياتٌ كثيرةٌ غيرُ هذه ، فقال أبو نواس[1] :

أَمَا تَرِقُّ لِصَبٍّ يَكْفِيهِ مِنكِ قُطَيْرَهْ

فقالت عِنَان :

إِيَّاىَ تَعْنى بِهَذَا عَلَيْكَ فَاجْلِدْ عُمَيْرَهْ

فقال أبو نواس :

أَخَافُ إِنْ رُمْتَ هَذَا عَلَى يَدِى مِنْكَ غَيْرَهْ

فالبيتان الأوَلُ والثانِى من هذا الباب ، والثالث جاء تبعاً .

وقد ورد فى القرآن الكريم شىء من هَذا اللزوم ، إلاَّ أنَّه يسيرٌ جداً .

فمن ذلك قوله تعالى : « اقرأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقْ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِن عَلَق »[2] . وقوله تعالى : « والطُورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ[3] » . وكذلك وَرَدَ قوله تعالى فى هذه السُورة « فذَكِّرْ فمَا أَنْت بنعمة رَبِّكَ بكاهِنٍ وَلا مَجْنُون * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُون[4] » .

وربَّما وَقع بعضُ الجهَّالِ فى هذا الموضع ، فأَدْخَل فيه ما ليسَ مِنه ، كقوله تعالى « إنَّ المتَّقِينَ فى جَنَّاتٍ وَنَعِيم * فاكِهِينَ بِما آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الجَحِيم[5] » . وهذا لا يدخُل فى باب اللزوم لأنَّ الأصل فيه « نعم » و « جحم » والياء هى من حروف المدّ وَاللِّين ، فلا يُعتَدُّ بها هاهنا .

---

(١) أخبار أبى نواس لابن منظور المصرى : ٣٥

(٢) سورة العلق : الآيتان ١ و ٢ (٣) سورة الطور : الآيتان ١ و ٢

(٤) سورة الطور : الآيتان ٢٩ و ٣٠ (٥) سورة الطور : الآيتان ١٧ و ١٨

ومن هذا البابِ قولُه تعالَى : « وأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحابُ الْيَمين * فِي سِدْرٍ مَخْضُود * وَطَلْحٍ مَنْضُود »[١] .

وكذلك وَرَدَ قولُه تعالى : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِير * وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِير »[٢] .

وعلى هذا الأسْلُوبِ جاء قَوْلُهُ تَعَالى فى قِصَّةِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام : « يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِى يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا »[٣] .

وعلى نحوِ هَذا جاءَ قولُه تعالى : « قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِى ضَلاَلٍ بَعِيد * قَالَ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيد »[٤] ولا تَجِدُ أَمْثَالَ ذلك فى القرآنِ إِلَّا قليلا .

النوع الخامس

فى الموازنة

وهى أنْ تكونَ ألفاظُ الفواصِل من الكلامِ المنثورِ متساويةً فى الوزنِ ، وأن يكونَ صدرُ البيت الشعرىِّ وعجزُه متساوِيَى الألفاظِ وزناً .

(١) سورة الواقعة : الآيات ٢٧و٢٨و٢٩
(٢) سورة الأنفال : الآيتان ٣٩و٤٠
(٣) سورة مريم : الآيتان ٤٥و٤٦
(٤) سورة (ق) : الآيتان ٢٧و٢٨

وللكلامِ بذلكَ طلاوةٌ ورَوْنَق ، وسببُه الاعتدالُ ، لأنه مطلوبٌ في جميعِ الأشياءِ .

وإذا كانتْ مقاطِعُ الكلامِ معتدلةً وقعتْ من النَّفسِ موقعَ الاستحسانِ ، وهذا لامِراءَ فيه لوضوحه .

وهذا النَّوع من الكلامِ هو أخُو السَّجعِ في المعادلةِ دون المماثلةِ ، لأنَّ في السجعِ اعتدالاً وزيادةً على الاعتدالِ ، وهي تماثُل أجزاء الفواصِل لوُرُودِها على حرفٍ واحدٍ .

وأمَّا الموازنَةُ ففيها الاعتدالُ الموجودُ في السجع ، ولا تماثُلَ فِي فواصِلها ، فيقالُ إذاً : كُلُّ سَجْعٍ مُوازَنة ، وليسَ كلُّ موازنةٍ سَجعاً .

وعلى هذا فالسَّجعُ أخصُّ من الموازنةِ .

فممَّا جاء منها قولُه تعالى : « وآتَيْنَاهُمَا الكِتَابَ الْمُسْتَبِين * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ[1] » فالمُسْتَبِينُ والْمُسْتَقِيمُ على وزنٍ واحدٍ .

وكذلك قولُه تعالَى في سورةِ مريمَ عليها السلام « واتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا * أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا * فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا »[2]

---

(١) سورة الصافات : الآيتان ١١٧ و ١١٨

(٢) سورة مريم : الآيات ٨١ و ٨٢ و ٨٣ و ٨٤ .

وكذلك قوله تعالى فى سوره طه : « مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فإِنَّه يَحْمِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلاً[1] » .

وكذلكَ وَرَدَ قولُه تعالى فِى سُورةِ حم عسق : « والَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِم غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيد * اللهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ والْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيب * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى السَّاعَةِ لَفِى ضَلاَلٍ بَعِيد * اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيز * مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَالَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ نَصِيب * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم * تَرَى الظَّالِمِين مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَايَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِير »[2] .

وهذه الآياتُ جميعُها على وزنٍ واحد ، فإِنَّ شَدِيد ، وقَرِيب ، وبَعِيد ، وعَزِيز ، ونَصِيب ، وأَلِيم ، وَكَبِير ، كلُّ ذلك على وزن « فعيل » وإن اختلفَ حروفُ المقاطِع التى هِىَ فواصلُها .

وأمثالُ هذَا فى القرآنِ كثير ، بل معظَمُ آياتِه جاريةٌ على هذا النَّهج ،

(١) سورة طه : الآيتان ١٠٠ و ١٠١

(٢) سورة الشورى : الآيات ١٦ ــ ٢٢ .

حتى أنه لا تخلو منه سورة من السور ، ولقد تصفحته ، فوجدته لا يكاد يخرج منه شيء عن السجع والموازنة .

وأما ما جاء من هذا النوع شعراً فقول ربيعة بن ذؤابة[1] :

إنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَلْتَ عُرُوشَهُمْ ... بِعُتَيْبَةَ بْنِ الحارِثِ بْنِ شِهَابِ[2]

بِأَشَدِّهِمْ بَأْسًا عَلَى أَصْحَابِهِ ... وَأَعَزِّهِمْ فَقْدًا عَلَى الأَصْحَابِ[3]

فالبيت الثاني هو المختص بالموازنة ، فإن « بأسا » و « فقدا » على وزن واحد .

النوع السادس

في اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها

وهو من هذه الصناعة بمنزلة علية ، ومكانة شريفة ، وجل الألفاظ اللفظية منوطة به ، ولقد لقيت جماعة من مدعي فن الفصاحة ، وفاوضتهم وفاوضوني وسألتهم وسألوني ، فما وجدت أحداً منهم تيقن معرفة هذا الموضع كما ينبغي . وقد استخرجت فيه أشياء لم أسبق إليها ، وسيأتي ذكرها هاهنا .

أما اختلاف صيغ الألفاظ ، فإنها إذا نقلت من هيئة إلى هيئة ، كنقلها مثلاً من وزن من الأوزان إلى وزن آخر ، وإن كانت اللفظة واحدة ، أو كنقلها

---

(١) هو ربيعة بن عبيد بن سعد بن جذيمة بن مالك بن نصر بن قعين أحد بني أسد ، وربيعة هذا هو ابو ذؤاب الأسدي ، وقد نسب الشعر في حماسة أبي تمام ١/ ٣٥٤ لرجل من بني نصر بن قعين .

(٢) معناه إن كانوا فرحوا بقتلك وتبجحوا به فقد هدمت عزهم بقتل عتيبة .

(٣) رواية الحماسة (١/ ٣٥٦) « بأشدهم كلبا »

من صيغةِ الاسمِ إلى صيغةِ الفعْلِ ، أو منْ صيغةِ الفعْلِ إلى صِيغةِ الاسمِ ، أو كنقلِها من الماضِى إلى المستقبَل ، أو من المستقبَل إلى الماضِى ، أو مِنْ الوَاحِدِ إلى التَّثْنيَةِ أو إلى الجمْع ، أو إلى النّسب ، أو إلى غير ذلك ، انتقلَ[1] قُبْحها صارَ حُسْناً ، وحسنُها صار قبْحًا .

فمن ذلك لفظة « خوْد »[2] فإنَّها عبارةٌ عن المرأةِ الناعمةِ ، وإذا نُقِلَتْ إلى صيغةِ الفعلِ قيل « خَوَّد »[3] على وزن « فَعَّل » بتشدِيد العين ، ومعناها أسْرَع ، يُقال : خوَّدَ البعيرُ ، إذا أسرع ، فهى على صيغةِ الاسْمِ حسنةٌ رائقةٌ ، وقدْ وردَتْ فِى النَّظمِ والنثرِ كثيراً ، وإذا جاءتْ على صيغةِ الفِعْلِ لم تكنْ حَسَنَة ، كقولِ أبى تمّام[4] :

وَإلى بَنِى عَبْدِ الكَرِيمِ تَوَاهقَتْ ... رَتْكَ النَّعَامِ رَأى الظَّلامَ فَخَوَّدَا[5]

وهذا يُقاسُ عليه أشباهُه وأنظَارُه . إلاَّ أن هذه اللفظةَ التى هى « خَوْد » قد نُقِلَتْ عن الحقيقةِ إلى المجازِ ، نخفَّ عنها ذلك القُبْح قليلا ، كقولِ بعْضِ شعراء الحماسة[6] :

أقولُ لِنفْسِى حِينَ خَوَّدَ رَألُها ... رُوَيْدَكِ لَمَّا تُشْفِقِى حِينَ مُشْفَقِ[7]
رُوَيْدَكِ حَتَّى تنظُرِى عَمَّ تنجَلِى ... غَيَابَةُ هَذَا البارِقِ المُتَألِّقِ[8]

(١) جواب « إذا » فى قوله « إذا نقلت ... » .

(٢) الخود المرأة الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة وهى بفتح الخاء وسكون الواو ، وجمعها خود بضم الخاء .

(٣) التخويد : سرعة السير .

(٤) ديوان أبي تمام ١٢٥ من قصيدة يمدح بها أحمد بن عبد الكريم ، ومطلعها :

يادار دار عليك أرهام الندى ... واهتز روضك فى الثرى فتأودا

(٥) تواهقت مدت أعناقها وتسابقت ، الرتك سرعة فى مقاربة خطو ، خود اهتز من النشاط .

(٦) ديوان الحماسة ١/١٤٣ وقد نسب هذا الشعر لرجل من بنى أسد قاله فى يوم اليمامة .

(٧) رواية ديوان الحماسة «مكانك» موضع «رويدك» فى البيتين ؛ وخود أسرع ، والرأل فرخ النعام، ويقال للمذعور والمرتاع «خود رأله» وهو مثل، وقوله «لما تشفق حين مشفق» أى لم تخافى وقت مخافة ، والمعنى ليس هذا وقت الخوف فاصبرى فإنه وقت صبر .

(٨) رواية الحماسة «عماية» موضع «غيابه» والعارض السحاب ، والمراد هنا الجيش .

والرَّأْلُ : النعام ، والمُرَادُ بِه هاهنا أنَّ نفسَه فرَّتْ وفزِعتْ ، وشبَّهُ ذلك بإسراعِ النَّعام فِي فِراره وفزَعِه ، ولَمَّا أوْرَدَهُ على حُكم المجازِ خفَّ بعضُ القُبْحِ الَّذى على لفظةِ « خوَّد » وهذا يدْرَكُ بالذَّوْقِ الصَّحيح .

ولا خَفَاءَ بما بين هذهِ اللفظةِ فى إيرادها هاهُنا وإيرادِها فى بيتِ أبى تمام ، فإنها وردتْ فى بيتِ أبى تمامٍ قبيحةً سَمِجة ، كما وَرَدَتْ هاهُنا بَيْنَ بَيْنَ .

ومن هذا النوعِ لفظةُ « وَدَعَ » وهى فعلٌ ماضٍ ثُلَاثِىٌّ لا ثِقَلَ بها اللِّسان ، وَمَعَ ذلك فلا تُستعمَلُ على صِيغَتِها الماضِيَةُ إلَّا جاءتْ غير مُستحْسَنة ، ولكنَّها تستعمل مُسْتَقْبلَة ، وعلى صِيغةِ الأمرِ ، فتجىء حسنةً .

أمَّا الأمرُ فكقولِه تعالى : « . . . يَخُوضُوا ويَلْعَبُوا[1] » وَلمْ تَأْتِ فى القرآنِ الكريمِ إلَّا على هذه الصِّيغَة ! !

وأمَّا كونُها مستقبلةً فكقولِ النَّبىِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، وقَدْ وَاصَلَ فِى شَهرِ رَمَضَانَ ، فواصَلَ معه قومٌ : « لَوْ مُدَّ لنا الشهرُ لوَاصَلْنَا وِصَالاً يَدَعُ لَهُ المُتَعَمِّقُونَ تعمُّقهم » .

وَقالَ أبو الطيِّب المُتَنَبِّى[2] :

تَشُقُّكُمْ بِقَنَاهَا كُلُّ سَلْهَبةٍ   والضَّرْبُ يأخُذ منكُمْ فوقَ ما يدَعُ[3]

---

(١) فى القرآن الكريم سورة الزخرف : الآية ٨٣ « فذرهم يخوضوا ويلعبوا » وقد رواه ابن الأثير « فدعهم » ليكون شاهدا على ما ذهب إليه ؟ وهذا وهم منه لاتفاق اللفظين فى المعنى .

(٢) ديوان المتنبى ٢ / ٢٤٠ من قصيدة فى مدح سيف الدولة مطلعها :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع   إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

(٣) رواية الديوان « بقناها » موضع « بقناها » ومعنى قناها فارسها ، والقنا الرماح ، السلهبة الطويلة من الخيل .

وأمّا الماضِي من هذه اللفظةِ فلمْ يُستعملْ إلاّ شاذًا ، وَلاَ حُسْنَ له ، كقول أبي العَتاهِيَة :

أثرَوْا فَلَمْ يُدخِلوا قبورَهُمُ شيْئاً من الثّروةِ التي جمعُوا
وَكَانَ ما قدّمُــوا لأنفسِهِمْ أعْظَمَ نفْعاً مِنَ الّذِي وَدَعُوا

وهذا غيرُ حَسَنٍ فى الاستعمالِ ، ولا عليه من الطّلاوةِ شيء .

وهذه لفظةٌ واحدةٌ لم يتغيّر من حالها شيء سِوى أنّها نُقِلتْ من الماضِي إلى المستقْبَل لاغيرُ .

وكذلك لفظةُ « وَذَرَ » فإنّها لا تستعملُ ماضيةً ، وتستعملُ على صِيغَةِ الأمر كقوله تعالى « ذَرْهُمْ يأكلوا وَيتَمَتَّعُوا[1] » .

وتستعملُ مستقبلةً أيضاً كقوله تعالَى: « سَأُصْلِيهِ سَقَر * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَر * لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَر »[2] .

فهى لم تَرِدْ فى القرآنِ إلاّ على هاتين الصِّيغَتَين ، وكذلِكَ فى فصيح الكلام غيرِ القرآن .

وأمّا إذا جاءتْ على صِيغَةِ الماضِي فإنها لا تستعملُ ، وهى أقبحُ من لفظةِ « وَدَع » لأن لفظة « وَدَع » قد استُعملتْ ماضيةً ، وهذه لم تستعْمل .

وها هنا فلينعِم الخائضُون فى هذا الفنّ نظرهم ، ويعلمُوا أنّ فى الزّوايا خبَايا ، وإذا أنعَموا الفِكْر فى أسرارِ الألفاظ عند الاستعمال ، وأغرقوا فى الاعتبارِ والكشفِ وَجَدوا غرائبَ وعجائبَ .

---

(١) سورة الحجر : الآية ٣ . (٢) سورة المدثر : الآيات ٢٦و٢٧و٢٨ .

ومن هذا النوع لفظةُ « الأَخْدَع » فإنّها وردَتْ في بيتينِ من الشِّعر ، وهي في أحدهما حسنةٌ رائقة ، وفي الآخر ثقيلةٌ مستكرهةٌ كقولِ الصِّمَّة بن عَبْدَ اللهِ[1] مِنْ شُعَراءِ الحماسة[2] :

تَلفتُّ نَحْوَ الحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي ... وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لِيتاً وَأَخْدَعا[3]

وكقولِ أبي تمّام[4] :

يَا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ ... أَضْجَجْتَ هَذَا الأَنَامَ مِنْ خُرُقِكْ[5]

أَلا ترى أنَّه وُجِدَ لهذه اللفظةِ في بيتِ أبي تمّام من الثِّقَل على السَّمع ، والكراهَةِ في النَّفس أضعافُ ما وُجِدَ لها في بيتِ الصمَّة بن عبد الله[6] من الرَّوْحِ والخِفَّة والإيناسِ والبهجةِ ؟ وليسَ سببُ ذلك إلاَّ أنَّها جاءتْ موحَّدةً في أحدِهما مثنّاةً في الآخر ، وكانتْ حسنةً في حالةِ الإفراد ، مستكرَهةً في حالةِ التَّثْنِيَة ، وإلاَّ فاللفظةُ واحدةٌ ، وإنّما اختلافُ صِيغَتِها فعَل بها ما تَرَى .

ومن هذا النوعِ ألفاظٌ يُعْدَلُ عن استعمالِها من غير دليلٍ يقومُ على العدُول عنها ، ولا يُسْتَفْتَى في ذلك إلا الذوقُ السَّليم ، وهذا موضعٌ عجيبٌ ، لا يُعلَمُ كُنْهُ سِرِّه .

فمن ذلك لفظه « اللُّبّ » الذي هو العقلُ ـ لا لفظةَ « اللُّبّ » الذي تحت

---

(١) في الأصل « ابن الصمة عبد الله » (٢) ديوان الحماسة ٢/٥٦ .

(٣) الليت صفحة العنق ، والأخدع عرق فيها ، نصبهما على التمييز ، والإصغاء الميل .

(٤) ديوانه ٢١٠ من قصيدة يمدح فيها محمد بن الهيثم ويهنئه ببرئه ، ومطلعها :

قد مات محل الزمان من قرقك ... واكتنى أهل الإعدام في ورقك

(٥) الخرق الحمق .

(٦) في الأصل « ابن الصمة عبد الله » . وبيت الصمة وبيت أبي تمام تكلم عنهما عبد القاهر الجرجاني بمثل هذا الكلام الذي قاله ابن الأثير — وانظر دلائل الإعجاز ٣٨ ، ٣٩ .

القشر ـ فإنَّها لا تحسنُ في الاستعمال إلا مجموعةً ، وكذلك وردَتْ في القرآنِ الكريمِ في مواضعَ كثيرةٍ وهي مجموعةٌ ، ولم تردْ مُفردةً ، كقولِهِ تعالى : « وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ »[١] و« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ »[٢] وأشباه ذلك .

وهذهِ اللفظةُ ثُلاثيَّة خفيفةٌ على النُّطق ، ومخارجُها بعيدةٌ ، وليستْ بمُسْتَثقلةٍ ولا مكروهة .

وقدْ تُستَعمَلُ مفردةً ، بشرطِ أنْ تكونَ مُضافةً أوْ مُضافاً إليها ، أمَّا كَوْنها مضافاً إليها فكقولنا : لا يعلمُ ذلك إلا ذو لُبٍّ ، وإنَّ في ذلك لعبرةً لذي لُبٍّ . وعليهِ وَرَدَ قول جرير :

إنَّ العُيونَ التي في طَرْفِها حَوَرٌ[٣] قَتَلْنَنا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتلانَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حَتَّى لا حَرَاكَ بِهِ وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ أرْكَانَا

وأما كونُها مضافةً فكقولِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في ذكر النِّساء « ما رأيتُ ناقصاتِ عقلٍ ودينٍ أذهَبَ لِلُبِّ الحازِمِ من إحْدَاكُنَّ يا معشرَ النِّساء » .

فإنْ كانتْ هذه اللفظةُ عاريةً عن الجمع أو الإضافةِ فإنَّها لا تأتي حسنةً ولا تجدُ دليلاً على ذلك إلا مجرَّدَ الذَّوْقِ الصَّحِيح .

وإذا تأمَّلتَ القرآنَ الكريمَ ودققتَ النظر في رموزه وأسرارِهِ وَجَدْتَ

---

(١) سورة (ص) : الآية ٢٩ (٢) سورة الزمر : الآية ٢١

(٣) رواية الشعر والشعراء « مرض » موضع « حور » .

مثلَ هذه اللفظة قد رُوعِى فِيهَا الجمعُ دونَ الإفراد كلفظة « كُوب » فإنّها وردتْ فى القرآن مجموعةً ، ولم تَرِد مفردةً ، وهى وإن لم تكنْ مستقبحةً فى حالِ إفرادها فإنَّ الجمع فيها أحسنُ .

لكن قد تَرِدُ مفردةً مع ألفاظٍ أخر تندرجُ معهنّ ، فيكسُوهَا ذلك حُسْناً ليس لها ، وذلك كقولى فِى جملةِ أبياتٍ أصفُ بها الخَمر ، وما يجرى معها من آلاتِها :

ثَلاثَةٌ تُعطِى الفَرَح كَأسٌ وَكُوبٌ وَقَدَحْ
مَا ذُبِّحَ الذَّوْقُ بِهَا إلاَّ وَلِلْهَمِّ ذَبَحْ

فلما وردتْ لفظةُ « الكُوب » مع الكأسِ والقَدح على هذا الأسلوب حَسَّنها ، وكأنَّه جلَّاها فِى غيرِ لباسِها الذى كان لها إذ جاءتْ بمُفردها .

وكذلك وردتْ لفظةُ « رَجَا » بالقَصْرِ ، « والرجا » الجانبُ ، فإنّها لم تُستعملْ موحَّدةً ، وإنما استعملتْ مجموعةً ، كقوله تعالى : « والمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ »[1] .

فلمَّا وردتْ هذه اللفظةُ مجموعةً ألبسها الجمعُ ثوباً من الحُسْنِ لم يكنْ لها فى حالِ كونها موحَّدةً .

وقد تُستعملُ موحَّدةً ، بشرطِ الإضافةِ كقولنا « رجا البئر » .

ولربما أخطأ بعضُ الناسِ فِى هذا الموضعِ ، وقاسَ عليه ما ليس بِمَقِيس ، وذلك أنَّه وقفَ على ما ذكرتُه هاهنا واقفٌ فقال : وكذلكَ قد وردتْ

---

(١) سورة الحاقة : الآية ١٧ .

لفظةُ الصُّوفِ فى القرآنِ الكريم ، ولم تَرِدْ إلاّ مجموعة كقوله تعالى : « وَجَعَلَ لَكُمْ مِن جُلُودِ الأنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إلى حين »[1] .

وهذا بخلافِ ما وردتْ عليه فى شعر أبى تمّام[2] :

كانوا بُرُودَ زمانِهِمْ فتصدَّعُوا فكأنَّما لبسَ الزّمانُ الصُّوفا[3]

وهذا ليس كالّذى أشرتُ إليه ، فإنّ لفظة « الصُّوف » لفظة حسنة مفردةً ومجموعةً ، وإنما أزرَى بها فى قولِ أبِى تمّام أنها جاءتْ مجازيّة فى نسبتها إلى الزّمان .

وعلى هذا النَّهج وردتْ لفظة « خبر » و « أخبار » ، فإنّ هذه اللفظةَ مجموعةً أحسنُ منها مفردةً ، ولم تَرِدْ فى القرآنِ إلا مجموعةً .

وفى ضِدِّ ذلك ، ما وردَ استعمالُه من الألفاظِ مفرداً ولم يَرِدْ مجموعاً كلفظة « الأرض » فإنّها لم تَرِدْ فى القرآنِ إلاّ مفردةً ، فإذا ذُكرتَ السّماء مجموعةً جِيء بها مُفردةً معها فى كلّ موضعٍ من القرآن ، ولما أُرِيدَ أنْ يُؤتَى بها مجموعةً قِيلَ « وَمِنَ الأرْضِ مِثْلَهُنَّ » فى قولِه تعالى : « اللهُ الّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمواتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ »[4] .

---

(١) سورة النحل : الآية ٨٠ .

(٢) الديوان ٢٠٥ من قصيدة فى مدح أبى سعيد محمد بن يوسف ، ويعرض بوال ولى الثغر ، ومطلعها :

أطلالهم سلبت دماها الهينا واستبدلت وحشابهن عكوفا

(٣) البرود الثياب ، تصدعوا تشتتوا .

(٤) سورة الطلاق : الآية ١٢ .

وممّا وردَ من الألفاظِ مُفرداً فكان أحْسَنَ ممّا يَرِد مجموعًا لفظة « البقْعة » قال الله تعالى فى قصّة موسى عليه السّلام : « فلمّا أتاها نُودِىَ مِنْ شَاطِىءِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسَى إِنِّى أنَا اللهُ »[1] والأحسنُ استعمالُها مفردةً لا مجموعةً ، وإن استُعملتْ مجموعةً فالأَوْلى أن تكونَ مُضَافةً ، كقولِنَا : « بِقَاعِ الأرض » أو ما جرى مجراها .

وكذلك لَفْظَةُ « طَيْف » فى ذكرِ طَيْف الخيالِ ، فإنّها لم تُستعملْ إلّا مفردةً . وقد استعملها الشعراء قديماً وحديثاً فلم يَأْتُوا بها إلّا مفردةً ، لأنّ جمعَها جمعٌ قبيحٌ ، فإذا قِيلَ « طُيُوف » كانَ من أقبحِ الألفاظِ وأشدِّها كراهةً على السّمع .

ويالله للعجبِ مِنْ هذه اللّفظة ومن أُخْتِها عِدّةً ووزناً ، وهى لفظة « ضَيْف » فإنّها تستعمل مفردةً ومجموعةً ، وكلاهما فى الاستعمالِ حَسَنٌ رائق ، وهذا ممّا لا يُعْلم السِّرُّ فيه . والذوقُ السليمُ هو الحاكمُ فى الفرقِ بين هاتين اللفظتَيْن وما يجرى مجراها .

وأمّا جمعُ المصادِر فإنّه لا يجىء حَسَناً ، والإفرادُ فيه هو الحَسَن ، وممّا جاء فى المصادر مجموعا قول عنترة :

فَإِنْ يَبْرَأْ فَلَمْ أَنفِثْ عَلَيْهِ وَإِنْ يُفقَدْ فَحُقّ له الْفُقُودُ[2]

---

(١) سورة القصص : الآية ٣٠ .

(٢) شرح ديوان عنترة بن شداد ٤٩ من أبيات فى جرية العمرى ، وقد رماه عنترة ، فظن أنه قتله ، فلم يفعل .

قولُه : « الفُقُود » جمعُ مصدرٍ من قولنا : فَقَدَ ، يَفقِدُ ، فَقداً . واستعمالُ مثل هذه اللفظةِ غيرُ سائغٍ ولا لذيذ ، وإنْ كان جائزاً .

ونحنُ فى استعمال ما نستعملُه من الألفاظِ واقِفُون مع الْحُسْنِ لا مع الجوَاز . وهذا كلُّه يرجِعُ إلى حاكم الذوقِ السَّليم ، فإن صاحبَ هذه الصناعةِ يصرّفُ الألفاظَ بضروبِ التَّصريفِ ، فما عَذُبَ فِى فَمِهِ منها استعملَه ، وما لَفَظَهُ فمُه تركَهُ .

ألا تَرَى أنه يقالُ « الأُمَّة » بالضمِّ عبارة عن الجمعِ الكثيرِ من الناسِ ، ويقال : « الإِمَّة » بالكسرِ ، وهى النِّعمة ، فإن « الأُمَّة » بالضمِّ لفظة حسنةٌ وبالكسرِ ليستْ بحسنةٍ واستعمالُها قبيح .

ورأيتُ صاحبَ كتاب « الفصيح[1] » قد ذَكَرها فيما اختارَهُ من الألفاظِ الفصيحةِ ، ويا ليتَ شِعْرِى ما الَّذى رآه من فَصَاحتها حتى اختارها ! ؟ وكذلكَ قد اختَارَ ألفاظاً أُخرَ ليستْ بفصيحةٍ ، ولا لَوْمَ عليه ، لأنَّ صدورَ مثلِ ذلك الكتاب عنه كثير . !

وأسرارُ الفصاحةِ لا تُؤْخَذُ من علماءِ العربيَّة ، وإنما تُؤْخَذُ منهمْ مسألةٌ نحويَّة ، أو تصريفيَّة ، أو نَقل كلمةٍ لغويَّة ، وما جَرى هذا المجرى .

وأمَّا أسرارُ الفصاحةِ فلها قومٌ مخصُوصُونَ بِها ، وإذا شذَّ عن صاحبِ كتاب « الفصيحِ » ألفاظٌ معدودةٌ ليستْ بفصيحةٍ فى جملةٍ كثيرةٍ ذكرهَا من الفصيح فإنَّ هذا منه كثير .

ومما يُذْكَرُ فى هذا البابِ أنه يُقال : « سهم صائِب » فإذا جُمِعَ

---

(١) هو الإمام أحمد بن يحيي المعروف بثعلب .

الجمعَ الحسَنَ الذى يعذُب فى الفم قيل : سهامٌ صوائب ، وصائبات ، وَصُيَّب .
فإذا جُمع الجمعَ الذى يقبُح قيل : « سِهَامٌ صُيُب » على وزن « كُتُب »

قال أبو نواس[1] :

مَا أَحـــلَّ اللهُ ما صَنَعَتْ   عَيْنُهُ تِلكَ العَشِـــيَّةَ بِى
قَتَلَتْ[2] إنسَـــانُها كَبِدِى   بِسِهامٍ للـــرَّدَى صُيُبِ

فقوله : « سهامٌ صُيُب » من اللفظِ الذى ينبُو عنه السَّمع ، ويحيدُ عنه اللسان .

ومثله ورد قول عُوَيْف القَوافِى[3] من أبياتِ الحماسة :

ذَهَبَ الرُّقَادُ فما يُحَسُّ رُقَادُ   مِمَّـــا شَجَاكَ وَنَامَتِ العُوَّادُ
لَمَّا أَتانِى عن عُيَيْنَةَ أَنَّهُ   أَمْسَى عليه تَظَاهَرُ الأَقْيَادُ[4]

فقوله : « أقياد » فى جمع « قَيْد » مما لا يحسنُ استعمالُه ، بل الحسَنُ أن يقال فى جمعه « قُيُود » .

---

(١) ديوانه ٤٠٧ من أبيات أولها :
يا بنى حمالة الحطب   حربى من ظبيكم حربى
(٢) رواية الديوان « فتنت »
(٣) هو ابن معاوية بن عقبة من بنى فزارة بن ذبيان ، وإنما أضيف إلى القوافى لقوله :
سأكذب من قد كان يزعم أننى   إذا قلت قولا لا أجيد القوافيا
وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية من ساكنى الكوفة ، وبيته من البيوتات المتقدمة فى العرب ، وكانت أخته متزوجة بعيينة بن أسماء الفزارى فطلقها ، فلما حبس الحجاج عيينة وقيده قال عويف هذه الأبيات .
(٤) رواية البيت فى الحماسة (٩٧/١) وفى الأصل :
لمـــا أتانى من عيينة أنه   أمست عليه بظاهر أقياد

وكذلكَ قولُ مُرَّة بنِ مَحْكان التَّميمِيِّ[(١)] من أبيات الحماسةِ ، وذلك من جُملةِ الأبياتِ المشهورةِ التى أوَّلها :

يا رَبَّةَ البَيْتِ قُومِي غيرَ صَاغِرَةٍ ضُمِّي إلَيْكِ رِحالَ القَوْمِ وَالقُرُبَا[(٢)]

فقالَ فيها :

مَاذَا تَرَيْنَ : أَنُدنيهِمْ لِأَرْحُلِنَا فِي جَانِبِ البَيْتِ ؟ أَمْ نَبْنِي لَهُمْ قُبَبَا ؟

فإنه جمع « قُبَّة » على « قُبَب » ، وذلك من المستبشَعِ البَكريه ، والأحْسَنُ المستعملُ هو « قِبَاب » لا « قُبَب » ، وكذلكَ يجرِي الأمرُ في غيرِ هذا .

ومن الجُمُوع ما يختلفُ استعمالُه ، وإن كانَ مُتَّفِقاً فى لفظةٍ واحدةٍ ، كالعَيْنِ الناظرةِ ، وعَيْنِ النَّاس ، وهُوَ النَّبِيهُ فيهم ؛ فإنَّ العينَ الناظرةَ تُجمعُ على « عُيُون » ، وعين الناسِ تجمع على « أعيان » ، وهذا يرجعُ فيه إلى الاستحسانِ لا إلى جائزِ الوضعِ اللُّغوى .

وقد شذَّ هذا الموضعُ عن أبِي الطَّيِّب المتنبِّى فى قوله[(٣)] :

والقومُ فى أَعْيَانِهِمْ خَــزَر والخيلُ فى أَعْيَانِها قَبَلُ[(٤)]

---

(١) هو من بطن يقال لهم بنو ربيع من سعد بن زيد مناة بن تميم ، وهو شاعر إسلامى مقل من شعراء الدولة الأموية ، عاصر جريراً والفرزدق ، فأخلا ذكره ، وكان شريفاً جواداً ، قتله مصعب بن الزبير فى ولايته . والأبيات فى ديوان الحماسة ٢/ ٢٤٢ .

(٢) فى الأصل « رجال » موضع « رحال » وهو تصحيف ، والصاغرة الذليلة ، والقرب جمع قراب وهو كالجراب يوضع فيه السيف بغمده ، يأمر زوجته بأن تضم إليها رحال القوم وأسلحتهم حفظاً لها ، لأنهم نزلوا عنده ، فهم فى أمان لا يحتاجون إلى السلاح .

(٣) ديوانه ٣/ ٣٠٧ من قصيدة فى مدح عضد الدولة ، ومطلعها :

اثلث فإنا أيهــا الطلل نبـكى وترزم تحتنا الإبل

(٤) الخزر ضيق العين ، والقبل إقبال إحدى العينين على الأخرى ، وذلك تفعله الخيل لعزة أنفسها .

فجمع العينَ الناظرةَ على « أعيان » ، وكان الذوقُ يأبى ذلك ، ولا تجدُ له على اللسانِ حلاوةً ، وإن كانَ جائزاً .

ولولا خوفُ الإطالةِ لأوردْتُ من هذا النوعِ وأمثالِ أشياء كثيرةً ، وكشفتُ عن رُمُوزٍ وأسرارٍ تخفَى على كثيرٍ من مُتعاطِي هذا الفنِّ ، لكن في الذي أشرتُ إليه مُنَبِّهٌ لأهلِ الفطانةِ والذكاء أنْ يحملُوهُ على أشباهِهِ وأنظارِهِ .

وأعجَبُ مِنْ ذلك كلِّه أنك ترى وزناً واحداً من الألفاظِ ، فتارة تجدُ مُفْرَدَهُ حسناً ، وتارةً تجد جمعَه حَسَناً ، وتارةً تجدُهما جميعاً حَسَنَيْن .

فالأول نحو « حُبْرُور » وهو فَرْخُ الْحُبَارَى ، فإنّ هذه اللفظةَ يُحْسُن مفردُها لا مجموعُها ، لأنَّ جمعها على « حبارير » ، وكذلك « طُنْبُور » و « طَنَابير » و « عُرْقُوب » « وعَرَاقِيب » .

وأمّا الثاني فنحوُ « بُهْلُول » و« وبَهَالِيل »[1] و« لُهْمُوم» و« وَلَهَامِيم »[2] وهذا ضد الأول .

وأمّا الثالثُ فنحو « جُمْهور »و« جماهير » و « عُرْجُون » و « عَرَاجِين » .

فانظُر إلى الوَزن الواحِد كيف يختلفُ في أحوالِهِ مفرداً ومجموعاً ؟ وهذا من أعجبِ ما يجيء في هذا البابِ .

---

(١) البهلول الضحاك والسيد الجامع لكل خير .

(٢) اللهموم الناقة الغزيرة ، والجرح الواسع ، وجهاز المرأة ، والسحابة الغزيرة القطر ، والعدد الكثير ، والجيش العظيم ، والكثير الخير .

وهكذا قد جاءتْ ألفاظٌ على وزنٍ واحدٍ ثلاثيَّة مسكَّنة الوسَط ، وجميعُها حَسَنٌ فى الاستعمال ، وإذا أَرَدْنا أن نُثقِّل وَسَطها حسُن منها شىءٌ دونَ شىء .

فمن ذلك لفظة الثُّلْثُ ، والرُّبْع . . . إلى العُشْر ، فإنّ الجميع على وزنٍ واحدٍ ، وإذا ثقَّلْنا أوساطَها ، فقلنا : ثُلُث ورُبُع وخُمُس . . . وكذلك إلى عُشُر ، فإنَّ الحَسَن من ذلك جميعهِ ثلاثةٌ ، وهى الثُلُث والخُمسُ والسُّدُس ، والباقى وهو : الرُّبعُ ، والسُّبعُ ، والثُّمُن ، والتُّسُع ، والعُشُر ، ليسَ كالأولِ فى حُسنه ، هذا والجميعُ على وزنٍ واحدٍ ، وصيغةٍ واحدة ، والجميعُ حَسَنٌ فى الاستعمال قبل أن يثقَّل وسطُه ، ولمَّا ثُقِّل صارَ بعضُه حَسَناً ، وبعضُه غيرَ حَسَن .

وكذلك تجدُ الأَمْر فى أسماء الفاعلين ، كالثلاثىِّ منها نحو « فَعَلَ » بفتح الفاء والعينِ ، « وفَعِل » بفتح الفاء وكَسرِ العين ، « وفَعُل » بفتح الفاء وضمِّ العين ، فإنّ هذه الأوزانَ الثلاثةَ لها أسماء فاعلين .

أمَّا « فَعَل » ـ بفتحِ الفاء والعين ـ فليسَ له إلا اسمٌ واحـدٌ أيضاً ، وهو « فَاعِل » لا غيرُ ، ولا يقعُ فيه اختلاف .

وكذلك « فَعُل » ـ بفتح الفاء وضمِّ العينِ ـ فليسَ لهُ إلا اسْمٌ واحدٌ أيضاً ، وهو « فَعِيل » ، ولا يقعُ فيه اختلافٌ إلا ما شذَّ .

لـكن « فَعِل » ـ بفتح الفاء وكسرِ العين ـ يقعُ فى اسم فاعِله الاختلافُ استحساناً وَاستقباحاً ، لأنَّ له ثلاثةَ أوزانٍ ، نحو « فَاعِل » و « فَعِل » و « فَعْلان » تقول منه « حَمِد » فهو « حامد » و « حَمِدٌ » و « حَمْدَان » .

وقد جاء على وزنه «فَرِح» تقول منه: فَرِح زيدٌ، فهو فَرِحٌ، وهو الأحسنُ.
ولا يحسنُ أنْ يُقالَ «فارِح» ولا «فَرْحان»، وإنْ كانَ جائزاً، لكن «فَرْحان» أحسنُ من «فارِح».

وقد وردتْ هذه اللفظةُ في القرآنِ الكريمِ، فلم تستعملْ إلاّ على «فَرِح» لا غير، كقوله تعالى: «كُلُّ حِزْبٍ بما لَدَيْهِمْ فَرِحُون»[1].

وكقولِه تعالَى: «إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ»[2].

وقد جاءتْ هذه اللفظةُ في شعرِ بعض شُعراءِ الحماسةِ[3] في باب المراثي:

فَمَا أنا مِنْ حُزْنٍ[4] وَإنْ جَلَّ جَازِعٌ وَلاَ بِسُرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ

وهذا غيرُ حَسَنٍ، وإن جازَ استعمالُه.

وعلى نحوٍ منه يقالُ «غَضِب» وهو «غَضْبانٌ» ولا يقالُ «غاضِبٌ» وإن كانَ جائزاً.

وقد تقدَّم القولُ أنَّا في تأليفِ الكلامِ بصددِ استعمالِ الحسَنَ والأحْسن، لا بصددِ استعمالِ الجائزِ وغيرِ الجائزِ.

وَمِمَّا يجري هذا المجرى قولنا «فَعَلَ» و«افْتَعَلَ» فإنَّ لفظةَ «فَعَلَ» لها موضعٌ تستعملُ فيهِ. ألاَ ترى أنَّكَ تَقولُ: «قَعَدْتُ إلى فلانٍ أُحَدِّثُه» ولا تقول:

---

(١) سورة الروم: الآية ٣٢.
(٢) سورة القصص: الآية ٧٦.
(٣) هو أشجع بن عمرو السلمي، والبيت من أبيات أولها:
مضى ابن سعيد حين لم يبق مشرق ولا مغرب إلا له فيه مادح
(٤) رواية الحماسة (١/٣٦٢).
* فما أنا من رُزْءٍ وإن جل جازع *

« اقتَعَدْتُ إليه » وكذلك تقول : « اقتعَدْتُ غَارِبَ الجمل » ، ولا تقولُ : « قَعَدْتُ على غارِب الجمل » ، وإنْ جازَ ذلك ، لـكن الأوّل أحْسَن .

وهذا لا يحكُم فيهِ غيرُ الذوقِ السليمِ ، فإنه لا يمكنُ أنْ يُقامَ عليه دليل .

وأمَّا « نعل » « وافعوعَلَ » فإنا نَقُول : « أعْشَبَ المكانُ » ، فإذا كثر عُشْبه قُلْنا : « اعشَوْشَبَ » ، فلفظةُ « افعوعَل » للتَّـكثِير .

على أنِّى استقْرَيْتُ هذه اللفظةَ فى كثير من الألفاظِ ، فوجدتُها عذبةً طيبةً ، على تـكرارِ حُروفها ، كقولنا : اخشَوْشَنَ المكانُ ، واغْرَوْرَقَتْ العَيْن ، واحلَوْلَى الطعم ، وأشباهها .

وأما « فُعَلَة » نحوُ هُمَزَة ، ولُمَزَة ، وجُثَمَة ، ونُوَمَة ، ولُـكَنَة ، ولُحَنَة ، وأشباه ذلك ، فالغالبُ على هذه اللفظةِ أن تكونَ حسنةً .

وهذا أخذتُه بالاستقراءِ وفى اللغةِ مواضعُ كثيرةٌ هكذا لا يمكنُ استقصاؤُها .

فانظرْ إلى ما يفعلُه اختلافُ الصِّيغَةِ بالألفاظِ .

* * *

وعليكَ أن تتَفَقَّد أمثالَ هذه المواضعِ ، لتعلمَ كيفَ تضعُ يدك فى استعمالها ، فـكثيراً ما يقعُ فُحول الشعراء والخطباء فى مثلِها ، ومؤلِّفُ الـكلامِ من كاتبٍ وشاعرٍ إذَا مرَّت به ألفاظٌ عَرَضَها على ذوقِهِ الصَّحيح ، فما يجد الحَسَنَ منها موحَّداً وَحْده ، وما يجد الحَسَنَ منها مجموعاً جَمْعَهُ ، وكذلك يَجْرِى الحُـكْمُ فيما سوى ذلكَ من الألفاظ .

النوع السابع

فى المعاظلة اللفظية

والمعاظَلةُ معاظَلتان : لفظيَّةٌ ، ومعنوية .

أمّا المعنويّةُ فسيأتى ذِكرُها فى بابِ (التقديمِ والتأخير) من المقالةِ الثانيةِ ، فليُؤخذْ من هناك .

وأما المعاظَلةُ اللفظيَّة ، فهى[1] المخصُوصةُ بالذِّكرِ هاهنا فى بابِ صناعةِ الألفاظِ ، وحقيقتُها مأخوذةٌ من قَوْلِهِمْ « تعاظَلَتِ الجرادَتان » إذا ركبتْ إحداهما الأخرى ، فسمّى الكلامُ المتراكبُ فِى ألفاظِه أو فى معانِيه (المعاظلة) مأخوذاً من ذلك ، وهو اسمٌ لائقٌ بمُسمّاه .

ووَصَفَ عمرُ بنُ الخطّابِ — رضى الله عنه — زهيرَ بنَ أبى سُلمى ، فقال : « كَانَ لاَ يُعَاظِلُ بَيْنَ الكلامِ » .

وقد اختلفَ علماء البيانِ فِى حقيقةِ المعاظلة ، فقال قدامةُ بنُ جعفرٍ الكاتب[2] التماظُلُ فِى الكلامِ هُوَ أنْ يُدْخَلَ بعضُ الكلامِ فيما ليسَ

---

(١) فى الأصل « وهى » .

(٢) هو قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب البغدادى ، كان نصرانياً وأسلم على يد المكتفى بالله (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) وكان قدامة أحد البلغاء الفصحاء ، والفلاسفة الفضلاء ، وممن يشار إليه فى علم المنطق ، وقيل هو أول من وضع الحساب ، وله تصانيف كثيرة منها كتاب نقد الشعر ، وكتاب الخراج وصناعة الكتابة ، توفى قدامة سنة ٣٣٧ هـ . وللدكتور بدوى طبانة دراسة مفصلة فى حياة قدامة ونقده طبعت تحت عنوان « قدامة بن جعفر والنقد الأدبى » .

من جنسِه ، ولا أعْرِفُ ذلك إلا فاحِشَ الاستعارة[١] كقولِ أوسِ ابنِ حَجَر :

وَذَاتُ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا   تُصْمِتُ بالماء تَوْلَباً جَدِعَا[٢]

فسمَّى الصَّبِيَّ « تَوْلَباً » ، والتولَبُ ولدُ الحمار .

هذا ما ذَكَرَهُ قدامةُ بن جعفرٍ ، وهو خطأٌ ، إذ لو كان ما ذَهَب إليه صواباً لكانتْ حَقِيقَةُ المعاظلةِ دخولَ الكلامِ فيما ليس من جِنسِه ، وليسَتْ حقيقتُها هذه ، بلْ حقيقَتُها ما تقدَّم ، وهو التَّرَاكُبُ ، من قولهم : تعاظلت الجرادتان ، إذا ركِبَتْ إحداهما الأخرى .

وهذا المثالُ ـ الذى مثَّل به قدامةُ ـ لا تَرَاكُبَ ، في ألفاظِه ولا في معانيه .

وأمَّا غيرُ قدامةَ فإنه خالَفه فيما ذهَب إليه ، إلاَّ أنه لم يقسِّمْ المعاظلة إلى لفظيَّة ومعنويَّة ، ولكنَّه ضرب لها مثالا ، كقول الفرزدق :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إلاَّ مُمَلَّكاً   أَبُو أُمِّــــهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ[٣]

---

(١) جعل قدامة (المعاظلة) من عيوب اللفظ ، قال : وهي التي وصف عمر بن الخطاب زهيرا بمجانبته لها أيضاً ، فقال : وكان لا يعاظل بين الكلام ، وسألت أحمد بن يحيي عن (المعاظلة) فقال : مداخلة الشيء فى الشيء ، يقال : تعاظلت الجرادتان ، وعاظل الرجل المرأة ، إذا ركب أحدهما الآخر . وإذا كان الأمر كذلك فمحال أن ينكر مداخلة بعض الكلام فيما يشبهه أو فيما كان من جنسه ، وبقى النكير إنما هو فى أن يدخل بعضه فيما ليس من جنسه ، وما هو غير لائق به ، وما أعرف ذلك إلا فاحش الإستعارة . . . [انظر نقد الشعر ١٠٣ — طبعة بريل ، ليدن] ، وانظر « قدامه بن جعفر والنقد الأدبى ٢٠٤ ـ ٢١٥ من الطبعة الثانية » .

(٢) الهدم الثوب البالى أو المرقع ، والنواشر جمع ناشرة . وهى عصب فى الذراع ، تصمت تسكت ولدها ، والجدع السيئ الغذاء . والبيت من قصيدة لأوس فى رثاء فضالة بن كلدة ، ومطلعها :

أيتها النفس . أجملى جزعا   إن الذى تحذرين قد وقعا

(٣) ديوان الفرزدق ١/١٠٨ فى مدح ابراهيم بن هشام المخزومى خال هشام بن عبدالملك .

وهذا من القسمِ المعنويِّ ، لا مِنَ القسمِ اللفظيِّ ، ألا ترى إلى تراكيب معانِيه بتقديمِ ما كان يجب تأخِيرُه ، وتأخيرِ ما كان يجبُ تقديمه ، لأن الأصلَ في معناه « وما مثلُه فِي الناسِ حيٌّ يقاربُه إلاَّ مملَّكاً أبو أمِّهِ أبوه » ؟ وسيجيء شرحُ ذلك مستوفًى فِي بابِهِ من المقالةِ الثانيةِ ، إنْ شاء الله تعالَى .

وإذْ حقَّقْتُ القولَ في بيانِ المعاظَلَةِ ، والكشفِ عن حقيقتِها فإنِي أُتبِعُ ذلك بتقسيمِ القسْمِ اللفظيِّ منها الّذي أنا بصَدَدِ ذكرِه هاهنا فأقول : إنِّي تأمَّلْتُه بالاستقراء من الأشعارِ قديمِها ومُحدَثها ، ومن النَّظر في حقيقتِها نفسها ، فوجدتُها تنقسِمُ إلى خمسةِ أقسام :

الأول منها : [ما يختص بالأدوات]

يختصُّ بأدواتِ الكلامِ نحو مِنْ ، وإلى ، وعَنْ ، وعَلَى ، وأشباهها ، فإنَّ منها ما يسهلُ النطقُ بِهِ إذا وردَ مع أَخَوَاتِهِ ، ومنها ما لا يسهلُ ، بل يَردُ ثقيلاً على اللسانِ ، ولكلٍّ موضعٌ يخصُّهُ من السَّبك .

فمَّا جاء منه قول أبي تمام :

إلَى خَالدٍ راحتْ بِنــــا أَرْحَبِيَّةٌ مَرَافِقُها مِنْ عَنْ كَرَاكِرِهَا نُكْبُ[1]

فقولُ : « مِنْ عَنْ كراكِرِها » من الكلامِ المتعاظِلِ الّذي يثقل النطقُ به .

(١) ديوان أبي تمام ٣٠ من قصيدة في مدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ، ومطلعها :
لقد أخذت من دار ماوية الحقب أنحل المغانى للبلى هى أم نهب
والأرحبية ناقة منسوبة إلى أرحب ، وهو فحل كريم ، كراكرها — جمع كركرة — رحى صدرها وخواصرها ، نكبٌ — جمع نكباء — مائلة .

على أنه قد وردتْ هاتان اللفظتانِ وهُما « من » و « عَن » فى موضعٍ آخر ، فلم يثقل النطقُ بهما ، كقول القائلِ : « مِنْ عَنْ يمينِ الطّريق» ، والسببُ فى ذلك أنّهما وردَتا فى بيتِ أبى تمّام مُضافَتينِ إلى لفظةِ « السكراكرِ » فثقّلَتْ منهما ، وجعلتْهما مكْروهتَين كما ترَى ، وإلاَّ فقد وَرَدَتا فى شعرِ قَطَرِيٍّ بنِ الفُجاءةِ[1] ، فكانَتا خَفيفتَين ، كقوله :

وَلَقَدْ أَرَانِي لِلرِّمَاحِ دَرِيئَةً مِنْ عَنْ يَمِينِي مَرَّةً وَأَمَامِي[2]

والأصلُ فى ذلك راجعٌ إلى السَّبك ، فإذا سُبِكتْ هاتانِ اللفظتانِ أو ما يجرى مجراهما مع ألفاظٍ تَسهُلُ منهما لم يكنْ بهما من ثِقَل كما جاءَتا فى بيتِ قَطَرِيّ ، وإذا سُبكتَا مَعَ ألفاظٍ تَثقلُ مِنْهُما جاءَتا كما جاءَتا فى بيتِ أبى تمّـام .

ومن هذا القسمِ قولُ أبى تمّامٍ أيضاً :

كَأَنَّهُ لاجْتِمَاعِ الرُّوحِ فِيهِ لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْ جِسْمِهِ رُوحُ[3]

فقولُه « فِى » بعدَ قولِهِ « فيه له » ممّا لاَ يَحسُن وُرُوده

---

(١) هو قطرى بن الفجاءة المازني ، من زعماء الخوارج الشعراء والخطباء ، قضى مدة طويلة فى حروب مع الأمويين ، حتى قتل بطبرستان سنة ٧٩ هـ .

(٢) الدريئة الحلقة يتعلم الطعن والرمى عليها ، والبيت من قصيدة مطلعها :

لا يركنن أحد إلى الإحجام يوم الوغى متخوفاً لحمام

(٣) ديوان أبي تمام ٧١ من قصيدة فى مدح أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى ، وأولها :

قل للأمير لقـد قلدتنى نعماً فت الثناء بهـا ما هبت الريح

وفى الديوان « فى اجتماع » موضع « لاجتماع » . والجارحة العضو .

وكذلكَ وردَ قولُ أبي الطيِّب المتنبّي :

وَتُسْعِدُني فِي غمرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ   سَبُوحٌ لَهَا مِنها عَلَيها شَوَاهِدُ[1]

فقوله « لها منها عليها » من الثَّقِيل الثَّقِيل الثَّقِيل !

وكذلك قولُه :

تَبِيتُ وُفُودُهُمْ تَسْرِي إِلَيْهِ   وَجَدْوَاه الَّتي سَأَلُوا اغْتِفَارُ

فَخَلَّفَهُمْ بِرَدِّ البِيضِ عَنْهُمْ   وَهَامُهُمُ لَهُ مَعَهُمْ مُعَـــارُ[2]

وقوله « وهَامُهُمُ لهُ مَعَهُمْ » مما يثقل النطقُ به ، ويتعثَّر اللسانُ فيه ، لـكنّه أقربُ حالاً من الأول .

ومن الحَسَنِ في هذا الموضع قول أبي تمام :

دَارٌ أُجِلُّ الهوَى عن أنْ أُلِمَّ بها   فِي الرَّكْبِ إلاَّ وَعَيْنِي مِنْ مَنَائِحِها[3]

فقوله : « عَنْ أَنْ » في هذا البيت من الخفيف الحَسَن الذي لا بأس به .

---

(١) ديوان المتنبي ١/٢٧٠ من قصيدة أولها :

عواذل ذات الخال فيّ حواسد   وإن ضجيع الخود مِنّي لماجد

والغمرة الشدة ، والسبوح الفرس الشديد الجرى .

(٢) ديوان المتنبي ٢/١٠٠ من قصيدة قالها لما أوقع سيف الدولة ببني عقيل وقشير وبني العجلان وبني كلاب ، حين عاثوا في عمله ، وخالفوا عليه ، ويذكر إجفالهم بين يديه ، وظفره بهم ، وأولها :

طوال قنا تطاعنها قصار   وقطرك في ندى ووغى بحار

ومعنى البيتين : أنهم وفدوا عليه لم يطلبوا منه شيئاً سوى العفو عنهم ، وأنه استبقاهم برد سيوفه عنهم ، وجعل رءوسهم معهم عارية متى شاء أخذها .

(٣) ديوان أبي تمام ٧٢ من قصيدة في مدح الفضل بن صالح الهاشمي مطلعها :

أهدى الدموع إلى دار وما مَنحها   فالمنازل سهم من سوانحها

وما منحها دارسها ، وسوانحها سوانحها ، وألم أنزل ، ومنائحها عطاياها .

القسم الثاني من المماثلة اللفظية:

تختصُّ بتكريرِ الحروفِ ، وليس ذلكَ مما يتعلّق بتكريرِ الألفاظِ ولا بتكريرِ المعاني – مما يأتي ذكرُه في باب التكرير في المقالة الثانية – وإنّما هو تكريرُ حرفٍ واحدٍ أو حرفين في كل لفظةٍ من ألفاظِ الكلامِ المنثورِ أو المنظومِ ، فيثقلُ حينئذٍ النُّطقُ به ، فمن ذلك قولُ بعضِهم :

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ ... وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ[1]

فهذهِ القافاتُ والرَّاءاتُ كأنها في تتابُعِها سِلْسِلَة ، ولا خفاء بما في ذلكَ من الثِّقل ، وكذا وَرَدَ قولُ الحريريِّ في مقاماته :

وَازْوَرَّ مَنْ كانَ لَهُ زَائِرًا ... وَعَافَ عافِي الْعُرْفِ عِرْفَانَهُ[2]

فقولُه « وعافَ عافِي العُرف عرفانه » من التكريرِ المشارِ إليه

وكذلكَ وَرَدَ قولُه أيضاً في رِسَالتَيْهِ اللتين صاغهما على حَرْفِي السِّين[3] والشِّين[4] ، فإنّه أتى في إحداهما بالسِّين في كلِّ لفظةٍ من ألفاظها ، وأتى في الأخرى بالشِّين في كلِّ لفظٍ من ألفاظِها ، فجاءتا كأنهما رُقى العَقَارِب ، أو خُذْرُوفَةُ التَّرَاجِمِ ، وما أعلمُ كيفَ خفيَ ما فيهما من القُبح على مثل الحريريِّ مع معرفتِه بالجيِّد والرَّدِيء من الكلامِ ؟

---

(١) ذكروا أنه من شعر الجن ، وأنه لايتهيأ لأحد أن ينشده ثلاث مرات فلا يتتعتع ، وذكروا أن جنيا صاح على حرب بن أمية فمات في فلاة ، ويسمى نوع هذا الجنى هاتفا .

(٢) مقامات الحريرى ٣٦٥ من المقامة التفليسية ، وازور مال وأعرض ، وعاف استقذر ، والعافى طالب العطاء .

(٣) الرسالة السينية : مقامات الحريرى ٦٠٣ .

(٤) الرسالة الشينية : مقامات الحريرى ٦٠٧ .

ويحكى عن بعضِ الوُعَّاظ أنَّه قال فِي جملةِ كلامٍ أورده : « جَنَى جَنَّاتِهِ وَجَنَاتِ الْحَبِيب » فصاحَ رجلٌ من الحاضرينَ فى المجلسِ ، وَمَادَ وتغاشَى ، فقالَ له رجلٌ كانَ إلى جانِبه : ما الَّذى سمعْتَ حتى حدثَ بك هذا ؟ فقال : «سمعتُ جيماً فى جيمٍ فى جيمٍ ، فصحْتُ » ! ! ،

وهذا من أقبحِ عُيوب الألفاظِ .

ومِمَّا جاء منه قولُ أبى الطيِّبِ المتنبىِّ فى قصيدتِهِ الَّتى مَطْلَعُها :

* أتُرَاهَـا لـكثرةِ العُشَّاقِ[1] *

كَيْفَ تَرْثِى الَّتى تَرَى كُلَّ جَفْنٍ رَاءَهَا غَيْرَ جَفْنِها غَـيْرَ رَاقِ[2]

وهذا وأمثالُه إنَّما يَعرِضُ لقائله فى نَوْبَةِ الصَّرَعِ التى تنوبُ فى بعضِ الأيامِ !

ومن هذا القسمِ قولُ الشاعرِ المعروفِ بكُشَاجِمٍ[3] فى قصيدته التى مطلعها :

* دَاوِ خُمَارِى بـكأسِ خمرٍ *

والزَّهرُ والقَطْرُ فِى رُبَاهَا مَا بَيْنَ نَظمٍ وَبَيْنَ نَثْرِ
حَدَائِقٌ كَفُّ كُلِّ رِيحٍ حَلَّ بِهَا خَيْطَ كُلِّ قَطْرِ

وهذا البيتُ يحتاجُ الناطقُ به إلى بِرْكارٍ يضعُه فى شِدْقه ، حتّى يديره له .

---

(١) وعجز البيت : * تحسب الدمع خلقة فى المآقى *
وهى فى مدح أبى العشائر الحسين بن على بن حمدان .

(٢) ديوان المتنبى ٢/٣٦٢ — راءها : رآها ، والمعنى هذه المحبوبة لا ترحم باكياً ، وكيف ترحمه وهى ترى كل جفن من النظر إلا جفنها غير راق بالبكاء ، يريد غير منقطع من البكاء ، فهى لا ترحم أحداً ، لأنها تحسب الدمع فى أجفان العشاق خلقة .

(٣) كشاجم هو محمود بن الحسين الكاتب الشاعر ، أحد وصافى الطبيعة ، وكان من خدام سيف الدولة ، توفى سنة ٣٢٠ هـ .

وعلى هذا الاسلوبِ وردَ قولُ بعضهم ، وهو البيتُ المشهورُ الذى يتذاكرُ الناسُ :

مَلِلْتُ مِطَالَ مَوْلُودٍ مُفدى   مَلِيح مَانِع مِنِّى مُرَادِى

وهذه الميماتُ كأنَّها عُقَد متّصلة بعضُها ببعضٍ .

وَكان بعضُ أهلِ الأدبِ من أهلِ مصرِنا هذا يستعملُ هذا القِسْمَ فى ألفاظِه كثيراً فى كلامِه نثراً ونظماً ، وذلك لعدمِ معرفته بسُلُوكِ الطَّريق . وأنا أذكُرُ نبذةً مِنْ ذلك كقولِه فى وصف رجُلٍ سخىّ : « أنتَ المَدِيح ، كبداً تُرِيحُ ، والمليحُ إنْ تجَهَّمَ المليحُ بالتَّكْلِيح ، عند سائلٍ تلُوح ، بَل يفُوقُ إذْ يروقُ مَرْأَى لوح ، يا مغبوقَ كأسِ الحدِ يا مصبوحَ ، ضاقَ عن نَدَاكَ اللَّوح ، وببابِكَ المفتوح تستريحُ ، وتُرِيح ذا التَّبْرِيح ، وترفَّه الطليح » .

فانظرْ إلى حرفِ الحاء ، كيفَ قد لَزِمَهُ فى كلِّ لفظةٍ من هذه الألفاظِ ، فجاء كما تراهُ من الثِّقل والغثاثة ؟

واعلمْ أنَّ العرَب الذين هم الأصلُ فى هذه اللغةِ قد عَدَلُوا عن تكريرِ الحروف فى كثيرٍ من كلامهم ، وذاكَ أنَّه إذا تكرَّر الحرْفُ عندهم أدْغموه استحساناً ، فقالوا فى « جَعَلَ لَكَ » ، « جَعَلّكَ » وفى « تَضرِبُونَنِى » « تَضرِبُونِّى » . وكذلك قالوا « استَعَد فلانٌ للأمر » ، إذا تأهَّب له ، والأصلُ فيه « اسْتَعْدَدَ » ، و« استتب الأمر » إذا تهَيأَ ، والأصلُ فيه « اسْتَتْبَبَ » . وأشباهُ ذلك كثيرٌ فى كلامِهم ، حتى أنهم لشدَّة كراهتهم لتكريرِ الحروفِ أبدلُوا أحد الحَرْفينِ المكرَّرَين حرفاً آخر غيرَه ، فقالوا : « أمليْتُ الكتابَ »

والأصلُ فيه « أمْلَلتُ » ، فأبدَلُوا اللامَ ياء ، طلباً للخِفّة ، وفِراراً من الثقل وإذا كانوا قد فعلُوا ذلِكَ في اللَّفظةِ الواحدة فما ظَنُّك بالألفاظِ الكثيرةِ الّتي يَتْبَعُ بعضُها بعضاً ؟ .

القسم الثالث من المماثلة :

أنْ تَرِدَ ألفاظٌ على صِيغَة الفِعْل يتبعُ بعضُها بعضاً .

فِيها ما يختلفُ بين ماضٍ ومُستقبلٍ ، وَمنها مالا يَخْتَلف .

فالأول : كقولِ القاضِي الأرّجاني[1] في أبياتٍ يَصِفُ فيها الشمعة ، وفيها معنًى قوله مُبْتَدَع ، ولم يُسْمَعْ من غيرهِ ، وذلك أنّه قال عن لسانِ الشّمع : إنّه ألِفَ العَسَل وَهُو أخوه الّذي رُبِّيَ معه في بيتٍ واحدٍ ، وإنّ النارَ فرَّقَتْ بينَه وبينه ، وأنّه نَذَرَ أنْ يَقتُل نفسه بالنارِ أيضاً من ألَمِ الفِرَاق ، إلاّ أنّه أساء العبارة ، فقال :

بِالنَّارِ فَرَّقَتِ الحوادثُ بَيْنَنا ... وَبِها نَذَرْتُ أعُودُ أقتُلُ رُوحِي

فقوله : « نذرت أعودُ [أقتُلُ] » من المماثلةِ إليها .

وأمّا ما يرِدُ على نهجٍ واحدٍ من الصّيغة الفعليّة ، فكقولِ أبي الطيّبِ المتنبي :

---

(١) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني ، الملقب ناصح الدين ، كان قاضي تستر وعسكر مكرم ، وله شعر رائق في نهاية الحسن ، ذكره العماد الكاتب في الخريدة ، فقال : كان الأرجاني في عنفوان عمره بالمدرسة النظامية بأصبهان ، وشعره من آخر عهد نظام الملك منذ سنة نيف وثمانين وأربعمائة إلى آخر عهده وهو سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، ولم يزل نائب القاضي بعسكر مكرم وهو مبجل مكرم ، وشعره كثير ، والذي جمع منه لا يكون عشره .

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ احْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ زِدْ هَشَّ بَشَّ تفضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ (١)

فهذهِ ألفاظٌ جاءتْ على صِيغةٍ واحدةٍ ، وهى صيغة الأمر ، كأنَّه قال : « افْعل ، افْعل . . . هكذا إلى آخر البيت » وهذا تكريرٌ للصيغة ، وإن لم يكن تكريرًا للحروفُ ، إلاَّ أنَّه أخُوه ، ولا أقولُ ابن عَمِّه .

وهذه ألفاظٌ متراكِّبةٌ متداخلةٌ ، ولو عَطَفها بالواو لكانتْ أقربَ حالاً كما قالَ عَبدُ السَّلام بن رَغبان (٢) :

فَسَدَ الناسُ فاطلب الرِّزقَ بالسَّيْـ ـفِ وَإلاَّ فَمُتْ شَدِيدَ الهُزَالِ
أحلُ وامرُرْ وضرَّ وانفَعْ وَلِنْ وَاخْـ ـشُنْ وأَبرِزْ ثمَّ انتَدِبْ لِلمعالِى

ألاَ تَرى أنَّه لمَّا عطف هاهنا بالواو لم تتراكبِ الألفاظُ كتراكبها فى بيتِ أبى الطيِّب المتقدِّم ذِكْرُه ؟

فإن قيلَ : إنَّك جعلتَ ما كانَ وَارِدًا على صيغَةٍ واحدةٍ على سبيل التكرارِ مُعاظلةً ، وقدْ وَرَدَ ذلِكَ فى القرآنِ الكريم ، كقوله تعالى : « فإذا

---

(١) ديوان المتنبى ٣/٨٥ من قصيدة مطلعها :

أجاب دمعى وما الداعى سوى طلل دعا فلبّاه قبل الركب والإبل

وقد أمره بأربعة عشر أمراً فى بيت واحد « أقل » من الإقالة ، يقال أقلته من عثرته ، و « أنل » من الإنالة ، و « أقطع » من الإقطاع ، و « احمل » من قولهم : حملته على فرس ، وقوله « علّ » من العلو والرفعة ، و « سلّ » من السلوّ ، و « أعد » من الإعادة ، و « زد » من الزيادة ، و « هش » من قولهم : هششت إلى كذا ، وهو التهلل نحو الشىء ، و « بش » من البشاشة وهى الطلاقة ، و « تفضل » من الإفضال ، و « أدن » من الدنو ، و « سر » من السرور ، و « صل » من الصلة ، وهى العطية .

(٢) هو المعروف بديك الجن الحمصى .

انسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المشرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُم وَخُذُوهُمْ واحْصُرُوهُمْ واقْعُدُوا لَهُمْ كلَّ مَرْصَدٍ[1] » ولو كانَ مُعاظَلَةً لَمَا وَرَدَ في القرآنِ الكريمِ مِثْلُه ؟ !

فالجوابُ عن ذلك أنّي أقولُ : هذه الآيةُ ليستْ كالذى أنكرْتُه ، فإنَّ هذا الموضِعَ ينظر فيه إلى الكثيرِ والقليلِ ، فإذا كَثُر كان تعاظُلاً ، لتراكُبِه وثِقَلِه على النطق ، وقد عرَّفتُك أنَّ ما يُفْصَلُ بين صِيَغِهِ بواو العطفِ يكون أقلَّ ثقلا ممَّا لا يُفْصَل . والَّذى أنكرتُه من ذلك هو أنْ تأْتِيَ ألفاظٌ مكَرَّرةٌ على صيغةٍ واحدةٍ ، كأنَّها عُقَدٌ متَّصلة ، فحينئذ يَثْقلُ النطقُ بها ، ويُكْرَه موقِعُها من السَّمع ، كبيتِ أبى الطيِّبِ المتنبِّى .

وأمَّا هذه الآيةُ المشارُ إليها فإنَّها خارجةٌ عن هذا الحكْم .

ألاَ تَرَى أنَّها لمَّا وردتْ ألفاظُها على صيغةٍ واحدة فُرِّق بينها بواو العطف ثمَّ مع التفريق بينَها بواو العطف لم يَرِدِ التكريرُ فيها إلا بين ثِنْتَيْن ، وهما « خذُوهم » « واحْصُرُوهم » .

وأما الصيغة الأولى فإنها أُضيف إليها كلام آخر ، فقيل : « اقتلوا المشركين حيثُ وجدتموهم » ولم يقل : اقتلوا المشركين وخُذُوهم . ثم لما جاءتِ الصيغةُ الرَّابعةُ أُضِيفَ إليها كلامٌ آخر أيضاً ، فقيل « واقعدُوا لهمْ كلَّ مَرْصَدٍ » .

لا جَرَمَ أن الآيةَ جاءتْ غيرَ ثَقِيلةٍ على النُّطقِ مع توارُدِ صِيغَةِ الأمرِ فيها أَرْبَعَ مِرَار .

---

(١) سورة التوبة : الآية ٥ .

وَهذِه رُمُوزٌ يَنبغى أن يُتَنَبَّهَ لها فى استعمالِ الألفاظِ إذا جاءتْ هكذا .

القسم الرابع من المعاظلة :

وهو الذى يتضمَّن مُضافاتٍ كثيرة ، كقولهم : « مَرْجُ فَرَسِ غُلامِ زَيْدٍ »
وإن زِيدَ على ذلك قيل : « لِبْدُ مَرْجِ فَرَسِ غُلامِ زَيْدٍ » وهذا أشدُّ قُبْحًا وأثقلُ على اللسان . وعليه ورد قولُ ابن بَابك[1] الشاعر فى مفتتح قصيدةٍ له :

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ الجَنْدلِ اسْجَعِى   فَأَنْتِ بِمَرْأًى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ

القسم الخامس من المعاظلة :

أن تَرِدَ صِفاتٌ متعدِّدةٌ على نحوٍ واحدٍ ، كقولِ أبى تمّام فى قصيدته التى مطلعُها :

* ما لِكَثِيبِ الحِمَى إلى عَقَدِه[2] *

فقال يصف جملا :

سأَخرِقُ الخَرْقَ بِابْنِ خَرْقَاءَ كالهيـ   ـقِ إذَا ما اسْتَحَمَّ مِنْ نَجَدِهْ[3]
مُقَابَلٌ فى الجَدِيلِ صُلْبُ القَرَا   لوحُـــكٌ من عَجْبِهِ إلى كَتَدِهْ[4]
تَامِكِهِ نَهْدِهِ مُــــدَاخَلِهِ   مَلْمُومِهِ مُحْزَئِلِّهِ أُجُــــدِهْ[5]

---

(١) هو أبو القاسم عبد الصمد بن بابك ، ذكره الثعالبى فى اليتيمة ٣/٣٧٤ فى جملة الشعراء الطارئين على الصاحب من الآفاق ، وقال فى نعته : شاعر شعاره إحسان السبك وإحكام الرصف ، وإبداع الوصف ، يشبه كلامه مرة فى الجزالة والفصاحة كلام المفلقين من الشعراء المتقدمين ، ويناسب تارة فى الرشاقة والملاحة قول المجيدين من المحدثين والمولدين .

(٢) ديوان أبى تمام ٩١ ، وهو مطلع قصيدة فى مدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، وعجز البيت :

* ما بال جرعائه إلى جــرده *

والكثيب تل الرمل ، والعقد الرمل المنعقد ، والجرعاء الوعر يعلوه رمل ، والجرد سهل بلا نبات .

(٣) الخرق الفلاة ، الخرقاء الناقة ، الهيق ذكر النعام ، النجد العرق .

(٤) الجديل المقود المجدول ، القرا الظهر ، العجب أصل الذنب ، الكتد مجتمع الكتفين .

(٥) تامكه حدبته ، نهده نديه ، محزئله مرتفع سيره ، أجده فقارظهره .

فالبيتُ الثالثُ من المعاظلةِ التى قلْعُ الأسنانِ دُونَ إيرَادِها .

وكذلك قالَ من هذه القصيدةِ يصفُ رُمحًا :

وَمَرَّ تهفْــــو ذُؤَابَتَاهُ عَلَى أَسْمَرٍ مَتْنٍ يَوْمَ الْوَغَى جَسِدِهْ[1]
مَارِنِهِ لَدْنــــهِ مُثَقَّفِهِ عِرَاضِــــهِ فى الأَكُفِّ مُطَّرِدِهْ[2]

وهذا كالأوَّل فى قبْحه وثِقله ، قاتَلَه اللهُ ! ما أمتن شِعْرَه ! وما أسْخَنَهُ فى بعضِ الأحوال !

وعلى هذا جاءهُ من هذه القصيدةِ أيضاً يَصِفُ الممدوح :

إِلَيْكَ عَنْ سَيْلِ عَارِضٍ خَضِلِ الـ شُؤْبُوبِ يَأْتِى الْحِمَامُ مِنْ نَضَدِهْ[3]
مُسِفِّهِ ثَرِّهِ مُسَــــحْسِحِه وَابِلِهِ مُسْــــتَهِلِّهِ جَرَدِهْ[4]

وَلو لم يكنْ لأبى تمّامٍ من القبيحِ الشنيعِ إلاَّ هذه الأَبياتُ لحطَّت من قَدْرِه .

وعلى هذا وردَ قولُ أبى الطيبِّ المتنبى[5] :

دَانٍ ، بَعِيدٍ ، مُحِبٍّ ، مُبْغِضٍ ، بَهِجٍ أَغَرَّ ، حُلْوٍ ، مُمِرٍّ ، لَيِّنٍ ، شَرِسِ[6]

---

(١) تهفو تخفق ، الذوابة ضفيرة الشعر المرسلة ، الجسد المصبوغ بالجسد وهو الزعفران .

(٢) المارن الصلب اللين ، اللدن اللين ، المثقف المقوم ، عراضه صفحته ، مطرده يقال : رمح مطرد الأنابيب ، أى متناسقها .

(٣) العارض السحاب ، الخضل الندى ، الشؤبوب المطر ، الحمام الموت ، النضد المتراكم .

(٤) المسف القريب من الأرض ، الثر الكثير الماء ، المسحسح السائل من فوق ، الوابل الشديد ، المستهل المتلألىء .

(٥) ديوانه ٢/١٨٩ من قصيدة فى مدح عبيد الله بن خراسان الطرابلسى ، ومطلعها :
أظبية الوحش لولا ظبية الأنس لما غدوت بجد فى الهوى تعس

(٦) البهج الفرح ، والشرس هنا الصعب . ومعنى البيت : هو قريب ممن يقصده ، بعيد ممن ينازعه ، محب للفضل وأهله ، مبغض للنقص وأهله ، بهج بالقصاد ، حلو لأوليائه ، مر على أعدائه ، لين حسن الخلق على الأولياء ، شرس صعب على الأعداء . يريد أنه جامع لهذه الأوصاف . هكذا قال أبو الفتح بن جنى ، ونقله الواحدى حرفاً حرفاً ، وانظر البيتين فى شرح الديوان .

نَدٍ ، أَبِىٍّ ، غَرٍ ، وافٍ ، أَخِى ثِقَةٍ   جَعْدٍ، سَرِىٍّ، نَهٍ، نَدْبٍ، رِضًى، نَدُسٍ (١)

وَهَذَا كأنه سلسلةٌ بلا شكٍّ ، وقليلاً ما يُوجَدُ فى أشعارِ الشعراء ، ولم أَجِدْه كثيراً إلاَّ فى شِعْرِ الفَرَزْدق ، وتلكَ مُعَاظَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ ، وسيأتِى بيانُها فى بابِها ، وهذه مُعَاظَلَةٌ لَفْظِيَّةٌ ، وهى توجَدُ فِى شعر أَبِى الطَّيِّبِ كثيراً .

النوع الثامن

فى المنافرة بين الألفاظ فى السبك

وهذا النَّوع لم يحقِّق أحدٌ من علماءِ البيان القولَ فيه ، وغايةَ ما يُقالُ أَنَّهُ ينْبَغِى أَلاَّ تكونَ الألفاظُ نافرةً عن مواضِعها ، ثم يُكتَفَى بهذا القولِ ، من غيرِ بيانٍ ولاَ تفصيلٍ ، حتَّى أنَّه قد خُلِطَ هذا النَّوع بالمُعَاظَلة ؛ وكلٌّ منهما نَوْعٌ مفردٌ برأسِه ، له حقيقةٌ تخصُّه ، إلاَّ أنَّهما قد اشْتَبَها على علماء البيانِ ، فكيفَ على جاهلٍ لا يعلَمُ ؟ ! .

وَقدْ بَيَّنْتُ هذا النوعَ ، وفَصَلْتُه عن المعاظلةِ ، وضربتُ له أمثلةً يُسْتَدَلُّ بها على أخواتها ، وما يجرِى مجراها .

وجملةُ الأمرِ أنَّ مدار سبكِ الألفاظِ على هذا النَّوع والَّذى قبلَه دُونَ غيرِهما من تلك الأنواعِ المذكورةِ ، لأنَّ هذينِ النَّوعين أصْلاَ سَبْك الألفاظِ ، وما عداهما فَرْعٌ عليهما . وإذا لم يكن الناثرُ أو الناظمُ عارفاً بهما فإنَّ مقاتِلَه تبدُو كثيراً .

---

(١) ند جواد ، يريد ندى الكف ، والأبى الذى يأبى الدنايا ، غر أى مغرى بفعل الجميل جعد ماض فى الأمر ، والسرى الشريف ، ونه أى ذو نهية وهى العقل ، والندب السريع فى الأمر إذا ندب إليه ، والندس العارف بالأمور البحاث عنها ، وهو بضم الدال وكسرها .

وحقيقةُ هذا النوعِ الذي هو (المنافرة) أن يُذْكر لفظ أو ألفاظ يكونُ غيرُها مِمَّا هو فى معناها أَوْلَى بالذِّكْر .

وعلى هذا فإنَّ الفرق بينَه وبين المعاظلة أنَّ المعاظلةَ هى التراكبُ والتداخُل إمَّا فى الألفاظ أو فى المعانِى ، على ما أشرْتُ إليه ، وهذا النوعُ لا تراكُبَ فِيه ، وإنَّما هو إيرادُ ألفاظٍ غيرِ لائقةٍ بموضِعِها الذى تَرِدُ فيه

وهو ينقسمُ قِسْمَين :

أحدهما : يُوجَدُ فى اللفظة الواحدة ، والآخرُ : فى الألفاظِ المتعدِّدة .

فأمَّا الذى يوجدُ فى اللفظةِ الواحِدة فإنَّهُ إذا ورَد فى الكلامِ أمكنَ تَبْديلُه بغيره ممَّا هو فى معناه ، سواءٌ كان ذلك الكلامُ نثراً أو نظماً .

وأمَّا الذى يوجدُ فى الألفاظِ المتعدِّدة فإنَّه لا يمكنُ تبديلُه بغيره فى الشعر ، بل يمكن ذلك فى النثر خاصة ، لأنه يعسر فى الشعر من أجْل الوزن .

فمَّا جاء من القسم الأوَّلِ قولُ أبى الطيِّب المتنبِّى :

فلا يُبْرَمُ الأمرُ الذى هوَ حالِلٌ ... ولا يُحْلَل الأمرُ الذى هو يُبْرَمُ[1]

فلفظة « حالل » نافرة عن موضعها ، وكانت له مندوحة عنها ، لأنه لو استعمل عوضاً عنها لفظة « ناقض » ، فقال :

فَلاَ يُبْرَمُ الأمرُ الَّذِى هُوَ نَاقِضٌ ... وَلاَ يُنقَضُ الأمرُ الَّذِى هُوَ يُبْرَمُ

(١) ديوان المتنبى ٤/٨٥ من قصيدة فى مدح عمر بن سليمان الشرابى ، ومطلعها :

نرى عظما بالبين والصد أعظم ... ونتهم الواشين والدمع منهم

رواية الديوان : « ولا يبرم » موضع « فلا يبرم » و « مبرم » موضع « يبرم » .

لجاءتِ اللفظةُ قارّةً فى مكانِها ، غيرَ قَلِقةٍ ولا نافرةٍ .

وبلغني عنْ أبي العَلاءِ بن سليمانَ المعرّى أنّه كانَ يتعصَّب لأبى الطيِّب ، حتى أنه كان يُسمِّيه « الشاعر » ويسمّى غيره من الشعراءِ باسمه ، وكانَ يقولُ : ليسَ فى شعرِه لفظةٌ يُمكنُ أن يَقومَ عنها ماهو فى معناها ، فيجىء حسناً مثلها !

فياليتَ شِعْرى أمَا وقفَ على هذا البيتِ المشَار إليه ! ؟ لـكنَّ الهَوى كما يُقَال أعْمى ، وكانَ أبو العلاءِ أعْمى العَيْنِ خِلْقةً ، وأعْماهَا عَصبيَّةً ، فاجتمع له العَمى من جِهتيْن .

وهذه اللفظةُ التى هى « حَالِل » وما يَجرِى مجراها قبيحةُ الاستعمالِ ، وهى فكُّ الإدغامِ فى الفعلِ الثُّلاثى ، ونقلُهُ إلى اسم الفاعل . وعلى هذا فلا يحسُنُ أن يقالَ : بلَّ الثَّوب ، فهو بَالِل ، ولا سَلَّ السَّيْفَ ، فهو سَالِل ، ولا أنْ يقالَ : همَّ بالأمرِ ، فهو هَامِم ، ولا خَطَّ الـكتابَ ، فهو خَاطط ، ولا حَنَّ إلَى كذا ، فَهوَ حَانِن ! !

وهذا لوْ عُرِضَ عَلى مَنْ لا ذوقَ له لأَدْرَكَه وفَهِمَهُ ، فـكيفَ مَنْ له ذوقٌ صحيحٌ كأبِى الطَّيِّب ؟ لـكنْ لا بُدَّ لِـكُلِّ جَوادٍ من كَبوَة ! .

وأنشد بعض الأدباء بيتاً لِدِعْبِل[1] ، وهو :

شَفيعَكَ فَاشْـكُرْ فِى الحوائِج إنّهُ يَصُونكَ َنْ مَـكْرُوهِهَا وَهوَ يَخْلَقُ

(١) هو دعبل بن على بن رزين ، يمنى من خزاعة ، نشأ بالـكوفة متعصبا لقومه على العدنانية ، هجاء ، خبيث اللسان ، لا يسلم منه كبير ولا صغير حتى الخلفاء ، فعاش مكروها مرهوبا حتى توفى سنة ٢٤٦هـ ، وشعره من النوع المطبوع ذى الأسلوب القوى ، لتأثره بنزعته الجريئة فى وجه الدولة ، وبتعصبه للطالبيين ، وبميله إلى الإرهاب والتخريف ، ويغلب على شعره الهجاء والمديح .

(٢) الموازنة ٥٩ والصناعتين ٢١٣ وقبل هذا البيت :

وإن امرأ أسدى إلى بشافع إليه ويرجو الشكر منى لأحمق

فقلتُ له: عَجُزُ هذا البيت حَسَن ، وأمّا صَدْرُهُ فقبيح ، لأنه سَبَكَهُ قَلِقاً نافِراً ، وتلكَ الفاء التي في قوله : « شَفِيعَكَ فاشْكُرْ » كأنَّها رُكْبَة البعير ، وهي في زيادتِها كزيادة الكَرِش !.

فقال: لهذه الفاء في كتاب الله أشباهٌ ، كقولِه تعالَى : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »[1] .

فقلتُ له : بيْن هذه الفاء وتلكَ الفاء فرقٌ ظاهرٌ يُدْرَك بالعِلْم أوّلاً ، وبالذَّوق ثانياً .

أمّا العلمُ : فإنّ الفاء في « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » هي الفاء العاطفةُ ، فإنّها واردةٌ بعدَ « قُمْ فَأَنْذِرْ » وهي مثل قولك « اِمْشِ فأَسْرِعْ » ، و « قُلْ فأَبْلِغْ » وليست الفاء الّتي في « شَفِيعَكَ فاشْكُرْ » كهذه الفاء ، لأنّ تلك زائدةٌ ، لا موضعَ لها ، ولو جاءتْ في السّورة كما جاءتْ في قولِ دِعْبِل — وَحَاشَ لِلّه من ذلك — لابْتُدِىء الكلامُ ، فقِيلَ : رَبَّكَ فكَبِّر وثِيَابَكَ فطَهِّر . لكنها لما جاءتْ بعد « قُمْ فأنذر » حَسُنَ ذكرها فيما يأتي بعدها من « وربك فكبر * وثيابك فطهر » .

وأمّا الذوقُ : فإنّه يَنْبُو عن الفاء الواردةِ في قول دِعْبِل ، ويستَثْقِلُها ، ولا يوجدُ ذلك في الفاء الواردةِ في السُّورة .

فلمّا سَمِعَ ما ذكرتُه أذْعَنَ بالتسليم .

---

(١) سورة المدثر : الآيات ١و٢و٣و٤

ومثلُ هذه الدقائقِ التي تردُ في الكلامِ نظماً كانَ أوْ نثراً لا يتفطَّنَ لها إلاَّ الراسخُ في علمِ الفصاحةِ والبلاغةِ !

ومن هذا القسمِ وَصْل همزةِ القَطْعِ ، وهو محسوبٌ من جائزاتِ الشِّعر التي لا تجوزُ في الكلامِ المنثورِ ، وكذلكَ قطعُ همزةِ الوصلِ ، لكنَّ وَصْلَ همزةِ القطْعِ أقبح ، لأنَّهُ أثقلُ على اللسانِ .

فمما وردَ من ذلكَ قولُ أبي تمَّام(1) :

فَرَانِي اللُّهَا وَالوُدَّ حَتَّى كأنَّمَا أفَادَ الْغِنَى مِنْ نائِلِي وفوائِدِي(2)

فأصْبَحَ يَلْقَانِي الزَّمانُ مِنْ أجْلِهِ بِإعْظَامِ مَوْلُودٍ وَرَأْفَةِ وَالِدِ(3)

فقوله « من أجله » وَصْلٌ لهمزةِ القطع .

وعليه وَرَدَ قول أبي الطيِّب المتنبِّي :

يُوَسِّطُهُ المَفاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ طِلاَبُ الطَّالِبِينَ لاَ الِانْتِظَارُ(4)

فقولهُ « لاَ الِانْتِظَارُ » كلامٌ نافرٌ عن موضعه .

ومِنْ هذَا القِسْمِ أنْ يُفرَّقَ بين الموصوفِ والصِّفة بضميرِ من تقدَّمَ ذِكرُه ، كقولِ البُحْتُرِيِّ :

---

(1) ديوان أبي تمام ١١٧ من قصيدة في مدح محمد بن الهيثم ؛ ومطلعها :

قفوا جددوا من عهدكم بالمعاهد وإن هي لم تسمع لنشدان ناشد

(2) فرانى أضافني ، واللها العطايا .

(3) رواية الديوان « لأجله » وعليها لا يكون في البيت موضع شاهد .

(4) ديوان المتنبي ٢/١١١ من قصيدة مطلعها :

طوال قناً تطاعنها قصار وقطرك في ندى ووغى بحار

وقال أبو الفتح بن جني : قلت لأبي الطيب عند قراءتي عليه ؟ كسر اللام من « الانتظار » جيد لسكونها وسكون النون . وقال علي بن حمزة : سألت أبا الطيب عن فتح اللام ، فقال : اجتمع ساكنان ، فحركت اللام بحركة ما قبلها ، وهي اللام من (لا) . ومعنى البيت : إنما ينزله المفاوز طلب أعدائه ، لا انتظار من يلحقه ويخافه ، وذلك أن الخائف ينزل المفاوز خوفاً ممن يلحقه ، وهذا ينزلها طلباً لمن يهرب منه إليها .

حَلَفْتُ لَهَا بِاللهِ يَوْمَ التَّفَرُّقِ ... وَبِالْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهَا الْمُتَعَلِّقِ (١)

تقديرُه « من قلبي المتعلِّق بها » فلما فَصَلَ بين الموصوفِ الذي هو « قلبي » والصفة التي هي « المتعلِّق » بالضمير الذي هو « بها » قَبُحَ ذلك ، ولو كانَ قال « من قلبٍ بها متعلِّق » لزالَ ذلك القُبح ، وذهبتْ تلك الهُجْنة .

ومن هذا القسمِ أيضاً أنْ تُزَادَ الألِفُ واللامُ فى اسم الفاعلِ ، ويقامَ الضميرُ فيه مقامَ المفعُولِ ، كقول أبى تمَّام :

فَلَوْ عَايَنْتَهُمْ وَالزَّائِرِيهِمْ ... لَمَا مِزْتَ الْبَعِيدَ مِنَ الْحَمِيمِ (٢)

فقوله « الزائرى » اسمُ فاعل ، وقوله « هم » الذى هو الضمير فى موضعِ المفعولِ ، تقديره « الزائرين أرضَهم ، أو دارَهم » ، أو « الزائرين إيَّاهم » فاستعمالُ هذا مع الألِف واللام قبيحٌ جداً ، وإذا حُذِفَتا زالَ ذلك القُبح . وقد استعمَلها الشعراء المتقدِّمون كثيراً .

ومما جاء من القسم الثانِى ـ الذى يُوجَد فى الألفاظِ المتعدِّدة ـ قولُ أبى الطيب أيضاً :

لَا خَلْقَ أَكْرَمُ مِنْكَ إِلَّا عَارِفٌ ... بِكَ رَاءَ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا (٣)

فإنَّ عَجُزَ هذا البيتِ نافرٌ عن مواضعه . وأمثالُ هذا فى الأشعار كثير .

---

(١) مطلع قصيدة فى مدح الفتح بن خاقان ، ديوان البحترى ١ ٤٨ .

(٢) ديوان أبي تمام ٢٨٩ من قصيدة فى مدح بنى عبد الكريم الطائيين ومطلعها :

أرامة كنت مألف كل ريم ... لو استمتعت بالأنس المقيم

ورواية الديوان : * فلو عاينتهم مع زائريهم * وعليها لايكون فى البيت موضع شاهد .

(٣) ديوان المتنبي ١/٢٣٢ من قصيدة فى مدح أبي أيوب أحمد بن عمران ، ومطلعها :

سرب محاسنه حرمت ذواتها ... دانى الصفات بعيد موصوفاتها

ورواية الديوان « لا خلق أسمح » و « راء » مقلوب « رأى » كما يقال « ناء » و « نأى » . ومعنى البيت : لا أحد أسمح منك إلا رجلا رآك فعرفك ، فلم يسألك بأن تهب له نفسك.

تم بحمد الله وحسن توفيقه طبع

القسم الأول

من كتاب « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر »

ويليه بعونه تعالى القسم الثانى

وأوله

المقالة الثانية : فى الصناعة المعنوية

استدراكات القسم الأول

وقعت فى هذا الجزء من المثل السائر بعض أخطاء الطباعة ، نذكر صواب أهمها فيما يأتى :

صفحة	سطر	الصواب
٣٥	٣	وزغبُ إليه .
٣٥	٨	وجلبُوا ذهباً ، وحطبُوا حطباً .
٣٧	١٢	ويسىء بالإحسان ظنا لا كمَنْ هو بابنه وبشعره مفتون (١)
٣٧	١٤	وليس له صاحب من الـكتب ، فيقال: إنه مفرد من بين أصحابه .
٣٨	٨	من هذه الطريق .
٣٩	١١	والحاسب يُسأل .
٤٠	١	والمراد بها أن يكون .
٤٠	٥	ومن هاهنا .
٤٢	٨	من مقامات الحريرى حجا .
٤٣	٦	لهذا الفن فيفتقر حينئذ .
٤٣	١٠	غير الوحشى .
٤٣	١٣	هذه الصناعة .
٤٥	١٣	لما علمنا غرضه منه .
٤٦	١٠	إن أبا الأسود دخل على زياد .
٤٨	١	واختلف البصريون والـكوفيون .
٤٨		هامش (٢) وهامش (٣) كل منهما موضع الآخر .
٥٠	٧	وهذه الحروف المذكورة ـ غير الألف ـ ليست ..
٥٠	١٠	فيحذف الألف التى هى حرف زائد
٥٠	١٤	كتكليفه علم مالا يعلمه .
٥١	١١	ويلزم مضارعُ «فَعَلَ» المعتلّ العين .
٥٥	١٢	المتَّصِفِين بصفة الفصاحة والبلاغة .
٥٦	١٣	إلى غير ما هو فى معناه .
٥٧	٢	لأنّا إذا قلنا .

(١) البيت لأبى تمام (ديوانه ٣١) وهو من قصيدة يمدح بها الواثق بالله ، ومطلعها :

وأبى المنازل إنها لشجون   وعلى العجومة إنها لتبين

صفحة	سطر	الصواب
٥٧	٥	زال ذلك الإبهام بأن نقول.
٥٧	١٤	اللفظ ، فقلنا : هذه كلمة شاعرة ،فهم منه القصيدة
٥٨	٦	أما البيان فقد وفى به الأسماء المتباينة .
٦٠	١	ثم لو سلمت إليك
٦٠	٣	وهذا لفظ مشترك
٦٣	٩	صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصاراً
٦٣	٣	ومنها أيام منافرة ، ومنها غير ذلك .
٦٥	٤	من مبدأ حاله ، فإن الأحوال تتنقّل تنقّل الأجساد
٦٥	٥	كما خَدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد
٦٦	١٢	غرُبات
٦٧	٧	لمّا حضر
٦٧	١٠	المُعوَّل
٦٧	١٢	وعجبت من عبد الرحيم .
٦٩	١	النبوىُّ
٦٩	٩	وإذا كان صاحب هذه .
٦٩	١٥	على بعضٍ
٧٠	٢	من الإمامة

صفحة	سطر	الصواب
٧٠	٤	والقضاة والمحتسبين
٧٢	١٢	مَرْضِىّ
٧٥	٩	تعدّى حدود .
٧٥	١٠	ومخالفةِ .
٧٦	١	اللفظ
٧٦	١٤	المعنى وضدّه
٧٨	٣	فإن نلت
٧٨	٨	وَصَلْتُ .
٧٩	٩	أكثرَ .
٨	٤	فقال الله تعالى حكاية عنه
٨٠	١١	عبادنا .
٨٤	٢	تلاقوا فى قتالهم
٨٤	١١	ونباهة
٨٨	٢	أو يراد به الجوارح
٩٠	٣	ووردناه
٩١	٦	يدل عليه لفظه .
٩٨	٩	سبق المشيبُ .. وطنَ النُّهى .
١٠١	٤	مَن تروّى .
١٠٢	٤	وهذا القول قد ورد
١٠٢	٦	عَيْنٍ
١٠٥	١	طلبة العِلم
١٠٨	٩	فإن المُرْفَ
١١٤	١٢	دون غيرها سبب ظهورها

صفحة	سطر	الصواب
١١٦	١٦	لفظة لفظة
١١٦	١٧	واضحة .
١١٨	٣	والسهب
١١٨	١٠	البلاغة .
١١٨	١٦	ويفرق بينها .
١١٩	١١	فذلك هو الذى
١٢٠	١	قُلِّد
١٢٦	١٣	وذلت
١٢٦	١٤	لما عانيت فى نيله
١٢٦	١٧	ممارسة
١٢٨	١	عرف حينئذ من أين
١٣١	٩	أذنٍ
٣٢	١٤	بضروب .
١٣٢	١٦	يكاد .
١٣٥	٣	فإنه يأبى به
١٣٦	٣	الحرب تعرد
١٣٦	٦	وَدُونَ
١٣٧	٠	أصل الفصاحة جلّ كلامهم
١٣٨	٣	وهو الشريف
١٣٩	١١	نهاية القوة الصالحة .
١٤٠	٥	وبحسن
١٤١	١	سمائها .
١٤١	١٠	لكان أحبه إليه ما يبذله
١٤١	١٢	رَغَّبَ العافين

صفحة	سطر	الصواب
١٤٢	١	مرّت .
١٤٢	٢	أزالت وألبسَتْ وبدّلَتْ
١٤٢	٣	فَمَلَّتْ .
١٤٢	٤	وبَعْد .
١٤٢	١١	ونفذت غَيْرَ مختضبة .
١٤٢	٢	فى القبضة
٤٣	١٤	رائقة .
١٤٤	٣	لم تنفصِلْ حمرة يومه
١٤٤	٦	كَتَّبْتَ .
١٤٧	١١	دنياه
١٤٨	١٧	عَلَيَّ .
٥٢	٥	أسطو .
١٥٢	٦	تَتِمَّ
١٥٤	١	أديم الليل .
١٥٤	١٠	لا لمعنى فى الأفعال .
١٥٦	١٤	الظباء
١٥٩	٤	أحلاف .
١٦١	١٤	بـ « الوشى ... » .
١٦٢	٤	ديباجة .
١٦٢	١١	أخذاً . أسنة
١٦٢	١٢	الأذان .
١٦٢	١٦	وقد علم .
١٦٤	١٢	زهرة الدنيا الناضرة .
٦٥	٨	ولم يبق منى إلا ذماء .

صفحة	سطر	الصواب
١٦٦	٧	يغض من نسق .
١٦٦	١٠	وَيُرَى .
١٦٦	١٢	ولقد خار اللهُ
١٩٦	٩	تعرق لهم جباههم
١٧١	٤	آتاه الله
١٧٣	٢	ولا الشفاهُ
١٧٤	٣	ممشوقة الصور فكلّ الناس .
١٧٦	١٨	أشقره
١٧٧	٦	بتبعة .
١٧٨	١٢	هذا المذهب .
١٧٨	١٥	قوارص
١٧٩	٥	على هذا المنهج .
١٨٢	١١	لأعطى كلا منها
١٨٢	١٦	وفيه معانى .
١٨٤	٧	وهذا الجنى .
١٨٧	٨	ومن ذلك ما ذكرته
١٨٩	٧	وأوتىَ .
١٩٠	١٥	ما يدخل
١٩١	١٨	هو من هناك
١٩٧	٩	يؤتى
٢١٠	٩	مع أختها المشاكلة لها .
٢١١	٥	طريقه .
٢٢١	١٠	مُسْتَحْسَناً
٢٢٢	١٨	غير شاذة .

صفحة	سطر	الصواب
٢٢٢	٢٠	الذى .
٢٢٣	٤	الشاذ النادر
٢٢٣	١٨	حكمةً وضع .
٢٢٥	١٦	حسنةً .
٢٢٦	٥	عن ذلك
٢٣٢	٦	ولفا نغمٌ
٢٣٢	٧	نهلٌ
٢٣٣	٨	من أفرٌ
٢٣٥	١٠	عشواء تالية غبساً
٢٣٥	١٢	وأنها غليظة .
٢٣٦	٥	اقشعرّ
٢٣٨	١٢	لا ترد فضيلة
٢٤٠	١	وذلك شيء
٢٤٠	١٨	ناعمات .
٢٤٢	٨	تقطعَ
٢٤٦	١٢	لرقته
٢٤٨	١١	يضع يده .
٢٥٧	١٥	العامة
٢٦١	١٠	ذِكرُهُ
٢٩٠	٣	يلزمه
٢٩٠	٥	يعمد
٣٠٢	١٥	والحسبة .
٣٢٣	١٣	ولفتك .
٣٣٢	٢	أو لأنه لم يتنبه له
٣٨٦	٨	ما ذبح الزق

فهرس الكتاب

القسم الأول

من كتاب « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر »

كتاب المثل السائر

الموضوع — الصفحة

المقالة الأولى

فى الصناعة اللفظية

القسم الأول : فى اللفظة المفردة

الموضوع — الصفحة

القسم الثانى : فى الألفاظ المركبة

مطبعة نهضة مصر
الفجالة - القاهرة

مطبعة نهضة مصر
الفجالة - القاهرة